ندره اليازجي

الأعمال الكاملة

دراسات في فلسفة المادة والروح

الثالث

دار الغربال



ندرة اليازجي

الأعمال الكاملة

الطبعة الأولى 1999

دار الغربال ــ دمشق ــ ص . ب 10268

مطبعة اليازجي ــ دمشق ــ هـ: 2311279

ندره اليازجي

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

المدأ الكلي

المادة والروح ـ تأليف جديد



الإهداء...

إلى زوجتي



المبدأ الكلي

لقاء الحكمة القديمة والعلم الحديث



تـوطئـة

يشهد الربع الأخير من القرن العشرين تحولاً يشير إلى تطور المفاهيم والتصورات التي تبناها الحكماء ـ العلماء في القرون الماضية.

تعالج الدراسات المتضمنة في هذا الكتاب التحول الطارئ الذي هو حصيلة تطور الفيزياء الحديثة المنبثقة من المنظور الكوانتي ـ النسبي.

توفِّق هذه الدراسات بين التصورات العلمية الحديثة المتطورة وبين الحكمة القديمة.

وتخلص هذه الدراسات إلى نتيجة هامة هي أن العلم الحديث ـ ويجدر بنا أن نقول إن غالبية العلماء المحدثين ـ يتجه أو يتجهون، في محاولة فهم العالم، إلى اعتناق مبدأ الكلية، وإحلال الديناميكية محل المكانيكية، والتكامل محل التجزئة، وإقامة الدليل على الوحدة ـ في ـ التنوع.

ندره اليازجي



مقدمة

يشير ما جاء في هذا الكتاب إلى أن الكون نسيج واحد متداخل خيوط الحياكة. وهو، كما يحدثنا أنصار النظرية الديناميكية، جسد واحد له نفس واحدة تنبض بالحياة. أو هو، كما يذكر المنادون بالمبدأ الكلي، أشبه بفكرة عظمى منه بآلة ضخمة.

تلكم هي الأطروحة الماثلة في هذا الكتاب.

في سبيل إقامة الدليل على هذه الوحدة ــ الخلفية التي تلحم أجزاء الكون بكاملها، عمدت إلى استقصاء هذه الكلية الشاملة في موضوعات عديدة أستشف منها معالم التكاملية في الإنسان والمجتمع والطبيعة والكون. وفي هذا الاستقصاء، ركزت بحثي ودعمته بما اقتبست من الآراء والنظريات التي صدرت عن المعاصرين من العلماء والفلاسفة.

في الفصل الأول، أقمت مقارنة بين الحكمة القديمة والفيزياء الحديثة، وبرهنت على التكامل والتوافق بينهما، في موقفهما من المادة، والحياة والكون. فالأشياء كلها تنسجم في وحدة متداخلة الصلة، متبادلة العلاقة، بحيث أنه لا يمكننا إدراكها على هيئة كيانات أو وجودات معزولة، بل كأجزاء متكاملة للكل الواحد. وفي هذه الوحدة الكلية، يتقلص التناقض بين الأضداد، ويحل محله توافق الأضداد واتكالها على بعضها، بحيث يتحقق التوازن بين التعارضات. وعلى هذا الأساس. يعترف الحكماء والعلماء بفردية الأشياء، ويدركون أن الفروق والتمايزات والتباينات نسبية ضمن الوحدة الشاملة.

في الفصل الثاني والثالث والرابع، يتراءى لنا المبدأ الكلي في تطبيقاته في نطاق الإنسان والمجتمع. فالعلماء، مثلهم مثل الحكماء، يعالجون التكاملية القائمة في الإنسان ويعارضون تقسيم هذا المبدأ الكلي أو تجزئته إلى كيانات مستقلة أو متناقضة، ويرفضون تقليصه إلى «كتل بناء أساسية». وبالإضافة إلى هذه التكاملية الكائنة في الإنسان والطبيعة، يحاول العلماء ــ الحكماء إضفاء صفة التكاملية على أنواع التفاعلات الاجتماعية والمؤسسات الاقتصادية والنظم القائمة.

في هذه الفصول الثلاثة، يطرح كل من العلم الحديث والحكمة القديمة مبدأ

الديناميكية ويحلاّنه محل المبدأ الكانيكي. وعلى هذا الأساس، يطبق العلماء الذين يأخذون بهذا الرأي مبدأ الديناميكية فيرون في المجتمع وحدات أو مجموعات متكاملة في نطاق المادة. لذا، كان الكون والمجتمع والإنسان نسيجاً ديناميكياً من الأحداث المتداخلة العلاقة.

في الفصل الخامس، أقمت مقارنة بين الدماغ والطبيعة. فإذا كانت الطبيعة كلاً، أو هولوغراماً، كما يقول بريبرام، العالم الاختصاصي بجراحة الأعصاب، فلابد وأن يكون الدماغ هولوغراماً، أي كلا. فالدماغ، كما برهن آشلي، وحدة متماسكة تعمل ككل؛ والذاكرة، أو غيرها من فاعليات الدماغ، تتوزع في كل مكان من الدماغ حتى ولو كانت تُختزن في جزء منه.

في هذا الفصل، أظهرت أن الهولوغرام صورة كلية، وأبنت أن الجزء منها يعيد تشكيل الكلّ في حال تدمير الصورة أو تقليصها.

هكذا، نرى كيف تقوم الوظيفة الدماغية العضوية بعملها ككلّ متكامل.

في الفصل السادس، ركزت على ظاهرة الإنسان والتطور المشترك لخصائص العقل، والطاقة، والمادة والنفس منذ البدء. ويتكشف لنا في هذا الفصل واقع يشير إلى أن الظاهرة الإنسانية هي حصيلة تطور مشترك لهذه الخصائص: فالعقل منبث في المادة وفي النبات والحيوان، ومركّز في الإنسان على هيئة تعقيد دماغي. وإننا نجده في حالة ما قبل الحياة ـ أي ما قبل الحياة العضوية ـ في الخصائص العقلية الأولى. ومن خلال التطور، نشاهد نمواً مشتركاً للخصائص النفسية والعقلية للمتعضية التي ستكون الإنسان. وهكذا، يعبر اصطلاح «التطور المشترك» عن التداخل الكلي، والتفاعل الكلي، والتوافق، أي الاتكال المتبادل، والنسيج الواحد الذي يصل خيوط الطبيعة والحياة والمادة والطاقة والنفس مع بعضها في حقيقة واحدة هي نسيج واحد. ويتصل هذا الفصل اتصالاً وثيقاً بالنظرية التطورية التي عرضها تيار ده شاردان.

في الفصل السابع، طرحت مفهوم الحرية والمبدأ الكلي على صعيد واحد. وقصدت أن أعبر عن إبداعية الحرية في إرادة الاختيار الهادف أو حرية الاختيار. وحاولت تضييق البون الواسع الواقع بين الحرية والحتمية. ولما كان الربط بين مفهوم الحرية الإبداعية والمبدأ الكلي صعوبة تتكشف لنا في هذا الفصل، فقد هدفت إلى القول: إن الحرية الإبداعية لا تُدرك إلا في وجود ديناميكي ترتبط أجزاؤه وتتداخل، وتكون فيه الحقيقة غائية، وتتقلص فيه الحتمية إلى أدنى درجاتها، بحيث يكون

المبدأ الفاعل في الكون والإنسان والطبيعة هو الحرية التي تسعى إلى تحقيق كمالها القائم في البدايات الأولى التي تنشد غاية قصوى للعالم.

هكذا، تعد الفصول السبعة المذكورة في هذا الكتاب محاولة للكشف عن المبدأ الكلي في صوره العديدة.

ندره اليازجي



الفصل الأول

الحكمة القديمة والعلم الحديث[1]

أحب، قبل البدء بالحديث عن المتوازيات أو التماثلات بين الحكمة القديمة والعلم الحديث، أن أنوّه إلى أن المقصود بهذه الحكمة هو ذلك التراث الفكري الإنساني الذي تحدّر إلينا من العهود الغابرة السابقة للعصر الفلسفي. وفي رأي حكماء الحاضر أن الحكمة القديمة اشتملت على المعرفة الإنسانية بكاملها، وفسرت الكون والإنسان تفسيراً شمولياً وكلياً. ويؤكد أولئك الحكماء أن الفلسفة هي تراجع لتلك الحكمة التي تجاوزت التفكير العقلي إلى وضوح الرؤية. أما العلم، في مرحلته الحاضرة، فهو عودة إلى ينابيع تلك الحكمة. وعلى هذا الأساس، بدأ العلم يستشف الحقيقة القائمة في الحكمة القديمة.

في بحثنا هذا، نبين أن المتوازيات الستة التي عرضتها الحكمة القديمة وأكد عليها العلم الحديث، هي:

1ـ وحدة الأشياء كلها.

2ـ ما بعد عالم الأضداد.

3ـ الزمان والمكان.

4ـ العالم الديناميكي.

5ـ الفراغ والشكل.

6ـ الرقص الكوني.

---

[1] ـ محاضرة ألقيت ضمن برنامج محاضرات الجمعية الكونية، دمشق.

1ـ وحدة الأشياء كلها:

ثمة خاصة هامة لوجهة نظر الحكمة تتمثل في وعي وحدة الأشياء والأحداث، تداخلها وعلاقتها المتبادلة، وتتأكد في اختبار ظاهرات العالم بوصفها تجليات لوحدة أصيلة وأساسية. وفي وجهة النظر هذه: تُشاهد الأشياء كلها متواقفة، ومتبادلة الأشكال بين أجزاء متصلة للكل الكوني، وتُعد ظهورات متعددة للحقيقة الواحدة السامية. وتشير تعاليم الحكمة إلى هذه الحقيقة السامية التي تكشف عن ذاتها في الأشياء كلها، الأمر الذي يجعل هذه الأشياء أجزاء فيها. وبهذا الصدد، تردد هذه الحكمة: «الروح هي وحدة كلية الأشياء، هي الكل الذي يشتمل على الكل».

على هذا الأساس، يُعد الاعتقاد بانفصالية الأشياء، كما نراها في حياتنا اليومية، وهماً يقف الجهل خلفه. أما اختبار وحدة الكل فيتطلب منا أن ننشئ توازناً في العقل يحقق السكينة الداخلية.

لا تعد وحدة الكون الخاصة الجوهرية لهذه الخبرة الصادرة عن الحكمة، بل تعد أيضاً ظاهرة تتميز بها إلهامات الفيزياء الحديثة. إنها تتجلى عند المستوى الذري وتكشف عن ذاتها أكثر فأكثر كلما توغلنا إلى أعماق المادة، وإلى نطاق الجزيئات دون الذرية.

هكذا، تكون وحدة الأحداث والأشياء الموضوع المتواتر في المقارنة التي سنجريها بين الفيزياء الحديثة والحكمة القديمة. فكلما تقصّينا الأنماط المتنوعة للفيزياء دون المستوى الذرّي رأينا أنها تعبر، مرة تلو مرة، وبطرق مختلفة، عن تبصر واحد مشترك هو: أن مكونات المادة والظاهرة الأساسية التي تشملها متداخلة الصلة، متداخلة العلاقة ومتواقفة، أي أنها متكلة على بعضها. وعلى هذا الأساس، لا يمكننا إدراكها على هيئة كيانات أو وجودات معزولة بل كأجزاء متكاملة للكل.

يعرض لنا هنري ستاب، الفيزيائي اللامع، بوضوح كيف تتضمن نظرية الكوانتوم ترابطاً متداخلاً للطبيعة، بحيث أن حركة أي جزء تسبّب حركة الأجزاء الأخرى الباقية. ويضع هذه النظرية في إطار يتسع ليشتمل على الأنماط النسبية للجزيئات دون الجوهرية التي ناقشها في مؤتمر كوبنهاغن عام 1920 كل من بور وهايزنبرغ.

أما نقطة الانطلاق، وفق التفسير الذي قدمه مؤتمر كوبنهاغن، فهي تقسيم العالم الفيزيائي إلى منظومة مراقَبة هي «الموضوع» ومنظومة مراقِبة هي «العقل». وقد

تكون المنظومة المراقَبَة ذرة، جزيئاً دون الجوهري، أو سلسلة عمليات ذرية إلخ.

تصف النظرية الكوانتية المنظومة المراقَبَة بلغة الاحتمالات. وهذا يعني أننا نعجز عن التنبؤ على نحو يقين أين سيكون جزيء دون جوهري في زمان معيّن، أو كيف ستحدث سلسلة عمليات ذرية. وكل ما يمكننا فعله هو أن نتنبأ بالحالات الفردية.

تتشكل عملية قياس خصائص الجزيء في اللحظة التي يتعرض فيها للمراقَبة. ويمكننا تمثيل الوضع على نحو رمزي كما يلي: يُهيأ الجزيء في منطقة آ، ينطلق من آ إلى ب، ويُقاس في منطقة ب. وفي الواقع، تشتمل تهيئة وقياس الجزيء على متتالية كاملة من العمليات المعقدة.

والنقطة الهامة في تحليل عملية المراقبة هي أن الجزيء يشكل منظومة أو طريقة متوسطة تصل بين العمليات عند آ و ب. إنها تحتمل معنى في هذا السياق فقط، ليس كوجود معزول، بل كترابط متداخل بين عمليتي التهيئة والقياس، ولا تحدد خصائص الجزيء على نحو مستقل عن هاتين العمليتين. فلو أننا أدخلنا تعديلاً على التهيئة أو القياس لوقع تبدل لخصائص الجزيء.

هكذا، تبين النظرية الكوانتية وجود اتصالية أساسية للكون، وتظهر عجزنا عن تجزئة العالم إلى وحدات متناهية في الصغر قائمة على نحو استقلالي. فكلما تعمقنا إلى أعماق المادة، نجد أنها مؤلفة من جزيئات، ونعلم أن هذه الجزيئات ليست هي «كتل البناء الأساسية» بالمعنى الذي عرضه ديموقريط ونيوتن. إنها تمثلات ـ قيم مثالية ـ تفيدنا من وجهة نظر واقعية، لكنها لا تحمل معنى أساسياً. وكما قال نيلز بور «الجزيئات المادية المعزولة تجريدات، لا يمكننا تحديد مقاربة خصائصها إلا من خلال تفاعلها مع أنظمة أخرى». وقال دافيد بوم: «يتأكد المرء من وجود كلٍ غير منفصل يتنكر للفكرة الكلاسيكية التي تقسم العالم إلى أجزاء قائمة على نحو انفصالي ومستقل... لذا، نقول إن الاتصالية الكوانتية اللامنقسمة للكون كله هي الواقع الجوهري، وإن الأجزاء التي تسلك على نحو استقلالي نسبياً هي مجرد أشكال خاصة ومحتملة داخل الكل».

هكذا، تتلاشى أو تنحل الأشياء المادية الصلبة، عند المستوى الذرّي، إلى أنماط احتمالات، بحيث أن هذه الأنماط لا تمثل احتمالات الأشياء بل احتمالات اتصالات متداخلة. وهكذا، تلزمنا النظرية الكوانتية أن لا نشاهد الكون مجموعة من الأشياء

الفيزيائية فحسب بل نسيجاً معقداً من العلاقات بين الأجزاء العديدة ككلٍّ متحد.

على هذا النحو. اختبر الحكماء العالم، وعبّر بعضهم عن اختبارهم هذا بكلمات تتماثل مع كلمات الفيزيائيين الذريين.

يقول حكيم من الحكماء: «الشيء المادي يصبح شيئاً مختلفاً عما نشاهده الآن. ليس هو شيئاً منفصلاً عن خلفية أو منعزلاً عن محيط ـ بيئة ـ باقي الطبيعة، بل جزءاً لا منقسماً وتعبيراً عن وحدة كل ما نراه».

يقول حكيم آخر: «تشكل الأشياء كيانها وطبيعتها بالاتكال المتبادل؛ وليست هي، في ذاتها، شيئاً».

إذا كنا نعتبر هاتين العبارتين توضيحاً لكيفية ظهور الطبيعة في الفيزياء الذرية، فإن هاتين العبارتين التاليتين المقتبستين من الفيزيائيين الذريين تعدان وصفاً لتجربة الحكماء للطبيعة.

يقول هنري ستاب: «ليس الجزيء الأولي ـ العنصري ـ كياناً أو وجوداً قائماً على نحو استقلالي لا يقبل التحليل. إنه، في جوهره، مجموعة أو سلسلة تامة لعلاقات تبلغ الأشياء الأخرى».

يقول هايزنبرغ: «يبدو العالم بأنه نسيج معقد للأحداث، تتناوب فيه الاتصالات مع كل الأنواع أو تتداخل أو تتحد، وتحدد، نتيجة لذلك، بنية الكل».

في نظر الحكمة، كما في نظر الفيزياء الذرية، يشتمل هذا التشابك الشامل، الكلي والكوني، على المراقِب الإنساني ووعيه.

فعلى المستوى الذري، تُدرك الأشياء على هيئة تفاعل بين عمليتي التهيئة والقياس. أما نهاية سلسلة العمليات فإنها تقع دائماً في وعي المراقِب الإنساني. فالقياسات هي تفاعلات تخلق «إحساسات» في وعينا.

يقول هايزنبرغ: «العلم الطبيعي لا يصف الطبيعة ولا يفسرها. هذا، لأن التفاعل يقع بين الطبيعة وأنفسنا». ويضيف: «إن ما نشاهده ليس هو الطبيعة ذاتها، بل الطبيعة كما تتكشف لطريقة تساؤلنا وبحثنا».

أما هويلر فإنه ينادي بمبدأ «المشاركة عوضاً عن المراقبة». وهذا ما يذكرنا بتجارب العلماء التي تعلن نهاية التمييز بين المراقِب والمراقَب إذ ينصهر الفكر والموضوع في كلٍّ متحد وغير متمايز.

2ـ ما بعد عالم الأضداد:

إن ما يعلنه الحكماء بأنهم يختبرون الأشياء والأحداث بوصفها ظهورات لوحدة أساسية، لا يشير إلى أنهم يعتبرون الأشياء كلها متساوية. فهم يعترفون بفردية الأشياء؛ وفي الوقت ذاته، يدركون أن الفروق والتمايزات. أي التباينات، نسبية ضمن الوحدة الشاملة. وهكذا، تكون نسبية الأضداد، في رأيهم، تصورات مجردة تنتمي إلى نطاق الفكر. والحق هو أننا نخلق الضد بمجرد تركيز انتباهنا على أي تصوّر. لكن الحكيم يتجاوز أو يتسامى على هذا النطاق من التصورات العقلية. وفي تجاوزه هذا، يعي نسبيّتها ويدرك العلاقة القطبية لكل التعارضات. وعندئذٍ، يتأكد أن الخير والشر، اللذة والألم، الحياة والموت، والنور والظلمة..إلخ، ليست تجارب مطلقة تخص مقولتين منفصلتين ومختلفتين، بل هما وجهان لحقيقة واحدة، وجزآن أو طرفان لكلٍ واحد. لذا، ترتكز الفكرة الأساسية للحكمة على تجاوز عالم الأضداد الذي أقامته التمييزات الفكرية والانفعالات، وعلى تحقيق عالم اللاتّمايز.

لمّا كانت التعارضات كلها متوافقة ـ أي متبادلة الاتكال ـ فإن النزاع بينها لن يكون النصر الكلي المؤكد لواحدة منها؛ وبالتالي يتجلى التفاعل بين الجانبين. فالحكيم هو ذلك الإنسان القادر على توطيد توازن ديناميكي بين قطبين ـ لنقل الخير والشر ـ أو الـ YIN و YANG في الحكمة الصينية.

في هذا التفاعل، أي التوازن الديناميكي، نختبر وحدة الأضداد. ولا يعد هذا التوازن مطابقة أو تطابقاً سكونياً بل تفاعلاً ديناميكياً بين الطرفين الأقصيين.

والحق يقال إن الفيزياء الحديثة قد توصلت إلى مستوى مماثل. فقد أوضح اكتشاف العالم دون الذري واقعاً يتجاوز اللغة والمنطق، وأشار إلى أن وحدة التصورات التي كانت تعتبر متعارضة وغير قابلة للتوفيق هي معْلم مذهل من معالم هذا الواقع الجديد. وفي هذا المستوى دون الذري، نجد، كما تقول الفيزياء الحديثة، توحيد التصورات المتعارضة. بحيث تكون الجزيئات قابلة وغير قابلة للانقسام، وتكون المادة متصلة ولا متصلة، وتكون الطاقة والمادة معْلمين مختلفين لظاهرة واحدة. وتقف النظرية النسبية موقفاً حاسماً من وصف هذا العالم، وذلك بتجاوز النطاق «النسبي» ومفاهيمه الكلاسيكية إلى بُعد أسمى، هو الزمان ـ المكان الرباعي البُعد. لقد وحّدت الفيزياء النسبية الزمان والمكان اللذين كانا يعتبران سابقاً تصورين مختلفين. وتُعد هذه الوحدة الأساسية قاعدة توحّد التصورات المتعارضة التي أتينا على ذكرها. وتحدث هذه الوحدة على «صعيد أعلى» تماماً كما تتحقق وحدة الأضداد التي يختبرها

الحكماء. وتكون وحدة ديناميكية تتماثل مع الوحدة الديناميكية التي تحدث عنها الحكماء، وذلك لأن الحقيقة الزمانية ـ المكانية النسبية هي حقيقة ديناميكية فعلية تكون الموضوعات فيها عمليات كما تكون الأشكال كلها أنماطاً ديناميكية.

ثمة وحدة مماثلة حققتها النظرية النسبية هي وحدة الطاقة والمادة. فالعالم الرباعي البعد للفيزياء النسبية هو عالم تتحدد فيه الطاقة والمادة، عالم تظهر فيه المادة جزيئات منفصلة أو حقلاً متصلاً. ويستطيع الفيزيائيون «اختبار» العالم الزماني ـ المكاني الرباعي البعد من خلال الشكلية الرياضية المجردة.

وبالمثل، يستطيع الحكماء «اختبار» حقيقة بعدية أسمى على نحو مباشر وواقعي. ففي حالة التأمل العميق، يتجاوز الحكماء العالم الثلاثي البعد، هو عالم حياتنا اليومية، ويختبرون حقيقة مختلفة كل الاختلاف تتحد فيها التعارضات في كلٍ عضوي. وعندما يحاول الحكماء التعبير عن هذه الخبرة في كلمات، تواجههم المعضلات ذاتها التي تواجه الفيزيائيين الذين يحاولون تفسير الحقيقة المتعددة الأبعاد للفيزياء النسبية.

يقول أحد الحكماء: «تتحقق التجربة التي تتم على مستوى أعلى بتوحيد تجارب المراكز والمستويات المختلفة للوعي. ومن هذا الوضع، تنبثق لا وضعية بعض التجارب التأملية التي تحدث على مستوى الوعي الثلاثي البعد، الأمر الذي يجعل المنهج المنطقي يقلص إمكانات التعبير وذلك بفرض حدود إضافية إلى عملية التفكير».

جدير بنا، ونحن نوحّد التعارضات المتقابلة، أن نشير إلى المثال الأفضل لتوحيد التصورات الظاهرية التناقض، والمجسّدة في مفاهيم وتصورات الجزيئات والموجات في الفيزياء الذرية.

تتصف المادة بمعلم ثنائي عند المستوى الذري: إنها تظهر على هيئة جسيمات وموجات. وكل معلم تظهره، يعتمد على الوضع القائم. ففي بعض الأوضاع، يسود المعلم الجسيمي، وفي بعضها الآخر، تسلك الجسيمات على هيئة موجات. وتتجلى هذه الطبيعة الثنائية عن طريق الضوء وكل إشعاع كهرطيسي. فالضوء، على سبيل المثال، يُقذف ويُستغرق على شكل «كوانتا» أو فوتونات. وتظهر جزيئات الضوء هذه أثناء ارتحالها أو انطلاقها أو انتقالها خلال المكان على هيئة حقول مغنطيسية وكهربائية مهتزة أي مترددة تكشف عن السلوك المميز للأمواج. فالإلكترونات تعد عادة جزيئات؛ ومع ذلك، تحيد ـ تنحرف انحرافاً ضئيلاً ـ مثل شعاع نور عندما

يُرسَل عبر شق طولي. وهذا يعني أن الإلكترونات تسلك مسلك الأمواج.

علـى هـذا الأسـاس، لا يمكننـا أن نصـف حالـة الجــزيء بلغــة التصــورات المتعارضة، ذلك أن الجزيء ليس حاضراً أو غائباً في مكان محدد. فهو لا يبدل وضعه ولا يظل ساكناً، وإن مايطرأ عليه التبديـل فهـو النمـط الاحتمـالي، وبالتـالي نزوعـات الجزيء الموجود في أماكن معينة.

يقول روبرت أوبنهايمر: «لو سألنا: هل يظل وضع الإلكترون كما هو في مكـان معين؟ لأجبنا: كلا. ولو سألنا: هل يظل الإلكترون في حالة الحركة؟ لأجبنا: كلا.

وبالمقابل، يقول أحد الحكماء:

متحرك ولامتحرك.

بعيد وقريب.

هو ضمن الكل،

وخارج الكل.

هكـذا، تتجـاوز الحكمـة القديمـة والفيزيـاء الحديثـة التصـورات المتعارضـة أو المتناقضـة المتمثلـة في: الطاقـة والمـادة، الجسـيمات والموجـات، الحركـة والسـكون، الوجود واللاّوجود.

أما مبدأ التكاملية، الذي أتى به نيلز بور، فقد حدثتنـا عنـه الحكمـة القديمـة قبل آلاف السنين.

3ـ الزمان والمكان:

تؤكد الفيزياء الحديثة على واقعية الفكرة الجوهرية التي تتبناها الحكمة وهـي أن التصورات التي نستفيد منها لوصف الطبيعة محدودة، وليست هي معالم حقيقية. وننزع إلى الاعتقاد، بأنها تعيينـات يُحدثهـا العقـل. ومتـى وسّـعنا نطـاق تجربتنـا، أصبحت محدوديات عقلنا المنطقي واضحة، وتوجب علينـا تعديـل أو إهمـال بعـض تصوراتنا. وتفيدنا هذه التصورات في ترتيـب الأشـياء أو الأحـداث في بيئتنـا. وتكـون على درجة من الأهمية، ليس في حياتنا اليوميـة فحسـب، بـل وفي محاولاتنـا لفهـم الطبيعة من خلال الفلسفة والعلم. هـذا، لأن كـل قـانون فيزيـائي يتطلـب تصـورات الزمان والمكان لدى صياغته. أما الثورة الكـبرى في تـاريخ العلـم فهـي ذلـك التعديـل العميق الذي أوجدته النظرية النسبية في هذه التصورات الأساسية.

قامت الفيزياء الكلاسيكية على الاعتقاد بوجود مكان مطلق ثلاثي البعد، مستقل عن الموضوعات المادية التي يحتويها، وخاضع لقوانين هندسة إقليدس. وقد اعترفت بوجود زمان له بعد خاص، منفصل ومطلق يتدفق بمعدل سرعة مطردة، ومستقل عن العالم المادي.

أمّا إينشتاين فقد جعل الفلاسفة والعلماء يتحققون من أن الهندسة ليست ملازمة للطبيعة ومتأصلة فيها، وأن العقل هو الذي يفرضها.

يقول هنري مارغنو: «تقوم أهمية النظرية النسبية في أن الهندسة هي ما ينشئه العقل. ولن يكون العقل قادراً على التحرر من التلاعب بفكرتي الزمان والمكان المبجّلتين، وتقييم مدى الاحتمالات الممكنة لتحديدهما، واختيار الصيغة التي تتلازم مع الملاحظة إلا بعد أن يعترف بهذا الاكتشاف ويقبل به».

أكدت الحكمة الشرقية أن الزمان والمكان تركيبان عقليان. وقد عالجهما الحكماء كما عالجوا التصورات العقلية الأخرى، واعتبروهما نسبيين، محدَّدين أي معينين، ووهميين.

نقرأ في نص من نصوص الحكمة البوذية ما يلي: «الماضي، والمستقبل، والحيز المادي... والأفراد مجرد أسماء؛ هي أشكال فكرية، وكلمات تفيد الاستعمال العام... هي مجرد وقائع ظاهرية أو خارجية سطحية».

هكذا، نجد التطابق بين فلاسفة وعلماء الحكمة الشرقية وما أتت به النظرية النسبية: لقد اتفق الجانبان على أن تصوراتنا في نطاق الهندسة ليست مطلقة، وليست خصائص طبيعية ثابتة، بل تركيبات عقلية.

قال أحد الحكماء: «اعلموا أن المكان ليس أكثر من صيغة اصطفائية أو تشخيصية ولا وجود له في ذاته... فالمكان موجود في علاقته بوعينا التشخيصي والتخصيصي».

والأمر ذاته ينطبق على مفهوم الزمان. لذا، يصل الحكماء فكرتي الزمان والمكان بحالات خاصة للوعي. ولما كانوا قادرين على تجاوز الوضع العقلي العادي عن طريق التأمل، فقد تأكد لهم أن تصوري الزمان والمكان التقليديين أو الاتفاقيين ليسا هما الحقيقة القصوى أو الجوهرية. وهكذا، تتطابق وجهتا نظر الزمان ــ المكان كما قدمتهما الحكمة مع وجهة النظر التي عرضتها النسبية.

أدرك إينشتاين أن التعيينات الزمانية نسبية؛ هي تعيينات تعتمد على

المراقِب. فالانطباع بأننا قادرون على ترتيب الأحداث في سياق زماني هو انطباع ناتج عن واقع هو أن سرعة الضوء كبيرة جداً، لدرجة أننا قادرون على الافتراض بأننا نراقب أحداثاً في اللحظة التي تقع فيها. والحق هو أن هذا الافتراض خاطئ. فالضوء يستغرق زماناً في انطلاقه من الحادثة إلى المراقِب. وعلى نحو عادي. يُعد هذا الزمان قصيراً جداً لدرجة أنه يمكننا اعتبار انتشار الضوء لحظياً أو فورياً. لكن، عندما ينتقل المراقِب بسرعة كبرى بالنسبة للظاهرة المراقَبة، فإن الاتساع أو الامتداد الزماني بين وقوع الحادثة وملاحظتها يلعب دوراً حاسماً في تأسيس تتابع الأحداث. وفي هذه الحالة، يؤكد إينشتاين أن المراقبيْن المتحركين بسرعتين كبيرتين مختلفتين يرتبان الأحداث على نحو زماني مختلف.

هذا ما نجده من جهة. ومن جهة ثانية، تلزمنا النظرية النسبية على تجاوز تصور نيوتن لمكان مطلق. فمثل هذا المكان ندركه كما لو أنه يتضمن وضعاً معيناً للمادة (المكان) في كل لحظة (الزمان). لكن هذا التزامن الذي أصبح تصوراً نسبياً لاعتماده على وضع حركة المراقِب، لم يعد يمكّننا من تعيين تلك اللحظة المحددة للكون كله. فالحادثة القصيّة التي تقع في لحظة خاصة بالنسبة لمراقِب قد تحدث في وقت مبكر أو متأخر بالنسبة لمراقب آخر. لذا، لا يمكننا التحدث عن «الكون في لحظة معطاة» بطريقة مطلقة. فليس ثمة مكان مطلق مستقل عن المراقِب.

تبدو هذه النتائج النسبية غريبة غير مألوفة، وذلك لأننا عاجزون عن اختبار العالم الزماني ـ المكاني الرباعي البعد بحواسنا. لكننا، مع ذلك، قادرون على ملاحظة أو مراقبة صوره أو أوضاعه «الثلاثية البعد». فهذه الصور تمثل معالم مختلفة. ولسوف تبدو هذه النتائج المذكورة متناقضة بظاهرها مالم نتحقق بأنها مجرد إسقاطات لظاهرات رباعية البعد، تماماً كما هي الظلال إسقاطات للأشياء الثلاثية البعد. فلو تصورنا الحقيقة المكانية ــ الزمانية البعد، لما بدا أي شيء متناقضاً في ظاهره.

حقق حكماء الشرق حالات وعي فوق عادية تجاوزوا فيها عالم الحياة اليومية، واختبروا حقيقة أسمى، متعددة الأبعاد. وهكذا، يتحدث أحدهم، هو شري أوروبندو، عن «تبدل سام يجعل البصر يرى في حالة من البعد الرابع». وقد لا تكون أبعاد حالات الوعي متماثلة مع الحالات التي نختبرها في الفيزياء النسبية، إنما المذهل هو أنها جعلت الحكماء يتصورون مفهومي الزمان والمكان اللذين يشبهان، أشد الشبه، المفهومين المتضمنين في النظرية النسبية.

نستطيع أن نجد، ونحن نتوغل إلى أعماق الحكمة الشرقية، حدساً قوياً يشير إلى الصفة الزمانية ـ المكانية للحقيقة. وتشدد هذه الحكمة على الصلة اللامنفصلة للزمان ـ المكان بالقدر الذي تشدد عليها الفيزياء النسبية. ويمكننا أن نستشهد بما يقوله حكيم من حكماء الشرق، هو سوزوكي، عن وعي أو إدراك «تداخل أو تبادل الزمان والمكان».

يقول سوزوكي: «ثمة حالة من الانحلال ينتهي فيها التمييز بين العقل والجسد، بين الفكر والموضوع. وإذا نظرنا حولنا، ونحن نختبر هذه الحالة، شاهدنا ببصيرتنا صلة كل شيء بكل شيء آخر ليس على النحو الزماني فحسب بل على النحو المكاني أيضاً. ويشير واقع الخبرة الصافية إلى أن المكان غير موجود بدون الزمان، وأن الزمان غير موجود بدون المكان، إنهما متداخلان على نحو تبادلي».

هكذا، نعلم أن وجهتي النظر الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة والحكمة الشرقية هما وجهتا نظر ديناميكيتان في جوهرهما وتشتملان على الزمان والمكان بوصفهما عنصرين أساسيين. وهكذا، تعلّم كلٌّ من وجهتي النظر وحدة الأشياء والأحداث.

ننهي هذه المقارنة باقتباس قولين: أولهما، قول يعود للحكمة القديمة السرية وثانيهما، يعود للعلم الحديث:

يقول أحد الحكماء: «في العالم الروحي، لا وجود لما ندعوه تقسيمات الزمان، أي الماضي والحاضر والمستقبل. فهي تضيق أو تتقلص إلى لحظة واحدة حاضرة تستقر فيها الحياة في معناها الحقيقي. فالمستقبل والماضي يندرجان في هذه اللحظة المشرقة، وليست هذه اللحظة الحاضرة شيئاً واقفاً لا يتحرك بل ما يشتمل عليه؛ فهو يتابع حركته دون توقف».

يقول لوي ده بروي: «في الزمان ـ المكان، يُعد كل ما يشكل الماضي والحاضر والمستقبل أمراً معطى جملة بلا تمييز، ودفعة واحدة. وكل مراقِب يكتشف، وزمانه ينقضي، شرائح من المكان ـ الزمان، فتبدو له معالمَ متعاقبة للعالم المادي، هذا مع العلم، أن كلية الأحداث المكوِّنة للزمان ـ المكان موجودة قبل معرفته بها».

4ـ العالم الديناميكي:

ترتكز الحكمة على المبدأ القائل إن ظاهرات العالم كلها تجليات للحقيقة السامية. وهي تنظر إلى هذه الحقيقة بوصفها جوهر الكون، إذ أنها تشكل الأساس،

الذي تقوم عليه كثرة الأشياء والأحداث التي نراقبها، وتوحدها. وبالإضافة إلى هـذا، نرى أن الجوهر الأساسي لا ينفصل عن التجليـات أو الظهـورات العديـدة. وهـو، في أساسه وطبيعتـه، يكشـف عـن ذاتـه في آلاف الأشـكال الـتي تنبثـق إلى الوجـود ثـم تنحلّ. فتتحول إلى بعضها إلى ما لا نهاية. وهكـذا، تجـد هـذه الحكمـة في «الرقـص الكوني» عملية ديناميكية في جوهرها.

تحدثنا بوذية مهايانا، هي مدرسة كيغون، بما يلي: «تتمثل الفكرة الرئيسة في إدراك الكون على نحو ديناميكي: هذا الكون الذي يتصـف بحركـة دائبـة تتجـه إلى الأمام: هذه الحركة التي ندعوها الحياة».

يعد هذا التوكيد على الحركة، والسيلان، والدفـق والتقدم إشـارة إلى «الطريـق الذي تسلكه الطبيعة». إذن، فالطبيعة ليست، في نظر الحكمة، قانوناً إلهياً سـاكناً، بل هي مبدأ ديناميكي لازم لطبيعة الكون؛ وهي، بالتالي، «فعـل» أو «فعاليـة» تشـير إلى العلاقة المتبادلة والمتداخلة للظاهرات كلها.

تعبر هذه الحكمة عن ذاتها كما يلي: «الأفعال كلها تحدث في الزمـان نتيجـة لتناسج قوى الطبيعة».

ونحـن، كلمـا توغلنـا في دراسـة الحكمـة الشـرقية، اتضـح لنـا أن العـالم، في تصورها، حركة، سيلان، دفق وتبـدل، وأدركنـا صفتـه الديناميكيـة. وهكـذا، يـرى الحكماء العالم على هيئة شبكة أو نسيج تتداخل علاقاته وتترابط على نحو ديناميكي وليس على نحو ستاتيكي. والنسيج الكوني، في رأيهـا، حـيّ: إنـه يتحـرك، وينمـو ويتبدل على نحو مستمر. وبالمثل، تتصور الفيزياء الحديثة الكون على هيئة نسيج من العلاقات. وتعترف بأن هذا النسيج ديناميكي في جوهـره. فـالمعلم الدينـاميكي للمـادة يتجلى في النظرية الكوانتية بوصفه نتيجة للطبيعة التموجية للجزيئات دون الذريـة. ويتجلى، أكثر فأكثر، في النظرية النسبية حيث نرى أن توحيد الزمان والمكان يعـني أن كيان المادة لا ينفصل عن نشاطها أو فعاليتها. لذا، لا يمكننا فهم الجزيئـات دون الذرية إلا في سياق ديناميكي، أي باصطلاح الحركة والتفاعل والتحول.

جدير بالذكر أن نزوع الجزيئات إلى الاقتصار على الحركة يعني «دأباً» أساسياً للمادة خاصاً بالعالم دون الذري. ففي هذا العـالم، تتعـين غالبيـة الجزيئـات الماديـة بالبنى الجوهرية، الذريـة والنوويـة؛ وبالتـالي، لا تهـدأ لأنهـا تتمـيز بميـل متـأصل للحركة. ووفق ما تعرضه النظرية الكوانتية، ليست المادة هامدة، بل هي، على غـير

ذلك ـ في حالة دائبة من الحركة. فالأشياء المادية كلها مكوّنة من ذرات تترابط مع بعضها بطرق عديدة لتؤلف تفرعاً ضخماً من البنى الذرية المستقرة، لكنها تترجح أو تتذبذب بحسب درجة حرارتها وفق ما هي عليه من انسجام مع الاهتزازات الحرارية لبنيتها. وفي الذرات المهتزة، تتصل الإلكترونات بالنويّات الذرية بواسطة قوى كهربائية تحاول أن تحافظ عليها على نحو محكم، وذلك لكي تستجيب لهذا الارتباط بالدوران السريع. وفي النويات ـ تنضغط البروتونات والنيوترونات في حجم دقيق عن طريق القوى النووية الجبارة، وبالتالي تدور بسرعات يصعب تخيلها.

إذن، فالمادة ـ في نظر الفيزياء الحديثة ـ ليست هامدة، غير فعّالة ـ أو في قصور ذاتي ـ بل تحيا في رقص متواصل وحركة مهتزة تتحدد أنماطها الإيقاعية بالبنى الجوهرية، الذرية والنووية. وبالمنظور ذاته، يشاهد الحكماء الشرقيون العالم المادي. فهم يؤكدون على فهم الكون، على نحو دينـاميكي، وهو يتحرك، يهتز ويرقص؛ ويتصورون الطبيعة توازناً ديناميكياً وغير مستقر.

تقول الحكمة: «السكون في السكون ليس هو السكون الحقيقي. لذا، يكشف الإيقاع الروحي، الذي يتخلل السماء والأرض، عن ذاته في سكون هو في حركة».

ونحن لا ندرك هذه الطبيعة الديناميكية للكون في الأبعاد الصغيرة فحسب، بل أيضاً في الأبعاد الكبرى. فالكون يحيا في حركة لا تنقطع. فالغيوم الدائرة المؤلفة من غاز الهيدورجين تتقلص لتشكل نجوماً، تسخن أثناء هذه العملية حتى تصبح نيراناً في الفضاء. ومتى بلغت هذه المرحلة، تابعت دورانها. ويُصدر بعضها مادة في الفضاء تتخذ سبيلاً لولبياً؛ وتتكاثف بحيث تصبح كواكب تدور حول النجم، وتتابع دورانها، وتتخذ لها سبيل التوسع أي الانبساط والتقلص. ففي التقلص تصير كرة صغيرة من المادة لكي تنبسط من جديد، وتتكرر هذه العملية إلى ما لا نهاية.

هكذا، لا نعتبر هذا الكون المنبسط والمقلّص، الذي يشتمل على مقياس يعتمد الزمان والمكان، ويتميز بنسب ضخمة، سمة ملازمة للكوزمولوجيا الحديثة بل سمة ملازمة للميثولوجيا القديمة. فقد اختبر حكماء الماضي الكون بوصفه كوناً عضوياً يتحرك على نحو إيقاعي، وتحدثوا عن كوزمولوجيا تطورية، متنامية، تماماً كما اختبره العلماء المحدثون. وعبّر الحكماء عن هذه الحالة باصطلاح هو «الرقص القدسي» الذي تُحوّل فيه الحقيقية السامية ذاتها إلى العالم: إنه لعب إيقاعي متواصل في دورات لا نهائية، يصبح فيه الواحد كثيراً، ويعود هذا الكثير، بدوره، إلى الواحد.

تتحدث الحكمة الشرقية بلسان الحقيقة السامية بما يلي: «في نهاية ليل الزمان تعود الأشياء كلها إلى طبيعتي. وعندما يبدأ النهار الجديد أعيدها إلى النور من جديد». وتضيف ما يلي: «من خلال طبيعتي أُحدث الخليقة كلها التي تبدأ العمل في دوائر الزمان».

والطبيعة في عمل الخلق، تُحدث كل ما يتحرك وما لا يتحرك، وهكذا، تتابع دورات العالم دورانها.

هكذا، يرى الحكماء أن هذا اللعب الإيقاعي القدسي يتماثل مع تطور الكوزموس ككل. وهكذا، يتصورون الكون المنبسط والمقلّص على نحو دوري ضمن مرحلة زمنية تمتد بين بدء الخلق ونهايته.

هكذا، تتفق وجهتا نظر الحكمة والفيزياء الحديثة حول مبدأ تكافؤ الطاقة والكتلة الذي يشير بدوره إلى فهم الديناميكية.

5ـ الفراغ والشكل:

اعتمدت وجهة النظر المكانيكية الكلاسيكية على الاعتقاد بوجود جزيئات صلبة، غير قابلة للإبادة والتلاشي، تتحرك في الفراغ. لكن الفيزياء الحديثة أدخلت تعديلاً جذرياً إلى هذه الصورة. ولقد أدى هذا التعديل الجذري إلى تصور جديد بكليته «للجزيئات» ولمفهوم الفراغ. وتم هذا التحول في ما يدعى «نظريات الحقل». وبدأ إينشتاين بفكرته التي وحّدت الحقل الجاذبي وهندسة المكان. وأصبح هذا التوحيد أكثر وضوحاً عندما اندمجت نظرية الكوانتوم مع النظرية النسبية ليصف هذا الاندماج حقول قوة الجزيئات تحت الذرية. وفي «نظريات الحقل الكوانتي» يفقد التمييز بين الجزيئات والمكان الذي يحيط بها شدته، ويظهر الفراغ بأنه كم ديناميكي له أهمية كبرى.

عرّفنا كل من فاراداي وماكسويل بمفهوم الحقل في القرن التاسع عشر وذلك عندما قاما بوصف القوى بين الشحنات والتيارات الكهربائية. وتبين أن الحقل الكهربائي هو وضع في الحيز حول جسم مشحون يُحدث قوة على أي جسم آخر مشحون في ذلك الحيّز. وعلى هذا الأساس، تتولد الحقول الكهربائية في الأجسام المشحونة التي تُحس بآثارها. أما الحقول المغنطيسية فإنها تحصل من الشحنات وهي في حركة، أي عن طريق التيارات الكهربائية، وتُحس بآثارها الشحنات الأخرى المتحركة. وبحسب النظرية التي قدمها فاراداي وماكسويل. تعد الحقول

كيانات أو وجودات فيزيائية أساسية أو أدلة نتمكن من دراستها من دون أي إلماع إلى الأجسام المادية. فالحقول المغنطيسية والكهربائية المهتزة تستطيع أن تجتاز خلال الحيّز على هيئة موجات إشعاعية، أو على هيئة أشكال أخرى للإشعاع الكهرطيسي.

أما النظرية النسبية، فقد وحّدت تصوري الشحنات والتيارات مع الحقول المغنطيسية والكهربائية. ولما كانت كل حركة نسبية، فبإمكان كل شحنة أن تظهر كتيار، وبالتالي يمكن لحقلها الكهربائي أن يظهر كحقل مغنطيسي. ففي الصياغة النسبية للديناميكية الكهربائية يتحدد الحقلان في حقل ديناميكي كهربائي.

هكذا، يمكننا القول: إن المادة والحيّز الفارغ لا ينفصلان من وجهة النظر النسبية العامة. فحيثما وُجد جسم وُجد معه حقل جاذبي. ويتجلى هذا الحقل بوصفه انحناء المكان المحيط بهذا الجسم. وعلى هذا الأساس، لا نسمح لأنفسنا أن نعتقد بأن الحقل يملأ المكان و«يحتويه»، وذلك لأنه لا يمكننا التمييز بينهما: فالحقل هو المكان المنحني. إذن، فالفيزياء العامة تقيم تماثلاً أو تطابقاً بين الحقل الجاذبي وبنيته، أي هندسة المكان. والمادة، في رأي إينشتاين، لا تنفصل عن حقل جاذبيتها؛ وبالمثل لا ينفصل حقل الجاذبية عن المكان المنحني. فالمادة والمكان، أي الحيز الخالي، جزءان متصلان ومتوافقان لكلٍّ هو واحد. والأشياء المادية لا تُحدد ببنية الحيز المحيط فحسب، بل تتأثر بوسطها. وفي نظر الفيزيائي والفيلسوف إرنست ماخ، لا تعد عطالة شيء مادي ـ مقاومة الشيء لما يسرّعه ـ خاصة لازمة بالمادة، بل معيار تفاعلها مع الكون كله. وفي نظره أن المادة لا تختص بعطالة لأن هناك مادة أخرى في الكون. وعندما يدور جسم تحدث عطالة قوة نابذة، وتظهر هذه القوة لأن الجسم يدور «بما يتصل أو يتناسب مع النجوم الثابتة». فلو اختفت النجوم الثابتة، لاختفت معها العطالة والقوى النابذة العائدة للجسم الدائر.

بناء على ما تقدم، تعلمنا الفيزياء الحديثة أن الأشياء المادية ليست كيانات متميزة: إنها تتصل مع وسطها على نحو غير منفصل. وتعلمنا أيضاً أننا لا نستطيع أن نفهم خصائصها إلا من خلال تفاعلها مع العالم كله. ويبلغ هذا التفاعل أعلى مداه إلى الكون، إلى النجوم والمجرات البعيدة. إذن، فالوحدة الأساسية للكون لا تتجلى في عالم الصغير فحسب بل في عالم الكبير أيضاً.

في «نظريات الحقل الكوانتي»، تنتهي المغايرة بين الجزيئات الصلبة والحيّز الفارغ المحيط بها. ويشاهَد الحقل الكوانتي على نحو هو الكيان الفيزيقي الأساسي:

إنه وسط متصل وحاضر في كل مكان من الحيز الفارغ. وتُعد الجزيئات مجرد تكاثف مكاني للحقل: إنها تركيزات للطاقة تأتي، وتمضي، وتفقد صفتها الفردية وتنحلّ في الحقل التحتي الذي يحتويها.

ليس تصور الأشياء الفيزيقية والظاهرات على نحو تجليات عابرة لوجود جوهري تحتي خاصة من خصائص نظريات الحقل الكوانتي فحسب بل عنصراً أساسياً نجده في الحكمة الشرقية. وعلى غرار ما اعتبر إينشتاين، فقد اعتبر الحكماء الشرقيون هذا الكيان التحتي الحقيقة الوحيدة: تجلياتها الظاهرة كلها عابرة ومرحلية. لذلك يتوازى الحدس القائم في تفسير الفيزيائي للعالم الذري المعبر عنه بالحقل الكوانتي مع حدس الحكيم الشرقي الذي يرى أن تجربته للعالم تتخلل العالم من خلال حقيقة سامية شاملة. فقد حاول الفيزيائي. بعد ظهور فكرة الحقل إلى الوجود، توحيد الحقول المتنوعة في حقل أصلي واحد يدمج الظاهرات الفيزيائية كلها. أما إينشتاين، فقد قضى السنوات الأخيرة من حياته وهو يبحث عن هذا الحقل الموحد. لكن الحكماء وجدوا هذا الحقل الجوهري الذي تُشتق منه الظاهرات التي تدرسها الفيزياء، بالإضافة إلى الظاهرات الأخرى.

في نظر الحكماء الشرقيين، تقع الحقيقة المشتملة على الظاهرات كلها إلى ما وراء الأشكال، وتتحدى كل وصف وتخصيص. فهي عديمة الشكل، وفارغة. لكن هذا الفراغ لا يعني اللاشيء. إنه، على غير ذلك، جوهر الحياة كلها وينبوع الحياة كلها. إنه الخلاء الذي يحمل في ذاته قدرة كامنة، مبدعة ولا نهائية. إذن، فخلاء الحكيم يُقارن بالحقل الكوانتي للفيزياء دون الذرية. ويستطيع هذا الخلاء، على غرار الحقل الكوانتي، أن يُنشئ تنوعاً لا منتهياً من الأشكال التي يدعمها: يعززها، ثم يستغرقها من جديد.

والحق هو أن التجليات الظاهراتية للخلاء السري، مثلها مثل الأجزاء دون الذرية، ليست سكونية ودائمة، بل هي ديناميكية وعابرة، تنبثق إلى الوجود لتختفي في رقصة متواصلة للحركة والطاقة. والعالم الذي تدركه الحكمة، مثل العالم الظاهراتي، هو عالم الولادة والموت المتواصل. لذا، لا تتصف أمور هذا العالم بأية ذاتية جوهرية لأنها تجليات عابرة للخلاء. وعلى هذا الأساس، تنكر الحكمة البوذية وجود جوهر مادي، وتعتبر الرأي، الذي يشير إلى وجود «ذات» مثابرة تتحمل التجارب المتعاقبة، وهماً. وقد استعمل الفيزيائيون القياس التمثيلي ذاته في سياق نظرية الحقل فأشاروا إلى وهم جوهر مادي يحدثه جزيء متحرك. وفي هذا الصدد

كتب هرمان ويل:

«يعد الجزيء المادي، كالإلكترون، بحسب نظرية الحقل للمادة، ميداناً للحقل الكهربائي الذي يتخذ فيه حقل القدرة أقداراً كبرى، مشيراً إلى تكثيف حقل ضخم للطاقة في حيز صغير. وهكذا، تمتد عقدة هذه الطاقة عبر الحيز الفارغ مثل امتداد موجة ماء عبر سطح بحيرة. فليس ثمة ما يشير إلى أن الإلكترون يمثّل جوهراً واحداً في كل الأوقات».

جدير بنا أن نقارن بين مفهوم الأثير في الفيزياء الحديثة ومفهومه في نظر الحكمة.

يقول الحكيم تشانغ تسي: «عندما يتكاثف (الأثير) نشاهد الأشياء بوضوح. وعندما يتبدد، تختفي رؤيته وتختفتي معه الأشكال. وهل يمكننا الإفصاح عن تكاثفه إلا بلغة العبور المؤقت؟ وهل يمكننا التعبير عن تبدده إلا أنه موجود؟».

هكذا، يتكاثف الأثير ويتشتت على نحو إيقاعي، محدثاً من تكاثفه الأشكال التي تنحل إلى الفراغ أي الخلاء.

ومن وجهة نظر الحقل الكوانتي، لا يعد الأثير الجوهر الحاضن للأشياء المادية كلها فحسب، بل يشتمل على تفاعلاتها المتبادلة على هيئة أمواج.

إذن، فالفيزياء النظرية الحديثة صاغت تفكيرنا عن جوهر المادة في سياق مختلف. إنها نقلت نظريتنا المصوّبة إلى المرئي، أي الجزيئات، إلى الحقيقة الشاملة التحتية، أي الحقل. وحضور المادة، في منظورها، ليس إلا مجرد اضطراب للحالة الكاملة للحقل في ذلك المكان. ويمكننا القول بأنها، أي المادة، وضع عرضي، هي «شائبة». وبناء عليه، لا توجد قوانين بسيطة تصف القوى بين الجزيئات الدقيقة الأولية. هذا، لأننا نبحث عن النظام والتناسق في الحقل التحتي الشامل. والكون، من وجهتي نظر الحكمة والعلم الحديث، كلٌّ متصل.

تقول الحكمة: «العلاقة القائمة بين الشكل والفراغ لا تُدرك على هيئة حالة مقصورة على التبادل بل على صورة معلمي حقيقة واحدة يتواجدان أو يتصاحبان في الوجود ويتعاونان باستمرار».

تضيف الحكمة، وهي تصف هاتين الصورتين المتعارضتين في كل واحد، ما يلي:

«الشكل هو الفراغ، والفراغ هو الشكل. والفراغ لا يختلف عن الشكل، والشكل

لا يختلف عن الفراغ. وما هو شكل هو فراغ. وما هو فراغ هو شكل».

وفي القوانين الطبيعية، تقول الحكمة: «ليست القوانين الطبيعية قوى خارجة عن الأشياء. إنها تمثل انسجام الحركة المتأصلة فيها».

هكذا، يكون وصف الحكمة للقوى التي تمثل انسجام الحركة ضمن الأشياء وصفاً ملائماً لنظرية الحقل الكوانتي التي تشاهد فيها القوى بين الجزيئات وهي تعكس الأنماط الديناميكية المتضمنة في صلب هذه الجزيئات.

أخيراً، نقيم موازنة بين الخلاء الفارغ الذي تحدثت عنه الحكمة والخلاء الذي أتت به الفيزياء: ليس الخلاء مجرد لا شيء، إنه يشتمل في ذاته على إمكان لكل الأشكال العائدة للعالم الجزيئي. وليست هذه الأشكال وجودات فيزيقية مستقلة بل هي ظهورات عابرة للخلاء الفارغ الذي يحتويها. وتُعد العلاقة القائمة بين الجزيئات المادية والفراغ علاقة ديناميكية. فالفراغ هو في حقيقته «خلاء حي» ينبض في إيقاعات لا منتهية للخلق والتهديم.

تقول الحكمة: «متى وعى الإنسان امتلاء الخلاء الأعظم بالأثير، تحقق أن اللاشيء غير موجود».

6ـ الرقص الكوني:

أدى اكتشاف العالم مادون الذري إلى توضيح الطبيعة الديناميكية الجوهرية للمادة. فقد أبانت هذه الطبيعة أن مكونات الذرات، بقدر ما هي الأجزاء دون الذرية، هي أيضاً أنماط ديناميكية غير موجودة ككيانات معزولة بل كأجزاء متكاملة لشبكة غير منفصلة من التفاعلات. وتشمل هذه التفاعلات، في ذاتها، دفقاً من الطاقة غير منقطع، يتجلى في تبادل الجزيئات. إنه عرض ديناميكي تُخلق فيه الجزيئات وتتهدم دون نهاية في تنوع متواصل لأنماط الطاقة. وتنشئ تفاعلات الأجزاء البنى الساكنة التي تشيد العالم المادي؛ فهي تهتز في حركات إيقاعية ولا تظل ساكنة. وهكذا، ينهمك الكون كله في حركة وفاعلية لا منتهيتين، وفي رقص متواصل للطاقة.

يشمل هذا الرقص تنوعاً ضخماً للأنماط التي تنضوي تحت مقولات قليلة. وقد كشفت دراسة الجزيئات دون الذرية وتفاعلاتها عن تنظيم رائع. فالذرات كلها، وأشكال المادة كلها، تتألف من جزيئات كتلوية ثلاثة: البروتون، النيوترون والإلكترون. وثمة جزيء رابع هو الفوتون، الجزيء الذي لا كتلة له؛ الذي يمثل وحدة الإشعاع الكهرطيسي. ويعد البروتون، والإلكترون، والفوتون جزيئات ساكنة،

الأمر الذي يعني أنها تبقى حية إلى الأبد مالم تتورط في عملية اصطدام تضع نهاية لها. وعلى غير ذلك، ينحل النيوترون تلقائياً. ويدعى هذا الانحلال «انحلال بيتا» الذي يعد العملية الأساسية كصنف من أصناف الفعالية الإشعاعية. ويشتمل أيضاً على تحول النيوترون إلى بروتون؛ ويرافقه خلق إلكترون نموذج جديد للجزيء الكتلوي هو النيوتروينو. والنيوترينو، على غرار البروتون والإلكترون، ساكن.

ثمة جزيء مضاد لكل جزيء، له كتلة مماثلة، إنما يمتاز بشحنة مضادة. هنالك بروتون مضاد، ونيوترون مضاد، ونيوترينو مضاد. والجزيء الكتلوي الذي يتكون من انحلال بيتا ليس هو النيوترينو بل النيوترينو المضاد.

تتكون هذه الجزيئات وتنتهي في عملية التصادم؛ ويمكن استبدال بعضها كجزيء مادي، الأمر الذي يجعلها تسهم في التفاعل القائم بين الجزيئات. وينتج هذا كله في عدد كبير جداً من التفاعلات الجزيئية المختلفة.

بدأ العلماء، ومن بينهم كنث فورد، في كتابه «عالم الجزيئات الأولية»، يستعملون مصطلحات مثل «رقص التكوين والتهديم» و«رقص الطاقة». ولا شك أن فكرتي الإيقاع والرقص تخطران في بالنا كلما حاولنا أن نتخيل دفق أو سيلان الطاقة المنسابة خلال الأنماط التي تشكل العالم الجزيئي. ولقد أبانت الفيزياء الحديثة أن الحركة والإيقاع خاصتان أساسيتان للمادة، وأن المادة كلها، مادة الأرض أو مادة الفضاء الخارجي، متضمنة في رقص كوني مستمر.

يتبنى حكماء الشرق وجهة نظر ديناميكية للكون شبيهة بوجهة نظر الفيزياء الحديثة؛ وبالتالي، لا يدهشنا أن نعلم أنهم يستعملون صورة الرقص لينقلوا إلينا حدسهم عن الطبيعة. وها نحن نعرض وصفاً لإيقاع الرقص في الحكمة: اقتبسناه عن كتاب Tibetan JOURNEY لـ ألكسندرا دافيد نيل:

«الأشياء كلها... هي تجميعات للذرات التي ترقص وتُحدث، بحركاتها، ترجّعات أو ترددات. وعندما يتبدل وقع الرقص، يتبدل معه الترجع الذي يحدثه... فكل ذرة تنشد أغنيتها على نحو دائم. والترجع يكون، في كل لحظة، أشكالاً لطيفة ورقيقة».

إن تماثل وجهة النظر هذه مع وجهة نظر الفيزياء الحديثة يصبح متطابقاً حينما نتذكر أن التردد موجة ذات تواتر يتبدل مع تبدل الصوت. وهكذا، نعلم أن الجزيئات، وهي المعادل الحديث لتصور الذرة القديم، هي موجات لها ترددات أو

تواترات تتناسب مع طاقاتها. وبحسب ما تقدمه نظرية الحقـل: ينشـد كـل جـزيء أغنيته على نحـو دائـم محدثاً بذلك أنماطاً إيقاعيـة للطاقـة في «الأشـكال اللطيفـة والكثيفة».

مراجع البحث

1- Fritjof Capra «The Tao of Physics».

2- Niels Bohr «Atomic Physics and Description of Nature».

3- W. Heisenberg «Physics and Philosophy».

4- D T. Suzuki «The Essence of Budhism».

5- R. Wilhelm «The I Ching or Book of Changes».

6- R. Oppenhaimer «Science and the Common Understanding.



الفصل الثاني

علم النفس في المنظور الكوانتي ـ النسبي

ترتكز قيمة هذه الدراسة على العلاقة، أو نفضل أن نقول، الحد المشترك بين الحكمة القديمة والعلم الحديث. وفي سبيل الوضوح، نقصد بمصطلح «الحكمة القديمة» ذلك التقليد الذي يشير إلى وجود بعض المواقف الفلسفية والمناهج العلمية التي تم شرحها على نحو مطوّل في العصور القديمة وظلت، إلى وقتنا هذا، قائمة دون تبدل ملحوظ بعد أن انتقلت إلينا جيلاً بعد جيل. وفي هذا السياق أو المضمون، يعالج هذا البحث العلاقات المتداخلة التي تقوم بين النتائج والنظرة الكونية المتضمنة في حصائل بحوث الفيزياء الحديثة ـ فيزياء الطاقة العليا، فيزياء العالم دون الجوهري ـ وبين الافتراضات المتضمنة على نحو كامن في طرق فهم ومعالجة نطاقين متصلين، على نحو متأصل، من نطاقات علم النفس هما: علم النفس السلوكي التجريبي والظاهراتية الوجودية[1].

قد يتساءل القارئ: هل لمثل هذه الدراسة علاقة بتقاليد الحكمة القديمة؟ أما الجواب، فيقع في فهم دقيق لأمرين: أولاً، التواترات التي شهدتها العلوم المادية عندما اتضحت مضامين النسبية والنظرية الكوانتية وتطبيقاتها على نمط التفكير النيوتوني الذي كان يعتنقه العلماء. ثانياً، التواترات الشبيهة التي أخذت تنبثق الآن في تباين وتغاير الافتراضات الضمنية أو المطلقة عن الطبيعة البشرية والإدراك الحسّي الذي تبناه علماء النفس التجريبيون وفلاسفة الظاهراتية الوجودية. وهكذا، سنلقي ضوءاً جديداً على هذه القضية من أجل إقامة مقارنة بين نوعي أو مجموعتي التواتر، ضمن كل مجموعة وضمن المجموعتين، المتولدة عن:

---

[1] ـ الفرق كبير بين «الظاهراتية الوجودية» وبين الوجودية. وإننا، في هذا السياق، نقصد بالظاهراتية الوجودية ما يلي: هي فلسفة تؤكد على حرية الفرد ومسؤوليته.

آ ـ النظرة التي تبنتها كل مجموعة عن العالم على نحو عام.

ب ـ افتراضات كل مجموعة إزاء الطبيعة البشرية على نحو خاص.

وإذا ما أنعمنا النظر في مضمون هذا الضوء الجديد، تأكدنا من حقيقة هي أن هذا الضوء «الجديد» المزعوم هو في صميمه ذلك الضوء «القديم» ذاته.

سوف نعود، وفق هذا السياق، إلى الماضي لنجد في حكمة الفدانتا القديمة الحلول الملائمة لهذه التصورات التي أتينا على ذكرها. ويبدو لنا أن هذا الضوء «القديم» الخاص المميز يزودنا ببعض الحلول المفيدة.

تتركز أهمية هذه الدراسة، وهي تعالج القضايا والتواترات والمقارنات التي تكون فيها الفيزياء وعلم النفس وفلسفة الفدانتا ـ وبخاصة، ما يتعلق بطبيعة الإرادة التي تشبَّه بالقوة الموجِّهة ـ مستغرقة في الأمل الذي نعلقه على كونها مدخلاً وصفياً إلى نطاق التساؤل والاستفهام والمغايرة أكثر من كونها مصدراً لكل «الإجابات». وإذا كان أسلوب المعالجة قد بدأ يتضح، فيفضَّل أن نستهل دراستنا بتأمل ما يدعوه أولئك المنتمون إلى النظام الصوفي الغربي «التطور المشترك للعلم والروح».

رؤية فوقية: الفيزياء وعلم النفس

من الملاحظ أن الاتجاه السائد في علم النفس قد كيَّف ذاته، حتى يومنا هذا، وفق قواعد الطريقة الناجحة بظاهرها والفلسفة اللتين تشكلان العلوم الطبيعية. وإذا توخينا الدقة والتحديد، فقد تعهد هذا الاتجاه السائد أن يأخذ بالأسلوب التجريبي ـ بكل ما فيه من الموضوعية، واختبار الفرضيات، وموضوعانية العمليات الوظيفية؛ والتنظيم الجماعي ـ ويُرسي قواعده على الأساس الذي يدعى بالمذهب القائل بأن المعرفة كلها مستمدة من التجربة. واستمد هذا الاتجاه السائد، على نحو خاص، طريقته وقاعدة تفكيره من الفيزياء الكلاسيكية، أي الفيزياء النيوتونية المكانيكية. وبالفعل، زودتنا هذه الفيزياء النيوتونية «بأسلوب تفكير» هو في مفهومه الضمني وجهة نظر معقولة للحقيقة، وافتراض تأملي قبْلي في ما يمكن أن يكون عليه الكون وكل ما يحتويه في حقيقته. وإن أنواع التقدم المذهلة التي أوجدتها التكنولوجيا ـ تكنولوجيا تمتد جذورها في هذا النموذج التجريبي ـ تُعزز هذا الأسلوب الذي يتضمن في مفهومه الاستزادة من التصور والتفكير. ويصعب على أي فرد أن يشك بالتأثير الذي خلفته العروض الكثيرة في حقل الإلكترونيات والأجهزة التي تقتصد في الزمان والعمل.

لكن الأمر لم يكن كذلك في حقل علم النفس. فالإحساس بالقلق مرده إلى تأسيس هذا العلم على قاعدة العلم الطبيعي. وكان علماء النفس الذين خرجوا عن هيكل هذه القاعدة قلة، هم: علماء النفس الإنسانيون المؤمنون بنمو وتطور الشخصية الإنسانية (ماسلو 1962)، علماء النفس الفنومنولوجيون ـ الوجوديون المؤمنون بفلسفة تؤكد على حرية الفرد ومسؤوليته (فال وكينغ 1978)، وعلماء النفس الذين أبوا أن يُخضعوا الشخصية الإنسانية لبعد واحد وآمنوا بأبعاد متجاوزة (تارت 1975). هؤلاء جميعاً صرخوا، بملء أفواههم، بما يشبه القول: «توقفوا! فقد حان الوقت لنكتشف المزيد عن كوننا أناسيين نتميز بكيان إنساني! نحن بحاجة إلى قاعدة جديدة مختلفة. وإلى نظرة مختلفة تتجه إلى دراسة طبيعة ما هو قائم، ما كان قائماً، وما سيكون قائماً». ومن هذه الصرخة، دوّت في آفاق المعرفة أصوات تطالب بتطبيق الظاهراتية الوجودية والفلسفات الشرقية وعقائد تزودنا بتبصرات جديدة وطريقة فهم تجعلنا ندرك الطبيعة المتعددة الوجوه للسلوك البشري، والتجربة الإنسانية، والأوضاع العالمية التي يجد الإنسان نفسه وقد قُذف إلى وسطها.

تتابع الصرخة مطالبتها بضرورة الحاجة إلى نظرة جديدة. فهي تتواصل لسبب هو أن القاعدة التي يقوم عليها علم النفس الطبيعي ـ هي وجهة نظر نيوتن للعالم ـ قد أُسقطت من الحساب على يد الفيزيائيين أنفسهم، إذ وصفوها بضيق ومحدودية نطاقها أو أفقها التصوري (هايزنبرغ 1960، مارغنو 1977). ولكن هذا النموذج الجديد ترنح في سيره بادئ الأمر وتهاوى إذ أخفق في اشتماله على غالبية نتائج البحوث التي انبثقت من العالم دون الذري، ومن الجهد الذي يستمر فيزيائيو الجزيء الطاقي العالي في بذله في هذا العالم المذكور. ويدور سؤالنا حول النقطة التالية: ما حصيلة هذا كله؟ وتشير إجابتنا إلى أن الحصيلة أو الناتج هو بداية طريقة جديدة بكليتها تتفحص طريقة قديمة جداً، ما زالت تثير قضايا حاسمة تتمثل في الأسئلة التالية: «ما طبيعة الوعي الإنساني؟»، «ما الدور الذي تلعبه التجربة الروحية السرية في نطاق التطور الإنساني؟»، «ما موضع الكائن البشري في الكون المعلوم والمُدرك؟» وقد يكون السؤال الأخير أهم الأسئلة كلها.

بادر علماء كبار إلى الإجابة عن هذه الأسئلة في مؤلفاتهم التي درست بدقة العلاقات الوثيقة بين الفيزياء الحديثة والحكمة الشرقية القديمة. وقد يسمح لنا المجال بذكر أسماء الفيزيائيين الذين برزوا أكثر من غيرهم في هذه الدراسة: فريتجوف كابرا (1975)، فيزيائي نظري اختصاصي بدراسة الجزيء، غاري

زوكاف (1979)، بوسل (1976)، تومبسون (1974).

يستهل كابرا تفكيره الذي، ضمنه في كتابه الشهير «طريق الفيزياء» عام 1975. بحوار مبدع أقامه بين المدارس العديدة للحكمة الشرقية (هندوسية، بوذية، طاوية، زن) وبين نتائج البحوث المذهلة الناتجة عن الفيزياء الحديثة. ويقيم كل من العلماء المذكورين أعلاه الدليل، بل يبرهنون بطريقة مقنعة كيف تؤدي نتائج بحوث جديدة في الفيزياء إلى استنتاجات تخص طبيعة الكون، تتماثل على نحو لا يصدق مع تعاليم الفلسفات وأنواع الحكمة التي وجدت منذ آلاف السنين. والحق يقال: إن التأثير الذي يخلّفه وراءهم العلماء هام وفعّال. وفي هذا الصدد، نقتطف مقطعاً من كتاب كابرا «طريق الفيزياء، صفحة30» الذي يوضح فيه:

«... يمتد تأثير الفيزياء الحديثة إلى ما بعد التكنولوجيا. إنه يتسع إلى نطاق الفكر والثقافة والحضارة ليشتمل على تأمل عميق وإعادة نظر فاحصة لتصور الإنسان للكون وعلاقته به. فقد أبان اكتشاف العالمين الذري وما دون الذري في القرن العشرين محدودية الأفكار الكلاسيكية على نحو لا نرتاب فيه، وشددّ على ضرورة إعادة النظر على نحو راديكالي لكثير من الأفكار الأساسية والمفاهيم والتصورات. وعلى سبيل المثال، يختلف تصور المادة في الفيزياء دون الذرية اختلافاً كاملاً عن الفكرة التقليدية للجوهر المادي في الفيزياء الكلاسيكية، واختلافاً راديكالياً عن تصور هذه الأفكار في الفيزياء دون الذرية. وتُعد هذه التصورات التي تبنتها الفيزياء الكلاسيكية أساسية لنظرتنا وموقفنا من العالم الذي يحيط بنا. وتقوم أهمية هذه التصورات في أن نظرتنا الشاملة والكلية للعالم لم تكن لتبدأ لولا التحول الراديكالي الذي طرأ عليها».

تتساوق وجهات النظر التي تهدف إلى إعادة نظرة فاحصة أو تعديل دقيق للتصور القديم مع وجهات نظر أولئك الذين تفهموا وأقاموا علاقة بين العلم الحديث والحقائق القديمة التي أتى بها الشرق والغرب على السواء (نيدلمان 1965، سيو 1957) وأدركوا الروابط الدقيقة الواضحة والقائمة بين الفيزياء والحكمة السرية (لوشان 1974).

رب سائل يسأل: ما علاقة هذا كله بعالم نفس يقيم نظرته التي تبحث في كينونة الإنسان ومناهجه، وتبحث عن طرائق تعمق فهمنا لدراسة هذه الظاهرة القائمة على تصور نيوتوني علمي طبيعي للفيزياء تخلّى عنه علماء الفيزياء أنفسهم؟ ورب مجيب يقول: كل امرئ يطرح هذا السؤال ويشغل نفسه بدراسة الفرد الإنساني وبيئته المُدركة، يجد ضالته في كتاب كابرا الذي يحدثنا بما يلي: «يقتضي الواجب

الإنساني أن نعيد النظر الفاحص في العديد من تصوراتنا ومفاهيمنا الأساسية، وذلك من أجل تبني تصورات تعد أساسية لنظرتنا الكلية للعالم المحيط بنا». إذن، فانطلاقنا يبدأ من هذا الواجب الذي ينبهنا ويحفز فاعليتنا. ومع ذلك. نضيف ما تمّ عن الفنومنولوجيين ـ الوجوديين من نقاش ومحاولة البرهان أن كل نظرة أو موقف من العالم يتضمن. في مطلقه. الإنسان الذي ينظّر: الإنسان والعالم يتآلفان، الواحد منهما يؤلف الآخر ويبنيه. إذن، يجب على «التحول الراديكالي» لهذه التصورات والمفاهيم أن يتضمن تحولاً مماثلاً في النظرة التي نشكلها عن أنفسنا وذواتنا. وما الاقتراح الصحيح سوى تبادل مفاهيمي أساسي في طبيعة الفرد الإنساني ــ اقتراح موجه بشكل خاص إلى علم نفس ذاتي البيان عامل الكائن البشري على نحو ثابت لا متبدل معاملة الموضوع أو الشيء. صحيح أن الكائن الإنساني كيان معقد، ولسلوكه دلالة مدركة وحرفية ومرئية، إنما أسلوب دراسته ما زالت أسلوباً موضوعياً مفروضاً على شاكلة الأمر. لذا، يشعر الفيزيائيون الجدد، وهم يواجهون البنية، الثابتة في موقفها. بضرورة تعديل تصور أو مفهوم كلمة «موضوع» وضرورة تطبيق هذا التعديل في التصور على الكائن البشري في نطاق علم النفس.

سنحاول. في الصفحات التالية، أن نصف طرقاً تمكننا من إعادة تصور التعديل الذي تقتضيه ـ إحداث اتجاه جديد. إعادة التفكير بما يتضمنه اصطلاح «أن نكون أناسيين» ـ. وتقيم هذا الاتجاه الجديد على أساس ما عرضته الفيزياء الكوانتية والنسبية الحديثة من استبصارات تفتح لنا باب الدخول إلى هيكل الكون لنشاهد «حقيقته» أو كيف تبدو لنا هذه الحقيقة.

الفيزياء القديمة والحديثة

يلخص لنا فال (1981). في مقالة خصها بهذا الموضوع. ما أتينا على ذكره في هذه الدراسة. ويشدد على أن المطلوب منها هو: «وجهة النظر الفيزيائية إلى العالم». وإن عرض وجهة النظر هذه في دراسة مستفيضة، تتضمن بحوثاً في المبدأ الذري الذي نادى به ديموقريط. وفي النموذج النيوتوني، وفي طبيعة الضوء الثنائية، الجزيئية والتموجية. وفي نظرية إينشتاين الخاصة في النسبية، ومبدأ هايزنبرغ في اللاتعيّن واللاحتمية. وإن ما يلائم دراستنا هو تركيز الانتباه على مضامين هذه الاستبصارات وما ينتج عن تطبيقاتها في نطاق نظرية وممارسة علم النفس.

علم النفس القديم والجديد

يدور بحثنا الآن حول علم النفس العلمي الطبيعي المعاصر. ويتجلى اهتمامنا في ما يمكن أن تقدمه المناقشة الواردة أعلاه عن المنظور المعدَّل للفيزياء إلى علم النفس ـ وجهة النظر الكلاسيكية إلى العالم. ونتيجة لذلك، ينبثق إلى الوجود نمط هام وممتع عندما نُدخل طريقة الفهم والمعالجة التي يتخذها علم النفس العلمي الطبيعي في سياق أو مضمون النظرة الفيزيائية المعدّلة للعالم.

لا ننكر أن علم النفس، في محاولته أن يكون «علمياً» وموضوعياً، قدم بعض الافتراضات المرتبطة بما يمكن دراسته في الفرد الإنساني. وفي صميمها، تعترف هذه الافتراضات كون كل ظاهرة بشرية، بطريقة أو بأخرى، آ ـ جديرة بالملاحظة، أي أن ملاحظتها ممكنة وإدراكها مستطاع بحاسة من الحواس. ب ـ قياسها ممكن، أي قدرتنا على تحديد مقدار الخصائص المحددة للظاهرة الملاحظة. ج ـ كونها من نوع يمكّن أكثر من ملاحظ من الاتفاق على وجودها والاعتراف بمزاياها. وما من سلوك يلائم هذه الافتراضات غير السلوك الإنساني. لذا، كان علم نفس السلوك الطريقة المتبعة التي تسم عمل علم النفس المعاصر بصفة مميزة. وإن من يقومون بالتحقيق النفساني يعلمون جيداً النطاق الواسع والطبيعة الكلية الانتشار لطريقة الفهم السلوكية. ولا تسلم الفئة الجديدة من العلماء المدركين العارفين، الذين يحيطون أنفسهم بمتغيرات باطنية، من مواجهة واقعية مع السلوك اللفظي أو الحرفي والضرورة المفروضة ذاتياً لبقاء إخلاصهم لهذه الافتراضات الثلاثة.

لا يخفى علينا أن مضامين إضافية تتكشف لنا ونحن نتفحص بدقة علم النفس بوصفه علم نفس سلوك. وكثيراً ما يُستخلص أن موضوع العلوم الطبيعية يتمثل في تقصي الكيانات المكانية ـ الزمانية والعلاقات المتبادلة المتداخلة التي تقوم بينها (كوليزي 1973). ولما كانت هذه الفكرة سلوكية في طريقة فهمها ومعالجتها فإننا نسأل: هل يمتلك الاتجاه السائد في علم النفس كيانات مكانية ـ زمانية، يتحدث عنها بوصفها مادة موضوعه؟ فالسلوك، وهو أمر يمكن قياسه وملاحظته، هو بالتأكيد في مكان طبيعته ـ كل فرد، على سبيل المثال، يحتل حيّزاً معيناً. ولكن، ماذا نقصد بقولنا إنه مكاني؟ وفي سبيل إجابة دقيقة. يجب علينا أن نتفحص مثودولوجيا علم النفس العلمي الطبيعي للحصول منها على معلومات موثوقة.

في الممارسة العلمية لعلم النفس السلوكي، تتشكل الفرضيات، ومن ثم تُمتحن

في أسلوب تجريبي صارم إذ تكون صياغة الفرضيات مفتاح اللغز. والفرضية، بصورة عامة، هي إفادة عن علاقة بين وجودين أو كينونتين متغيرتين. وهي، بصورة خاصة، تنبؤ بالعلاقة العلية ـــ المعلولية بين المتغير الأول أو المستغل ـــ هو العلة المفترضة التي يستطيع المجرِّب المناورة معها أو التأثير فيها ـ وبين المتغير الثاني أو التابع ـ وهو المعلول المقترح والملاحظ. وعلى نحو عادي، تتخذ الفرضية شكل العلة ـ المعلول على نحو مباشر كما هي الحال في المثل التالي المحدد: «نقص في النوم يؤدي إلى زيادة في السلوك العدواني». ويعني هذا المثل أن العلة (نقص في النوم) تؤدي إلى نتيجة (زيادة في السلوك العدواني). وإذا كانت الحالة أكثر عمومية، تضمنت فكرتين نألفهما: المنبه والاستجابة. فالمنبه (وهو ما يمس أو يفجر أحاسيس المتعضية) يعتقد أنه يستنبط أو يستخرج (يُسبب) عادة الاستجابة (المعلول المدرَك، القوة المحرِّكة). وعلى أي حال، فإن النقطة الهامة في صفة مؤقتة خطية غير معلنة أو غير معينة هي أن تكون متضمنة في أية محاولة مقترحة لتحديد علاقة علة ومعلول (أو منبه ـــ استجابة). ويتنبأ المرء بأن المعلول يتلو على نحو مباشر في الزمن إثر حضور العلة. وبالمثل، لا يحدث المعلول في غياب العلة. وهكذا، يتضح أن علم نفس السلوك يتفحص العلاقات المكانية ـ الزمانية.

ثمة مصطلحات مثل المكان، الزمان، العلة ـ المعلول، أُقحمت في الفقرة السابقة تتطلب الإيضاح. ونتساءل إن كانت مألوفة لدينا. إنها التصورات التي تعتمدها الفيزياء النيوتونية. وفي الوقت ذاته، يصوغ علم النفس ذاته وفق «الفيزياء القديمة»، ووفق وجهة النظر النيوتونية إلى العالم. ولا يخفى عن بالنا أن الفيزياء القديمة أظهرت عن واقع هو أنها ضيقة ومقيدة.

أدت معالجة السلوك، بوصفه المعلم الموضوعي الوحيد للناس، إلى سقوط الناس في النظرة التقليصية ـ تقليص الكيان الإنساني إلى حالة أو وضع أو بُعد، وإخضاعه لتفسير ضيق ومحدود. وباسم التجربة، يتابع البحث ساعياً إلى استنباط علة وراء كل نتيجة بحيث تصبح العلة في هذا المثل أو في هذه المرحلة المعلول في المثل الثاني أو المرحلة الثانية. وتستمر هذه العملية المشوشة للذهن إلى أن يتم فحص كل متغير مفترض بتفصيل دقيق، ونقصد كل متغير تتم فيه العملية أو يخضع للإجراء. ويدهشنا أن يكون مثل هذا التقليص للكيان بحثاً!! إنه بحث في «كتل البنية الأساسية» للسلوك الإنساني! بحث نيوتوني، مجهري، مركز عن «الذرات» التي تشكل السلوك! بحث عن تلك «الحقائق» الصغيرة غير القابلة للإتلاف، التي

تحجب عنّا «لماذا» الفعل و«كيف» الفعل؟

إذا ما تعمقنا في التفكير والمقارنة، تكشفت لنا حقائق أخرى. تتكشف لنا حقيقة هي أن نمط المنبه ـ الاستجابة يقدر الشخص بوصفه وجوداً سالباً تماماً كما قدّر نيوتن بأن المادة سالبة. لكن نظرية المنبه ـ الاستجابة تنظر إلى القوى (المنبهات) بوصفها منفصلة ومستقلة عن الشخص، كشيء خارجي يُمس أو ينفجر. وما انفك نيوتن يعتقد أن القوة (قوة الجاذبية) تنشأ، بطريقة ما، من الأجسام المادية موضوع البحث، قوة «تتصل بصلابة الأجسام التي تحدث أثراً فيها». وإن عودتنا إلى ديموقريط تعلمنا أنه اعتبر «القوة» منفصلة ومستقلة. وهكذا، نرى أن علم نفس السلوك قد صيغ وفق الفكر النيوتوني بمقدار ما صيغ وفق المذهب الذري الإغريقي. وعندما نتأمل التبدل الطارئ في النظرة إلى العالم من منظور علمي طبيعي، والقائمة على استبصارات الفيزياء الحديثة، نتردد أن نشاهد علم النفس الحديث الذي شهد لذاته يتخبط، بل يتقدم متعثراً، في خضم بحر المذهب الذري لديموقريط. وإذا ما سعينا إلى معرفة السبب، وجدناه في مدى يقع بعد بحثنا الحالي... ومع ذلك، فلابد لنا من التدقيق في المضامين التي أدت إلى التبدل.

أبانت الفيزياء الجديدة أن ظهور شيء قد يكون في الحقيقة شيئاً آخر ـــ ما يمكن أن يبدو جزيئاً دون ذري في لحظة من اللحظات قد يكون، في تمامه، شبيهاً بالموجة في لحظة أخرى. لذا، يذكر الفنومنولوجيون ـ الوجوديون أن الناس أبعد من أن يكونوا مجرد أشياء أو موضوعات في الطبيعة. وعوضاً عن ذلك، تقوم علاقة متبادلة ومتداخلة أو وحدة كلية سرمدية بين الفرد وعالمه. فالإنسان الوجودي هو أكثر من إنسان طبيعي. وفي صميم الأمر، لا يُنظر إلى وجود الشخص بمعزل عن العالم، أو إلى وجود العالم بمعزل عن الأشخاص. وعلى هذا الأساس، يتعاون الشخص مع العالم في عملية تشكيل أحدهما للآخر. وفي علم النفس التقليدي، يُنظر إلى الناس وبيئتهم بوصفهما شيئين أو قطبين منفصلين ومتميزين. لكن علم النفس الفنومنولوجي ـ الوجودي يرفض هذا التصور أو المفهوم ويُحلّ محله الوحدة التي لا فكاك لها. وتظهر الخلاصة التي توصل إليها كابرا في عام 1975 أنها متوافقة مع تلك النظرة التي توفّق بين العالم والشخص وتؤلف بينهما. يقول كابرا: «كلما توغلنا إلى باطن العالم دون المجهري يتضح لنا كيف يتوصل الفيزيائي إلى اعتبار العالم منظومة مكونات متصلة غير منفصلة، متفاعلة في تداخلها، ودائمة الحركة، واعتبار الإنسان جزءاً متكاملاً أو متحداً مع بقية أجزاء هذه المنظومة».

نقترح. ونحن نملأ عقولنا بهذه الأفكار، أن نُنشئ تناظراً وظيفياً بين الطبيعة الثنائية الجزيئية ـ التموجية التي تعود إلى الظاهرات الفيزيائية المذكورة أعلاه وبين طبيعة الفرد الإنساني: طبيعة الحقيقة كما تُدرك وتُفهم على مستوى ميكروسكوبي عندما يتفحصها الفيزيائي الذي يهتم بدراسة الجزيئات، وما لهذه الطبيعة من ظهورات لا مرد لها على المستوى البشري الماكروسكوبي. وإذا ما توافرت لنا طبيعة الأنماط التداخلية والنتيجة الفوتوغرافية الكهربائية، اتضح لنا أن الضوء يتكشف لنا على هيئة موجة أو جزيء وذلك بالاعتماد فقط على طريقة الفهم والمعالجة اللاحقة التي تبناها البحث ـ الملاحَظ والملاحِظ يتعاونان معاً من أجل تشكيل بنية الحالة كما تظهر. بحيث لا يكون الواحد منهما ذاته دون حضور الآخر. وإن مثل هذه الحقيقة تنطبق في نطاق علم النفس. فقد اختار علم نفس السلوك طريقة فهم ومعالجة موضوعية وتقليصية، واعتمد طريقته التجريبية الملازمة التي يقف منها الملاحِظ المجرِّب موقف الوسيط أو الأداة المنعزلة، المحايدة، واللامتفاعلة في علاقتها بالظاهرة ـ وهي هنا السلوك الذي يُلاحَظ. وإن ما يتجلّى أمامنا، بدقة وقدرة، هو جانب «الموضوع أو الشيء» من الوجود الإنساني: ذلك الجانب من كياننا البشري الذي يمكن وصفه على نحو موضوعي، ويُستقصى بأسلوب متساوق مع الافتراضات الثلاثة المنوّه عنها سابقاً. ويتم التعبير عن هذا الوضع باللغة الفيزيائية كما يلي: الجانب «الجزيئي» من الطبيعة الإنسانية يتكشف لنا، أو أنه يتكشف. بوسائل تحقق لنا غرضاً معيناً. ولكننا نتساءل: هل هذا كل ما في الأمر؟

يتمثل الجواب بنفي مدوٍ يرفض أن يكون هذا كل ما في الأمر. فكلما اكتشف بعض العلماء أن الجوهرية النيوتونية المكانيكية ضيقة في أفقها بحيث لا تشتمل على نتائج بحوث الفيزياء الحديثة ــ مهما كانت معالجتها للظاهرات الماكروسكوبية للمكانيك والفيزياء جميلة وفعالة ـ تأكدوا من أن علم النفس السلوكي الموضوعي، القائم على الطريقة النيوتونية، نموذج مقيد لا يتعدى حدود السلوك ويعجز عن الاستبصار الفنومنولوجي ـ الوجودي الذي يشير إلى أن الفرد والعالم يعاون كل منهما الآخر ليشكلا بنيتهما. وإلى الخلاصة التي توصلت إليها الفيزياء الحديثة التي تشير إلى أن الملاحِظ والملاحَظ واحد في جوهرهما.

حقيقة الأمر هي أن المفكرين الإنسانيين، والفنومنولوجيين، وأنصار علم نفس التنامي انسجموا مع هذه الخلاصة ووافقوا على مضمونها، إنما لم ينجحوا، بما فيه الكفاية، في تقديم بديل. واعتقدوا بأنهم لا يزالون يفتقرون لنموذج أو مثال نقارنه

بالنمط القديم. لكن الوضع ليس هو كما يعتقدون؛ فالمثال قائم؛ ويتمثل هذا المثال في معرفة أن الكائن البشري الواعي والمفكر على نحو سلوكي، يتميز بجانب آخر هو الجانب «التموجي». فإذا ما أجرينا تعديلاً أو تبديلاً في طريقة الفهم والمعالجة، وفي المكان الذي «يقف فيه» المرء، فإنما لينحل الجانب «الجزيئي» ويتجلى ظهور «المعالم الشبيهة بالموجة».

تتجلى طبيعتنا «التموجية» بالدرجة الأولى، في الاختيار الحر الظاهري الذي نتبيّنه في قراراتنا وأفعالنا ـ يفيدنا استعمال كلمة «ظاهري» في هذا السياق مراعاة للحتمية التي تحتضن المدرسة الفكرية التي تتبنى النظرة السلوكية. والحقيقة هي أننا جميعاً قد اختبرنا إحساساً بالاختيار الإرادي، أو «الإرادة الحرة» في وقت من الأوقات. وإن هذا الإحساس يتجلى في عملية إدراكنا، في عواطفنا، ويتحقق من خلال استعداداتنا الطبيعية أو مواهبنا الحدسية. ورغم ظهور حقيقة ما نقول، لكن البرهان يشير إلى عجزٍ في طرائق علم النفس التجريبي الموضوعي لبلوغ هذه النقطة. فما زال الجدل مستمراً بين أنصار الحتمية وأنصار الإرادة الحرة؛ وما زال الأمل في حسم النقاش مجرد إشارة ارتياح. لذا، سنعمد، في الصفحات التالية، إلى دراسة هذه القضية دراسة وافية.

نقترح أن نصف جانبنا «التموجي» بالاختيار الإرادي. ولقد فضلنا اصطلاح الاختيار الإرادي على اصطلاح الإرادة الحرة لأسباب عديدة:

آ ـ لاصطلاح «الإرادة» تاريخ امتلأ بالاستعمالات المختلفة الدالة على معانٍ مختلفة.

ب ـ يُستعمل هذا الاصطلاح على نحو غير دقيق أو مُحكَم.

ج ـ يحمل هذا الاصطلاح إلى أذهاننا مفهوم «إرادة القوة» التي تتضمن الشدة على نحو مطلق.

د ـ يستعمل اصطلاح «الاختيار الإرادي»، في هذا المجال، لوصف ظاهرة لا تتصف بالشدة (أو الأهمية) فحسب، بل تتصف بالاتجاه أيضاً. ففي الفيزياء الكلاسيكية، يُستعمل اصطلاح القوة الموجهة أو الكمية الموجهة للدلالة على التصور الوصفي الذي يُستفاد منه في توضيح أو تمثيل أو وجود أو كيان له مقدار (شدة) واتجاه ـ الكمية الموجهة تتصف بأنها تمتلك قوة معينة، محددة ومعطاة في وحدات تُقاس، كما تتصف بأنها تتميز بهدف واتجاه. إذن، يكون الاختيار الإرادي شبيهاً، في طبيعته، بالقوة الموجهة ـ يقرر شخص أن يعتني بشخص

معين أو يولي حالة ما عنايته (أي مقدار أو شدة الإرادة)، كما يقرر درجة التركيز الذي يريد أن يظهره أو يبرهن عنه (أي تركيز أو صفاء الاتجاه). وكما نتصور في نطاق الفيزياء، تمثل المعادلة أو التوازن التموجي قوة موجهة على نسيج من الجزيئات. هكذا، نتصور أن معالم الاختيار الإرادي لدى الكائن الإنساني يتمثل بقوة موجهة على نسيج سلوكه. وهذا يعني أن القوة الموجهة تصف ما هو ضروري (في المصطلح الرياضي) لعملية التحول من حالة إلى حالة أخرى. نستخلص من هذا التناظر ما يلي: كلمة «حالة أو وضع» تماثل كلمة «جزيء» في المعنى الفيزيائي أو اصطلاح «السلوك المعدّ أو الجاهز للقيام بعملية» في النطاق النفسي ـ المنطقي.

بالإضافة إلى ما ذكرناه، يتصف الاختيار الإرادي بالهدفية أو الغائية. وتؤكد الفنومنولوجيا ـ الوجودية أننا لسنا مجرد أناس واعين بل نحن أناس نعي أمراً، بحيث يكون للوعي موضوع ـ (إن كان هذا الموضوع شيئاً، شخصاً آخر، حلماً أو فكرة: (فال وكينغ 1978). هكذا، نقول إن الوعي هادف (غائي) يمتلك دائماً موضوعاً مقصوداً ومُراداً ـــ أو نقول إنه يتميز بالغائية. أما وقد توافرت لنا هذه التبصرات، فيمكننا القول إن الاختيار الإرادي، بوصفه قوة موجهة، ليس هو مجرد «طيف آخر في الآلة»، بل هو عملية عضوية وظيفية، و «اتجاه نحو» ووعي مشغول بقضية أو ذاتية مرتبطة بخبرة أو بغاية ـ هو ليس «إرادة» بل «إرادة من أجل، إرادة تتجه». وإن احتمال تحقيق حالة متسامية للوعي المجرد، لا يكون للوعي فيها موضوع (راجع بيريل ـ وولف 1973) لهو قضية صحيحة وهامة على نحو خطير، نعترف أنها تتجاوز أفق مناقشتنا الحالية.

يمتلئ التقليد الفدانتي الذي أتينا على ذكره سابقاً بالأدلة على وجود هذه الأفكار. وباختصار، تستشف فلسفة الفدانتا وطريقتها العملية الملازمة وتأملها المتصف بوعي ـ فوقي العلاقات التي تقوم بين المرشد والمريد، وتتعقب أثر سجل تم تدوينه خلال فترة زمنية لا تقل عن خمسة وثلاثين قرناً. وفي القرنين السابع والثامن بعد المسيح، تم تدوين نظام الفدانتا على يد ثلاثة حكماء. ولقد ساعد هذا الجهد الذي قام به الحكماء الثلاثة على توضيح الفلسفة العقلية والفكرية في الفدانتا بحيث أصبحت معرَّفة على نحو نسبي.

لكن التقليد التأملي الذي اشتهرت به هذه العقيدة لا تتيسر معرفته إلا من قِبل القلة المختارة. وإذا توخينا الاطلاع على حكمة الفدانتا فما علينا إلا العودة إلى

النصوص الأولى التي وضعها الحكماء الأوائل وعلى رأسهم باتنجالي. وتعترف هذه الفلسفة أن الفرد الإنساني مجرد شكل مادي وحقل قوة للطاقة الواعية. وتؤكد الفدانتا أن حقل القوة الذي تتصف به القوة الواعية موجود في الجسم الإنساني المادي على هيئة التفاف «حية الأبدية» على طول خطوط. ينظم كل من الجسد الإنساني والشخصية الإنسانية نفسيهما وفقها تماماً كما ينظم ذرّ برادة الحديد ذاته على طول خطوط حقل مغنطيسي. ولا تستيقظ هذه الطاقة الواعية الكامنة ليصبح الوعي الفردي واحداً مع الكيان الكوني إلا بطرق تأملية يتم تعلمها أولاً (آريا 1978).

يناقش باتنجالي في كتاب النصوص ـ يوغا سوترا ـ التيار المتواصل لموجات الفكر التي تسيل أو تتدفق من خلال العقل ـ يماثل ما يعزوه علماء نفس العصر الحديث بأنه تيار العقل المؤلف من «تداعي المعاني أو الخواطر والأفكار التي تترابط في الذاكرة. ووفق هذا المضمون. يصف كتاب «آريا». وهو العقيدة الفلسفية الشرقية، الاختيار الإرادي بأنه «موجات كونية»: موجات اختيار إرادي هي جزء لا ينفصل عن الكون تماماً كما لا تنفصل المادة عن الطاقة ـ وكما تتصور النظرية النسبية هذا الالتحام المتواصل دون انفصال. وتحدثنا مدارس عديدة للفكر الشرقي عن المزية الاتجاهية للاختيار الإرادي (سوامي راما 1976). وتفرض علينا هذه المدارس. أو تنصحنا. بالالتجاء إلى التأمل ـ هو الممارسة المتواصلة لتنقية العقل من كل فكر وانفعال. كوسيلة لتنمية التركيز. بحيث تتمثل الغاية في قدرتنا على توجيه العقل «توجيهاً محدداً» أو تركيزه تركيزاً إضافياً بعزم وتصميم. وفي الواقع. يعرّف باتنجالي اليوغا بالكلمات التالية: «هي ضبط موجات الفكر في العقل». وعن طريق هذا الضبط أو التحكم. يستطيع المرء أن يمارس توجيه الإرادة تماماً كما يمكنه أن يمارس العزف على البيانو. وعلى أي حال. يمكننا أن نوجه إلى أنفسنا السؤال التالي: ما هي مضامين تصور الجانب «التموجي» للطبيعة الإنسانية بوصفها اختياراً إرادياً شبيهاً بالقوة أو الكمية الموجهة؟

في سبيل توضيح هذا السؤال، نعود إلى الجدل الذي أثار الخلاف بين الحتمية والإرادة الحرة. ونعمل على حل لغز هذه العقدة، أو على الأقل، نعيد النظر بدقة في القضايا التي سبق طرحها. فإن كنا نعترف باحتمال تنبؤ كامل للسلوك البشري يقوم على مهارتنا التجريبية في تعيين نوع أو هوية المتغيرات العلائقية كلها وشبكة العلة ـ المعلول التي تشكلها، أو إن كنا لا نقر بلا علائقية الممارسة الحرة للإرادة، فالأمر يبدو. بادئ ذي بدء. شبيهاً في ظاهره، بالعلاقة القائمة بين الجزيء الضوئي

والموجة الضوئية التي لا تقبل الحل. فكما أن قضية الجزيء ـ الموجة وجدت حلاً لها بالدليل القائل إن الخاصتين موجودتان في صميم الضوء ذاته ـ تشتركان في تأليف بنية بعضهما، وتؤلفان بعضهما ــ كذلك ندرك بوضوح الانقسام أو التفرع الثنائي الشعبة بين الإرادة الحرة والحتمية في مضمون مختلف.

يعتقد الكثيرون أن الإرادة الحرة والحتمية نهايتان قطبيتان متعاكستان لقياس متدرج خطي. وسوف نحتفظ بهذا النمط اللفظي لوقت قصير، ونبدأ قائلين: ثمة اقتراح يفترض وجود حالتين يكون فيهما الكائن البشري «المحدد على نحو كلي» الحقيقة الواضحة والبيّنة. وتقع هاتان الحالتان عندما يكون الاختيار الإرادي آ ــ يعوزه، أو يفتقر كلياً إلى المقدار أو الشدة فيما يتعلق بالقضية التي هي في متناول يدنا ـ كمن يقول إن فرداً لا رغبة لديه، أو ثمة تحريض يجعله يفعل في وضع أو يفكر في آ أو ب ـ يفتقر كلياً إلى تركيز أو اتجاه في ما يتصل بالقضية العلائقية ـ كمن يقول إن انتباهه قد انصرف عنه أو تشتت، الأمر الذي يجعل اختياره الإرادي مبعثراً، فاقد الاتجاه فيما يتصل بشدته. وفي أي من الحالتين، تكون طبيعة الإنسان «الموجية»، بطريقة أو بأخرى، لا علائقية، فيتصرف المرء وكأنه «جزيء». ولما كان مقدار واتجاه اختيار إرادي ـ طبيعة الإنسان «التموجية» ـ يزدادان فيما يتصل بالقضية التي هي في متناول اليد، فإن الموضوع الإنساني المتموضع أو المنشئ بكليته والخاضع للتنبؤ المسبق ـ الجانب «الجزيئي» من الإنسان ـ يتلاشى أو يتبدد على نحو تناسبي. وعلى نحو يمكن إدراكه، يتقلص المرء إلى «شيء» يمكن التنبؤ به والسيطرة عليه، ويشاهد وكأنه يخضع لسيطرته الخاصة. لذا، يجب أن لا يقع ضغط قوي أو إجهاد كبير على طبيعة الوجود الإنساني «الجزيئية ـ التموجية». ففي صميم طبيعتنا، يؤلف هذان المعلمان بعضهما ويشتركان في تشكيل بنية بعضهما وذلك وفق ما تحدثنا به الفنومنولوجيا ـ الوجودية.

وبالفعل، لا مغزى لوجود جانب دون وجود الجانب الآخر، وليس بمستطاع أي جانب أن يوجد منفرداً دون أن يتسبب في وجود الآخر تماماً كما يكون «الضوء»، بوصفه انعكاساً فكرياً لتجربتنا، خالياً من المعنى مالم تقم مشاركة متبادلة بين خاصته الجزيئية والتموجية. لذا، لا يستطيع من يدقق ويتساءل ويغوص بعمله إلى عمق البحث العلمي، أن يعزل هذين المعلمين عن بعضهما، بأية طريقة كانت، بالشكل والهيئة دون أن يشق الظاهرة التي يسعى إلى فهمها إلى شقين ــ وهي، في هذه الحالة، الكائن البشري.

وإذا صحت هذه التبصرات. فإن الأسباب المبررة لجدل يحتدم بين الحتمية والإرادة الحرة. تصبح أكثر وضوحاً. وعلى نحو أكثر تحديداً، تجاهل أصحاب المذهب الحتمي المتزمتون الطبيعة «التموجية» للوجود الإنساني ـ ضيّقت الطريقة التجريبية رؤيتهم وسمحت لهم برؤية جانب الإنسان «الجزيئي». أما الذين تعلقوا بالتفسيرات الصارمة لمذهب الإرادة الحرة فقد تجاهلوا الجانب «الجزيئي» للوجود الإنساني ـ وسمحت لهم وسائلهم الاستبطانية بمشاهدة الجانب «التموجي» وحده. ويمكننا أن نبتعد في مغامرتنا ونفترض أن الزيادة في معرفة جانبنا «الجزيئي» في أي ظرف ووضع معينين تتطلب، من حيث المبدأ، ضرورة نقصان في معرفة جانبنا «التموجي»، والعكس صحيح ـ إن تفحص معالم المرء «الشبيهة بالموجة» في أي وقت معين يتطلب استحالة القياس الدقيق للعناصر «الجزيئية» المكملة أو المتممة. وكما يبدو، نجد على المستوى السيكولوجي الماكروسكوبي وضعاً متناظراً على نحو مباشر مع الوضع الذي يحدثنا به مبدأ هايزنبرغ للاتعين أو للاتحديد، الذي أكدت التجربة صحته وحقيقته على المستوى الميكروسكوبي دون الجوهري. هكذا، تصبح قضية الحتمية ـ الإرادة الحرة ثنائياً أو انقساماً وهمياً.

أما وقد بلغنا هذه النقطة من البحث، فحري بنا أن نعرض الاتجاه الجديد الذي يسير فيه علم النفس. وفي سبيل وضوح أشمل نقول: إن الفيزياء الحديثة، وهي تعتمد الرياضيات، تعتبر وجود المادة غير مؤكد على نحو يقين في أي مكان محدد أو معين، بل هي تُظهر «ميلاً أو نزوعاً للوجود». وكذلك، تصف الأحداث الذرية بأنها لا تقع بالتأكيد أو باليقين في أزمنة معينة أو محددة، بل تكشف عن «ميل أو نزوع للحدوث». وترتبط هذه التبصرات، على نحو مباشر، بفهم الطبيعة التموجية ـ الجزيئية لجوهر المادة. وبالمثل، لا يحقق الطبيعة «الجزيئية ـ التموجية» للفرد الإنساني إلا علم نفس جديد. وهذا يعني أن السلوك الإنساني أو الفكر الإنساني لا يحدث على نحو يقين في أزمنة محددة أو معينة، بل يُظهر، عوضاً عن ذلك، ميلاً أو نزوعاً للحدوث».

تعتمد هذه العبارة، على نحو غير مباشر، على الجانب «التموجي» للطبيعة الإنسانية، الجانب الذي يتصف بالاختيار الإرادي. وفي الوقت ذاته، يعتمد احتمال «الميل أو النزوع إلى العمل» على نحو حقيقي على «ميلنا إلى ممارسة الاختيار الإرادي والموجّه» في أي وقت. وإن كنا نقبل، بوصفنا كائنات بشرية، أن نقيم الدليل على وجود نزعة إلى السلوك أكثر من وجود سلوك محدد أو محتم على نحو تام، فلكي

نتوصل إلى نتيجة مذهلة تتلخّص فيما يلي: «لا يمكننا أبداً أن نتنبأ بالسلوك الإنساني على نحو يقين لسبب هام هو أن طبيعة هذا السلوك «تموجية» في صميمها وجوهرها. وفي الواقع، يمكننا الآن أن ندرك أن التفاوت في المعلومات والبيانات والمعطيات التجريبية كلها، وهو خطأ واضح وجلي، ناتج عن تجاهل الجانب الاختياري الإرادي لموضوعنا البشري. لذا، يعد الجانب «التموجي» سبباً لوجود تفاوت أو اختلاف «قائم» لا يفسَّر أبداً وفق طريقة الفهم «الجزيئية» التي تعالج علماً اجتماعياً موضوعياً مثل علم النفس. وهذا ما يدعو إلى إخضاع علم النفس لمفهوم الجانب «الجزيئي».

يذكّرنا كابرا بأن الأشياء المادية والصلبة التي تحدثت عنها الفيزياء النيوتونية تنحل إلى احتمالات علاقات داخلية متبادلة شبيهة بالموجة، وأن الطبيعة لا ترينا أي «كتل بناء أساسية» بل نسيجاً من العلاقات بين الأجزاء المتنوعة للكل. ويوسع كابرا هذه النقاط، فيصف حالة مذهلة إذ يقول:

«كان للنظرية النسبية تأثير عميق على الصورة التي رسمناها للمادة. فقد ألزمتنا على تعديل فكرتنا عن الجزيء بطريقة هامة. ففي الفيزياء الكلاسيكية، تزاملت كتلة الشيء دائماً مع جوهر مادي غير قابل للإتلاف مع «جوهر مادي» معين، يُعتقد بأن جميع الأشياء قد صُنعت منه. وقد أظهرت النظرية النسبية أن لا علاقة للكتلة مع أي جوهر مادي، ذلك أنها شكل من أشكال الطاقة؛ والطاقة هي مقدار متزامل مع الفعالية أو مع العمليات العضوية. ويعني واقع أن تكون كتلة جزيء، معادلاً لمقدار معين من الطاقة، أن ذلك الجزيء لم يعد يشاهَد على شكل موضوع سكوني، بل لابد من إدراكه وتصوره على أنه نمط ديناميكي، بمعنى أنه عملية عضوية تشتمل على الطاقة التي تكشف عن ذاتها على شكل كتلة جزيء».

على هذا الأساس، يقترح بعضهم أن يعمد علم النفس الجديد، وهو ملزم على اتخاذ الجانب «التموجي» والجانب «الجزيئي» للطبيعة البشرية، أن ينظر إلى الفرد الإنساني بأنه عملية وظيفية عضوية في علاقات متبادلة. ولما كنّا في طبيعتنا «أشبه ما نكون بالموجة» ونوجد حقاً في وضع «اجتماعي»، لا مفر منه على هذا الكوكب، فإن تفسير سلوك فرد واحد، أي تصرفه، وفكره، وعاطفته، يجب أن يتضمن، على نحو ثابت، لا متغير، الأشخاص الآخرين الذين يتفاعل معهم هذا الشخص الفرد. وإننا نصادف هذه الحالة من «التفاعل المتداخل» عندما يشغل الفرد، الذي تم فحصه، نفسه على نحو مباشر في عمل مقصود وموجه إلى شخص آخر، ويفكر بطريقة ما في

عمل آخر. ويتمتع بمشاعر وعواطف مرتبطة. بوضوح. بوجود آخر. وإذا عبرنا عن هذا القول بطريقة أخرى قلنا: إن الاختيار الإرادي لدى فرد يتجه إلى شخص آخر. والواقع هو أن الرياضيات النظرية قد نجحت في إقامة الدليل على أن المعْلم التموجي لأي كيان فيزيقي يمتد إلى اللانهاية. ويواصل وجوده دون بلوغ نهاية. هذا، بالرغم أنه يبدو بأنه محتجز ضمن الحيز المحدود الذي يتكشف فيه شكله. وهذا هو ما يقع للاختيار الإرادي الموجه. لذا. يصبح القرب المادي بين فردين «متفاعلين» لا علائقياً. فإذا ما وجه شخص اختياره الإرادي «التموجي» إلى شخص آخر ـ وغالباً ما نقول إن شخصاً وعى شخصاً آخر ـ نقول وقتذاك إنهما «متفاعلان».

هكذا. نجد أنفسنا نواجه علم نفس اجتماعي كوني متنوع يشتمل موضوع مادته ـ بالضرورة. على الأنماط الديناميكية للتفاعل البشري والعمليات العضوية الوظيفية المتضمنة في تكوين هذه الأنماط. ويقارن هذا العلم بعلم النفس الاجتماعي التجريبي التقليدي الذي يتصور الأفراد «رعايا» منفصلين «يتفاعلون» على نحو مزعوم مع سُبل اختيار إرادي «جائزة ومباحة» فُرضت سلفاً على نحو مثودولوجي ــ طريقة للفهم تظل حية أثناء نبوءة «جزيء» وتحقق ذاتها. دون أن توضح طبيعتنا «التموجية». ويصف الفيزيائي الحديث العمليات العضوية دون الذرية التي تحدث على نحو دائم، ويتم ضمنها تبادل متداخل بين المادة والطاقة. ويستطيع كل جزيء ـ بطاقة معينة من الحركة والكتلة ـ أن يصبح جزيئاً آخر أو جزيئات ـ بحركة وكتلة مختلفتين لكنهما محفوظتان ـ عندما تتصادم هذه الجزيئات: في هذه التصادمات تظهر طبيعتها التموجية ــ الجزيئية الحقة. وعندما «يتصادم» شخصان، تحدث حصيلة مماثلة لهذا التفاعل وتتكشف الحقيقة ذاتها. وبالفعل، وصف العديد من علماء النفس والفلاسفة كيف «نموت» و«نحيا من جديد» في كل لقاء اجتماعي. أما درجة «الموت» و«الحياة من جديد» فإنها تعتمد على أهمية وشدة التفاعل.

بناء على ما تقدم، تُراعى التحليلات الوصفية للطبيعة البشرية. بوصفها نمطاً ديناميكياً للاتكال الاجتماعي المتبادل. بطرق مختلفة أو متنوعة. فالوجوديون الحواريون. وعدد من أتباع مدرسة يونغ للتحليل النفسي وصفوا هذا المعْلم الخاص بالطبيعة البشرية. ومع ذلك. لا نرى ضرورة الاتكال على الوصف وحده. فالحقيقة التي نتبينها، في كل الظاهرات التي تشبه الموجة، تكشف عن ذاتها في نطاق الموجات الإرادية التي تخلق أنماطاً عندما تتقاطع. وبإمكاننا أن نتصور عالم النفس الجديد وهو يحلل نمطاً معقداً من «التداخل الإرادي» يتضمن الإرادة الموجهة لعدد

من الرعايا البشر عن طريق تناظر سيكولوجي ما مع تحليل فوربيه: أما تحليل فورييه فهو عبارة عن أسلوب رياضي رفيع الشأن وُضع من أجل استخلاص الأشكال الموجية الفردية «المجردة» التي تؤلف أو تشمل نمط تداخل معقد. والحق يقال، إن نموذج التحليل الذي وضعه فورييه بشأن الأنماط المعقدة للتفاعل الإنساني يعد خطوة جبارة في نطاق فهم أنفسنا.

لا نقف عند هذا الحد في عرضنا للمؤثرات التي يمكن أن تخلفها الفيزياء الحديثة على تنظيرنا السيكولوجي. وعلى سبيل المثال، يجمع علماء الفيزياء في الوقت الحاضر كل دليل جديد تأييداً لنظرية «بلْ» التي تفترض إمكان اتصال أجزاء الكون المنفصلة عند مستوى قاعدي أساسي، كما تفترض أن الأشياء، وقد اتصلت، تظل مرتبة عبر المسافات عن طريق قوة مجهولة تجتاز الحيز بسرعة أكبر من سرعة الضوء... لقد تأثر فيتكنشتاين، عالم الفيزياء والرياضيات، بنتائج البحث هذه وكتب ما يلي بإصرار وتصميم: «إننا على وشك اجتياز مرحلة تضطرنا إلى إعادة النظر الدقيق في تصوراتنا عن الزمان والمكان. وسوف تكون هذه الإعادة أو الإعادات أكثر تطرفاً من تلك التصورات التي ولدتها الفيزياء الكوانتية والنسبية (وود ورد ولوبناو 1979)». والجدير بالملاحظة تلك التشعبات المحتومة التي ستكون لنظرية «بلْ»، أو لنظرية مماثلة لها، التأثير على علم الفيزياء وعلم النفس.

في الآونة الأخيرة، بدأ العلماء والمفكرون يطرحون أكثر من تأمل فكري مستقبلي. فعلى الأفق، يرتسم تبدل نظري أساسي، مشدود بروابط مباشرة واضحة إلى علم النفس والفلسفة. ويشهد لهذا التبدل كل من كارل بريبرام ودافيد بوم اللذين وظفا النماذج الهولستية الجديدة. وقد اقترح بريبرام، وهو باحث ومتبحر في الدماغ الإنساني، أن الدماغ يعمل من خلال تفاعلات عصبية شبيهة بالموجة تساعده على تفسير الترددات الموجية وتخزين الصورة الناتجة (تشبه كثيراً هولوغراماً ثلاثي البعد)، ليس في شكل أو نمط ممركز، بل على نحو مشتت في كل مكان من الدماغ (فرغسون 1978). أما دافيد بوم، وهو فيزيائي نظري، فيصف كوناً هولونوميكياً منطوياً ومنثنياً على ذاته، ومنفتحاً ينشر انطواءه في آن واحد. ويقدم لنا بوم حصيلة فكره في فكرتين آ ـ يحتمل أن يقدم لنا هذا الكون مثالاً جديداً للوعي. ب ـ يقدم كوزمولوجيا جديدة برمتها تقوم على دفق لا منظور لاتصال داخلي متبادل لا ينقطع (ويبر 1978). ويتفحص بنتوف (1978) هذه الحالة من الاتصال الداخلي المتبادل، ويقيم بينها وبين المفاهيم الشرقية للحقيقة والعملية العضوية النفسانية للتشخص،

الدليل على العلاقة الوثيقة بين الأنماط الهولستية الجديدة وفهم الظاهرات البشرية.

إن استيعاب الطريقة التي تدرك الطبيعة الإنسانية وتفهم أنها طبيعة «تموجية - جزيئية» يسهِّل بدء تشكيل أنواع الأسئلة كلها. هنالك من يسأل: هل يتناظر «التركيز الموجه للعقل مع ثابت سرعة الضوء؟». وهنالك من يسأل: «هل أن العلاج السيكولوجي الناجح للاضطرابات العقلية والعاطفية يعالج على نحو ثابت وغير متبدل توجيه الاختيار الإرادي؟». وثمة من يسأل: «هل ستكون طرائق الفهم الهولستية هي الوحيدة التي تفسر بنجاح طبيعتنا الثنائية؟». وثمة من يسأل بعد أن يدرك أن تحطيم الروابط في نواة جوهرية يحرر مقادير من الطاقة: «هل أن تحطيم روابط الذات عن طريق الممارسات التأملية يترك نتيجة أو أثراً دراميا ًشبيهاً؟».

عندما استهل كابرا، في عام «1975»، بحث فصل «الفيزياء الحديثة» في كتابه «طريق الفيزياء»، كتب ما يلي:

«تطوران منفصلان مميزان: التطور الذي حصل في إطار النظرية النسبية والتطور الذي حصل في الفيزياء الجوهرية، حطما أسوار التصورات الرئيسة التي بنت عليها الفلسفة النتيوتونية وجهة نظرها إلى العالم وتمثلت في ما يلي:

فكرة الزمان المطلق والمكان المطلق، الجزيئات الدقيقة الأولية، الطبيعة السببية المتزمتة للظاهرات الفيزيائية، ومثال وصف موضوعي للطبيعة. والحق يقال: إن هذه التصورات المبدئية قاصرة عن الامتداد إلى النطاقات الجديدة التي تتخللها الفيزياء الحديثة في الوقت الحاضر.

في العرض الذي بسطناه أعلاه، يبرز اعتقاد ضمني مسلّم به أو مفترض، هو أن التبدل التصوري المتسارع في الفيزياء سيؤدي، بدوره إلى تناظر موازٍ له في علم النفس، يقضي على ما سبق من مبادئ في هذا النطاق. وسوف يشهد المستقبل إقبال علماء النفس على اختبار تبدل درامي في وجهة نظرهم، تبدل يشتمل على تغييرات متطرفة في مفاهيم مثل الطبيعة السببية للظاهرات السلوكية والتجريبية. وسوف يشتمل التبدل على تشيؤ الإنسان وتموضعه وتقليصه. فكلما ارتقى «العصر الجديد» وتقدم، تطور معه علم السلوك وذلك لكي يتحول إلى علم نفس كوانتي نسبي.

مراجع البحث

1- Bentov, I: Comments on the holopraphic view of reality.

2- Capra, F: the Tao of Physics.

3- Ferguson, M: Karl Pribram Changing reality.

4- Le Shan, L: The medium, the mystic, and the plysicist.

5- Maslov, A. Y: Toward a psychology of being.



الفصل الثالث

الفيزياء الحديثة

مضامينها وتطبيقاتها في نطاق علم النفس[1]

للفيزياء الحديثة تأثير بالغ في الفكر الفلسفي. فقد كشفت هذه الفيزياء محدودية الأفكار الكلاسيكية، وأدت إلى مراجعة عميقة للتصورات الأساسية العديدة في علاقتها بالحقيقة والواقع. وأبانت كيف تختلف تصورات الفيزياء الذرية وما دون الذرية للمادة، والمكان، والعلة والمعلول عن التصورات الكلاسيكية المقابلة، وكيف أدى التحول الجذري إلى صياغة نظرة كونية شاملة.

ولاشك، أن التبدلات المفاجئة في فلسفة الفيزياء ستؤثر، عاجلاً أم آجلاً، في العلوم الأخرى، الطبيعية والإنسانية والاجتماعية، وذلك لأن هذه العلوم قد أخذت تصوغ ذاتها وفق تصورات الفيزياء... ولما كانت هذه العلوم تصوغ ذاتها وفق مقولة الفيزياء النيوتونية، فإنها تبذل جهدها في الوقت الحاضر لتوسيع فلسفاتها الأساسية لسبب واحد هو أن الفيزيائيين قد تجاوزوا النموذج النيوتوني والديكارتي، مما أدى إلى إدراك العلوم الأخرى لما طرأ من تقدم في الفيزياء الحديثة. وفي هذه الدراسة، نشير إلى علائقية هذا الإدراك الجديد بعلم النفس والطب النفسي.

النظرة النيوتونية المكانيكية:

يجب علينا، ونحن نستهل دراستنا، أن نصف النظرة إلى العالم التي سعت الفيزياء الحديثة إلى تبديلها أو تعديلها. وتُعرف هذه النظرة بأنها موقف من العلم يتصف بالمكانيكية: هي نظرة وجدت جذورها في فلسفة الذريين الإغريق الذين قالوا: إن المادة مصنوعة في «أساسها من كتل بناء» عديدة، هي الذرات، تتصف بقدرة كامنة، حيادية وهامدة في جوهرها. وكان الاعتقاد السائد أن حركتها تقوم على

---

[1] ـ محاضرة ألقيت ضمن برنامج محاضرات الجمعية الكونية، دمشق.

محرك خارجي يُظن أنه ذو منشأ روحي يختلف اختلافاً أساسياً عن المادة.

أضحت هذه الصورة جزءاً هاماً يتّصل بطريقة التفكير الغربية، وأدت بدورها إلى انبعاث ثنائية الروح والمادة، ثنائية العقل والجسد، ثنائية طبعت الفكر الغربي بطابعها. ووجدت هذه الثنائية صيغتها الصافية، وصاغت ذاتها، في شكلها الواقعي، في فلسفة ديكارت الذي أسس نظرته إلى الطبيعة على التقسيم الجوهري للروح والمادة، للأنا والعالم. وبالفعل، أفسح هذا التقسيم الديكارتي المجال أمام العلماء لاعتبار العالم المادي كثرة أو تعدداً من الموضوعات المختلفة تجمعت في آلة ضخمة. ولقد دعم نيوتن هذه النظرة الموجهة إلى العالم وشيّد مكانيكه عليها، وجعلها القاعدة التي تقوم عليها الفيزياء الكلاسيكية.

إذن، فقد قام كون نيوتن، الذي تحدث ضمنه الظاهرات الفيزيائية كلها، على المكان ذي الأبعاد الثلاثة، والذي يعتمد بدوره على هندسة إقليدس الكلاسيكية. وهكذا، كان كون نيوتن مكاناً مطلقاً، أي وعاء فارغاً مستقلاً عن الظاهرات الفيزيقية التي تقع ضمنه. وفي هذه الحالة، تصف الفيزياء الكلاسيكية المكانيكية التبدلات أو التغيرات الواقعة في العالم الفيزيقي بلغة بُعد مستقل، هو الزمان المطلق المستقل بدوره عن العالم المادي، والمتدفق برقة من الماضي، مروراً بالحاضر، إلى المستقبل.

أما العناصر التي يتألف منها العالم النيوتوني الذي تتحرك داخل هذا الحيّز المطلق فلا تخرج عن أن تكون جسيمات مادية دقيقة، صغيرة وصلبة، تُعرف بأنها أشياء لا تقبل التجزئة أو الإتلاف، انبثقت منها المادة كلها. واستطاع نيوتن أن يصف حركتها الناشئة عن قوة الجاذبية في معادلاته عن الحركة. وعُدّت هذه المعادلات الأساس الذي شُيدت عليه المكانيكا الكلاسيكية.

بالإضافة إلى هذا، اعتبرت هذه المعادلات قوانين ثابتة تتحرك وفقها الموضوعات أو الأشياء المادية، واعتمدت قوانين تفسر كلية التغييرات الملاحظة في العالم الفيزيائي. وتبين نظرة نيوتن كيف أن الله، في البدء، خلق الجسيمات المادية، والقوى المنظمة بينها، والقوانين الأساسية للحركة. وبهذه الطريقة، انطلق الكون كله في حركته، وتابع حركته منذ ذلك البدء، مثل آلة، تتحكم بها القوانين الثابتة التي لا تقبل التبديل.

هكذا، نرى أن النظرة المكانيكية المضافة إلى الطبيعة تمت بصلة وثيقة إلى حتمية صارمة. وتشاهَد الآلة الكونية الجبارة وكأنها تخضع بكاملها للسببية

والحتمية. فكل شيء يحدث، يخضع لعلة أو سبب، ويؤدي إلى إحداث أو نشوء معلول محدد لا لبس فيه. لذا، لا يدهشنا أن نعرف أن هذا الأصل الفلسفي. الذي نشأت على خلفيته الحتمية الصارمة، يمثل الفصل الجوهري بين الأنا والعالم، هذا الفصل الذي وطّده ديكارت. ونتيجة لهذا الفصل أو التقسيم والتجزئة، نشأ الاعتقاد بإمكانية فصل العالم على نحو موضوعي، وأقصد، دون التعرض لذكر الملاحِظ أو المراقِب الإنساني. ولا غرو أن مثل هذا الوصف الموضوعي للطبيعة هو المثال الذي يحتذيه كل علم.

التأثير الناتج عن المنهج النيوتوني على العلوم الأخرى:

هيمن المنهج المكانيكي النيوتوني الكوني على الفكر العلمي كله طيلة فترة تمتد من النصف الثاني للقرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر، الأمر الذي جعل العلوم الطبيعية، بالإضافة إلى العلوم الإنسانية والاجتماعية، تعدل ذاتها وفق الفيزياء النيوتونية. والحق يقال إن بعضها لا يزال مشدوداً برباط إلى هذا النموذج رغم تجاوز الفيزيائيين له.

قبل أن نستهل بحثنا عن الأثر الذي خلفته الفيزياء النيوتونية على علم النفس، أريد أن أشير إلى نقطة هامة في حديثي، هي، أن التصور الجديد للكون، وهو منبثق عن الفيزياء الحديثة، يدين الفيزياء النيوتونية بالخطأ، ولا يشدد على صواب نظريات العلماء الجدد الأخيرة. فلقد أقام العلماء الدليل، وتأكدوا بعض التأكيد، وهم يعملون في نطاق العلم الحديث، أن النظريات العلمية الحديثة برمتها تقديرات تقريبية لطبيعة الأشياء. وبناء على هذا، تكون كل نظرية صحيحة ضمن مجال معين من مجالات الظاهرات. وإلى ما وراء هذا المجال، لا تقدم هذه النظرية وصفاً كافياً للطبيعة. وهذا يعني أن الفيزيائيين يسعون إلى البحث عن نظريات جديدة تحل محلها، أو يعملون على التوسع في مضمونها في سبيل تحسين أفضل لما جاء فيها من تقدير تقريبي.

إذن، فالقضية المطروحة تعبر عن ذاتها في السؤال التالي: أي مقدار من الصواب والتقدير التقريبي نجده في النموذج النيوتوني يجعلنا نتبناه قاعدة للعلوم الأخرى على نحو عام، ولعلم النفس على نحو خاص؟

وللإجابة عن سؤال من هذا النوع نقول:

أ ـ في الفيزياء ذاتها، لا يصلح هذا النموذج، بل لا يطبق، على مستوى

المتناهي في الصغر ـ الفيزياء الذرية وما دون الذرية، وعلى مستوى اللامتناهي في الكبر ـ الكوزمولوجيا والفيزياء الفلكية.

2ـ في حقول علمية أخرى، قد تكون الحدود التي يقف عندها هذا النموذج من طبيعة أخرى. وجدير بالذكر أن ما نتحدث عنه ليس هو تطبيق الفيزياء النيوتونية على الظاهرات الأخرى بقدر ما هو تطبيق النظرة المكانيكية المقلّصة[1] للعالم التي قامت عليها الفيزياء النيوتوية. لذا، يجب على كل علم، بالضرورة، أن يكشف لذاته موقع حدود هذه النظرة للعالم ضمن سياق خاص.

التأثير الناتج عن فلسفة ديكارت على العلوم الأخرى:

استطاعت آراء ديكارت أن تطبع علم النفس والطب النفسي بتأثيرها الحاسم. فقد أصبح الفصل الديكارتي بين الذات العارفة والموضوع المعروف القاعدة المتبعة في البيولوجيا، والطب وعلم النفس والطب النفسي ـ العقلي.

ومن اللحظة التي طُرح فيها هذا الفصل، تساءل العلماء والفلاسفة عن الطريقة التي يتم فيها تفاعل العقل والمادة مع بعضهما، وعن دور وطبيعة كل من العقل والدماغ. فلا يدهشنا بعد الآن أن نقول: إن ديكارت عزز الثنائية وكرس الفصل بين العقل والمادة، وبين العقل والدماغ.

فيما يتعلق بالبيولوجيا، فقد وقف علماء البيولوجيا على جانب من جانبي هذا النمط أو الحد الفاصل بينهما، واعتنقوا مبدأ ديكارت في الكائنات الحية، وقالوا عنها بأنها آلات مُنشأة نتيجة لتجمع أجزاء منفصلة.

يفترض مثل هذا التناظر الوظيفي بين الآلة والمتعضيات فهماً لهذه المتعضيات يوضح فرقاً أساسياً بين تجزئتها وجمعها من جديد وبين معرفة أجزائها. وبالفعل، لا تزال طريقة الفهم هذه تشكل العمود الفقري الذي يعتمد عليه التفكير البيولوجي المعاصر.

تأثر الطب بالنماذج المكانيكية للبيولوجيا لأنه يعتبر الجسد الإنساني آلة تخضع لمعايير التحليل والتركيب من خلال أجزائه. فالمرض، من وجهة نظر الطب، وجود خارجي يغزو الجسم ويهاجم جزءاً معيناً من أجزائه. وبناء على هذا، يتجسد دور الطبيب في أن يتدخل ليُحدث نتيجة عن طريق الجراحة ـ وهذا عمل جسدي ـ

[1] ـ النظرة المقلّصة هي المذهب الذي يرد الموضوع أو الشيء إلى كتل بانية أساسية.

أو عن طريق الأدوية، وهذا عمل كيميائي ــ ويسعى إلى إقامة نسبة بين الأجزاء المختلفة والأخصائيين المختلفين.

في الوقت الحاضر، يواصل الطب الغربي طريقته في المعالجة، وهي طريقة التقليص، ويعمل على تطوير فروع علمه الاختصاصية إلى نقطة لن يعود الأطباء بعدها قادرين على اعتبار المرض اضطراباً وقع في الجسد كله أو في الطاقة الحيوية كلها، وعاجزين عن معالجته وفق هذا المفهوم. وينحصر ما يقوم به الأطباء في معالجة جزء خاص من أجزاء الجسد. وتتم هذه العملية على نحو عام دون إشراك الأجزاء الأخرى في العملية أو دون أخذها بعين الاعتبار. ويغضون الطرف عن، بل يهملون، المعالم النفسية والاجتماعية لمرض المريض ويتركونها لشأنها. وإن مثل هذا التصرف يُفضي إلى أن تُترك المعضلات النفسية لعلماء النفس أو لعلماء الطب النفسي ـ العقلي الذين كانوا ـ أو لا يزالون ـ يتخذون من المثال النيوتوني ـ الديكارتي نموذجاً لهم.

علم النفس الكلاسيكي:

هنالك طريقتان للمعالجة تدرسان العقل وفق معطيات علم النفس التقليدي القائم على الازدواجية الديكارتية. فمن جهة، اختارت مدرسة علم نفس السلوك هذه الازدواجية من أجل دراسة تأثيرات العقل على المادة عن طريق دراسة السلوك. وفي سبيل تحقيق هذا الهدف، تم تطبيق مثودولوجيا الفيزياء الكلاسيكية. ومن جهة ثانية، اختار فرويد الاستبطان من أجل دراسة الذات العارفة. وعلى الرغم من أنه لم يعالج دراسة المادة، لكنه، مع ذلك، أراد أن يطوِّر علم نفس علمي صاغه بدقة وفق معطيات الفيزياء الكلاسيكية.

علم نفس السلوك:

انبثقت مدرسة علم نفس السلوك من علم نفس القرن التاسع عشر الذي حاول أن يقلِّص الظاهرات النفسية إلى «كتل بناء» نفسية أو عقلية، هي مجرد تداعٍ مبدئي للأفكار والخواطر، وإدراكات حسية بدائية.. إلخ. وتُعزى هذه العناصر والمقادير النفسية إلى حوافز أو منبهات فيزيولوجية يُفترض أنها أسباب لها. وكما هو الحال في البيولوجيا الكلاسيكية، يُنظر إلى المتعضيات الحية بأنها آلات تستجيب للمنبهات الخارجية. وجدير بالذكر أن آلية التحريض ـ الاستجابة هذه صيغت وفق الفيزياء النيوتونية.

يدافع علماء نفس السلوك، الذين يشكلون الاتجاه السائد لعلم النفس

الأكاديمي، عن طريقة معالجتهم، ويدعون بأنها الطريقة العلمية الوحيدة المتوافرة لمعالجة القضايا النفسية. ويتهم أولئك السلوكيون مدارس علم النفس التي تؤكد الجانب الإنساني، وتلك التي تتجاوز البعد الواحد في دراسة الشخصية الإنسانية، بأنها مدارس غير علمية. وإن دلَّ هذا على شيء فإنما ليقدم البرهان عن الكيفية التي بواسطتها يوحِّد علم السلوك العلم مع الطريقة التقليصية التي تتصل بالعلم النيوتوني.

التحليل النفسي:

لما كان فرويد قد سعى إلى صبغ علم النفس بالصبغة العلمية، فقد أقام أو أسس علاقة لها دلالة فكرية أو تصورية تصل التحليل النفسي بالفيزياء الكلاسيكية. وعبّر عن هذه الحقيقة في وضوح قوله: «المحللون النفسيون، هم، في واقعهم، آليون عنيدون، متمرسون وماديون».

وعلى غرار الفيزيائيين، بحث فرويد عن «كتل البناء». وركز في بحثه على الغرائز الأساسية وافترض الأنا، والهو، والأنا العليا، وسلّم بأنها بنى نفسية أساسية، تتمركز وتمتد في الحيّز النفسي. وتُدرَك هذه البنى بوصفها نوعاً من أنواع الموضوعات الداخلية التي تتصارع مع بعضها. وتقودنا هذه النظرة إلى اعتبار آليات وطرائق العقل أنظمة تسيّرها قوى صيغت بصيغ المكانيكية النيوتونية.

هكذا، نرى أن النموذج المكانيكي، مثله مثل الفيزياء الكلاسيكية، يتصل بالحتمية الصارمة. ولما كان الطب النفسي يرتبط بالفيزياء الكلاسيكية وبالنموذج المكانيكي، فإنه يفترض أن ما يلقاه داخل الإنسان ثابت فيه منذ الولادة، ويقلّص الباثولوجيا، بل يعزوها، إلى أسباب محددة غاية التحديد ومقصورة على الفرد. وعلاوة على هذا، يفترض الطب النفسي أن المراقِب أو الباثولوجي امرؤ منفصل عن الظاهرات المراقَبة، وهي المريض، الأمر الذي لا يؤثر في المعطيات أو البيانات أو الحقائق. ويضفي التقسيم الديكارتي أيضاً أهمية على الفصل الصارم بين العقل والجسد، ويهمل التحليل النفسي الجسد بمقدار ما يهمل الطب العقل.

لا ينفي ما تقدم الإفادة الناتجة عن الطريقة التي يسلكها التحليل النفسي في نطاق المعالجة في حالات كثيرة، وأخرى ناتجة عن الفيزياء النيوتونية. لكن قضية الإفادة تتضمن في السؤال التالي: أين تقع حدودها؟

يتراءى الجواب في حقلين: أولهما، حقل الفيزياء، وفيه يجب علينا التخلي عن الأفكار والعقائد الكلاسيكية أو تعديلها ونحن نتوغل إلى حقول تقع إلى ما بعد

محيطنا الفيزيائي العادي. ثانيهما. حقل التحديد النفسي الكلاسيكي. وفيه يجب علينا تعديل الأفكار والعقائد المتصلة به. عندما يتعمق استقصاؤنا في المعالم القصية النائية للنفس، والتي تقع إلى ما بعدِ تجربتنا اليومية العادية.

ينطبق صدق هذا القول على التجارب التي أُجريت لسبر الأبعاد الكثيرة المتجاوزة للشخصية الإنسانية حيث لا مكان للنموذج الفرويدي فيها. فقد وجد الباحثون أن التجارب السرية، والتجارب الخارقة التي يتعذر تحليلها علمياً، والتجارب التي أُجريت على من عانوا من المخدرات، والتجارب في نطاق أبعاد الشخصية الإنسانية، هي تجارب تتحدى التصورات والمفاهيم الأساسية المعتمدة في العلم الكلاسيكي. لذلك، يصنفها علم النفس التحليلي الكلاسيكي مع زمرة الأمراض التي تمت إلى الفصام بصلة، وذلك لأن الإطار التصوري لبنية كلية تنقصه، الأمر الذي يجعله عاجزاً عن معالجة موضوع يخص النطاق الذي يتجاوز أبعاد الشخصية الإنسانية.

حقيقة الأمر أن مثل هذا الهيكل التصوري لبنية كلية أخذ ينبثق إلى الوجود من الفيزياء الحديثة. فقد أطلعتنا فيزياء القرن العشرين على وجهة نظر مستحدثة للكون المادي تختلف بتمامها عن وجهة النظر الديكارتية، وتتطابق مطابقة كبرى مع وجهات نظر حكماء السرية والمذاهب في كل العصور، وتنسجم مع تجارب قام بها أفراد عُرفوا بتلقائية ذاتية تجاوزت أبعاد شخصيتهم. ومن جانبي. أحب أن أفيد علماء النفس بأن يدركوا حقيقة هذا التطور الناشئ ليعوا، كما تقول لهم الفيزياء الحديثة، أن التفكير العلمي ليس، بالضرورة، تفكيراً مكانيكياً أو تقليصياً، وأن التصورات الكلية والطرق المعتمدة في المبدأ الكلي دقيقة وسليمة على نحو علمي.

وجهة النظر الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة:

يمكننا أن نخص وجهة النظر التي تعتمدها الفيزياء الحديثة عن العالم، بالمقارنة مع تلك التي تبنتها وجهة النظر الديكارتية ـ النيوتونية المكانيكية. بكلمات تشير إلى أنها وجهة نظر عضوية، كلية وإيكولوجية. هي نظرة لا تعتبر الكون مجرد آلة مؤلفة من تعدد أو كثرة موضوعات، بل تعتبره عملية عضوية وظيفية، متحدة، متناسقة، غير قابلة للانفصال والتقسيم في أساسها وجوهرها. وتؤكد أن هذا الكل المتماسك، الذي لا يقبل القسمة، لا يتصف بالتماثل والاتساق فحسب، بل بالبنيوية؛ إنه يؤلف أنماطاً ونماذج.

تتراءى لنا هذه الأنماط في الكون لدى تتبعنا لبنيته انطلاقاً من الأبعاد الكبرى إلى الأبعاد الصغرى. فعلى مستوى الأبعاد الكبرى تكون البنية على هيئة مجرات، أنظمة شمسية، نجوم وكواكب. وعلى مستوى كوكبنا تكون البنية على هيئة بحار، قارات، جزر، جبال، أشجار، أزهار، طيور وحشرات. وعلى مستوى الأنماط المتناهية في الصغر تكون البنى على هيئة بلورات، رقاقات ثلجية، جزيئات، جواهر وجسيمات.

تعد هذه الأنماط بنى عملية متحدة. ومن الأهمية بمكان معرفتنا أن إحداها لا تعمل بمعزل عن الأخرى، كما أنها لا تستطيع أن تنفصل عن الكل دون أن تتعرض للتلاشي أو الإبادة. ويزداد هذا الأمر وضوحاً عندما ننعم النظر في المتعضيات الحية، نذكر منها على سبيل المثال: طائر يُعزل عن بيئته الطبيعية التي تشتمل على الحالة السائدة فيها أو الجو المحيط بها. ولا يقل الأمر أهمية في نطاق ما يسمى اصطلاحاً بالمادة غير العضوية: تقر الفيزياء الحديثة أن البنى أو الأنماط المادية مثل الجواهر، النويات، الجسيمات والبنى الشديدة التعقيد التي تتألف منها، تحقق وجودها:

1ـ عن طريق ترابطات داخلية متبادلة ومشتركة بحيث تسبب حركة أي جزء حركة الأجزاء الباقية.

2ـ عن طريق ارتباطها واتصالها بالكل.

وإن أقصى ما نستطيع القيام به هو أن نفصل بعض الأنماط عن ما تبقى من الأنماط على نحو تصوري، ونتعامل معها بوصفها وجودات مستقلة ومعزولة. وهذا هو الحد الأقصى الذي نجح به العلماء في الماضي القريب وجعلهم يعتمدون الطريقة التي اتبعوها. ولا نخطئ إذا قلنا بأننا نستطيع أن نفكر بالأشياء العديدة الموجودة في غرفة ونعتبرها أموراً منفصلة. كما يمكننا أن نعتبر أنفسنا أفراداً منعزلين. لكننا، لو أنعمنا النظر ملياً لوجدنا، كما تقول الفيزياء الحديثة، بأننا نقترف خطأً جسيماً في اللحظة التي نخضع لمثل هذا الأسلوب من التفكير. وفي مثل هذه الحال، يجدر بنا أن نطرح السؤال التالي: ما ضخامة أو فداحة الخطأ في مثل هذا الأسلوب؟

إن دراستنا لفيزياء الظاهرات في محيطنا اليومي العادي يشير إلى تفاهة الخطأ. ولكن خطورة هذا الخطأ تكمن في أن نعد أنفسنا مدققين في تعاملنا مع العالم بوصفه عالماً يتألف من موضوعات منفصلة وهو على هذا المستوى. وتستمر الخطورة القائمة على المستوى العياني الماكروسكوبي إذ تقل فرصة نجاحنا ونحن نتعامل مع الناس،

على سبيل المثال، في نطاق العلاج النفسي. وتزداد الخطورة علـى مستوى الفيزيـاء، عندما نتعامل مع الأبعاد المتناهية في الصغر، وهي عالم الجواهر والجسـيمات الذريـة الصغيرة كالبروتونات والإلكترونات، فنضطر إلى التخلي عن أسلوب التفكير المكانيكي والطريقة التقليصية.

تعترف الفيزياء الحديثة، وهي تعـالج الموضـوع بنفـاذ بصـيرة، بـأن الاحتمـال مزية بارزة وأساسية من مزايا الواقع الجوهري والجسيمي الذي يهيمن على العمليات كلها دون استثناء وجود المادة. ويشير هذا القول إلى أن وجود الجزيئات والجسـيمات الذرية الصغيرة لا يتعين، بل يؤكد وجودها، في أمـاكن محـدودة، إنمـا تكشـف عـن «نزوع أو ميل إلى التعيّن والتوكيد». لذا، نعجز عن التنبؤ بحادثـة فرديـة علـى نحـو يقين، ولا يسعنا إلا التنبؤ بالأرجحيات.

من الأهمية بمكان أن نفهم بوضوح أن إفراغاً مـن هـذا النـوع لقوانـين الفيزيـاء الجوهرية والجسيمية الذرية الصغرى في صيغة إحصائيـة لا يعكـس أو يظهـر جهلنـا بوضعنا أو حالنا في نطاق الفيزياء، فلا يكون شبيهاً بجهـل المقامرين وشركات التأمين وهم يسخّرون الاحتمالات خدمـة لمصـالحهم. والحقيقـة هـي أننـا نقر بالاحتمـال في الفيزياء الجوهرية، إنما نعترف بأنـه معلـم أساسـي مـن معـالم الواقـع الـذي يسـود الظاهرات كلها.

يتضمن هذا الدور الأساسي، الذي يضطلع به الاحتمال، فكرة جديـدة تتـأصل جذورها في السببية. فليس للأحداث الجوهريـة علـة محـددة غايـة التحديـد. وعلـى سبيل المثال، قد يتفكك جسيم جوهـري صغـير علـى نحـو تلقـائي دون تدخـل أيـة حادثـة خاصـة تسـبب هـذا الانحـلال أو التفكـك. وبـالفعل، يمكننـا فقـط أن نتنبـأ بالاحتمـال المرتبـط بوقـوع الحادثـة وحصـول النتيجـة. ولا يعـني هـذا أن الأحـداث الجوهرية تقع بطريقة اعتباطية على نحو كامل: إنها تخضع لقوانـين إحصائيـة أي أن القوانين الإحصائية تتحكم بها.

على هذا المنوال، استعاض العلمـاء عـن الفكـرة الكلاسـيكية الضيقـة للسـببية بتصور أكثر اتساعاً لسببية إحصائية تتحـدد فيهـا الاحتمـالات الموضوعـة مـن أجـل أحداث جوهرية بديناميكية المنظومة كلها.

إذن، فالحكمة التي نستقيها مـن الفيزيـاء الحديثـة هـي أن تجزئـة العـالم إلى موضوعات منفصلة مسألة تقتضي تقويم العالم تقويماً مثالياً. ولا يعني هـذا لا جـدوى

هذا التقويم المثالي. إنما يعني أننا لم نفهم أي نمط ـ أو بنية ـ فهماً كاملاً. إذ جعلنا منه وجوداً معزولاً أو ظاهرة مستقلة. فما علينا، والحالة هذه، إلا أن ندرس الكون بوصفه كلاً. ومتى تم لنا إدراكه ككل، استطعنا التركيز على أقسامه ومعالجتها كما لو كانت موضوعات منفصلة على نحو تقريبي. وأما البدء بدراسة الأجزاء واعتبارها الكتل الأساسية التي تبني الوجود، فإنه أسلوب لا يساعدنا على فهم الكل.

من المعالم الهامة الأخرى التي توضّح لنا النظرة الشمولية الكلية التي تتبناها الفيزياء الحديثة، يتبوأ الاعتراف، بأن الأنماط التي ندرسها ديناميكية في ذاتها وجوهرها، المركز الأول. فعلى المستوى الجسيمي الذري، نعجز عن الفصل بين الزمان والمكان لأننا ندركهما مرتبطين ارتباطاً جوهرياً لا يقبل الفصل، ويشكلان متصلاً كمياً ذا أبعاد أربعة يعرف بـ «الزمان ـ المكان». وعندما نتصور جسيمات في هذا المتصل الكمي الزماني ـ المكاني نتوقف عن إدراكها موضوعات ستاتيكية ذات أبعاد ثلاثة. وعندئذٍ، يجب علينا أن ندركها ـ إن استطعنا إلى ذلك سبيلاً ـ وجودات ذات أبعاد أربعة، كما ونفهم صورها على نحو ديناميكيٍ بوصفها صوراً في الزمان والمكان. هكذا، تكون الجسيمات الجوهرية الصغرى أنماطاً ديناميكية، أنماط طاقة، أو أنماط فاعلية.

نستخلص مما تقدم أن أنماط الطاقة، التي تعود للعالم الجسيمي الجوهري، تشكل البنى الذرية والجزيئية المتوازنة التي نجدها في حالة من التوازن الديناميكي وليس في حالة ستاتيكية: هنالك الإلكترونات التي تدور وتنعطف فجأة، وتنطلق بسرعة حول النويات ضمن الجواهر؛ وهنالك الجواهر التي تهتز ضمن البنى الجزيئية في توافق مع طاقتها الحرارية وفي انسجام مع الاهتزازات الحرارية العائدة لمحيطها. وتؤلف الجزيئات، بدورها، المادة وتكسبها مظهرها الصلب، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنها مصنوعة من جوهر مادي أي من مادة صلبة أساسية. ولا شك، أن الفكرة التي نشكلها عن الجوهر المادي، ونحن نعالج المستوى العياني، تساعدنا على تبني تقدير تقريبي. ولا تصح هذه الفكرة عندما ندرك بأننا لا نشاهد مادة أساسية من أي نوع. وإن ما نشاهده هو مجرد أنماط ديناميكية يتبدل النمط الواحد منها إلى نمط آخر على نحو مستمر ـ إنه رقص متتابع للطاقة.

الفيزياء الحديثة وعلم النفس الحديث:

بلغت الفيزياء الحديثة غايتها عندما تبنت فكرة مختلفة عن العالم، تنأى بها عن التصور الذي أتى به الذريون الإغريق والفيزياء النيوتونية، وتتمثل في كون مكانيكي يُبنى من كتل. لذا يجب على علماء النفس، لكي يتساوقوا مع الفيزياء الحديثة: أن يوسعوا هيكل علم النفس الكلاسيكي. ويجب على الأطباء أن يحذوا حذوهم في حقلهم وهم يعالجون الكائن الإنساني ككل، فيدركونه منظومة ديناميكية تشتمل على أنماط نفسية وجسدية مستقلة: منظومة هي عضو متكامل في منظومات أوسع وأضخم تُعرف بأبعادها المادية والاجتماعية والحضارية والثقافية.

لعلنا لا نبالغ في قولنا: إن يونغ كان الرائد الأول الذي أدرك هذه الحقيقة، فأدخل علم النفس إلى هذه النطاقات الجديدة، وتبنى مفاهيم وتصورات تقترب أكثر وأكثر من الفيزياء الحديثة. وهذا أمر قصَّر فرويد في إدراك مضمونه. وإذا ما عالجنا أوجه المقارنة والخلاف بين يونغ وفرويد، أدركنا توازي أوجه الخلاف القائمة بين الفيزياء الحديثة والكلاسيكية. لقد أقام يونغ علاقة صميمة مع الكثير من علماء الفيزياء البارزين في عصره، الأمر الذي جعله يعي هذه الحقيقة. وها نحن نعرض فكرة كتبها يونغ:

«إن التقارب بين الفيزياء النووية وعلم نفس اللا شعور وشيك الحدوث. ومرد ذلك إلى أن كلاً منهما، وهو يستقل عن الآخر وينطلق من اتجاه معاكس، يعمل جاهداً من أجل الولوج إلى النطاق الترانسندنتالي... وإني على يقين من أن النفس لا تتميز عن المادة على نحو كلي. فلو كان التمايز الكلي قائماً بينهما لما استطاعت النفس أن تحرك المادة. ولا يمكن أن تكون المادة مغايرة للنفس وغريبة عنها. فلو كانت المغايرة قائمة لما استطاعت المادة أن تُحدث النفس. ونستخلص من قولنا هذا إن النفس والمادة موجودتان في عالم واحد كلي تشارك الواحدة منهما في حياة الأخرى. ولو فُقدت هذه المشاركة لاستحالت العلاقة المتبادلة بينهما، ولتوقفت الفاعلية المشتركة. وإن تقدم البحث بدرجة كافية، كفيل بأن يحقق انسجاماً أو اتفاقاً مطلقاً وجوهرياً بين المفاهيم المادية والنفسية. وفي هذا الصدد، يمكنني القول بأن محاولاتنا تتصف بالجرأة، وتتجه إلى هذه الغاية المنشودة والمرجوة».

نستدل من هذه الفقرة أن ما بذله يونغ من جهد يكمن في صميم هذه الحقيقة أو الغاية. وإن عقيدته في اللاوعي الجمعي أو الجماعي تمدنا بالحلقة التي تصل

الفرد بالإنسانية جمعاء، كما تصل الفرد بالكوزموس كله. وليس باليسير أن نقيم هذه الصلة ضمن هيكل مكانيكي. لقد وعى يونغ هذه الحقيقة وأبان أنه يتحتم علينا أن نتجاوز الطريقة التي يعتمدها العقل لمعالجة قضاياه ليبلغ تلك النطاقات الجديدة. والحق يقال إن اللا وعي الجمعي وأنماطه أمثلة أو نماذج أصيلة تستغني عن التحديد الدقيق.

يتجاوز يونغ الحد الذي بلغه فرويد في تعريفه للنفس. فالنفس، في عقيدته، منظومة ديناميكية. تتسم بدفق الليبيدو بين قطبين متقابلين متعارضين.

والجدير بالذكر هو أن هذه الفكرة تتفق مع التوازن الديناميكي الذي بسطته الفيزياء الحديثة، ويتصل اتصالاً وثيقاً بالأفكار الصينية التي تدور حول منظومة العقل ـ الجسد.

التطورات الحديثة:

يتابع علماء النفس الإنسانيون، وعلماء النفس المتجاوزون للبعد الواحد للشخصية ومدارس أخرى، دراساتهم. ويتجاوزون، في إنجازاتهم، المعالم المكانيكية العديدة لمدرسة السلوك والنموذج الفرويدي، الأمر الذي جعلهم يتبنون الطرائق الديناميكية الكلية من أجل فهم أوسع وأكثر تطوراً للنفس الإنسانية. وتُلزم هذه الطرائق على نحو متزايد علماء النفس والأطباء النفسانيين أن يخلّفوا وراءهم العديد من التصورات الغريبة الشائعة. وفي الوقت ذاته، تشتمل الطرائق الجديدة على تصورات ومواقف ماثلة في الفيزياء الحديثة.

وكما يؤكد يونغ، ليس ثمة سبيل آخر لدراسة النفس في نطاقها ومداها الكاملين إلا في بلوغ يصل أقصاه في تجاوز لطريقة المعالجة العقلية. ويحصل مثل هذا التجاوز أو التعالي في تفاعل وثيق بين الاختصاصي في المعالجة وبين مريضه انطلاقاً من اللاشعور. ويُعزى هذا إلى سبب هو أن التفكير العقلي يتصل اتصالاً وثيقاً بالفكرة التي ترينا الزمان وهو يسيل ويتدفق على هيئة خيط ضيق طويل، وأن اللاشعور يعمل وفق أسلوب أو طريقة مغايرة لهذا الخيط. وإذا كان الأمر كذلك، فإن نظاماً تصورياً قادراً على التوفيق بين الاختصاصي المعالِج وبين المريض في نطاق التفاعل اللاشعوري يتطلب، بالضرورة، توسيعاً وتطويراً لفكرة الزمان التقليدية أو المألوفة.

لا يخفى علينا أن الفيزياء أخذت على عاتقها قضية هذا التطوير بشكل عام، وشرعت فيها النظرية النسبية بشكل خاص. ومن المحتمل أن يتابع هذا التطوير

مهمته خلال السنوات القادمة. وتتيح تجربة الفيزياء في هذا المضمار فرصة للكشف عن تصور الزمان ضمن نطاق العلاج. وقد ينقاد الصراع بين الزمان، بشكليه الخطي واللاخطي، وهو يجسد الصراع بين العالم الشعورية واللاشعورية للنفس، بسهولة لطريقة المعالجة متى نظرنا إلى الزمان الخطي بأنه مجرد فكرة توجهنا إلى غاية، تماماً كما هو الحال في الفيزياء.

نستنتج مما تقدم، أن الفكرة الخطية للزمان تتصل اتصالاً وثيقاً بالمفهوم الكلاسيكي للحتمية، للعلة والمعلول، وأن الأفكار المصقولة الدقيقة عن الزمان، في الإطار النفسي والفيزيائي، تؤدي إلى بعث أفكار مصقولة عن السببية. ولقد أبان يونغ صحة ما نقوله في محاولته الرامية إلى إقامة تصور للتزامن ــ هو الترتيب التزامني للأحداث أو الجدول التاريخي التزامني. ومن المحتمل أن تطوِّر علوم النفس الكلية الشاملة في المستقبل هذا التصور وتصقله وتنقيه من كل الشوائب. بحيث تتجاوز وتتسامى على الفكرة التي تعيد العلاقة بين العلة والمعلول إلى عنصر أو عامل واحد لا غير.

والحق يقال إن هنالك توازياً آخر بين الفيزياء الحديثة وعلم النفس الحديث، يظهر في العلاقة القائمة بين المراقِب والمراقَب. ففي الفيزياء الجوهرية، يجب علينا أن نتخلى عن الفكرة المتجسدة بمراقب موضوعي حينما نتأكد من أن نسيج العلاقات الذي هو قيد الدراسة يشتمل على المراقِب الإنساني وشعوره (وعيه) بطريقة أساسية. وهكذا، لا يجد التقسيم الديكارتي بين العقل والمادة، بين الأنا والعالم، موضعاً له في سياق الشرعية التي أوجدتها الفيزياء الحديثة. لذا، لا نستطيع التحدث في الفيزياء الجوهرية عن الطبيعة دون التحدث عن أنفسنا في آن واحد.

بالطريقة ذاتها، توضح الطرائق الجديدة لفهم مضامين علم النفس والطب النفسي التفاعل المتبادل بين الاختصاصي المعالج والمريض. إذن، فالمعالجة وفق هذه النظرة، تنتج من اللقاء الشخصي بين الاختصاصي والمريض، هذا اللقاء الذي يشتمل على الكيان الكلي لكل منهما ويصب في عملية تحول متبادل ودّي.

أحب أن أنوّه إلى أن التوازن الأخير بين الفيزياء وعلم النفس يجثم في علاقة وجهتي نظرهما بوجهات نظر الحكمة السرية الشرقية. وكما أن الفيزيائيين يدركون أن الكثير من مفاهيمهم وتصوراتهم تتوافق مع وجهات نظر السرية الشرقية، كذلك يتجه علماء النفس والأطباء النفسانيون بأنظارهم إلى الشرق باحثين عن بصائر وطرائق جديدة. فقد وضع الشرق رسوماً تفصيلية للوعي منذ آلاف السنين، وأحدثت بعض

مدارس الحكمة الشرقية طرائق للعلاج النفسي. وكما يبدو أن المعلمين الروحيين القدامى أدركوا العلاقة القائمة بين الذهان والاستنارة.

لقد أغفل الأكاديميون الغربيون السرية الشرقية لاعتقادهم أن وجهات نظر حكماء السرية تناقض التصورات الأساسية للعلم الغربي. والآن نشهد بداية تبدل واسع في فروع العلم كلها وفي ثقافتنا كلها: إنه انتقال من نطاق التفكير المكانيكي والتقليصي إلى تفكير إيكولوجي وكلّي. وإن ما فعلته الفيزياء، وهي المثل الساطع لعلم صعب نصّب نموذجاً لكل العلوم، يتراءى لنا في تجاوزها لنماذج مكانيكية اعتمدتها في الماضي، وفي توجيهنا إلى نظرة شاملة شبيهة بوجهات نظر حكماء السرية الذين ينتمون إلى العصور والتقاليد كلها، والثقافات والحضارات غير المدوّنة: حكماؤهم أفراد عُرفوا بتجاربهم التلقائية المتجاوزة للشخصية.

هكذا، تطبع النظرة الشاملة ـ الكلية التي تتصف بها الفيزياء الحديثة العلوم الأخرى بطابعها المميز الدقيق. وتكون علاجية في صميمها وموحّدة على نحو ثقافي وحضاري.

مراجع البحث

1- Fritjof Capra: The Tao of Physics.

2- B. F. Skinner: Science and Human Behaviour.

3- K. wilber: The Spectrum of Consciousness.

الفصل الرابع

الفيزياء الحديثة

مبدأ أساسي لتبدّل اجتماعي

لا يخفى على مراقب التطور الثقافي الإنساني - حتى ولو كانت مراقبته غير نظامية - أن يلاحظ التفاوت اللافت للنظر القائم بين نشوء القدرة العقلية والمعرفة العلمية والمهارات التكنولوجية من جهة وبين نمو الحكمة، والروحانية والأخلاق من جهة أخرى. فقد ترعرعت المعرفة العلمية والتكنولوجية تحت كنف مفسريها وأنصارها منذ أن باشر الإغريق مغامراتهم العلمية في القرن السادس قبل الميلاد. ولم يشهد العالم، خلال القرون الخمسة والعشرين المنصرمة، أي تقدم في السلوك المرتبط بالشؤون الاجتماعية. وبعيد عن الارتياب أن تكون الروحانية والقيم أو المستويات الخلقية التي بشّر بها لاوتزو وبوذا، اللّذان عاشا في القرن السادس قبل الميلاد، أدنى مستوى من روحانية عصرنا ومستوياته الخلقية. فقد تألق هذان الحكيمان بتعاليمهما، وتسنّما ذروة التطور الروحي، ولم يمثلا بدء صعود المنحنى.

هكذا، تشير الدلائل إلى أن التقدم البشري لم يكن أكثر من قضية عقلية وفكرية، وأن هذا التقدم من جانب واحد قد بلغ مرحلة مفجعة. وإن مثل هذا الوضع، الذي يحمل بذور تناقض ظاهري، يقف عند حدود الاختلال العقلي. ألم يكدس الإنسان آلاف آلاف الأطنان من الأسلحة النووية، تكفي، بل تزيد، لتدمير كوكب الأرض؟ ألا يواصل الإنسان إقامة مصانع نووية خطيرة تلقي بمقادير ضخمة من النفايات المشعة التي تهدد بوضع حد للحياة على كوكبنا؟

إن استبعاد الخطر والتهديد الماثلين في الفاجعة النووية، لا يقلل من خطر يلحق بالنظام البيئي العالمي والتطور المقبل للحياة، والتهديد بنهاية مفجعة من وجهة نظر المقياس الإيكولوجي. لذا، تتضاءل أهمية العون الذي تقدمه لنا تكنولوجيتنا المذهلة إلى حد اللاّ شيء. وإن كنا لا ننكر بأننا قادرون على التحكم بهبوط مركبة فضائية هبوطاً ناعماً على الكواكب النائية، لكننا نبدو عاجزين عن

التحكم بأنواع الدخان الملوث الصاعد من مصانعنا وسياراتنا.

وإن الوعد الذي يجعلنا نتوق إلى حياة كاملة في مستوطنات فضائية ضخمة لا يحل معضلة تقاعسنا وعجزنا عن إدارة مدننا. وبالإضافة إلى ما ذكرناه. يداهمنا عالم التجارة فيجعل منا أسرى الاعتقاد بأن الصناعات الضخمة التي تنتج الغذاء المحبب لصغارنا وحيواناتنا المدللة، والمستحضرات التجميلية دليل على الدرجة العالية للمعيشة والرخاء في الوقت الذي يطالعنا الاقتصاديون على حقيقة مروعة تتمثل في عجزنا عن «تأمين أو تقديم» العون الكافي في نطاق الصحة، والثقافة. والتعليم والنقل العام.

تشير هذه الدلائل إلى اختلال عميق للتوازن في حضارتنا وثقافتنا، في أفكارنا ومشاعرنا. في قيمنا ومواقفنا. وفي هيكل بنيتنا الاجتماعية والسياسية. وإذا ما توغل تفكيرنا إلى أعماق الموضوع، رأينا أن جذور أزمتنا الثقافية والحضارية تكمن في اختلال التوازن بين نمطين من أنماط الوعي، واعترفنا بأنهما معْلمان مميزان للطبيعة البشرية برزا إلى الوجود خلال العصور. ونحن نطلق عادة على هذين النمطين:

1ـ النمط العقلاني المتوافق مع النمط العلمي.

2ـ النمط الحدْسي المتوافق مع النمط الثيولوجي الروحي. وقد دُعي هذان النمطان بتسميات أخرى عديدة نذكر منها: الذكري ـ الأنثوي، الخطي ـ اللاخطي. ولكن الحكمة الصينية اصطفت لهما صفتين هما الـ «يانغ» والـ «ين». ولم تجد هذه الحكمة في هذين النمطين تجربتين تنتميان إلى مقولتين منفصلتين. وعلى غير ذلك، وجدت فيهما وجهي حقيقة واحدة، أو طرفي قطب لكلٍ أحادي. وبالفعل، تعتبر وجهة النظر الصينية التقليدية أن ظهورات أو تجليات الحقيقة. وظهورات أو تجليات الطبيعة الإنسانية أيضاً، تنشأ أو تتولد عن التفاعل الديناميكي بين هاتين القوتين القطبيتن. وقد أتى في نص من نصوص الحكمة الصينية القديمة ما يلي:

الـ «يانغ»، وقد بلغ ذروته وأوجه، يتراجع لصالح الـ «ين»؛ والـ «ين»، وقد بلغ ذروته وأوجه. يتراجع لصالح الـ «يانغ».

إن التعمق في إدراك المغزى المتضمن في هذين المعلمين التكامليين العائدين للطبيعة البشرية يرشدنا إلى ملاحظة مواقف ثقافتنا بدقة. فمعْلم الـ «يانغ» يمثل جانبنا الذكري ـ الجانب الفعال، العقلاني، التنافسي، العلمي. ومعْلم الـ «ين» يجسّد جانبنا الأنثوي ـ الجانب المذعن، الحدْسي، التعاوني، التأملي. والحق يقال

إن مجتمعنا قد تبنى صفات الـ «يانغ» وفضلها على نحو ثابت على الـ «يـن»: حبّـذ الفاعليـة وأهمـل التـأمل، وأخـذ بالمعرفـة العقلانيـة وأقصـى الحكمـة القائمـة علـى الحدْس، واعتنق العمل ورفض الحكمة، وأعلى مـن شـأن المنافسـة وقلـل مـن أهميـة التعاون إلخ.

بالإضافة إلى ما أتينا على ذكره، نرى أننا أقمنا نظاماً صارماً وسـكونياً يفـترض جميع الرجال ذكوراً وجميـع النسـاء إناثـاً، ويمنـح الرجـال الأدوار الرئيسـة القـائدة والنسبة الكبرى مـن الامتيـازات الاجتماعيـة، وتغاضينـا عـن أهميـة الاعـتراف بـأن شخصية كل رجل وكل إمرأة إنما هي نتيجة التفاعل بين عنصري الذكورة والأنوثة.

من جانبي، أعتقد بأننا نشهد بداية حركة تطورية كـبرى. لـذا، يذكـر النـص الصيني أن الـ «يانغ»، وقد بلغ حده الأقصى، ينسحب لصالح الـ «ين». وإننا نشهد صحة هذه العبارة في التحول الذي طرأ خـلال سـتينات وسـبعينات وثمانينـات هـذا القرن. فقد نشأت متتالية كاملة من الحركات الفلسفية، والدينيـة والسياسـية الـتي، كما يبدو، تتجه وجهة واحدة. فالاهتمام الناشئ بالإيكولوجيـا، والاتجـاه القـوي إلى السرية والحكمة، وإعادة اكتشاف الطرائق الكلية في مجال الصحة والشفاء، وأهم من كل هذا، الوعي الأنثوي المتنامي. هي ظهورات أو تجليـات لنزعـة تطوريـة واحـدة. فهي، برمتها، تعادل المغالاة في التوكيـد علـى المواقـف والقيـم العقلانيـة والفكريـة، وتحاول جاهدة أن تستعيد التوازن بين الجانب الذكري والجـانب الأنثـوي للطبيعـة البشرية.

في هذه المقالة، سأقيم الدليل على أن الفيزيائيين قادرون على الإسهام إسـهاماً قيّماً للتغلب على اللاّتوازن الثقافي والحضاري الحالي. ولا نبالغ إذا قلنا: إن الفيزياء، منذ القرن السابع عشر، كانت، وما زالت، مثالاً سـاطعاً للعلـم «الدقيـق»، والنمـوذج الذي تقتدي به العلوم الأخرى. فقد طورت الفيزياء الكلاسيكية، خلال قرنين ونصف القرن، وجهة النظر التي تعتبر الكون منظومة مكانيكية مؤلفة من كتل بناء أولية. ولم تتورع العلوم الأخـرى عـن قبـول هـذه النظـرة، واعتبرتهـا وصفـاً صحيحـاً للحقيقـة والواقع، وصاغت نظرياتها الخاصة على غرار وجهة النظر المكانيكية.

في القرن العشرين، اجتـازت الفيزيـاء حقـول التجـارب، وأحدثـت ثـورات في المفاهيم والتصورات أدت إلى كشف واضح لحدود وجهــة النظـر المكانيكيـة، وأحلّـت محلها نظرة إلى العالم، هـي نظـرة عضويـة وإيكولوجيـة، تتمـاثل تمـاثلاً كبـيراً مـع وجهات النظر السرية التي تنتمي إلى كل العصور والتقاليد. ووفق هذه النظرة، لم يعد

الكون آلة تتألف من عدد وافر من الأشياء المنفصلة. وعلى غير ذلك. بدأ يظهر للعلماء بأنه كلٌّ متجانس، متناغم، ومتصل وغير منقسم: كلٌّ هو عبارة عن شبكة أو بنية من العلاقات الديناميكية التي تشتمل على المراقِب الإنساني ووعيه.

يشير واقع عصرنا إلى أن الفيزياء الحديثة، وهي تجلٍّ بالغ للعقل المنطقي، بدأت تتمثّل الحكمة السرية، وهي جوهر اللاهوت، وتجلٍّ لاختصاص بالغ للعقل الحدسي، لتلتقي معهما عند نقاط تماس. ويبرهن هذا اللقاء الرائع عن وجود وحدة طبيعية متكاملة يلتقي فيها نمطا الوعي: المنطقي والحدْسي. وهكذا. نلمس قدرة الفيزيائيين على تزويدنا بقاعدة علمية يرسو عليها التبدل الناشئ في المواقف والقيم: هذا التبدل الذي تتطلبه حضارتنا وثقافتنا من أجل استمرارها في البقاء. وبهذه القدرة، تبيّن الفيزياء الحديثة للعلوم الأخرى أن التفكير العلمي ليس، بالضرورة، مكانيكياً وتقليصياً، وأن وجهتي النظر الإيكولوجية والكلية سليمتان على نحو علمي. وعلى هذا الأساس، تصبح «الفيزياء الحديثة» قاعدة لتبدل اجتماعي.

سأبذل جهدي، بادئ ذي بدء، أن أبسط ملخصاً وجيزاً لوجهة نظر الفيزياء الكلاسيكية التي تعتبر العالم آلة كبرى تعمل، وما خلّفته هذه النظرة من تأثير في العلوم الأخرى. وسوف أناقش مضمون بعض التصورات الأساسية التي أتت بها فيزياء القرن العشرين، وكيفية تطبيق مفاهيمها في نطاق العلم والمجتمع.

العالم منظور إليه من وجهة النظر الديكارتية المكانيكية:

إن وجهة النظر التي اتسمت بها الفيزياء الكلاسيكية ـ ويمكننا تسميتها بالموقف الغربي ونظرته إلى العالم ـ تعود بأصولها إلى فلسفة الذريين الإغريق الذين علّموا أن المادة مصنوعة من كتل بناء أساسية هي جواهر سلبية، منفعلة وصلبة في واقعها. وتراءى لأولئك الفلاسفة الذريين أن حركة الجواهر لا تأتي من داخلها بل من قوى خارجية يُفترض أنها من منشأ روحي، وبالتالي تختلف في أساسها عن المادة.

تبنّى الغرب هذه الصورة التي رسمها الإغريق، وأصبحت جزءاً هاماً وأساسياً من طريقة تفكيره. ولم ينتبه الغرب إلى أن هذه الصورة ستؤدي إلى نشوء الثنائية بين الروح والمادة، بين العقل والجسد، وأن طريقة تفكيره ومعالجته للموضوعات سوف تنطبع بطابع الثنائية. وعندما نتوغل في دراسة العقل الغربي، نجد أن ديكارت هو الرائد الأول الذي صاغ الثنائية في شكلها الحاسم، وذلك لأنه بنى نظرته للطبيعة

على تقسيم أساسي. فجزأها إلى نطاقين منفصلين. مستقلين، أولهما. نطاق العقل. وثانيهما، نطاق المادة. ولقد أفسح مثل هذا التقسيم الديكارتي المجال للعلماء ليعالجوا المادة وكأنها مجردة من الحياة، ويعزلوها تماماً عن أنفسهم. ولقد أدت هذه المعالجة وهذا العزل إلى اعتبار العالم المادي حشداً من الأشياء المختلفة المتجمعة في آلة ضخمة. وتبنى نيوتن وجهة النظر المكانيكية وشيّد ديناميكه على قاعدتها، فجعلها الأساس الذي تقوم عليه الفيزياء الكلاسيكية.

إذا تأملنا وجهة النظر المكانيكية للطبيعة، وجدناها وثيقة الصلة بالحتمية الصارمة. وليس مستغرباً أن تربط وجهة النظر المكانيكية هذه الآلة الكونية الكبرى بالسببية والحتمية: فهي تعتبر وجود سبب محدد لكل ما يحدث. وتعتقد أن هذا السبب يؤدي إلى نشوء معلول محدد ومعين. وعلى هذا النحو. أدت هذه القاعدة الفلسفية التي رست عليها حتمية صارمة إلى خلق التقسيم الأساسي بين الأنا والعالم الذي عرّفنا به ديكارت. وهكذا، نحمّل هذا التقسيم مسؤولية كبرى لأنه أدّى إلى الاعتقاد بإمكان وصف العالم وصفاً موضوعياً. وأما هذا التقسيم وهذا الوصف فقد خلقا مشكلتين كبيرتين: أولهما، هي عزل الإنسان عن موضوع ملاحظته، وهو العالم. ثانيهما، هي هيمنة الوصف الموضوعي للطبيعة على العلم، واعتباره مثالاً يحتذيه كلفرع من فروع العلم.

تأثير النمط النيوتوني على العلوم الأخرى:

هيمن النمط النيوتوني الذي يفسر الكون تفسيراً مكانيكياً على الفكر العلمي انطلاقاً من النصف الثاني من القرن السابع عشر حتى نهاية القرن التاسع عشر. ولقد صاغت العلوم الطبيعية. وكذلك العلوم الإنسانية والاجتماعية. ذاتها على نحو يتوافق مع الفيزياء النيوتونية. وما زال بعضها يحتفظ بهذه الصياغة حتى يومنا هذا على الرغم من أن الفيزيائيين قد تجاوزوها.

قبل الغوص في مناقشة التأثير الذي خلّفته الفيزياء النيوتونية في الحقول العلمية والإنسانية الأخرى. أتوق إلى توضيح النقطة الهامة التالية: إن التصور الجديد للكون. المنبثق من الفيزياء الحديثة، لا يعني أن الفيزياء النيوتونية مخطئة في مضمونها، أو أن نظرياتنا الحالية محقة في تصورها. وإن ما حدث. يشير إلى أننا توصلنا إلى التحقق. في نطاق علمنا الحديث، من أن نظرياتنا كلها تقريبية في إدراكها لطبيعة الأشياء الحقة. الأمر الذي يعني أن كل نظرية صحيحة ضمن كل رتبة معينة من الظاهرات. أما إلى ما بعد تلك الرتبة، فإنها لاتقدم وصفاً وافياً للطبيعة، فنضطر

إلى البحث عن نظريات جديدة تحل محلها. ونفضل أن نقول: إننا نمد هذا البحث ونوسعه بإجراء تحسين على هذا التقدير التقريبي.

إذن، فالقضية تتلخص على النحو التالي: ما الحد الذي يكون عنده النمط النيوتوني وافياً على نحو تقريبي، بحيث يمكننا اعتماده قاعدة للعلوم الأخرى؟ والإجابة عن سؤال من هذا النوع يتضمن القول: إن هذا التقريب، في الفيزياء ذاتها، يُهمَل لدى بلوغ مستوى الصغير ـ أي الفيزياء الذرية وما دون الذرية ـ ولدى بلوغ مستوى الكبير ـ أي الفيزياء الفلكية والكوزمولوجية. أما في الحقول الأخرى، فقد تكون التحديدات من نوع آخر. لذا، يجب علينا أن نلحظ أن ما نتحدث عنه ليس هو تطبيق الفيزياء النيوتونية على الظاهرات بقدر ما هو تطبيق النظرة المكانيكية والتقليصية للعالم، التي تُبنى عليها الفيزياء النيوتونية. فالضرورة تقتضي بأن يكتشف كل علم أين تقع تحديدات هذه النظرة إلى العالم في سياق أو مضمون خاص.

البيولوجيا والطب:

من المؤثرات التي خلفتها وجهة النظر الديكارتية في البيولوجيا تلك التي أدت إلى اعتبار المتعضية ـ الكائن البشري ـ آلة تبنيها أو تشكلها أجزاء منفصلة. فقد كان ديكارت البادئ في عرض البيولوجيا المكانيكية التي هيمنت على العلوم حتى يومنا هذا. وإن تشبيه العالم أو الكائن الحي بالآلة، يفترض إمكانية فهم المتعضيات الحية في حال تجزئتها وفي محاولة تجميعها من جديد، معتمدين في هذا الفهم والتجميع على المعرفة المستقاة من الأجزاء. وبالفعل، لا تزال طريقة الفهم هذه تشكل العمود الفقري الذي يستند إليه التفكير البيولوجي المعاصر بمعظمه. وفي هذا المجال، نقتبس فقرة من كتاب حديث وضع عن البيولوجيا:

«يكمن أحد الاختبارات اللاذعة، لفهم شيء أو موضوع، في القدرة على تجميعه من الأجزاء التي تركّبه. وسوف يجتهد البيولوجيون الذريون محاولين إخضاع فهمهم لبنية الخلية ووظيفتها لهذا الصنف من الاختبار عن طريق تجربتهم لاصطناع أو تركيب خلية».

تميز النمط المكانيكي للبيولوجيا بتأثيره القوي على الطب مما أدّى إلى صياغة ما يسمى الآن بالنمط الطبي. فقد توصل الطب الغربي إلى اعتبار الجسد الإنساني آلة يمكن تحليلها عن طريق أجزائها. فالمرض، في زعمه، وجود خارجي يجتاح الجسد ويهاجم جزءاً خاصاً. وينحصر دور الطبيب في تدخله. إما على نحو جسدي

(الجراحة)، أو على نحو كيميائي (التداوي) ومعالجة الجزء المُبتلى أو المريض، ويترك معالجة ما تبقى من الأجزاء الأخرى إلى أخصائيين آخرين.

إن ربط مرض معين بجزء من أجزاء الجسد أمر مفيد في حالات كثيرة. لكن الطب الغربي يبالغ في تأكيده على طريقة المعالجة التقليصية، ويطور أنظمته الاختصاصية لدرجة لم يعد الأطباء قادرين على اعتبار المرض خللاً أو اضطراباً يعتري الكائن الحي كله، أو معالجته على هذا الأساس. فالمرض يقلّص إلى مكانيكات بيولوجية تدرس من وجهة نظر البيولوجيا الذرية والخلوية، الأمر الذي يؤدي إلى إهمال معالم المرض الاجتماعية والنفسية إهمالاً تاماً. وعلى الرغم من أن معرفة المعالم الفيزيولوجية مفيدة، لكن طريقة المعالجة أو الفهم التقليصية لا تقدم لنا إلا جزءاً من القصة، بحيث يكون إخفاقها أو قلة نجاحها مدعاة للدهشة. وفي هذا الصدد، كتب لويس تومبسون ما يلي:

«لم يبق بين أيدينا، على وجه التقريب، سوى جدول الأمراض الرئيسية الشائعة التي عمت البلاد في عام 1950. حدث هذا رغم أننا جمعنا مقداراً هائلاً من المعلومات وعزلناها عن بعضها في الوقت الذي طرأت فيه. ومع ذلك، لا يُعد هذا التراكم كافياً ليأذن لنا بالقضاء على الأمراض كلياً أو شفائها كلياً».

يعيد لويس تومبسون تصريحه، بأن المعلومات المجمعة لحد الآن «غير كافية» لمنع الأمراض أو شفائها، إلى معلومات تقع ضمن السياق المكانيكي الذي يرى في التكنولوجيا الطريقة الوحيدة لتحسين الصحة ويُنزل العلم إلى مستوى طريقة الفهم أو المعالجة التقليصية التي أتى بها العلم النيوتوني. وفي مكان آخر من كتابه، يعبر تومبسون عن وجهة النظر هذه بوضوح وجلاء، فيقول:

«إننا ملتصقون بتكنولوجيا العصر الحاضر، وسنظل ملتصقين بها إلى أن تتوافر لنا معرفة علمية إضافية تلهمنا إلى إنجاز عمل أفضل».

علم النفس:

يقوم علم النفس الكلاسيكي، تماماً كما تعتمد الفيزياء الكلاسيكية، على التقسيم الديكارتي بين الذات العارفة والموضوع. ولما كان علم النفس الكلاسيكي يعتمد على هذا التقسيم، فقد تم تطوير طريقتي فهم ومعالجة لدراسة العقل. وقد سلك علم نفس السلوك مسلكاً اختار فيه دراسة تأثيرات العقل في المادة عن طريق دراسة السلوك، وطبق مثودولوجيا الفيزياء الكلاسيكية على هذا العمل الشاق. وعلى هذا

الأسـاس، تقلصت الظـاهرات السـيكولوجية إلى «كتـل بنـاء» نفسـية، وارتبطـت بالتحريضـات الفيزيولوجيـة التي افتُرض أنهـا أسـبابها. وكمـا تحدثنـا البيولوجيـا الكلاسيكية، تُعتبر الكائنات الحية آلات تتفاعل أو تُرد إلى المحرضـات الخارجيـة، الأمر الذي أدى إلى صياغة آلية التحريض ـ الاستجابة وفق نمط الفيزياء النيوتونية. . .

يخبرنـا سـكينر في كتابـه «العلـم والسـلوك البشـري» أن «العقـل» و«الوعـي» و«الأفكار» كيانات غير موجودة أو كائنة، «اختُرعت مـن أجـل تزويدنـا بتفسـيرات زائفة ومتحولة». وهذا يعني أن التفسير الجدي الوحيد هو ذلك التفسـير الـذي يقـوم على وجهة النظر المكانيكية إزاء الكائن الإنساني الحي. أما علماء النفس، الذيـن مـا زالوا يشكلون الاتجاه السائد للسـيكولوجيا الأكاديميـة، فـإنهم يدافعـون عـن طريقـة فهمهم ومعالجتهم إذ يدّعون بأنها الطريقـة العلميـة الوحيـدة لعلـم النفـس. وهكـذا، يوحّدون، من خلال دوافعهم أو ادعائهم هذا، الهيكل التقليصي المكانيكي مع العلم.

على غير ذلك، فقد انطلق فرويد من الجانب الآخر للتقسيم الديكارتي. وعوضاً عن دراسة السلوك، فقد اختار دراسة الذات العارفـة عـن طريـق الاسـتبطان. وعلـى الرغم من أنه لم يبحث في المادة، لكنه، مع ذلك، أراد أن يطـوّر علـم نفـس علمـي، الأمر الذي أدّى به إلى تأسـيس علاقـة تصوريـة أو مفاهيميـة بـين التحليـل النفسـي والفيزياء الكلاسيكية.

وعلى غرار الفيزيائيين، سعى فرويد إلى البحث عن كتل البنـاء الأساسـية. وفي سعيه هذا، ركز على الغرائـز الأساسـية وسلم بوجـود الأنـا، والـ هـو والأنـا العليـا واعتبرها بنى نفسية أساسـية، معينـة ومسـتقرة، وممتـدة إلى الحـيّز النفسـي. ووفـق مسلمته هذه، تُشاهد هذه البنى وكأنهـا نـوع مـن أنـواع الموضوعـات الداخليـة الـتي تتنازع وتتصارع مع بعضها. وهكذا، نرى كيف تُسيِّر آليات العقل بقوى صيغت على صورة المكانيك النيوتوني.

وعلى غرار الفيزياء الكلاسيكية، يتصل النمط الكلاسيكي أشـد الصلـة بحتميـة صارمة. ويفترض الطب النفسي بأن ما يعتلج في أعماق الإنسان مرده إلى ما تركزٍ فيـه أو تحدَد فيه عند الولادة. ويقلـص علـم الأمـراض إلى أسـباب مسـبقة محـددة غايـة التحديد. وعلاوة على هذا، يُفترض أن يكون المحلّـل النفسـي ملاحِظـاً موضوعيـاً لا يؤثر في الظاهرات الملاحَظة ولا يتأثر بها. فقد أشار فرويد على علماء التحليل النفسي أن يكونوا «باردين برودة الجرّاح». وإن مثل هذه النصيحة لا تعكس المثال الكلاسيكي للموضوعية فحسب، بل تعكس أيضاً تأثير النمط الطبي المكانيكي.

الاقتصاد:

نتحول الآن من علم النفس والطب النفسي إلى العلوم الاجتماعية على نحو خاص: فعلم الاقتصاد الحالي، مثله مثل غالبية العلوم الاجتماعية، علم جزئي وتقليصي. هو علم تقليصي ومجزأ لأنه يخفق في تبيان حقيقة هي أن الخطة الاقتصادية معْلم من معالم بنية اجتماعية وإيكولوجية. والخطيئة الكبرى التي اقترفتها العلوم الاجتماعية نتجت من تقسيم هذه البنية إلى كِسر وأجزاء، وافتراضها أجزاءاً مستقلة، تعالج أو تدرَّس في فروع أكاديمية منفصلة ـ علم النفس، الاقتصاد، العلوم السياسية، التاريخ ..إلخ..

يشير واقع الحال إلى أن الاقتصاديين يهملون الاتكال المتبادل بين ما هو إيكولوجي وما هو اجتماعي وإنساني، ويعتبرون كل السلع على نحو متساوٍ، دون الأخذ بعين الاعتبار الطرق الكثيرة التي تتصل بها مع باقي العالم، ويقلّصون القيم كلها إلى مجرد تأمين الكسب الخاص. وعلى هذا النحو، يُتهم الاقتصادي التقليدي بأنه يتعارض، في صلبه، مع الإيكولوجيا، أي أنه لا إيكولوجي في صميمه. فهو يستفيد من مفاهيمه ـ «الفعالية»، «الإنتاجية»، «الربح» إلخ.. ـ ويُسقط مضمونها الإيكولوجي والاجتماعي الأعم. ولا يتورع عن قياس الفعالية المشتركة وفق معطيات المكاسب المشتركة، مما يجعل هذه المكاسب تزداد زيادة كبرى على حساب الصالح العام. وهكذا، لا يكفي أن نتحدث عن الفعالية بطريقة مطلقة. ولكي نتوخّى الصواب، يجب علينا طرح السؤال في الصيغة التالية: «الفعالية لمن؟». وعلى سبيل المثال، عندما تقاس الفعالية في الزراعة بمقدار الطاقة المستعملة من أجل مردود معين من الحريرات، نجد أن الطريقة المعروفة بمكننتها العالية هي أقل ما تكون فاعلة في العالم. ومع ذلك، تعود بأرباح ضخمة في العمل الزراعي الذي تمتلك الصناعة البتروكيميائية القسم الأكبر منه.

على نحو عام، لا يفكر الاقتصاديون تفكيراً إيكولوجياً، وبالتالي يرتبكون ارتباكاً كلياً عندما تجابههم معضلات مثل معضلة التضخم. ففي النمط الكلاسيكي، ثمة متسع لسوق حرة تبقى في حالة توازن على نحو طبيعي. وفي مثل هذا التوازن الطبيعي، يعد التضخم والبطالة انحرافين عن الوضع المتوازن، بحيث ينوب أحدهما عن الآخر. لكن الوضع الحالي يشير إلى أن الأنظمة الاقتصادية محكومة من قبل مؤسسات ضخمة وجماعات تسعى إلى تأمين مصلحتها الخاصة، وأن الأسواق الحرة نادرة الوجود. فقد أصبح التضخم والبطالة مظهرين بنيويين من مظاهر النظام

الاقتصادي، تماماً كما أصبحت الفكرة الكاملة للتناوب بين هذين المظهرين غير شرعية. هذا، لأنهما يتولّدان من عناصر جهازية؛ وأعني بقولي هذا إهمال الاتكال المتبادل الاجتماعي والإيكولوجي.

إذا شئنا معرفة الأسباب التي تؤدي إلى التضخم، وجدنا السببين الرئيسين التاليين:

1ـ الاتكال المفرط على الطاقة والموارد الطبيعية في نظام اقتصادي يركز قاعدته على رأس المال.

2ـ إهمال الأكلاف الاجتماعية والبيئية التي تولدها كلية النشاط الاقتصادي.

الواقع هو أنه لا يمكننا فهم أي واحد منهما ضمن البيئة الاقتصادية الحالية اللاّإيكولوجية التي تتغاضى عن اتكالنا على العالم الطبيعي. وإن هذا الموقف لا يتباين مع الموقف الذي نقفه من الثقافات والحضارات التقليدية فحسب، بل لا يتوافق أيضاً مع وجهات نظر الفيزياء الحديثة. ولا يدهشنا أن نقول: إن نظريات الفيزياء الحديثة تلزمنا على النظر إلى العالم الطبيعي نظرة نراه فيها كلاً عضوياً تتكل الأعضاء كلها على بعضها اتكالاً متداخلاً. وإن مثل هذا الكل العضوي الذي يتكل بعضه على بعض لهو منظومة ديناميكية، توازن ذاتها وتعدل ذاتها، على غير ما هو عليه اقتصادنا الحالي وتكنولوجيتنا الحاضرة اللذان لا يعترفان بمبدأ معرفة حدود الذات.

أصبح الإيمان بازدهار تكنولوجي واقتصادي لا متمايز أمراً أساسياً لحضارتنا. ولما كان نظامنا الاقتصادي يقوم على توسع مستمر، فإننا نقول: إن توسعاً محدوداً على كوكب محدود لا يؤدي أبداً إلى وضع يتصف بالتوازن الديناميكي. ففي النظام الدقيق الناعم، الذي تمتاز به الطبيعة، تسلك تكنولوجيتنا سلوك الجسد الغريب... سلوكاً تظهر علامات رفضه العديدة. وقصارى القول هو أننا في حاجة ماسة لفلسفة جديدة للاقتصاد والتكنولوجيا، تمثل وجهة نظر جديدة لموقفنا من العالم. وتُعد الفيزياء الحديثة، وهي العلم الذي تعتمد عليه التكنولوجيا الحديثة، سبيلنا الوحيد الذي يزودنا بهذه النظرة الجديدة للعالم.

النظرية الكوانتية:

يُعد اكتشاف العالم الذري ودون الذري في القرن العشرين كشفاً لحدود التصورات الكلاسيكية. وقد ألزم هذا الكشف العلماء على إعادة النظر في كثير من الأفكار الأساسية التي تعنى بالبحث عن الحقيقة. وقد توطّد تبصر من تبصرات النظرية الكوانتية، هو الأساس النظري للفيزياء الذرية، على الاعتراف الضمني بأن الاحتمال سمة أساسية للحقيقة الجوهرية، يتحكم بكل العمليات، وبوجود المادة ذاتها. ومن القضايا التي طرحها هذا الاحتمال هو أن الجزيئات دون الذرية لا توجد على نحو يقيني في أماكن محددة، إنما، بالحري، تُظهر «ميولاً لأن توجد». فعلى المستوى الجوهري، تتلاشى الموضوعات المادية الصلبة للفيزياء الكلاسيكية لتتشكل في أنماط احتمالات.

بالإضافة إلى ما ذكرناه، لا تمثل هذه الأنماط احتمالات الأشياء، بل تمثل، عوضاً عن ذلك، احتمالات الترابطات المتداخلة. وعلى هذا الأساس، يظهر التحليل الدقيق لعملية الملاحظة في الفيزياء الذرية كيف تتجرد الجزيئات دون الذرية من المعنى إذا ما أُخذت بوصفها وجودات أو كيانات معزولة، بمعنى أنه يستحيل فهمها إلا بعلاقاتها المتداخلة التي تتكشف بين تهيئة التجربة والقياس الناتج. فالجزيئات دون الذرية ليست «أشياء» بل هي علاقات متداخلة بين الأشياء. وليست هذه «الأشياء» إلا علاقات متداخلة بين أشياء أخرى، وهلم جراً.

وإذا كانت الحال كذلك، فإن النظرية الكوانتية تبوح لنا بسرها الذي يشير إلى وجود وحدة أساسية للكون. فهي تظهر عجزنا عن حلّ العالم إلى وحدات صغرى توجد على نحو مستقل. فكلما توغلنا إلى أعماق المادة، وجدنا أن الطبيعة لا تكشف لنا عن أنها كتل بناء أساسية معزولة. وعلى غير ذلك، تظهر أنها شبكة من العلاقات بين الأجزاء المتنوعة العديدة لكل متحد.

تُمدنا الفيزياء الذرية بتبصر هام آخر، يجعلنا نتحقق من أن هذا النسيج الكوني من العلائق يشتمل، في أساسه، على الملاحِظ البشري ووعيه. ففي النظرية الكوانتية، نستطيع فهم «الموضوعات ـ الأشياء» الملاحظة ضمن حدود التفاعل المتداخل بين عمليات متنوعة، وإخضاعها للملاحظة والقياس، بحيث أن نهاية هذه السلسلة من العمليات تصبّ دائماً في وعي الملاحِظ البشري. أما المظهر الحاسم للنظرية الكوانتية فإنه يتلخص في أن المراقِب البشري ضروري من أجل مراقبة

خصائص جوهرية. ومن أجل إحداث هذه الخصائص. وإن قرار المراقِب الواعي لكيفية الملاحظة ـ لنقل ملاحظة إلكترون ـ يحدد خصائص إلكترون إلى حد ما. وإذا شئنا صياغة كلامنا بأسلوب آخر، قلنا: الإلكترون لا يتصف بخصائص موضوعية بمعزل. أو على نحو مستقل، عن عقلنا. لذا، يبطل الفصل الديكارتي الحاد في الفيزياء الذرية بين الأنا والعالم، وبين العقل والمادة. فلا يمكننا، بعد الآن، التحدث عن الطبيعة دون التحدث، في آن واحد، عن أنفسنا.

النظرية النسبية:

ليست التغيرات الطارئة في تصوراتنا ومفاهيمنا الأساسية عن الحقيقة إلا نتاجاً لما أتت به النظرية الكوانتية التي تعد واحدة من نظريتين هامتين للفيزياء الحديثة. أما النظرية الثانية، التي أبدعت في تصورنا للطبيعة تصوراً عميقاً، فهي النظرية النسبية التي أحدثها إينشتاين.

أحدثت النظرية النسبية تبدلاً حاسماً في تصورنا للزمان والمكان. ونفت هذه النظرية أن يكون المكان ثلاثة أبعاد، وأكدت أن الزمان ليس وجوداً مستقلاً أو منفصلاً. فكلاهما مرتبطان على نحو صميم لا يقبل الانفصال، ويشكلان متصلاً رباعي البعد يدعى الزمان ـ المكان. ولا تسمح لنا النظرية النسبية أن نتحدث عن الزمان دون المكان أو عن المكان دون الزمان.

يعد مفهوماً الزمان والمكان أساسيين إذا ابتغينا وصف الظاهرات الطبيعية. ويستلزم تعديلهما تعديلاً للهيكل الذي نستعمله لوصف الطبيعة. أما الحصيلة الهامة لهذا التعديل فتتمثل في التحقق من أن الكتلة ليست إلا شكلاً للطاقة، بحيث أن شيئاً، وهو في حالة السكون، يمتلك طاقة مختزنة في كتلته.

ترك هذان التطوران ـ توحيد الزمان والمكان، تكافؤ الكتلة والطاقة ـ أثراً عميقاً على الصورة التي كنا قد رسمناها للمادة وألزمتنا على تعديل أو تكييف تصورنا للجزيء بطريقة هامة وأساسية. ففي الفيزياء الحديثة، لم تعد الكتلة مرتبطة بجوهر مادي، وبالتالي لا تحتوي الجزيئات «قواماً» أساسياً، بل تُدرك على نحو حزم طاقة. ومع ذلك، ترتبط الطاقة مع الفعالية ومع العمليات الوظيفية، الأمر الذي يعني في مضمونه أن طبيعة الجزيئات دون الذرية ديناميكية في أساسها.

في سبيل فهم أفضل، يقتضي الواجب أن نتذكر أن وصف هذه الجزئيات لا يتم إلا في بنية يلتحم أو يندمج فيها الزمان والمكان في متصل رباعي البعد. وفي بنية

هذا نوعها، يبطل تصورنا للجزيئات بأنها أشياء ثلاثية البعد وسكونية مثل كرات البليار أو حبات الرمل. وعلى غير ذلك، نتصورها وجودات رباعية البعد في الزمان ـ المكان. إذن، فالجزيئات دون الذرية أنماط مكانيكية تمتلك معْلماً زمانياً ومعْلماً مكانياً. ويجعلها معْلمها المكاني تظهر أنها أشياء لها كتلة معينة؛ ويجعلها معلمها الزماني تبدو أنها عمليات وظيفية تستغرق الطاقة المتكافئة. وهكذا، تُكسب النظرية النسبية مقومات المادة معْلماً ديناميكياً في جوهره. لذا، لا نستطيع فصل كيان المادة عن فعاليتها لأنهما معْلمان مختلفان لحقيقة زمانية ـ مكانية واحدة.

تشكل أنماط الطاقة العائدة للعالم دون الذري البُنى الجوهرية والذرية الثابتة التي تبني المادة وتُكسبها مظهرها الصلب الماكروسكوبي، الأمر الذي يجعلنا نعتقد أنها تتركب من جوهر مادي. فعلى المستوى الماكروسكوبي، تفيدنا صورة الجوهر المادي إفادة كبرى؛ لكن معناها يبطل على المستوى الجوهري. ويفسر الأمر على النحو التالي: تحتوي الجواهر جزيئات ليست مصنوعة من قوام مادي. وعندما نراقبها، لا نشاهد أي جوهر مادي. وإن ما نلاحظه لا يخرج عن كونه أنماطاً ديناميكية تتبدل الواحدة منها على نحو متواصل إلى الأخرى ـ إنها الطاقة وهي تؤدي رقصتها المتواصلة.

يهدف البحث الجاري في الفيزياء إلى توحيد النظرية الكوانتية مع النظرية النسبية في نظرية مكتملة للعالم دون الذري. فنحن ما زلنا متخلفين عن صياغة نظرية كاملة. ومع ذلك، نمتلك عدة نظريات جزئية، أو عدة أنماط ومناهج، تصف معالم معينة للظاهرات دون الذرية وصفاً جيداً. ولن يستقيم بحثنا مالم نركز على واحد من هذه المناهج المدعو «منهج البوتستراب». ويحتمل أن يكون لهذا المنهج التأثير الأكبر على تفكيرنا العلمي المستقبلي.

منهج البوتستراب:

تتمثل القاعدة التي يقوم عليها البوتستراب بفكرة هي «أن تقليص الطبيعة إلى كيانات أو وجودات أصلية أمر محال». والحق هو أن تشبيهها بكتل البناء الأساسية المشكِّلة من المادة أمر تجاوزه التفكير العلمي. ولا يتم فهم الطبيعة فهماً كلياً إلا من خلال التساوق الذاتي، أي الانسجام بين الأجزاء. وهكذا، تلتزم الفيزياء بالانطلاق من شرط أساسي هو «كون العناصر الأساسية أو المكونات متساوقة مع ذاتها ومنسجمة مع بعضها».

تنفصل هذه الفكرة انفصالاً جذرياً عن النهج التقليدي المتبع في البحث الفيزيائي الذي اتجه دائماً إلى الكشف عن المكونات الأساسية للمادة. وفي الوقت ذاته، تمثل هذه الفكرة الذروة التي تسنمها التصور الحالي للمادة دون الذرية بوصفها شبكة من العلاقات المتداخلة الصلة. لكن فلسفة البوتستراب تتخلى عن الفكرة التي تتمثل في أن المادة كتل بناء أساسية، ولا تعترف بأي وجودات أساسية مهما كان نوعها - لا وجود للقوانين الأساسية، أو المعادلات أو المبادئ. فالكون، وفق هذا المنهج، نسيج ديناميكي من الأحداث المتداخلة العلاقة. ولا تكون أية خاصة من خصائص أي جزء من هذا النسيج أساسية: هذا، لأن هذه الخصائص تنتج من خصائص الأجزاء الأخرى، بحيث أن التوافق أو التساوق الكلي لعلاقاتها المتداخلة والمتبادلة يعيِّن بنية النسيج كله. وهكذا، يحتمل أن يعالج المزيد من الظاهرات تدريجياً بدقة متنامية وذلك بإحداث موزاييك من الأنماط المتواشجة. وهكذا، لا تُعد نظرية الـ «بوتستراب» صفة ملائمة لنمط فردي واحد، بل يمكن تطبيقها فقط على مجموعة مؤتلفة من الأنماط المتساوقة على نحو تبادلي، بحيث لا يكون أحدها أساسياً أكثر من الأنماط الأخرى. وفي كلمات شيو، الفيزيائي الذي أنشأ نظرية البوتستراب، نجد الحقيقة التالية: «يُعرف الفيزيائي بأنه بوتسترابي إن هو استطاع أن يعالج أي عدد من الأنماط المختلفة الناجحة جزئياً بدون محاباة أو تحيّز».

هكذا، يمكننا تلخيص فكرة الهادرونات التي تنبثق من هذه الأنماط البوتسترابية في العبارة الاستفزازية التالية: «كل جزيء يشتمل على الجزيئات الأخرى». ونحن نسوق هذا الكلام لأن الهادرونات ليست كيانات منفصلة بل هي أنماط طاقة متداخلة العلاقة في عملية ديناميكية متقدمة باستمرار. والواقع هو أن الأنماط لا «يحتوي» الواحد منها الآخر، بل بالحري «يستغرق» الواحد منها الآخر بطريقة معينة تكتسب معنى رياضياً دون التعبير عنها بسهولة في كلمات.

إن فكرة البوتستراب التي تتمثل في نسيج علاقات متداخلة، ويتآلف فيه كل جزء من الجزيئات على نحو ديناميكي مع الآخر، تجسِّد الذروة التي تسنَّمتها النظرة إلى الطبيعة المنبثقة من نظرية الكوانتوم مضافاً إليها ما تم تحقيقه من ترابطية متداخلة أساسية. صاغتها النظرية النسبية في وقت لاحق عندما اعترف العلماء بأن الشبكة الكونية ديناميكية في صميمها، وأقروا أن فعاليتها هي جوهر كيانها ووجودها.

الفيزياء الحديثة: تطبيقاتها في كل من نطاق العلم والمجتمع

يجدر بنا، قبل البحث في هذه الفكرة، أن نتساءل عن مضامين «الفيزياء الحديثة» وتطبيقاتها في كل من نطاق العلم والمجتمع.

تتراءى لنا حقيقة تفسَّر في ضوء الحكمة التي يجب على الفيزيائيين تعلمها في هذا القرن، وتتمثل في ما يلي: محدودة هي التصورات والمفاهيم التي نستفيد منها في وصف الطبيعة. فإذا ما وسعنا نطاق تجربتنا فإنما ليتوجب علينا أن نعدِّل، أو نهمل، بعض هذه التصورات والمفاهيم. وإن تجربتنا التي تتضمن التساؤل عن، واستقصاء حقيقة القاعدة الحقة التي يبني المرء عليها هيكله التصوري، والإلزام الذي يشير إلى قبول التعديلات العميقة التي تطرأ على أفكاره المدللة، أمران مأساويان ومؤلمان للفيزيائيين، وبخاصة لأولئك الذين واجهوا الحقائق الجديدة خلال العقود الثلاثة الأولى من هذا القرن. أما المكافأة التي نالها الفيزيائيون بعد عناء تجربتهم فقد تمثلت في تلك البصيرة التي توغلت إلى أعماق طبيعة المادة والعقل الإنساني. والحق يقال إن هذه التجربة يحتمل أن تكون مفيدة للعلماء الآخرين، وذلك لأن الكثيرين منهم قد بلغوا، في الوقت الحاضر، حدود النظرة الديكارتية الكلاسيكية للعالم في حقول اختصاصهم. وفي سبيل تجاوز أنماط الفكر الكلاسيكية، يتوجب عليهم أن يتجاوزوا طريقة الفهم والمعالجة المكانيكية التقليدية، تماماً كما تصرف الفيزيائيون، ويتبنوا وجهات نظر شمولية، كلية وإيكولوجية.

في حقل الطب، يجب على الأطباء أن يوسعوا منظورهم، بحيث يغيّرون اتجاه تركيزهم من المرض إلى الصحة، ويدركون أن الكائن الحي الإنساني منظومة ديناميكية يُستشف منها معالم فيزيقية ونفسية متداخلة الارتباط، ويقيمون علاقة بين الحالة العامة لهذه المنظومة مع بيئتها الاجتماعية والفيزيقية والعاطفية. وسوف يلازم هذا التبدل جهودٌ مماثلة في التربية والصحة بحيث تسمح للأفراد أن يكونوا مسؤولين عن صحتهم الخاصة، فلا يعودون يفوّضون الطبيب والعقاقير بالقيام بهذه المسؤولية.

في حقل علم النفس والطب النفسي ـ العقلي، يجب على العلماء الاختصاصيين في هذا النطاق توسيع إطار علم النفس الكلاسيكي لكي يتعمق فهمهم للنفس الإنسانية. ويجب عليهم أيضاً، وعلى الأطباء، أن يعالجوا الكيان كله، ويروا فيه منظومة ديناميكية تشتمل على أنماط سيكولوجية وفيزيقية ذات اتكال متبادل، منظومة هي جزء متكامل مع المنظومات التي تتفاعل على نحو أشمل، وتُعرف

بأبعادها الكونية والحضارية والثقافية والاجتماعية والفيزيقية.

في حقل العلوم الاجتماعية، يجب على العلماء الاختصاصيين أن يعالجوا هذه المنظومات الأشمل، وفقاً لذلك، ويتجاوزوا الحدود الحالية الصارمة، ويوسعوا تصوراتهم الأساسية، ويحرروها من دلالاتها الضيقة والتقليصية ويطلقوها إلى محيط اجتماعي وإيكولوجي. وإن تطوير وتحسين مؤسساتنا الاقتصادية والاجتماعية الحاضرة، والأمل الذي يراودنا بمستقبل أفضل، مرتبط بصياغة وإدارة هذه المؤسسات التي بلغت حداً يهدّد ازدهارنا.

نعتقد أن العلماء قادرون على صياغة تصوراتهم الجديدة في هذه الحقول العديدة بحيث تتوافق مع مضامين الفيزياء الحديثة. أما بعضهم الآخر، فقد لا يجدون في الفيزياء نموذجاً ملائماً بل عوناً لهم في اختصاصاتهم. ومن واجب العلماء ألا يرغبوا في اعتناق وجهة النظر الكلية وتبّني نظام كلي لمجرد خشية أو خوف يعتريهم من تهمة تلصق بهم بأنهم غير علميين. لقد أظهرت لهم الفيزياء الحديثة أن نظاماً كهذا علمي في صميمه ومتساوق مع غالبية النظريات العلمية المتقدمة التي تلج محراب الحقيقة الفيزيائية.

في سبيل تقدم علمي متطور ونامٍ تبدو لنا فكرة البوتستراب، وهي نظرية الأنماط المتسقة على نحو متبادل ومتواشج، نظرية لا ترى في نمط أنه جوهري أو أساسي أكثر من غيره: هي فكرة يتوقع لها العارفون مستقبلاً علمياً مرموقاً.

في هذا الصدد، نقدم مثالاً يوضح لنا ما ذكرناه في السطور السابقة: في الوقت الحاضر، يقوم الدليل على أن مناهج العلاج النفسي المتنافسة تتناقض مع بعضها، لأن الباحثين الأفراد ركزوا انتباههم على مستوى معين من مستويات الوعي؛ وحاولوا، بعد ذلك، تعميم نتائج بحثهم على كلّية النفس.

أما في المستقبل، فيحتمل أن يحدث توفيق في الفروق القائمة بين المدارس المتنوعة وذلك باعتبار أنماطها تنظيمات نافعة، لكنها محدودة، للوعي الإنساني، تشير إلى معالم مختلفة أو مستويات للعقل الإنساني. ففي مدرسة العلاج النفسي، يحتمل أن يعتمد المعالج النمط الفرويدي لدى معالجة المرضى الذي يختبرون أو يعانون من الكبت والارتكاس إلى الطفولة، ويحيون من جديد صدمات نفسية ـ جنسية متعددة. ويُحتمل أن يُعتمد أسلوب أدلر لمعالجة مشاعر النقص ـ الدونية ـ، وطريقة يونغ لدراسة التجارب التي تتصف بمزيّة ميثولوجية أو دينية. وبالفعل، لم

يعد نمط من هذه الأنماط يحتفظ بأساسياته أكثر من نمط آخر. هذا. لأننا نستفيد منها بوصفها تنظيمات ترشد المعالج الاختصاصي والمريض أثناء توغلهما إلى أجزاء النفس المختلفة.

في نهاية حديثي، أقول: إن حقول العلم الأخرى تستطيع أن تتبع إجراءات مماثلة. والحق أن فلسفة البوتستراب تعد القاعدة الأساسية لطريقة الفهم والمعالجة الكلية المتداخلة التنظيم التي نحتاج إليها أشد الحاجة لوصف نسيج الحقيقة. ويحتمل أن يشتمل العلم في المستقبل على فيزياء البوتستراب. وأخيراً، نعتقد أن ذلك العلم سيتجاوز الفروق المتداخلة التنظيم، وسوف يستفيد من أية لغة، أياً كان نوعها، إن كانت ملائمة لوصف العالم والمستويات المختلفة للحقيقة.

لن يكون المغزى الثقافي الأساسي لتطور من هذا النوع إلا اعترافاً بمحدودية طرق الفهم العقلانية التي تعالج الحقيقة. لذا، يكون القبول الواسع لهذا الواقع خطوة ضرورية باتجاه ثقافة أكثر اتزاناً. وفي ثقافة كهذه، لن يكون العلم بكليته أكثر من طريقة من الطرق العديدة التي يتبعها الرجال والنساء الذين يسعون إلى تحقيق فهمهم للكون. وسوف تكتمل هذه الطريقة الخارقة وطرائق فهم أخرى تعادلها أهمية. ولن يعود التوازن إلى مواقفنا وقيمنا إلا بمثل هذا التأمل المتوازن. وفي هذا التوازن المتكامل، ندرك الحقيقة التي عبر عنها الحكيم الصيني شوانغ تزو في عبارته التالية: «الحياة هي التآلف المنسجم للين واليانغ».

مراجع البحث

1- P. Handler: Biology and the Future of man.

2- B. F. Skinner: Science and Human Behaviour.

3- H. Henderson: Creating Alternative Futures.

4- K. Wilber: The Spectrum of Consciousness.

الفصل الخامس

العالم الهولوغرافي الكلّي

1ـ مقدمة:

نشأة الكون الهولستي الكلّي:

يتجه العلماء المعاصرون، الذين يحاولون رؤية العالم ببصيرة وحكمة، إلى اعتباره كياناً حياً. ولئن كان العلماء السابقون، الذين تأثروا بنظرية نيوتن العلمية وموقفه الفكري من العالم؛ قد اعتبروا الكون المكانيكي آلة ضخمة تنفذ حرارتها وهي تسير ببطء إلى موت حراري ترموديناميكي، لكن المعاصرين منهم أحلّوا الكون الديناميكي والمتطور محل الكون المكانيكي. وبعد عام 1960؛ رأى أولئك العلماء أن الكون كان قد بدأ صغيراً جداً وحاراً في الكتلة النارية الأولية؛ وفي رأيهم، أنه كان، وما زال؛ يتسع منذ ذلك الحين. وبمقدار ما كان ينمو ويتطور، كان يبترد. وكانت البنى والأشكال والأنماط تزداد تطوراً في داخله. وفي البدء، لم تكن هناك ذرات، أو نجوم، أو مجرات، أو عناصر كالكربون والحديد، أو كواكب أو حياة بيولوجية. وللمرة الأولى، وُجدت هذا الأشياء كلها أثناء اتساع الكون وتطوره؛ وتكررت هذه الأشياء على نحو دائم وثابت في أماكن وأزمنة عديدة. وهكذا، لم يعد هذا الكون النامي والمتطور شبيهاً بآلة. وعلى غير ذلك، أصبح شبيهاً بمتعضية أو بجسد ينمو، ويتطور وينبض بالحياة.

2ـ بنية الكون الهولستي الكلّي:

في هذا المنظور، لم تعد الطبيعة مؤلفة من قطع صغيرة من الذرات. وعوضاً عن ذلك، أصبحت الذرات بُنى معقدة من النشاط والفاعلية. وبالمثل، لم تعد المادة شيئاً؛ فقد اعتبرها العلماء سلسلة من العمليات المتعاقبة والمتصلة. وبهذا الصدد، يقول كارل بوبر، الباحث في فلسفة العلم، ما يلي: «لم تعد المادة مبدأ يوضح أساس كل شيء.

وعلى غير ذلك، أصبحت قابلة للتفسير من خلال مبادئ أساسية هي الحقول والطاقة».

الآن، نستطيع أن نتحدث عن الكون على نحو هولستي ـ كلي... الكون المنظم عبر سلسلة متصلة، أو تسلسل، من مستويات التنظيم ضمن تراتب من الأنظمة يتداخل بعضها مع بعض بحيث أن الأشياء، في كل مستوى، تكون كليّات و أجزاء في آن واحد. فالذرات كليّات تشتمل على أجزاء دون ذرية؛ وتكون، بدورها، كليّات عند مستوى أدنى. وكما تكون الذرات كليّات تتألف من قسيمات جزيئية كذلك تكون البلورات كليات تتألف من أجزاء ذرية. وبالمثل، تتضمن الخلايا داخل الأنسجة، تماماً كما تتضمن الأنسجة داخل الأعضاء، والأعضاء ضمن المتعضيات والكائنات الحية. والمتعضيات والكائنات ضمن الجماعات، والجماعات ضمن المنظومات الأوسع، وهذه ضمن الأرض؛ والأرض، بدورها، تتضمن في النظام الشمسي الذي يتضمن في المجرة إلخ. وهكذا، نشاهد مستويات التنظيم ضمن مستويات التنظيم. بحيث يكون كل تنظيم أو منظومة كلاً مؤلفاً من أجزاء، وجزءاً ضمن كل أعظم وأكبر. وهذا يعني وجود عوالم ضمن عوالم.

3ـ الكل والحقل المورفولوجي المنظم:

في كل مستوى، يكون الكل أكثر من مجموع أجزائه. وكما يعتقد روبرت شلدراك، يعتمد الكل على ما يدعوه حقلاً مورفولوجياً يعتبره حقلاً منظماً يشكل أساس أو قاعدة بنية المنظومة. وهذا يعني أن الرنين أو الرجع المورفولوجي يشيِّد أو ينظِّم الحقول المورفولوجية. وعلى هذا الأساس، تمتلك هذه الحقول المورفولوجية ذاكرة في داخلها، الأمر الذي يجعلها حاملة للذاكرة المتضمنة أو المتأصلة في الطبيعة.

4ـ المراتب المتسلسلة واحتمال وجود العقل والذكاء:

نستنتج، مما تقدم، احتمال وجود مراتب متسلسلة، أو تسلسلات بُنى هرمية لعقول أو لكائنات عاقلة ومنظِّمة. وعلى سبيل المثال، تشتمل مجموعات المجرات على مجرات؛ وتشتمل المجرات على أنظمة شمسية؛ وتشتمل الأنظمة الشمسية على الكواكب. وفي كل مستوى، يوجد كلّ يتضمن في مستوى أعلى من الكليّة. وهكذا، تتوافر مستويات كثيرة من التنظيم، يمكننا اعتبارها مستويات تتصل مع نوع من أنواع الذكاء أو العقل.

يمكننا أن نوضح الأهمية التي نعزوها إلى التسلسل الرتبي بطريقة أخرى نعبر عنها كما يلي: يتمثل جوهر أي منظور هولستي ـ كلّي في أن الكلّ، لدى كل مستوى لتنظيم معين، هو أكثر من مجموع الأجزاء، وأن الطبيعة مؤلفة من سلسلة متصلة من المستويات المتنوعة نفضل أن ندعوها سلسلة من المراتب يتداخل بعضها في بعض، وذلك لوجود مستويات ضمن مستويات. وعلى سبيل المثال، نجد ذرات داخل بلّور نعتبره كلاً. وتكون كل ذرة ضمن البلّور كلاً مؤلفاً من جزيئات؛ وتشكل كل ذرة متعضية بذاتها، لها نواتها وإلكتروناتها التي تدور في مدار حولها. وبالمثل، تعد كل نواة كلاً بذاته يشتمل على النيوترونات والبروتونات والقوى التي توحدها أو تجعلها متماسكة.

نستطيع أن نشاهد مستويات التنظيم في كل مكان. فأجسادنا، على سبيل المثال، تمثل كلاً يشتمل على أعضاء، وأنسجة، وخلايا وذرات. ونشكل نحن، بوصفنا متعضيات فردية، جزءاً من منظومات أو أنظمة أكبر. إننا نشكل جزءاً من مجتمعات تماثل، أو تشبه متعضية أو جسداً من مستوى أعلى. وهذه كلها، تتضمن في منظومات كلية توجد في الكوكب الذي ينتمي، بدوره، إلى النظام الشمسي والذي نشبهه أو نماثله بمتعضية تنتمي إلى مجرة تتضمن في مجموعة من المجرات.

5ـ الكل أكبر من مجموع أجزائه:

عندما نتفهم الطبيعة على هذا النحو، نجد، في كل مستوى، كلاً هو أكثر من مجموع أجزائه، يشتمل على الأجزاء المضمونة فيه. والحق، هو أننا، بقدر ما نعرف، لا نستطيع أن نتصور وجود كوكب منفصل عن النظام الشمسي. فلابد وأن يكون هذا الكوكب جزءاً من كل أكبر. وبالمثل، لا نستطيع، بقدر ما نعرف، أن نتصور وجود نظام شمسي منفصل عن المجرات.

هكذا، نألف هذا النموذج من التنظيم في كل معنى من معانيه:

أولاً ـ جغرافياً: بالطريقة التي عينته الطبيعة.

ثانياً ـ بالطريقة التي تنتظم بها لغتنا، الفونيمات ـ وحدات الكلام ـ في مقاطع لفظية ـ وحدات أصغر.

هكذا، تنتظم الوحدات الأصغر في الكلمات، والكلمات في أشباه الجمل أو التعبيرات الموجزة، وهذه الأخيرة في عبارات. وتعد هذه التنظيمات سلاسل متصلة يتداخل بعضها مع بعض.

6ـ كمال الجزء في الكل:

في هذا المنظور، ندرك أن الخير الكلي للكون يكمن في العلاقة المتداخلة للأشياء، بحيث أن كل جزء لا يكون تاماً بمعزل عن الكل. ولا يكون كاملاً إلا في الكل. وعلى هذا الأساس، نعاين الاتصال المتبادل والعلاقة المتداخلة في كل مكان في الكون. وبالفعل، نجد أن الشيء لا يكون مفيداً مالم يكن جزءاً في كل. هذا، لأن طبيعة الكمال، أو الامتلاء، تكمن في المشاركة مع الآخرين انطلاقاً من امتلاء أو كمال الشخص ذاته.

يمكننا أن نقول: يتمثل إبداع الطبيعة عبر سلسلة عملياتها المتعاقبة والمتصلة في خلق وإبداع أشكال جديدة، ونماذج جديدة تتميز بكلٍ كامن وملازم. وتقتضي سلسلة العمليات المتعاقبة والمتصلة قفزات في مستويات جديدة من التأليف: فهي لا تبدع أو تُنشئ نصف مجرة، أو نصف شمس أو نصف فكرة. وفي هذا الصدد، نرى العلاقة بين الكل والامتلاء والكمال.

7ـ البحوث والتجارب العلمية:

في هذا المنظور، ندرس البحوث والتجارب التي قام بها واختبرها بعض العلماء الأفذاذ في نطاق الطبيعة والدماغ الإنساني، أمثال بريبرام وبوم وآشلي.

في الآونة الأخيرة، ظهر كارل بريبرام، العالم الاختصاصي بجراحة الأعصاب، على مسرح الاكتشاف العلمي. وقد اقترح بريبرام مثالاً أو أنموذجاً شاملاً يوحِّد البحث الجاري في نطاق الدماغ مع الفيزياء النظرية.

يفسر هذا النموذج أو المثال، أو يعلل الإدراك الحسي القياسي. ويُخرج، في آن واحد، التجارب الترانسندنتالية، أي المتجاوزة، والمتسامية والخارقة التي تتجاوز القياس العادي، من نطاق الظاهرات الخارقة للطبيعة، ويُلحقها بالطبيعة بوصفها أحداثاً ترتبط بأجزاء الطبيعة.

جدير بالذكر، أن أقوال الحكماء والسّرانيين التي تبدو متعارضة في ظاهرها، تمتلئ بالمعنى من جديد، وتصبح معقولة في ضوء هذا الاتجاه أو التوجيه الجديد الذي أحدثته «النظرية الهولوغرافية» التي أدّت إلى تبدل جذري في المفاهيم. والغريب في الأمر، أن بريبرام لم يكن مهتماً أو منشغلاً بدراسة التبصرات الرؤوية التي لم تحظَ بقدر كاف من الإيمان والتقدير. وكان ما يسعى إليه هو أن تكون البيانات والحقائق

التي يولدها في مختبره، في ستانفورد، مفهومة أو معقولة. كان بريبرام يدرس، بدقة، العمليات الدماغية في الثدييات العليا على نحو عام، وفي الرئيسيات على نحو خاص.

قضى بريبرام ردحاً من الزمن في جراحة الدماغ. وأشرف على تجاربه كارل آشلي الذي أنفق ثلاثين عاماً في البحث الجدّي الرصين، والتعمق في دراسة الأثر المخلف في الدماغ - موقع وجوهر مادة الذاكرة. كان آشلي يدرب حيوانات اختارها لتكون موضع تجربته، ويخرِّب أقساماً من الدماغ ينتقيها بنفسه. كان آشلي يفترض أنه قادر، في نقطة ما من بحثه، أن يعرف المكان الذي يمثل موضع التعلّم. وقد دلّت التجربة أن إزالة أقسام من الدماغ جعلت القدرة على تأدية ما تعلمته تلك الحيوانات تسوء إلى حد ما. لكنه، بعد انقضاء وقت قصير على تدمير الأقسام الدماغية المختارة تدميراً تاماً، اكتشف أن اجتثاث أو إبادة ما تعلمته تلك الحيوانات أمر مستحيل.

في مرحلة من مراحل بحثه قال آشلي وهو يبتسم: دلّت دراستي على أن التعلم ليس أمراً مستحيلاً. ولما كان بريبرام يشارك في تدوين البحث الهام الذي قام به آشلي، فقد رأى نفسه مستغرقاً في الاستقصاء عن سر الأثر المخلّف في الدماغ، المجهول والمفقود. وأدرك بريبرام، وهو يسأل نفسه عن سر الذاكرة، أن الذاكرة لا تُختزن في أي جزء من أجزاء الدماغ فحسب، بل تُوزع في كل مكان فيه.

عندما التحق بريبرام، في وقت لاحق، بالمركز الذي تجرى فيه التجارب المنوطة بدراسة العلوم السلوكية في ستانفورد، اعتراه قلق عميق نتج عن اللّغز أو السر الذي جذبه إلى دراسة الدماغ والبحث في حقيقة الذاكرة؛ وتساءل من جديد: كيف نتذكر؟ واستطاع أن يجد جواباً لسؤاله، في أواسط الستينات، في الوقت الذي كان يقرأ فيه مقالة في المجلة العلمية الأمريكية تصف التركيب الأول أو البنية الأولية للهولوغرام - وهو «صورة» ثلاثية البعد للتصوير الضوئي بدون عدسات.

يُعد الهولوغرام واحداً من أعظم الاكتشافات أو الاختراعات التي عرفتها الفيزياء الحديثة. ففي هذا الهولوغرام، يمكننا رؤية الصور، الشبيهة بالطيف، من زوايا عديدة، بحيث تبدو معلقة في الحيز. وإذا ما تساءلنا: ماذا يحدث لو تعرض الهولوغرام للكسر؟ أجبنا: يعيد كل جزء أو قطعة من القطع بناء الصورة الكاملة.

هكذا، رأى بريبرام أنموذجاً أو مثالاً رائعاً للطريقة التي يحتفظ بها الدماغ بالذاكرة. فإذا كانت الذاكرة موزعة أكثر منها مركزة، فمن المحتمل أن تكون

هولوغرافية، أي كلية. وعلى هذا الأساس، يحتمل أن يتحقق عمل الدماغ عن طريق التفاعلات الداخلية، بحيث أنه يترجم أو يفسر الترددات الكهربائية ـ البيولوجية ليركزها في كل مكان فيه.

في عام 1966، نشر بريبرام بحثه الأول واقترح فيه وجود علاقة بين مركز الذاكرة وكلية الدماغ. وخلال السنوات التالية، تجلت لبريبرام، ولباحثين آخرين، حقيقة هي أن الدماغ يمتلك استراتيجيات حسابية دقيقة تُظهر براعة في التخطيط، ورؤية في التفكير إزاء المعرفة والإحساس. ويبدو أن الدماغ، وهو في صدد الرؤية، والسمع، والشم، والذوق واللمس، يقوم بحسابات معقدة، وأنواع من التفكير المتروّي حول ترددات البيانات والحقائق أو المعطيات التي تصل إليه. وبالفعل، ليست الصلابة، أو الحمرة أو الرائحة مثلاً غير ترددات يواجهها الدماغ. وهكذا، نخلص إلى النتيجة التالية: لا ترتبط هذه العمليات الوظيفية الرياضية ارتباطاً وثيقاً بالآراء العادية التي نكوِّنها عن العالم الواقعي كما ندركها إدراكاً حسياً.

كتب بول بيتش، الخبير بتشريح الأعصاب، ما يلي: «يحتمل أن تكون مبادئ الهولوغرام قادرة على تفسير خصائص الدماغ المحيِّرة». والحق هو أن الهولوغرام، القادر على الانتشار، لا يقدم لنا حكماً صائباً أكثر ممّا يقدمه الدماغ. هذا، لأن مجموعة قواعده، أو دستوره، مدوّنة في كل نقطة من نقاط الوسط والبيئة. لذا، يمكننا أن نقول: إن «العقل المختزن ليس شيئاً بواقعه.. إنه علاقات مجردة. وفي لغة النّسب، والزوايا، والجذور التربيعية، يعد العقل يقيناً رياضياً ثابتاً. ولا يدهشنا أن نعلم بأننا نعجز عن سبر غوره».

اقترح بريبرام احتمال القيام بتأدية الرياضيات المعقدة عن طريق الموجات البطيئة التي تتحرك على طول شبكة من ألياف على الخلايا العصبية. فقد يحل الدماغ شيفرة أشكال أو رسوم ذاكرته المختزنة بالطريقة ذاتها التي يحل بها الهولوغرام المُسقط شيفرته أو يوضح صورته الأصلية. ولما كان النموذج الماثل على صفحة هولوغرافية لا يمتلك بعداً مكانياً وزمانياً فإن بلايين المعلومات الصغيرة تُختزن في مكان صغير جداً ـ تماماً كما تُختزن بلايين القطع في الدماغ.

8ـ الكيان الكامن في الدماغ:

في عام 1970، و1971، واجه بريبرام قضية نهائية ملأت قلبه بالضيق والكرب. فقد أراد أن يتوصل إلى نتيجة تحسم القضية التي أزعجته، فتساءل: إن

كنّا نعرف الدماغ عن طريق تركيب أو تأليف الهولوغرامات ــ عن طريق تحويل الترددات القادمة من عالم الخارج على نحو رياضي ـ فلابد من وجود كيان واعٍ في الدماغ يفسر أو يترجم الهولوغرامات.

أدرك بريبرام أن التساؤل الذي خطر له قضية قديمة جداً، ومزعجة. فالفلاسفة، منذ أيام الإغريق، تأملوا وفكروا في «الطيف الكائن في الآلة» وفي «الرجل الصغير داخل الرجل الصغير». ولقد دعته هذه المعرفة إلى التساؤل من جديد: أين هو الأنا أو الكيان الذي يستعمل الدماغ؟ وأضاف إلى تساؤله هذا تساؤلاً آخر، هو: من يؤدي عملية المعرفة الواقعية؟

أدرك بريبرام أن الجواب يُحتمل أن يوجد في العبارة التي تفوه بها القديس فرنسيس الأسيزي: «إن ما نبحث عنه هو ما ينظر إلينا».

استلهم بريبرام الإجابة الصحيحة أثناء خِطبة كان يلقيها في ندوة علمية. قال لنفسه: يحتمل أن أجد الجواب في نطاق علم نفس الغشتالت. أليس هذا العلم نظرية ترسِّخ الاعتقاد بأن ما ندركه بحواسنا في عالم الخارج مماثل ومطابق ــ متماثل في الشكل ـ مع العمليات الوظيفية الدماغية؟

9ـ العالم هولوغرام:

في تلك اللحظة، قال بريبرام دون أن يفكر: «يحتمل أن يكون الكون هولوغراماً».

توقف بريبرام كمن أذهلته المعجزة، وتأمل مضامين ما قاله. وتساءل في سره: هل أن جمهور الحضور هولوغرامات ـ تمثيلات أو صور لترددات، يترجمها عقلي كما يترجمها كل عقل آخر؟ فإن كانت طبيعة الحقيقة هولوغرافية ـ كلية، وإن كان الدماغ يقوم بوظيفته على نحو هولوغرافي ـ كلي، فمن المؤكد أن يكون العالم، كما تحدث حكماء الشرق، مايا، أي قدرة سرّية لا تكشف عن طبيعتها. أما واقعيته فليست إلا وهماً.

قضى بريبرام أسبوعاً مع ابنه، وهو فيزيائي، يناقشه آراءه ويسعى باحثاً عن إجابات ممكنة في الفيزياء. وذكر له ابنه أن الفيزيائي دافيد بوم، وهو عالم متأثر بإينشتاين وبكريشنا مورتي، يتجه بتفكيره إلى هذه القضايا المحيرة والمذهلة. وبعد انقضاء بضعة أيام، قرأ بريبرام فصولاً من كتابات بوم التي تحث على البحث عن

نظام جديد في الفيزياء. ودُهش بَريبرام عندما أدرك أن بومْ كان يصف في كتاباته كوناً هولوغرافياً ـ كلياً.

10ـ النظام المنطوي والنظام المنبسط:

كتب بوم في مقالاته ما يلي: «كل ما يبدو لنا في العالم مستقراً، ملموساً ومسموعاً لا يخرج عن كونه مجرد وهم. وحقيقة العالم هي أنه ديناميكي، لا نهائي في أشكاله وألوانه ـ إنما، ليس هو في حقيقته «هناك». فما نراه على نحو قياسي ونظامي هو نظام الأشياء المنبسط: المنفتح والقابل للتفسير والتوضيح. وإلى جانب هذا النظام، يوجد نظام آخر تحتي وضمني يشتمل على الكل، ويُعد جوهر النظام المنبسط». وصف بوم هذا النظام بأنه متضمن، ضمني، منطو ومغلق. ويُضمر هذا النظام المنطوي ـ الضمني واقعنا ويخفيه في آن واحد، تماماً كما يُضمر أو يُخفي الـ DNA الموجود والكامن في نواة الخلية ويوجّه طبيعة انفتاحها وكشفها.

يخلص بوم إلى القول بأن كل مادة وحركة ظاهريتين هما مجرد وهم. إنهما تنبثقان من نظام آخر أوّلي للكون. ويطلق بوم على هذه الظاهرة مصطلح «الحركة الكلية الشاملة».

يضيف بوم إلى هذه الخلاصة ما يلي: منذ أيام غاليليو، ونحن ننظر إلى الطبيعة من خلال العدسات. وإن سلوكنا إزاء تموضع الشيء، أو التشيؤ، كما هو الحال في ميكروسكوب إلكتروني، يبدّل أو يعدل ما نأمل أن نراه. ونحن نريد أن نكتشف أطرافه وحدوده، ونجعله يهدأ لوقت قصير. لكن طبيعته الحقيقية تكمن في نظام آخر للحقيقة، هو بعد آخر، لا توجد فيه أشياء. ويبدو الأمر على النحو التالي: نُخضع «الملاحظة» لمراقبتنا تماماً كما نخضع صورة للتحليل. وعلى غير ذلك، تعد الصور الضبابية الهولوغرافية ـ الكلية تمثيلاً أدق لأنها الحقيقة الجوهرية.

خطر لبريبرام احتمال فكري هو أن الدماغ يعدل الحقيقة بطريقة شبيهة بالعدسات مستعيناً باستراتيجياته الرياضية. وتحوّل هذه الاستراتيجيات الرياضية الكامن أو الموجود بالقوة الضبابي إلى حدث، ولون، ولمس، ورائحة وطعم.

يقول بريبرام: قد لا تكون الحقيقة ما نراه بعيوننا. فلو لم تتوافر لنا تلك العدسة ـ الرياضيات التي يؤديها دماغنا ـ لكان من المحتمل أن نتعرف على عالم منظم وفق نظام التردد حيث لا مكان ولا زمان ـ لا شيء سوى الحادثة. فهل نفصل الحقيقة عن ذلك النطاق؟

اقترح بريبرام احتمال أن تزودنا التجربة المتجاوزة والمتسامية ـــ هـي الحـالات السرّانية ـ بقدرة عرضية مباشرة للوصول أو للدخول إلى ذلك النطاق. وبالتأكيد، تبدو لنا التقارير الشخصية المستقاة من حالات كهذه شبيهة بأوصاف الحقيقـة الكوانتيـة: توافق ألزم الفيزيائيين على أن يفكروا أو يتأملوا على نحو مشابه. وإن تجنـب أو تجـاهل نمطنا التصوري المقلّص والقياسي قد يؤدي بنا إلى التناغم مع ينبوع أو منشأ الحقيقة.

11ـ أنماط التداخل العصبية في الدماغ:

يرى بريبرام احتمال أن تكـون أنمـاط التداخـل العصبيـة في الدمـاغ وعملياتهـا الوظيفية الرياضية متطابقة مع الوضع الأوّلي أو البدئي للكون.

قصد بريبرام بقوله هذا أن تكون عملياتنا العضوية الدماغية، بالفعل، مؤلفـة أو مركبة من ذات الجوهر المادي الذي تشكّل منه المبدأ المنظِّم. وهذا ما دفع الفيزيـائيين والفلكيين أحياناً إلى التعليق قائلين: إن الطبيعة الحقيقية للكون كلـه طبيعـة منظمـة ومنهجية. وقد اعترف إينشتاين، بل أعلن، روعه السـرّي في مواجهـة هـذا التناسق والانسجام. وتحدث الفلكي جيمس جينز بما يلي: «إن الكـون أشـبه بفكـرة عظيمـة تنأى عن أن تكون آلة كبرى». وكتب الفلكي آرثر إدينغتون ما يلي: «إن جوهر مـادة الكون هو جوهر مادة عقلية». ووصف عالم السبرنتيك دافيد فوستر «كوناً ذكياً» تتولد واقعيته وصلابته، بواسطة حقائق كونية، من مصدر منظِّم لا سبيل إلى معرفته.

12ـ كيف تُنشي أدمغتنا الحقيقة؟

تقـول النظريـة الهولوغرافيـة ـــ الكليـة الفوقيـة: إن أدمغتنـا تنشـئ الحقيقـة «الواقعية الصلبة» على نحو رياضي، نتيجة لتفسير أو تأويل الترددات القادمـة مـن بُعد أو من مستوى يتجاوز الزمان والمكان. وهكذا، يكون الدماغ هولوغراماً ـ كلاً يؤول كوناً هولوغرافياً كلياً.

يمكننا أن نقول: نحن كائنات نشارك في الحقيقة، نراقبها، ونؤثر في ما نراقبه أو نلاحظه.

13ـ حقيقة الظاهرات النفسية والعقلية:

في هذا النظـام الهولوغـرافي، تعـد الظـاهرات النفسـية والعقليـة نمـاذج ثانويـة للنسيج المتزامن الذي نجده في كـل مكـان. وتعـني هـذه العبـارة أن الأدمغـة الفرديـة

مجرد كِسر صغيرة في الهولوغرام ـ الكلي الأعظم. وتتصف أدمغتنا بقدرة الحصول على كل المعلومات في المنظومة السبرنتية الكلية في ظروف معينة. فالترتيب أو التنظيم التزامني ـ هو نسيج التوافق الذي يتصف بغاية أسمى أو ارتباط محكم. يلائم النظام الهولوغرافي ـ الكلي. وتستمد هذه التطابقات المعنى والغاية ذاتها من طبيعة النسيج المنظم، الهادف والمخطط على نحو نموذجي يُحتذى به. ويحتمل أن تكون النفسانية الديناميكية الفاعلة، أي ما يُعرف بتأثير العقل في المادة، حصيلة لطبيعة التفاعل على المستوى الأولي البدئي. ويحل النموذج الهولوغرافي ــ الكلي لغز حقيقة النفس الذي طال أمد غموضه، وتركز في استخدام وتطوير جهاز يقتفي أثر انتقال الطاقة الظاهرية في التخاطر، والشفاء والوضوح البصري، أي الاستجلاء. فلو كانت هذه الأحداث تقع في بعد أو مستوى يتجاوز الزمان والمكان، لما كنا بحاجة للطاقة من أجل الانتقال من مكان إلى مكان آخر. وكما قال أحد الباحثين: «هناك» غير موجود.

تشير الدلائل إلى أن الباحثين الذين ركزوا اهتمامهم على ظاهرات العقل البشري تنبؤوا، خلال فترة زمنية معينة، بتحقيق نظرية ستخترق حصن اللغز، نظرية تستدعي الرياضيات لتوطيد ما هو خارق في الطبيعة وتضمينه في الطبيعة.

14ـ النموذج الهولوغرافي ـ الكلّي وقدرته التفسيرية:

يعد النموذج الهولوغرافي ـ الكلي نظرية مؤلفة من أجزاء متتامّة تحتضن حياة العلم والروح. وقد يكون هذا النموذج المثال الظاهري التناقض، اللا محدود في تخومه، الذي كان علمنا ينشده غاية له. وتقوم قدرته التفسيرية في إخصاب وتوسيع العديد من فروع المعرفة، فيهب المعنى لظاهرات قديمة، ويثير أسئلة جديدة ملحة. ويُعد ما هو كامن وضمني في النظرية الافتراض أن حالات الوعي المتماسكة على نحو انسجام تتناغم تقريباً على المستوى البدئي للحقيقة، والذي هو النظام والانسجام. والحق هو أن تناغماً كهذا يعوقه الغضب والقلق، وتسهله المحبة. وفي هذا النموذج الهولوغرافي ـ الكلي، توجد معان متضمنة في نطاق العلم، والفن، والفلسفة، والشفاء، والشفاء الذاتي والدين. وهكذا، نسأل: ما المشكلة التي تجعلنا ممزقين ومشتتين؟ وما الكيان الذي يجعلنا كلاً متناسقاً؟

نضيف إلى هذين السؤالين سؤالاً ثالثاً: هل أن الأوصاف التي تحمل معنى الدفق والسيلان الدائم والتعاون مع الكون ــ في عملية إبداعية، في أداءات رياضية

خارقة. وفي حياتنا اليومية أحياناً ـ تدل على اتحادنا مع الينبوع أو المصدر الذي ينبثق منه كل ما هو كائن؟

إذ يختبر ملايين الناس العلوم التطبيقية لعلم النفس، يتساءلون إن كانوا، بهذا الاختبار، يخلقون مجتمعاً أكثر ترابطاً يُرجع أصداء الناس بعضهم إلى بعض، ويلقّم النظام إلى الهولوغرام ـ الكلّ الاجتماعي الكبير مثل حبيبات البلور... قد يكون ما تم ذكره سلسلة من العمليات المتعاقبة للتطور الجماعي.

يساعدنا المثال الهولوغرافي ـ الكلي على شرح القدرة الفردية القائمة في الصورة ـ لماذا تتأثر الأحداث بما نتصوره أو نتخيله؟ فالصورة المحمولة في حالة تجاوزية متسامية قد تتحول إلى صورة واقعية وحقيقية.

15ـ الدماغ والوعي:

تحدث كيث فلويد، وهو عالم نفس، عن الإمكانية الهولوغرافية ـ الكلية بما يلي: «على غير ما نعلم، قد لا يكون الدماغ مصدر الوعي؛ وقد يُبدع الوعي ظاهرة الدماغ. فالمادة، والزمان، والمكان وكل شيء آخر يفسَّر بأنه الكون المادي».

يمكننا أن نقول: يحتمل أن تعلّل الحدوس القديمة عن طبيعة الحقيقة القدرة على بلوغ نطاق يتجاوز الزمان والمكان. ويلمح بريبرام إلى أن لايبنتز، وهو فيلسوف ورياضي عاش في القرن السابع عشر، سلّم بوجود كون من المونادات ـ وحدات تجسد معلومات الكل وحقائقه. فقد اكتشف لايبنتز حساب التفاضل والتكامل الذي جعل اكتشاف الهولوغرام ـ الكل أمراً ممكناً. وأكد، بعد إيراد الدليل، أن سلوك الضوء المنتظم على نحو متقن ـ وهو أمر حاسم بالنسبة للهولوغرافي ـ الكلّي قد برهن عن وجود نظام للحقيقة، هو أنموذج يُحتذى به، ويشكل أساساً أو قاعدة لكل ما هو كائن.

وصف الحكماء السريون القدامى، بدقة، وظيفة الغدة الصنوبرية قبل أي إنجاز علمي حديث. وتساءل بريبرام، وهو يمعن النظر في هذه الحقيقة: «كيف نشأت أفكار من هذا النوع في عصور لم تتوافر فيها وسائل فهمها؟». أجاب بريبرام عن تساؤله هذا بما يلي: «لعل أن الوضع الهولوغرافي ـ الكلّي، أي حقل التردد، لم يختلف عمّا كان عليه قبل أربعة آلاف سنة، ولن يختلف عمّا سيكون في المستقبل.

لم يتورع برغسون عن التصريح بأن الحقيقة الجوهرية الأولية هي نسيج

علاقات يشكل أساساً لكل شيء، وأن الدماغ يستر الحقيقة العظمى.

وصف هوايتهد الطبيعة بأنها سلسلة مترابطة، عظيمة ومتسعة من الحدوث التي تقع وراء الإدراك الحسي. ويحتمل أن يكون بإمكاننا أن نتخيل المادة والعقل منفصلين عن بعضهما في حين أن الواقع يشير إلى أنهما متداخلان ومتواشجان.

يؤكد برغسون، مع إيراد الدليل، أن الفنانين، مثلهم مثل الحكماء السرانيين، يتصفون بقدرتهم على الدفق الحيوي الذي هو الدافع المبدع الذي يشكل أساس التطور. وتمتلئ قصائد ت. س. إليوت بالصور الهولوغرافية ـ الكلية إذ يقول: «النقطة الثابتة للعالم الدائر، ليست هي جسماً لا ولا جسماً؛ ليست هي توقفاً لا ولا حركة. ليست النقطة التي يجتمع فيها الماضي والحاضر ثباتاً. ولولا وجود هذه النقطة الهادئة لما كان رقص، ولكان الرقص وحده».

قال الحكيم الألماني مايستر إكهارت: «الحقيقة السامية تصير ولا تصير». وقال جلال الدين الرومي: «تدرك عقول الناس العلل الثانوية، ويدرك الحكماء وحدهم عمل العلة الأولى».

صرّح إمرسون بأننا نعاني، عن طريق التوسط وليس عن طريق المباشرة، من كوننا عدسات ملونة ومشوهة. ولعل «عدساتنا الفاعلة» تمتلك قدرة إبداعية، وذلك لأن الموضوعات التي تقع خارجنا في الكون لا تتصف بوجود حقيقي: فقد يكون اللعب الذي يؤديه التاريخ واللعب الذي يؤدي لعبته عليه إشعاعين ينطلقان من ذواتنا. وقد وصف أحد الحكماء الحقيقة بأنها نسيج حي تحتوي كل نقطة رياضية فيه كمونات الكل، وقدراته الكامنة.

رسخ في ذهن تيار ده شاردان أنه بمقدور الوعي الإنساني أن يعود إلى النقطة «التي تختفي فيها جذور المادة عن الأنظار». ووصف كارلوس كاستنيدا في كتاب «دون جوان» بُعدين يعبران عن ذاتيهما ببعدين هولوغرافيين ـ كليين: أحدهما أولي وثانيهما ثانوي، هما: الخلاء المقتدر الذي يتجاوز الوصف، المشتمل على كل شيء، وانعكاس هذا الخلاء المجهول اللاّ موصوف والممتلئ بالنظام.

وصف آرثر كوستلر «حقيقة العالم» بأنها تشمل ظاهرات تعصى على المستويين الحسي والفكري. ومع ذلك، تجتاح هذه الظاهرات هذين المستويين بين الفينة والفينة، وتكون شبيهة بالشهب الروحية التي تخترق الفضاء المعقود المقنطر، الأولي والأصلي».

تقدم لنا سوترا هندوسية قديمة وصفاً رائعاً لحقيقة هولوغرافيــة ـ كليــة. تقـول السوترا: في عالم إندرا، توجد شبكة من اللآلئ، منظمة تنظيماً دقيقاً بحيث أنـك لـو نظرت إلى إحداها لوجدت اللآلئ الأخرى منعكسة فيها. وبالطريقة ذاتهــا، لا يمثّـل كل شيء أو موضوع في العالم ذاته فحسـب، بـل ويشـتمل علـى كـل موضـوع آخـر، بحيث يكون، في الواقع، في كل موضوع آخر.

16ـ الدماغ والكومبيوتر وال ESP:

قال بريبرام في خطبة ألقاها: «الدمـاغ الـذي نشـأت علـى معرفتـه هـو نسـخة للكومبيوتر». وأضاف قائلاً: «أما الدماغ الذي أعرفه الآن فإنه يمنحـني القـدرة علـى القيام بتجارب تُبلِّغ لنا من أنظمة أو من عوالم روحية».

تحدث بريبرام عن التجربة السرانية فقال بأنها ليست أكثر غرابة من ظاهرات عديدة في الطبيعة. وعلم أن حصول الإنسان على إدراك حسي فوقي أو نام ESP، أو على ظاهرات خارقة، أو ظاهرات نووية في الفيزياء، يعني ببساطة، أننا نجرد بعـداً آخر في ذلك الحين. وبطريقتنا العادية والقياسية، نعجز عن فهم هذا الأمر.

يُقر بريبرام بأن استيعاب هذا المثال ليس بالأمر السهل. هـذا، لأنـه، يحـوّل، على نحو جـذري، منـاهج اعتقادنـا السـابقة، وفهمنـا البديهـي للأشـياء، وللمكـان والزمان. ويعتقد جازماً أن جيلاً سينشأ على نحو يعتاد فيه على التفكير الهولوغـرافي ـ الكلي. ويقترح بريبرام، وهو يبذل جهده ليمهـد الطريـق، أن يتعلّـم الناشـئون أولاً موضوع التناقض الظاهري في المدارس، قبل أن يتعلموا نتائج البحث العلمي المشحونة بالتناقض.

يعتقد بريبرام أنه يجب على العلمـاء المبدعـين أن يهيـؤوا النـاس للدفـاع عـن الروح بوصفها مجموعة قضايا وحقائق مسلّماً بها. وبهـذا الصـدد، يخـاطبهم قـائلاً: «يتمثل التصور الأصيل للعلم في مواصلة السـعي ضمـن نطـاق الفهـم». ويعلـن بريـبرام أفول نجم التكنوقراطيين ذوي الرؤوس الصلبة والقلوب البـاردة، وذلـك لأن أبحـاثهم أصبحت عديمة الفائدة.

يعترف بريبرام، أحياناً وعلى نحـو لافـت للنظـر، بجهلـه فيقـول: «آمـل أن نتأكد من أنني لا أفقه شيئاً مـن قـولي هـذا». وبـالفعل، يشير هـذا الاعـتراف شـعوراً بالعزاء والاطمئنان بين أكثر جماهير المستمعين علماً وثقافة.

هكذا، أثار التأليف الوثيق بين أفكار بريبرام وأفكار بوم، الماثل في بحوث بريغوجين. علماء الاجتماع والفلاسفة إلى الحدّ الأقصى. وقد أدت هذه الإثارة إلى إقامة ندوات تُشرف على إدارتها مجموعات متقاربة المناهج، ومتداخلة فروع العلم. ولم يتوانَ بريبرام عن مناقشة تصوراته مع خمسة من العلماء، حاملي جائزة نوبل، في مشغل عقد فيه المجتمعون مؤتمرهم.

هنالك رسالة تنطوي عليها الثورات العلمية التي تتسارع على أمل اللقاء في الفيزياء، في عمق النفس، في تفاعل العقل والجسد، في قوة التطور الدافقة، في الطريقين اللذين يسلكهما الدماغ ابتغاء للمعرفة، وفي قدرته الكامنة والفاعلة من أجل تحقيق وعي تجاوزي ومتسامٍ.

17ـ خلاصة:

كلما تعمقت معرفتنا بطبيعة الحقيقة، رأينا، بوضوح، المعالم اللاطبيعية لمحيطنا، وبيئتنا وحياتنا. وليست مقاومتنا لتلقائيتنا الطبيعية إلا نتاجاً لجهلنا وغطرستنا. وإن تصورنا المتصل بفهم قدرة العقل على تحويل الألم واختلال التوازن، جعلنا نعمل لتثبيطه أو إخماده بالمسكنات، ونصرف انتباهه عن كل ما وصل إلى أيدينا. ولأننا لم نفهم أن الكليات أكثر من مجموع الأجزاء، فقد حشدنا معلوماتنا في جزر تتشكل من أرخبيل مؤلف من مجموعة بيانات، ومعلومات ومعطيات غير متصلة. لذا، وقفت مؤسساتنا من بعضها موقفاً انعزالياً وواقعياً.

يمكننا أن نقول: آثرت المؤسسات المنافسة في العمل، والمدرسة والعلاقات العامة لأنها رفضت أن تتحقق من أن نوعنا البشري يستند إلى مبدأ التعاون في مجال تطوره. ولأننا أغفلنا قدرة الجسد على إعادة تنظيم عملياته الوظيفية الداخلية، غرقنا في لجج الدواء والتطبيب، وحصدنا نتائج جانبية غريبة وشاذة. ولأننا أسأنا فهم مؤسساتنا وجهلنا أنها أنظمة عضوية عظمى في كيان واحد، عالجناها بطرق أدت إلى «مداواة ومعالجات» أسوأ من الاعتلالات الجسدية أو الأمراض المزمنة.

وإذا ترتب على المجتمع البشري أن يتطور ـ وبالفعل، إن كان عليه أن يبقى على قيد الحياة ـ فلكي يتوجب عليه، عاجلاً أم آجلاً، أن يوفق بين حيواتنا وبين معرفتنا الجديدة. فقد قامت ثقافاتنا ــ العلوم الإنسانية، والجمالية التي تعتمد الإحساس، والعلم البارد الذي يعتمد التحليل ــ بوظيفتها على نحو مستقل لفترة زمنية طويلة، تماماً كما يحدث عندما يقع الفصل بين نصف الكرة اليمنى ونصف

الكرة اليسرى لدماغ شُقّ إلى قسمين. والحق يقال، إننا ضحايا وعينا الجماعي المنقسم.

أخيراً، نورد ما كتبه الروائي لورانس دوريل في كتاب «جوستين»: «في مكان ما من قلب التجربة، يقوم نظام وترابط يثيران دهشتنا عندما تبلغ يقظتنا، ومحبتنا، وتحملنا درجة كافية. فهل تشرق شمس ذلك الزمان؟».

العلم وحده قادر على إجابة الفن.

مراجع البحث

1- Karl Pribram. Languages of the Brain..

2- Marilyn Ferguson. The Brain Revolution..

الفصل السادس

التطور المشترك وظاهرة الإنسان[1]

أحب، وأنا أناقش موضوعاً هو القضية الحاسمة في الوجود على مستوى كوكب الأرض، أن أمنح مغزى اجتماع الإنسان مع الإنسان المزية الأولية والقاعدة الأساسية الدالة على أن لقاء الأناس قدرة فاعلة لتنشيط طاقة، وتحقيق أنسنة تزداد احتداداً لتبلغ غاية سامية هي تلاقي قدراتنا الكامنة في اتحاد، وصعود الخطة الكونية لتحقيق غايتها. وتحمل هذه المقولة في ثناياها حقيقة واضحة هي أن اجتماعية الإنسان جوهر لا عرض، وهي السبيل الوحيد للصعود بالأنسنة إلى قطبها الأعلى المتمثل بوحدة الإنسانية. وإذا كانت الغاية من «الاجتماع» تتمثل في تنشيط الطاقة وزيادة احتداد الدماغ من أجل تلاقٍ أعظم أو تشابك أقوى لأنسجة أدمغتنا وفاعلية عقولنا، فإن ما يتصف به «التجمع» البشري حالة زائفة للوضع الإنساني. وإذا كنا نسعى، ونحن نضع مقدمة من هذا النوع، إلى نتيجة تلزم عنها، فلا مناص من القول: إن الإنسان في حقيقته كائن «اجتماعي» وفي زيفه كائن «تجمعي».

اجتماعية الإنسان صفة ملازمة لكيانه، لا تضاف إلى كمونه الجوهري. ومثل هذه «الاجتماعية» فعل خلّاق لأنها، في ظاهرها، إضافة كم إلى كم وكيف إلى كيف، وفي جوهرها تحريض طاقة كامنة وإثارةٍ لقدرة فطرية قائمة في باطن الإنسان. و«تجمع» الإنسان ظاهرة كاذبة، باطلة في أساسها، تشير إلى إضافة مقدار إلى مقدار وكم إلى كم، دون التوغل إلى الجوهر. وحرّي بنا أن نقول إن مثل هذه الإضافة عرضية واتفاقية... وإن تمثل التمييز الحاد بين «اجتماعية» الإنسان و«تجمعه» قضية نحكم عليها في المثال التالي: إن اجتماع عدد من الباحثين عن حقائق العلم وأسراره، أو اجتماع مجموعة من الهادفين إلى سبر بواطن الرموز لاكتشاف الشامل المختبئ في قلب الأشياء، أمر يحث الطاقة البشرية، بأشكالها وأنواعها، على المزيد من الفعل

[1] ـ محاضرة ألقيت في قاعة محاضرات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، وفي قاعة نقابة الصيادلة، دمشق.

والإرادة. ووضوح الغايات واتحاد العقول. وإن تجمع مجموعة من القابعين في ظلمة ذواتهم، مجموعة تتمثل في أناس أنانيين، متعصبين، متكبرين، طامعين ومستغلين إلخ. أمر يحط من قيمة الأنسنة ويدفع بها إلى هاوية التناقضات، حيث ينظرون إلى مرآة أنفسهم فيرون أفراداً وذواتاً تجردوا من كل غاية نبيلة، ورفضوا كل معرفة ووعي، ووضعوا في سبيلهم عوائق تتمثل في ظواهر الأنا أو الذات. ومثل هذا الاجتماع الزائف حري بأن يدفع الأفراد إلى داخل اللابرنث اليوناني، وهو متاهة العالم والعقل، أو إلى صحراء التيه، وقادر على تشتيت الطاقة وردعها عن التحقيق في الاتحاد والوحدة التي يبلغها الاجتماع الإنساني.

إن مقدمة وجيزة بهذا المقدار تلزمني على التساؤل الأهم عن اجتماعية الإنسان وتجمعه[1]، وهو: هل تلتقي الحيوانات، كما يفعل البشر، للبحث في قضايا وجودها ومناقشة أبعادها الممتدة في الماضي عبر النبات والحالة البدائية للمادة، تلك الحالة اللاّ حتمية واللاّ متمايزة، وفي المستقبل لتعرف القصد الذي ينطوي عليه سر وجودها، أو لتعدل خطة سيرها إذا كان ما قُدِّر لها يتبطن بحتمية صارمة؟ ولقد تساءلت، في كل مرة أطرح فيها هذه القضية في غمرة تفكيري، إن كانت القردة أو الحيوانات الأخرى، وهي تعاني من نزع ألم أو من خفة طرب أو من حكمة حياة، تلتقي لتقرر مصيرها وتناقش أصولها في التاريخ باتجاه الماضي والمستقبل. وإن كنت أحتفظ باحترامي للمملكة الحيوانية، وأعلم أن قانون حياتي وقانون حياتها واحد لنسيج كوني واحد يتدرج في الصعود المكاني ـ الزماني المتكامل، لكنني أتيقن من أن الوجود الحيواني تجمعي.

ما من شك، أن النتيجة المنطقية التي ندركها عن الإنسان لازمة في أنه كائن اجتماعي. وتقتضي اجتماعية الإنسان هذه أن يلتقي مع صورته المنعكسة في الآخر ليناقش معه وجوده، ويرسل إشعاعات فكره وتصوره إلى الاتجاهين الظاهرين الرئيسيين: الماضي والمستقبل. إذن، فاجتماعية الإنسان قضية جوهرية، تحثه على النظر في أمور ثلاثة:

1ـ فرديته.

2ـ شخصيته.

3ـ علاقته بالكون والطبيعة.

---

[1] ـ راجع فصل «الإنسان وأبعاده الاجتماعية» من كتابي «دراسات في المثالية الإنسانية».

إذا كـان الأمـر كذلـك، وجدنـا المسلّمة الأولى في بنـاء الإنسـان ونظـام وجـوده مجسدة في اجتماعيته. وهذا ما يجعلنا نتصـور أن النـاس يلتقـون ليلقـوا ضـوءاً علـى زاوية من زوايا وجودهم، أو ليناقشوا قضيـة جوهريـة، أو ليحققـوا غايـة معينـة، أو ليعرفوا السر الكامن في الحياة. إن لقاء كهذا يؤكد اجتماعية الإنسان. ولما كان الواقع يرفض مثل هذه الحقيقة، فقـد تحـول الاجتمـاع الإنسـاني إلى تجمـع تتنـافر خيـوط نسيجه، وألوان رسمه، وتتباين مواقفه إلى حد يعرّض اجتماعيتــه للخطـر وإنسـانيته للتهديم. ولا يغـرب عـن بالنـا، أن اجتماعيـة الإنسـان عمليـة تتلاقـى فيهـا خيـوط نسيجه. وتتآلف ألوان رسمه، وتتوحـد مواقفـه، وتتكـامل وجهـات النظـر العديـدة. ونضيف إلى قولنا هذا ما يلي: إن اجتماعيته قوة ضاغطة لمضاعفـة جهـده المبـذول في سبيل تجاوزٍ أسمى بفعل حرية تنأى باجتماعيته عن حتمية ظهرت في ثنايـا انطـواء المادة على ذاتها، مادة الإنسان ومادة الكون.

إذا كانت اجتماعية الإنسان فعالية لأنسنة تتكامل، فلأن مغزى وجود الإنسان هو الغاية التي يعمل العقل جاهداً للكشـف عـن مضامينهـا. فالإنسـان لا يتـورع عـن التساؤل عن قيمة وجوده، ولا يألو جهداً في البحث عن مركـزه في الطبيعـة والكـون. وإن طرح قيمة الوجود أمر له دلالته الكبرى. فالإنســان يسـعى إلى معرفـة نفسـه مـن خلال تقييم يطرحه في نطاق وجوده وفي سلّم الوجود كله. وليست تسـاؤلاته العديـدة حول عظمة وجوده أو تفاهته غير دليل على قلق داخلي وتوق كبير إلى الشعور بذاتــه وقيمته. وإن كان باسكال قد وضع الإنسان في مرتبة تتأرجح بـين التفاهـة والعظمـة، فإنما ليشير إلى أن حياة الإنسان تقوم في تحديد قيمة وجوده، وفي معرفة أنه كائن له أهميته أو أنه «أنا منقذفة في العالم»، على حد قول بعـض فلاسـفة الوجوديـة، تجـد رصيدها في الضياع والتفاهة واللا جدوى والعبث. ولا تخرج فكرة الخلـود عـن نطـاق تساؤل الإنسان عن حقيقة وأهمية هذه الحقيقة. وعندما يتساءل الإنسان عــن حقيقـة وجوده، نراه يتأرجح بين قطبين متعارضين هما: الخلود والعدم. ولا غـرو أن اليقـين الذي يثبت فيه العقل، يشـير إلى أحـد أمريـن: القيمـة الـتي يتمـيز بهـا الوجـود أو العبث الذي يتصف به. إذن فقيمة الإنسان تتجلى في إعلاء شأنه في سلسلة متصلــة، هي سلسلة الوجود الكبرى. وفي هذه السلسلة الكونية يجـد الإنسـان نفسـه ممتـداً في اللانهاية، الأمر الذي يُلزمه على الاتصاف بديمومة الوجود.

إذا تجاوزنا مفهوم القيمة إلى مفهوم مركزية الإنسان، أي الموضع الـذي يحتلـه في الطبيعة والكون، بلغنا الغاية المرجوة من الوجود. وإذا كانت حقيقة الإنسان تتضح

شيئاً فشيئاً في سر معرفة كنهه، فإن مثل هذا الطرح يضعنا وجهاً لوجه أمام لوحة الوجود والكون، لنعاين كما قال باسكال، لا نهايتين، إحداهما هي لا نهاية الكبير وثانيتهما لا نهاية الصغير. وإذا كان الإنسان حلقة وسطى بين هاتين اللا نهايتين، فلن يكون مصيره إلاّ التيه والضلال والقلق الوجداني الإيجابي أو السلبي المؤلم، ذلك أن مثل هذه النقطة التي يجد نفسه فيها تجعله يضيع في متاهة العالم ويعجز عن أن يكتشف نفسه في عالمين لا يعرف كيف يربط بينهما، أو يرتبط بهما، أو يقيم صلة وثيقة بينهما. ولكي نكون قادرين على تجاوز هذه المعضلة المستعصية، فإننا مضطرون، ونحن نسعى إلى إدراك الموضع الذي يحتله الإنسان في الكون، أي المركز الذي يشغله بين لا نهايتين، إلى إضافة لا نهاية ثالثة، عبّر عنها تيار ده شاردان، في فلسفته وعلمه الواسعين، وأطلق عليها مصطلح «لا نهاية التشابك». وإن القصد الذي رمى إليه شاردان هو أن لانهاية التشابك توحّد اللانهايتين الأخريين في نسيج واحد، وفي سلسلة متصلة بالكم والكيف، انطلاقاً من كوكبنا الأرضي ووصولاً إلى المجرات واللانهاية الكبرى. هكذا، يكون الإنسان لا نهاية ثالثة تشير إلى تشابك اللا نهايتين.

إذا كان الإنسان يمثل لا نهاية تشابك توحد اللا نهايتين، فلأن مركزه يمثل حيّزاً هو مكان لقاء اللا نهايتين، أو توحيدهما، أو صهرهما في نطاق واحد هو مركزية الإنسان في الوجود الأرضي. ولن يرتاح الإنسان ويطمئن حتى يعرف أنه نقطة تلاق، ويتجاوز الزعم القائل بأنه أسير لا نهايتين تضعانه، كما عبّر أحد المتشائمين، بين فكيها. ومن الآن فصاعداً، لن يكون الضياع من نصيب الإنسان، وهو يرى نفسه في مركز تلتقي فيه لا نهاية كبرى ولا نهاية صغرى. وهكذا، يبدأ في التعرف على نفسه، وإدراك قيمة ومغزى وجوده، وتقدير الدور الهام الذي يقوم به.

لا يسعنا، ونحن نطرح المقولة السابقة، إلا وأن نبحث في الوسائل الكفيلة بهذه المعرفة، وهذا الإدراك، وهذا التقدير. وقبل معالجة هذه الوسائل يجدر بنا أن نتساءل عن الطاقة التي تحرك الإنسان باتجاه هذه المعرفة. وفي الواقع، تتجه هذه الطاقة من مركزية مكانية تتحدد بالجسد إلى امتداد كوني يتجاوز التحديد. فالإنسان، وفق هذا المنظور، داخل وخارج، باطن وظاهر، يتسع مع الكون ويتركز في نقطة، يتعمق معه ويضيق معه، يمتد في الأجواء اللامنتهية وينكفئ إلى محدوديته، يعود إلى ماضيه ساعياً إلى معرفة سره المكنون في الطبيعة والكون ويتجه إلى المستقبل باحثاً عن امتداده في العالم، يتأمل حضوره فيجد أنه يتطابق مع حضور كلّي.

والإنسان، بالإضافة إلى ما ذكرناه. يتساءل عن حقيقة وجوده. ويتأرجح بين تعارضات التناقضات الظاهرية. فهو يرفض ويقبل؛ يتمرّد ويخضع؛ يثور ويهدأ؛ يحتقر ذاته ويمجد ذاته؛ ينفي أناه ويؤكد عليها؛ يتألم ويفرح؛ يؤمن وينكر؛ يضع قواعد سلوكه ويعصيها؛ يقبع في لا جدوى الحياة وعبثها ويفلت من اسارهما؛ يعيش في ظلمة لا وعيه وينطلق في رحاب وعيه؛ يحدد وجوده بالعدم ويطابق كيانه مع المطلق؛ يشعر بوجوده ويُحس بلا وجوده؛ يوحّد ذاته بالكتلة المادية ويوحّد كيانه بالطاقة الروحية؛ يسعى إلى العلم من أجل المعرفة ويتنكر لهذا العلم بعد حين؛ يثق بنفسه ويتهم نفسه بالوهم والضلال؛ يحس بالغربة في العالم ويلتصق به في آن واحد؛ ينفجر في أعماقه ويهدأ بعد حين؛ ينفعل ثم يندم ويتعاطف، ثم ينسى؛ يتفرّد في عزلة ذاته ويتشخصن في انفتاح كيانه؛ يرتكس إلى قوقعة ماضيه ويعمل على الاستمرارية في الحياة؛ يصارع ذاته والآخرين ويستسلم في نهاية المطاف؛ ينطوي على ذاته وينفتح على الآخرين؛ ينطوي على فئة من الناس وينفتح على فئة أخرى؛ يتيه في صحراء أنانيته وذاتيته ويبلغ غايته القصوى في أنانته وكيانه؛ يهبط إلى عالم الخزي والعار ويتألق في ضياء الشرف والنبل؛ يحتقر ذاته ويمجد شخصه؛ يعيش ثنائيته الظاهرية ويسعى إلى تحقيق وحدته الجوهرية؛ يعاين عالم الكثرة والتعدد ويرنو إلى عالم الوحدة والتكامل.

هذا هو الإنسان المعقد، الكائن الذي يحقق أحد أمرين: التيه في تعقيده والبقاء في نطاق التناقضات والضلال في ثنائياته الظاهرة، أو السعي إلى تحقيق وحدته الجوهرية، التي يعاين فيها عالم الكثرة، والتعدد والخلفية الواحدة التي تلحم التعقيدات المتعددة وتتمثلها في وعي كامن يتسامى حتى يبلغ مطلق وجوده.

إذا كان التعقيد الماثل أمامنا حقيقة لا تقبل النقاش فإن موضع الإنسان أو مركزه في الكون كله، أو على كوكبنا، يحتل النقطة التي يلتقي فيها التعقيد الكوني مع التعقيد الأرضي. هذا، مع العلم أن التعقيدين في جوهرهما واحد وفي ظاهرهما اثنان. ونحن نقصد بالتعقيد الكوني اللا نهاية المطلقة، وبالتعقيد الأرضي الكينونة القائمة فيه. ويمكننا تمثيل اللا نهاية المطلقة بشجرة لا متناهية في الكبر تمتد جذورها في اللا نهاية وتتعمق أغصانها في كوكب الأرض. ويمكننا تمثيل الكينونة الأرضية بشجرة، تتعمق جذورها في الأرض وتمتد أغصانها في اللا نهاية. وأخيراً، يمكننا أن نمثل الموضع الذي يحتله الإنسان بأنه حيّز يقع ضمن نطاق لقاء الشجرتين. وإذا كنا قد اعتمدنا سابقاً التشبيه الثلاثي لما يمكننا تطبيقه على لا

نهايات ثلاث: لا نهاية الكبير، لا نهاية الصغير ولا نهاية التشابك، فلكي نعلن أن الإنسان، في هذا الوصف، لا نهاية تشابك اللا نهايتين الأخريين. لذا، كان الإنسان زماناً كلياً ومكاناً كلياً. وهذا هو سر تعقيده، سر عمقه، سر حيرته وتساؤله، سر المعرفة التي يسعى إلى وعيها. ففي تعقيده ينطوي الكون على ذاته، وفي مغرفة نفسه يتألق ضياء الحقيقة. والسؤال هو: ماذا يفعل الإنسان لكي يسبر عمق حقيقته ويغرف نفسه؟

يشير التعقيد الإنساني إلى تصاعد في تعقيد انطلق من لا حتمية ظهور الحياة ونشأتها إلى لا حتمية تتجه إلى نظام مغلق معقد، ينطوي على ذاته في تركيز وتداخل. ووفق هذا المنظور، يمكننا القول، ونحن نتكلم بلسان تيار ده شاردان، إن «علم الحياة هو فيزياء التعقيدات إجمالاً». وإذا أقمنا مقارنة بين تعقيد الحياة وتعقيد الآلات الحاسبة، رأينا أن هذه الأخيرة هي مجرد ألعوبة بالمقارنة مع الأخرى. إذن، فالتعقيد في العالم، كما يذكر تيار ده شاردان «يقف من الوعي موقف ناموسه». فالوعي يتولد من التعقيد، والتعقيد يمكّن من ظهور الوعي. والوعي الكامل، كما يُرى في الإنسان، «معلول خاص لتعقيد عظيم».

في هذا الخضم الواسع من التعقيد يتساءل الإنسان عن حقيقته، ويلقي عليه نظرتين تأمليتين، إحداهما تتجه إلى الماضي وثانيتهما تتجه إلى المستقبل. ولا يخفى علينا أن مثل هذه النظرة المتجهة إلى الماضي والمستقبل تساعد الإنسان على حدْس المستقبل من الماضي، ورؤية المستقبل في الماضي. وبهذا الصدد، يقول تياره شاردان «كمال الأشياء قائم في بداياتها». وبهذه الطريقة، يوحّد الإنسان الماضي والمستقبل، ويستشف الغاية من القانون. وهكذا، تكون غاية العالم قائمة في قانونه الممتد من البداية، على نحو انغلاق، إلى المستقبل، على نحو كشف وانفتاح. ويعبر هذا القانون عن حتمية أولية ظاهرة، وحرية كامنة تنتظم في تطور تنفتح فيه الطاقة المغلقة وهي تصعد سلم الحياة إلى مزيد من الوعي.

1- رؤية الماضي:

نحن كائنات نحيا على كوكب نطلق عليه اصطلاحاً كوكب الأرض؛ تتناسب أجسادنا مع هذا الكوكب وتتوافق طاقاتنا الحياتية والنفسية والعقلية معه في انسجام وتجانس. ولما كان هذا الكوكب خاضعاً لتحديد في الزمان والمكان فهو موضع زماني - مكاني نسبي يمتد في زمان - مكان مطلق. وعلى الاصطلاح الأول نطلق تسمية هي

الزمان الأرضي وعلى الاصطلاح الثاني نطلق تسمية هي الأبدية. ويهمنا الآن أن نشاهد الزمان الأرضي في أبعاده الثلاثة: الماضي، الحاضر والمستقبل.

إن دراسة هذه الأبعاد الزمانية الثلاثة تكشف عن الحقائق التالية: الحاضر وجود تام، حضور كلي، نعجز عن تصوره إلا في الزمان الكلي، وهو الأبدية. وقولنا إن العقل الكلي، أو الحكمة الكلية، أو الحقيقة السرمدية حضور تام يشير إلى حضور كلي ليس في الزمان النسبي المتجزئ إلى وقت. لذا، يحتمل أن نقول: إن الحاضر، وفق المستوى الأرضي، عملية انتقالية يصب من خلالها المستقبل في الماضي. ومثل هذا التعريف، يجعلنا نتمثل الحاضر بأنه الديمومة المرئية لإدراكنا. نشاهد فيها البعدين الآخرين، المستقبل والماضي، وهما يتداخلان ليشكّلا فلسفة الوجود وحكمته. إذن، فالحاضر هو الخلفية التي تقع فيها أحداث الحياة الأرضية.

إذا ما انتقلنا إلى البعد الثاني المتمثل بالمستقبل، علمنا أنه مجهول، لا معلوم في ظاهره، يتجه إلى الوراء ليصب في الماضي. وفي هذا المنظور، نتساءل: هل هو قائم بذاته أم أنه عملية تقدم للماضي، لم تُشاهد معالمها بعد؟ فالمستقبل، بوصفه بعداً زمانياً ظاهراً، لا يقبل الدراسة والفهم والبحث إلا بمقدار ما يمدنا الماضي بالمعلومات. وفي هذا المدّ، يتحول المجهول إلى مُدرك، واللا معلوم إلى معلوم. ولو تساءلنا عن الحقيقة القائمة في هذه العبارة لأجبنا بأن إدراك المستقبل يتحقق من خلال تصورنا للماضي. فبقدر ما نفهم الماضي نفهم المستقبل. وفي رأينا أن الحكمة القائلة «ما يزرعه الإنسان إياه يحصد» تشتمل على حكمة كونية بالغة الشأن وعميقة المضمون. فليس ثمة علم للمستقبل بمعزل عن علم الماضي. فالمستقبل يُستدل من الماضي.

لما كانت تلك هي الحقيقة الجوهرية، فإن الماضي هو البعد الوحيد الذي ينتصب أمامنا فاتحاً باب محرابه لنُطل على أسرار الحياة وطاقاتها الكامنة، ويُطلعنا على ما حدث للكون، في مستواه الأرضي، وما سيحدث. في الماضي، تتراكم أحداث الأرض في تاريخ يشتمل على نشأة الحياة، ما قبل الحياة، تطور الحياة وتطور الإنسان. وفي هذا الماضي، نرى الحياة وهي تسير ببطء إلى المستقبل. وما أن يتحقق هذا المستقبل حتى ينقلب إلى ماض قابل للدراسة. إن آلاف السنين الغابرة تمثلت في مستقبل آلاف السنين التي تلتهاّ، وما لبثت أن أصبحت ماضياً لآلاف السنين اللاحقة. هكذا، يصب المستقبل في الماضي. وهكذا، يكون الماضي قوة دفع إلى الأمام، باتجاه المستقبل؛ ويكون المستقبل رأس السهم المتجه إلى الأمام لتحقيق ما هو كائن وكامن في الماضي، وأعني، تحقيق الطاقة المكنونة في بدايات الحياة المعبّر عنها

بقانون أو بقوانين الحياة والوجـود. فليس المستقبل إلا كشفاً عن القوانين الأولية والمبادئ الأساسية المنطوية في الكتلة، والمنغلقة على ذاتها في عملية تطور داخلي أو باطني. إذن، هو كشف عن طاقة باطنة أو كامنة في ظاهرة أو في ظاهرات: ظاهرة هي الإنسان. وظاهرات هي الموضوعات الأخرى المجسّدة في الحيوان والطير والنبات والمادة. بوصفها شكلاً ظاهراً أو أشكالاً ظاهرة لطاقة مختبئة باطنة.

في ضوء هذه الحقيقة، تتجلى أمامنا حقيقة أحادية الاتجاه، ثنائية المظهر. وفي رأي تيارده شاردان، تتمثل الأحادية في رؤية للإنسان منطوية في الماضي، في تلاليف الأرض والطبيعة، في الحياة الأولى، في نشوئها وتطورها، وتوحيدها مع الطبيعة. وتجنب أي فصل بينهما. وتتمثل الثنائية الظاهرة في الاتجاه إلى الماضي، وهو رأس رمح أو طاقة دفع إلى المستقبل. ولما كان المستقبل الإنساني أو الطبيعي يصب في الماضي. فليس غريباً أن يكون الماضي هو حقل رؤيتنا الوحيدة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن التطور هو الكلمة الوحيدة التي تتلاءم مع رؤية أحادية للماضي. واستشفاف هذا الماضي في المستقبل. هكذا، يكون الماضي سجل الحياة.

2ـ مفهوم التطور:

لما كانت كلمة تطور مشحونة بغموض يكتنفه تفكيرنا، ويحمل معنى واحداً طرحه العالم بمفهومه التجريبي المادي، الذي يحمل لواءه كل من داروين ولا مارك، فإنني أهدف إلى شرح هذه الكلمة بأبعادها كلها، لأبلّغ مضامينها أو مضمونها وفق ما أتت به الحكمة القديمة السرية[1]، والدراسات الباليـنتولوجية الحديثة التي تتوافق مع معطيات هذه الحكمة. وفي هذا التبليغ، تكون كلمة تطور أملاً لنا لفهم ما اكتنفه من غموض، غموض الإنسان والكون، وإلقاء الضوء على ما استتر في حياة الأرض الباطنة والظاهرة، وباباً نلج من خلاله إلى قصر وجودنا الرحب. وإليكم أولاً الشروح المبدئية لكلمة التطور، شروحاً استقيتها من مبادئ الحكمة القديمة، ومن مبادئ الباليـنتولوجيا الحديثة، حيث يقف العلاّمة تيارده شاردان فوق ذروتها، ومن تأليفي الخاص في هذا المضمار:

تعتمد الشروح التالية على الأفكار الأساسية الماثلة في كتب العلامة تيار ده شاردان:

---

[1] ـ السر هو العمق الذي يزداد عمقاً كلما زاد الإنسان معرفة وحكمة.

- التطور هو مسيرة الحياة على مستوى كوكب الأرض انطلاقاً من حالة اللاّ تمايز المتجانسة، إلى حالة تمايز واسعة تتفرّع حتى تصل أخيراً إلى الإنسان.
- المادة هي الطاقة المنغلقة التي تتفتح من خلال التطور.
- التطور هو انفتاح الطاقة الكامنة في الكتلة.
- التطور هو تحرر الطاقة من حتمية ظاهرة هي الكتلة.
- التطور هو وجوب للطاقة المغلقة على ذاتها، في ما نسميه الكتلة، لكي تُفصح عن ذاتها لتصير إلى مرحلة نهائية قصوى.
- التطور هو الكشف عن الوعي أو عن خصائص الوعي المتضمنة في كل شيء، بما فيه المادة، وانتقالها التدريجي إلى كيان يعي ذاته.
- تطور المادة يعني أن العالم «كتلة في عملية تحول».
- التطور هو اكتشاف «الشامل المختبئ تحت الأشياء». هو اكتشاف باطن موجود في كل مكان في الطبيعة منذ بداية الأزمنة.
- التطور يُظهر سيادة التلاقي والتوحيد على التشتت.
- التطور خلاق مبدع، هو جدلية تنطلق من المادة إلى الإنسان وإلى الحقيقة السامية.
- التطور هو «الكون في تكوّن».
- التطور هو «تكوين كوني يتحرك نحو نقطة التقاء واحدة».
- التطور مقولة من مقولات العقل البشري، هو حاجة العقل إلى الإدراك، إدراك التوحيد الذي تلتقي الأشياء كلها تحت كنفه.
- «التطور هو نمو الحياة إلى غاية هي الحرية والوجدان، هو توجه نحو حالة سامية». ولا يتم هذا النمو والتوجه إلا في «صهر تكوين الحياة في تكوين الكون وتاريخ الحياة في تاريخ الكون».
- التطور هو «إضمار التصاعدية في التبدّل».
- التطور ينطلق من المادة لبلوغ الصور السامية.

3ـ مقولة التطور:

أعتقد أن هذه التعريفات والتحديدات، التي عبر عنهـا شاردان خير تعبير، تلامس الحقيقة من جوانب كثيرة، وتميط اللثام عن تساؤلات عديدة تغلق منافذها دوننا ونحن نطرح الأسئلة الفضولية دون السعي إلى تبيان سرها وجوهرها. وكما أعتقد أن أي تعمق في بحث مضامين هذه التعريفات، يساعدنا على تصنيف موضوع التطور في مقولة تشير إلى:

1ـ التطور قبل الإنسان: وينقسم إلى قسمين:

أ ـ استعداد ما قبل الحياة.

ب ـ استعداد الحياة.

2ـ التطور بعد الإنسان، أي استعداد المؤنسن.

التطور قبل الحياة تطور هابط إلى انغلاق وانطواء وانثناء وانغلاق، يطلق عليه حكماء المعرفة مصطلح التطور الهابط، أي الانبثاق أو الصدور أو الفيض. وفي هذا التطور الهابط، تنغلق الطاقة، التي هي جوهر الكون وجوهر كياننا، وتنثني على ذاتها. ويُدرَك هذا الانطواء في تكاثف الطاقة يبلغ أقصاه في المادة. فالكتلة المادية طاقة كمونية بلغت كثافة اهتزازها. وإذا توخينا التعبير الواضح قلنا: إن المادة طاقة ضمن درجة اهتزاز، تتراوح في معالمها الكثيرة على نحو إجمالي بين حدّين. وإذا استطعنا التأليف بين الطاقة والحياة، والتوحيد بينهما، استطعنا أن نحل السر الأساسي لكوكب الأرض وللمادة المهتزة، واستخلصنا، وفق ما يذكر تيادره شاردان، المقولة الهامة التالية: الكتلة المادية حياة منطوية على ذاتها في تبطّن، وطاقة منطوية على ذاتها في انغلاق داخلي. وهذه الحياة أو الطاقة تقوم مقام النفس في الجسد. وهذا ما يدفعنا إلى التصريح بأن كوكب الأرض جسد له نفس تنبض بالحياة. وليس هذا الجسد إلا الكتلة ذاتها التي هي كثافة طاقة تنزع إلى الإفصاح عن ذاتها في عملية تطورية شاقة هي انفتاح إلى نطاق الوعي، وعي ذاتها. ووفق هذا المعيار، لم يعد كوكب الأرض آلة ضخمة تعمل، تتآلف أجزاؤها، ذلك أن النظر إلى العالم بوصفه آلة، هو وجهة النظر الآلية، قد بطُل مفعوله، والنظر إلى الحياة بوصفها نتاج آلية مكانيكية أصبح في طي الكتمان. وإن منظور العلماء المحدثين إلى العالم هو تعبير لديناميكية حية، تنبض بالوعي الكامن.

نستنتج مما تقدم:

1ـ الكتلة طاقة كثيفة، منغلقة على ذاتها ومنطوية على سرها.

2ـ الطاقة المنغلقة والمنطوية والمنثنية هي الحياة.

3ـ الحياة هي «نفْس» كوكب الأرض.

4ـ الحياة تسعى إلى الإفصاح عن ذاتها في «تصاعدية التبدل».

5ـ «الوعي الكامن في المادة مقترن بالطاقة والحياة».

6ـ الوحدة النفسية ـ الجسدية للعالم.

7ـ الخصائص العقلية كامنة في المادة الأولى الناتجة عن كثافة طاقة كونية.

8ـ «الإنسان الكامل مصوَّر في كثافة الطاقة»، وهي المادة، وفي حياتها ووعيها، وفي تعقيداتها الأولية.

نستدل من هذه الحقائق أن المادة حية، وأن الحياة تحقق الوعي وهي في سبيل الإفصاح عن ذاتها، وأن الطاقة هي جوهر العالم. وهكذا، نقول: إن المادة والطاقة والوعي والحياة تأليف لحقيقة واحدة، تتداخل ضمن ذاتها وتتفاعل. وقد اضطر العلماء المحدثون إلى الإقرار بهذه الحقيقة والاعتراف والجهر بها في مؤلفاتهم التي تنطوي على التعابير التالية: روحانية المادة، العلم والروحانية، الطاقة والمادة الحية، المتافيزياء في الفيزياء إلخ. وأمام هذه الحقائق، وقفوا يتأملون ظاهرة الإنسان وهي تتصل بالكون منذ بداياته، وأدركوا أن عقله الحالي كان متضمناً في قلب المادة على هيئة خصائص عقلية أو على صورة عقل كامن، وأن هذه الظاهرة «ليست فريدة من نوعها لأنها مرتبطة بكلية الطاقة والوعي والحياة، وبكليّة المادة». هكذا، كانت المادة الأولى مستعدة ومتهيئة للحياة لأنها تحمل بذور الحياة والوعي. والجدير بالذكر أن تلك المادة الأولى لم تكن خاضعة لحتمية أو جبرية، بل كانت حرة وغير مقيدة.

تلكم هي المقولة الأولى، بسطناها بإيجاز بالغ.

ننتقل الآن إلى المقولة الثانية وهي استعداد الحياة. وقبل التحدث عن استعداد الحياة لنا عودة إلى استعداد ما قبل الحياة لنستخلص ما يلي:

1ـ وجود وعي كامن في الكتلة المادية.

2ـ وجود الخصائص العقلية في «نسيج كوني ينطوي على ذاته».

3ـ حياة المادة تشكل في كليتها «جوهراً لا منقسماً حقيقياً واحداً» هو المادة الكلية.

4ـ الكتلة المادية تحيا من خلال نفْس ديناميكية.

5ـ الطاقة الكامنة في المادة تعني «اتجاه المادة نحو تشابكات عليا تتحدى القدر وتتجاوز الحتمية إلى الحرية».

هكذا، تستعد مرحلة ما قبل الحياة لتحقيق الوعي المنغلق والمنطوي فيها، فتلج بذلك إلى مرحلة الحياة. والجدير بالذكر أن مرحلة ما قبل الحياة تُعرَف بأنها حالة لا تمايز وتجانس.

تتصف مرحلة الحياة باستعدادها لتعقيد متنامٍ «تزداد فيه الطاقة النفسية مع زيادة الانتظام والترتيب والتركيز». وتميل الحياة إلى التمايز وإلى تشكيل وحدات أكثر تعقيداً وأشد نفْساً. وإذا توغلنا إلى داخل المادة شاهدنا، كما قال تيارده شاردان، ثلاثة أوجه لها:

1ـ الكثرة، وهي قدرة على التمايز.

2ـ الوحدة، وهي التجانس في قلب الأشياء.

3ـ الطاقة، وهي «قدرة موحّدة وتعبير عن بنية وقياس ما يمرّ من جوهر إلى جوهر آخر في مجرى تحولهما».

في بدء هذه المرحلة، تتصف الطاقة في المادة بقدرة على «التحبحب في جزيئات أولية تتمخض عنها الخلايا». ولما كانت الخلايا هي التشكلات الأولى للطاقة والحياة والوعي الكامن فإنها تتصف بسيكولوجيا أي نفسانية. ولكن هذا المظهر النفسي القائم في هذه التعقيدات الأولية «يرفض كل اختبار على غير ما هو جلّي في الإنسان وأكيد عند الحيوان». وتتصاعد التشكلات الخلوية في التعقيد وتزداد طاقتها النفسية حتى تصل أخيراً إلى الإنسان. ومع هذا التعقيد، تتجه الطاقة النفسية إلى زيادة في التركيز. الأمر الذي يسير بها إلى «تمركز رأسي يُعرف بالدماغ». وليس هذا التمركز الرأسي إلا تمايز رأس يُعد «المنطقة القائدة للجسد»، الأمر الذي يؤدي إلى نشوء عقل يتولد عن عملية التعقيد. وهذا يعني التطور التدريجي للخصائص العقلية والنفسية الكامنة في مرحلة ما قبل الحياة، كما يعني تحقيق الأنسنة التي هي بدورها تحقيق للإنسان الكامن في الوعي والطاقة المستغرقين في المادة الكلية الأولية.

نستنتج مما تقدم الخلاصات التالية:

1ـ الحياة غائية في اتجاهها وتتجاوز الجبرية والحتمية.

2ـ وجود باطن للمادة يظهر على «شكل علاقات كيفية وكمية».

3ـ وجود خارج للمادة يظهر في «التشكلات والتعقيدات العضوية».

4ـ توحيد الخارج والباطن في عملية تطورية تتضح فيها «سيادة النفس والعقل». لذا، يعد الباطن والخارج مجرد خطين متوازيين، يختلفان ظاهرياً ويتكاملان باطنياً، ويتجهان بفعل حرية داخلية إلى تحقيق الأنسنة.

5ـ يعد التكوّن الإنساني تاجاً للتكوين الكوني. ويعد الإنسان «نقطة التلاقي لطاقة كلية شاملة ونفس مشتركة ينتج منها العقل والوجدان والأنسنة».

تلكم هي المقولة الثانية عرضناها بإيجاز وبساطة.

ننتقل الآن إلى المقولة الثالثة، وهي التطور بعد الإنسان، لنشير إلى أن العالم «يسير بإرادته الشاملة ليتأنسن بل ليبلغ أنسنة قصوى». وتعرف هذه الأنسنة القصوى بأنها المرحلة المقبلة التي «يُستدل بها إلى عملية يتسامى الإنسان فيها على ذاته، ويستحق تسمية جديدة». وهذا يعني أن الإنسان لم يكتمل بعد، ويجب أن يتخطى ذاته.

ولكي يحقق الإنسان تطوره الذي يتسامى فيه على ذاته، يجب عليه أن يقوم بالتأليف الثلاثي التالي الذي وضعه تيارده شاردان:

1ـ تأليف العالم المادي والطبيعي مع عالم العقل والروح.

2ـ تأليف التعدد مع الوحدة، الكثير مع الواحد.

3ـ تأليف الماضي مع المستقبل، أي تحقيق الوعي الكامن في أنسنة قصوى.

من هذا التأليف الثلاثي، تنشأ جدلية ثلاثية أخرى يتحدث عنها شاردان وترينا المشهد التطوري كله:

1ـ وصال مع الحقيقة السامية.

2ـ وصال مع الأرض.

3ـ وصال مع الحقيقة السامية عبر الأرض.

نخلص مما تقدم إلى النتائج التالية:

1ـ الوعي الكامن كما يُرى في الإنسان «معلول خاص لتعقيد منظم».

2ـ «يكشف الوعي عن ذاته كيفياً في كل نوع من أنواع النفس انطلاقاً من الأشكال الأكثر بدائية بإدراكها الداخلي القابل للتصور إلى الظاهرة الإنسانية ذات التفكير التأملي».

3ـ «التلقائية المادية المنطلقة من الباطن حرية تتجاوز حتمية مركزة في الخارج». وهذا ما يجعل الوعي والباطن والتلقائية تعابير ثلاثية لحقيقة واحدة.

4ـ الإنسان ظاهرة الوجود الأرضي تأليف له أبعاد ثلاثة وتشابك ثلاثي الأبعاد.

5ـ الأنسنة القصوى تجاوز للأنسنة «وانجذاب إلى قطب أسمى تلتقي فيه الإنسانية».

6ـ تطور الإنسان إلى غاية سامية يتم عن طريق تطوير العقل إلى عقل فوقي، وتسامي الوجدان إلى المستوى الذي «تشتعل» فيه المادة بالروح، وإلى «مركزية واعية» هي كمال روحي.

تلكم هي المقولة الثالثة لمفهوم التطور.

تشير الصورة التي رسمناها للتطور في اتجاهيه، الماضي والمستقبل، إلى مسيرة الطبيعة في وعيها الكامن، الذي يُطلق عليه خطأ اللاّوعي، إلى وعي منفتح على ذاته. من حتمية ظاهرية إلى حرية حقيقية، من انغلاق الطاقة على ذاتها وانطواء الخصائص العقلية والنفسية فيها إلى انفتاح هذه الطاقة وإلى كشف للعقل والنفس ضمن عملية تطورية يحتل التعقيد المحمّل بتزايد الطاقة النفسية المركز الأول، ومن قانون. تكون فيه المادة متجانسة ومنسجمة ولا متمايزة إلى كثرة متمايزة تتركز في تبطن داخلي ويكون فيها التلاقي مبدأ الوحدة القائمة في ما قبل الحياة، إلى غاية يتحقق فيها هذا القانون. وكما يحدثنا تيارده شاردان، تشير الصورة أيضاً إلى اتجاه التطور بعد الإنسان إلى قطب، هو الأوميغا، تتلاقى فيه البداية مع النهاية، وتتحد فيه الإنسانية كلها في محبة هي، لحمة تجمع الكل، ويتجاوز فيها الإنسان ذاته إلى كيانه.

4ـ التطور في منظور دارون:

قد يتساءل بعضنا: كيف تتفق وجهة النظر هذه مع وجهة النظر التطورية المألوفة والمدعوة خطأ بالتفسير المادي للتطور؟ وإن إجابتنا عن هذا التساؤل لا يقلل من وجهة النظر التطورية المادية، بقدر ما يسد الفجوات التي أحدثتها النظرية حين عجزت عن تمثل الوحدة الشاملة المختبئة تحت جميع الأشياء. وإذا كانت نظرية دارون هي النظرة القائدة للتطور المادي فإنني سأعرض لها في حوار وجيز محاولاً أن أردم الهوة التي سببتها وهي تعالج موضوع ظهور العقل في الإنسان.

أبدأ حواري هذا بتدبيج دفاع عن دارون ومدرسة التطور التي اعتنقت التفسير المادي الآلي. ولما كنت أعتقد أن المثال، وهو يسير عبر التاريخ الطبيعي والإنساني، يُفصح عن جوهره في مراحل تاريخية وعن غائية تنشد التحقيق، فإنني أؤكد على القول بأن دارون مثل معْلماً من معالم التعبير عن الفكرة القائدة في تاريخ الفكر الإنساني يوم كان العقل البشري العلمي في طريقه إلى الاستزادة من المعرفة. ولما كانت الفيزياء والرياضيات والعلوم الأخرى في مرحلة انتقال إلى ما هو أشمل وأعم، فقد لمس دارون الحقيقة، لكنه أسقط الجانب الكلي الشامل منها، هو الجانب الديناميكي. لذا، لا يسعنا إلقاء اللوم كله على دارون وذلك لأنه لم يستطع أن يقدم تفسيراً شاملاً للحياة.

لم تكن العلوم قد بلغت مستوى يسمح لها بمثل هذا التفكير الشامل. وإذا كنا نسعى إلى وضع صيغة للنقص الأول في نظرية دارون فلا نتورع عن القول بأن سيادة وجهة النظر الآلية ـ المكانيكية في العلوم على وجهة النظر الديناميكية ــ الطاقية، قضية أدت إلى عجز في نطاق التصور الكلي للوجود والعالم والطبيعة. وأما النقص الثاني. وهو تعبير آخر، أو وجه آخر، للنقص الأول، فإننا نلقاه في الفلسفة. فقد كانت الثنائية تهيمن على العقل الإنساني خلال القرن التاسع عشر. وكان بعض الفلاسفة يقيمون ثنائية بين العقل بوصفه فكراً والعالم بوصفه موضوعاً. ولا غرو أن هذه الثنائية عجزت عن رؤية وحدة الفكر والموضوع، وحدة الإنسان والطبيعة، ومعرفة أن العقل والطبيعة حقيقة واحدة. وضمن هذه الأفكار ــ المكانيكية في العلم والثنائية في بعض الفلسفات ـ رسم دارون صورة لنظريته في التطور. ومع هذا، فقد كان دارون رائداً عظيماً في حقل المعرفة. وإن توجب علينا النقد، فلكي نقول: إن إساءة الفهم وضيق النظر ومحدودية الأفق التي قوبلت بها نظرية دارون أمر أدى إلى

تأخير مسيرة التطور، وإعاقة السعي إلى ملء الفجوة التي خلفها دارون للعلماء الذين سيعملون جاهدين لانطلاقة أسمى وأعظم.

وضع دارون كتابين رئيسيين: أولهما هو «أصل الأنواع»، وثانيهما هو «تحدّر الإنسان». وحاول، وهو يطرح موضوع ظاهرة الإنسان، أن يجد لها أصلاً مشتركاً مع الأنواع الأخرى أو مع نوع آخر. ولما كان دارون قد توصل إلى معرفة أو إدراك هذا الأصل المشترك للأنواع، فقد سعى سعياً حثيثاً إلى البحث عن الأصل الذي يجمع الإنسان والأنواع الأخرى في نوع أو جنس. وفي اعتقادي أن دارون لم يكن في وضع يسمح له بالتأكيد على يقين أو ما شابه. وإن ما قدمه للعالم يظهر في محاولته الجريئة الرائدة.

عندما حاول دارون ربط الإنسان بأصل مشترك مع الأنواع الأخرى من الرئيسيات أو أشباه الإنسان أو الإنسانيات عجز عن التوفيق بين معطيات العلم المعتمدة ونظريته في التطور، فاصطدم بعراقيل حالت دون رؤية كاشفة وعميقة. ويحق لنا الآن أن نتساءل عن الحقائق التي غابت عن رؤية دارون وقصّر في تبيانها.... وتتجسد هذه الحقائق بالنقاط التالية:

1ـ ظهور العقل في الإنسان.

2ـ الطفرة أو الإفتجاء.

3ـ الصراع في الطبيعة في سبيل البقاء.

4ـ إحلال المكانيكية التجزيئية محل الديناميكية التكاملية.

اعتبر دارون ظهور العقل، أو عتبة التفكير، الظاهرة الكبرى التي ارتبطت بالإنسان وحده واعتبرها الحد الفاصل بين مملكته والممالك التحتية السابقة. وقد دفعه هذا الأمر إلى البحث عن العقل لأنه لم يجد له سابقة في الممالك الحيوانية والنباتية والترابية. فإذا كان العقل هو الصفة المميزة للإنسان على الحيوان، فإن إقامة علاقة بينه وبين الأنواع الأخرى أمر بالغ الصعوبة. إذن، فالإنسان يختص بالعقل دون سائر الأنواع. ولما حاول دارون وغيره من علماء أصل الأنواع والإنسان والحياة الكشف عن خيط رفيع يربط الإنسان بالحيوان، وجدوا أنفسهم يتيهون في معضلة لا نهاية لها. لذا، فقد تميز جهد دارون في الوصول إلى تفسير معقول لهذه الظاهرة. واضطر، وهو العالم الكبير، إلى الاعتراف بوجود فجوة واسعة بين الإنسان العاقل والحيوان المجرد من العقل والفكر. ولكن مثل هذا الاعتراف، لم يلزمه على

اعتراف مماثل هو أن احتمال انتماء الإنسان والحيوان إلى أصل واحد قائم وممكن.

لقد أخطأ دارون في اعتماده على هذا التعليل. ويُردّ خطؤه إلى النتائج العملية التي توصل إليها علم القرن التاسع عشر. ولما كان العلم يومذاك قد تبنى النظرة المكانيكية التجزيئية وأغفل النظرة الديناميكية التكاملية، فلم يكن في وسع دارون أن يؤلف نظرة توحيدية شاملة لتطور الطبيعة والإنسان على نحو مشترك، الأمر الذي جعله يطل على جانب من جانبي الحقيقة دون سبر جوهرها. ولم يستطع العلم تغطية هذا العجز إلاّ في القرن العشرين. ويعود الفضل في هذا المضمار إلى التقدم الذي أحرزه العلم وتجسد في رؤية تطورية للإنسان والطبيعة، رؤية توحيدية وتكاملية، رؤية لم يعد فيها الإنسان منفصلاً عن الطبيعة. والحق يقال إن هذه الرؤية كانت، وما زالت، من نصيب الحكمة القديمة التي وعت حقيقة العالم وجوهر الطاقة، ورأت مسيرة الحياة من بدايات انطلاقها حتى بلغت الإنسان. لذا، يُعرف القرن العشرون بأنه القرن الذي يتميز بخاصة متقدمة على العصور الأخرى، إذ أن فروع العلم بدأت تتجه إلى التلاقي والتكامل. فقد بدأت العلوم، وعلى رأسها الفيزياء، والفلك، والبيولوجيا، والرياضيات، تلتقي بعد أن عانت من التشتت والتفرد. وإن مثل هذا التلاقي تجلّى في عون مشترك أدّى، بدوره، إلى رؤية علاقات متداخلة ومتبادلة بين سائر العلوم، وإلى الإحساس بالوحدة والشعور بالشمول. وهكذا، بدأ العلم يرتد إلى مبادئ الحكمة، ذلك أن الحكمة تمثل الوعي والعلم يمثل الحقل الذي يُختبر فيه هذا الوعي.

5ـ التطور في منظور تيارده شاردان:

يتدارك القرن العشرون، ممثلاً بأحد حكمائه العلماء هو تيارده شاردان، الخطأ الذي وقعت فيه علوم القرن التاسع عشر. فقد شاهد هذا القرن العقل منبثاً في ممالك العالم كلها. فالعقل لم يعد خاصة يتميز بها الإنسان على الحيوان أو يتفرد بها؛ هو خاصة مشتركة بين الكائنات كلها وأنواع الحياة قاطبة: إنه قائم في الإنسان والحيوان والنبات والجماد؛ إنه قدرة منطوية في المادة وخصائصه كائنة فيها. وثمة تطابق بين اعترافنا بهذا الأمر وبين اعتراف آخر هو أن العالم جسد له نفس تنبض بالحياة والوعي الكامن. ولما كان القرن التاسع عشر عاجزاً عن رؤية الشمول فلأن سيادة النظرية المكانيكية التجزيئية أو الثنائية كانت مطلقة. وإن رؤية الشمول تتطلب اعترافاً بالنظرية الديناميكية وإدراكاً لها. فليس هنالك نظرة أخرى غيرها

تستطيع أن تحدس نفْس العالم في جسده، وترى العقل والوعي والطاقة حقيقة واحدة تتنوع دون أن تتناقض، تخص العالم كله دون أن يتفرد به كائن.

يتضمن التعليل الذي بسطته مغزىً هو أن العقل خاصة مشتركة بين الكائنات الأرضية وقائمة في تضاعيف المادة. ولكن هذه المشاركة لا تنفي تدرج العقل ضمن نطاقات تنطلق من بداية وترتفع ضمن سلسلة متصلة كبرى. وتنتهي. كما يعتقد شاردان، إلى الوعي الذي يفصح عن ذاته في ثلاث صور تشكل جدلية واحدة:

1ـ معرفة النفس.

2ـ معرفة الوجود والطبيعة.

3ـ توحيد المعرفتين في وعي واحد.

جدير بنا، ونحن نطرح القضية في مثل هذا النسق، أن نعرف الكيفية التي تم فيها هذا التدرج. وفي سبيل البساطة والإيجاز، نجزئ، على نحو ظاهري، المراحل المتدرجة من البداية إلى الإنسان:

1ـ في مرحلة ما قبل الحياة، نجد الخصائص العقلية كامنة، كما نجد «الإنسان الكامن». وتشير هذه المرحلة إلى استعداد الحياة للانطلاق في سلسلة وجودها الكبرى.

2ـ في مرحلة الحياة الأولى، نجد الخصائص العقلية تتركز في كيانات أو وجودات، ونجد النفس وقد بدأت تتشكل.

3ـ في مرحلة الحياة الوسطى، يزداد التعقيد المادي للمتعضيات أو للكيانات وتزداد معه الطاقة النفسية ـ العقلية في تركيزها.

4ـ في مرحلة الحياة الأخيرة، يزداد التعقيد المادي ويزداد معه التعقيد النفسي متجهاً إلى التركيز في الدماغ. ويشير التركيز الدماغي إلى اتجاه الحياة إلى الأمام.

5ـ في مرحلة الإنسان نجد تركيزاً متزايداً للدماغ، وزيادة كبرى في التركيز النفسي بحيث تتعادل الزيادتان في كم وكيف: كم هو الدماغ وكيف هو العقل.

6ـ فلسفة التطور:

عندما نتأمل ما ورد في هذه النقاط المذكورة أعلاه نحصل على النتائج التالية، ونخلص إلى غاية متضمنة في صميم وجودنا. ولن نكون قادرين على فهم هذه الغاية مالم نكتشفها في الطريقة التي نعالج الموضوع بها. فتكون كما يلي:

1ـ حالة اللا تمايز، وهي حالة استعداد ما قبل الحياة العضوية، وفيها كانت المادة متجانسة لا تعرف التغاير. وفي حالة اللا تمايز هذه، نجد الطاقة منغلقة على ذاتها، والوعي كامناً، والخصائص النفسية والعقلية قائمة. وتعد حالة اللا تمايز هذه تطوراً هابطاً إلى انغلاق وانطواء وانثناء، تنغلق فيه الطاقة على ذاتها لتكون كتلة مادية في ظاهرها.

2ـ حالة التمايز، وهي استعداد أولي للحياة العضوية، وفيها يبدأ اللا تمايز انطلاقه إلى تمايز. وتعد حالة التمايز وضعاً تتكاثر فيه الأنواع، وتتنوع الحياة إلى كثرة وتعدد. وفي هذه الحالة، تكون الوحدة هي الصفة الجوهرية للعالم الأرضي والكثرة هي الصفة الظاهرية. فالأنواع كلها، تتصف بجوهر واحد هو الحياة، الطاقة والوعي. وهكذا، تتصف الأنواع الكثيرة بظاهر هو خارج وبباطن ـــ كثرة في وحدة، وتنوع في واحد. ويكون الباطن هو الصفة الجوهرية المشتركة بين الأنواع الكثيرة، والخارج هو الشكل الذي تتميز به أو تتمايز إليه الأنواع. وبالإضافة إلى هذا، يكون الباطن، ويعرف بتلقائية الطاقة المنطوية، هو الوعي الكامن، والخارج هو الكتلة الظاهرة. وهذا يعني أن الأشكال تتصف بالوعي في الباطن، وبالكتلة في الخارج.

3ـ تتراءى لنا حالة التمايز في كل نوع وهو يسعى إلى تحقيق الطاقة المنطوية فيه. ويمكننا التعبير عن هذا السعي إلى التحقيق بمصطلح هو التطور. لذا، يعد التطور عملية تنفتح فيها الطاقة المغلقة، أو الوعي المنطوي، أو الخصائص النفسية والعقلية المنثنية على ذاتها، إلى غاية هي تحقيق القطب الأسمى الذي تسير إليه بفعل كيف طاقتها وكم كتلتها.

نعود من جديد إلى حالة اللا تمايز الأولى حيث كانت الخصائص العقلية والنفسية، معبراً عنها بالكم والكيف، في كمون ووجود بالقوة. ويمكننا الآن تشبيه هذه الحالة بمقدار ضخم من الفطير أو العجين. وإذا توخينا الوضوح قلنا إن العجين كان في حالة تجانس، أي في حالة لا تمايز فيها. ولكن هذا التجانس أو اللاّتمايز يحمل في جوهره وصميمه قدرة على التمايز إلى أنواع في الكم والكيف. وتفسّر هذه

القدرة على التمايز عن طريق القانون المهيمن على الكرة الأرضية. فهذا الكوكب يخضع لقانونين أساسيين: ثنائية ظاهرية، وتعدد أو كثرة في تنوع. ونستنتج مما سبق أن الثنائية الظاهرية والتعدد أو الكثرة قضية ظاهرية، وليست حقيقية. والحقيقة الثانية هي أنها تتآلف في وحدة هي في صميمها تجانس أو لا تمايز. ولما كان القانون تعبيراً عن قدرة هي طاقة تصل بين الجواهر، فإن القانون السائد على كوكب الأرض هو قانون الوحدة في الباطن وقانون الثنائية والتنوع في الخارج. لذا، يتصف عالمنا هذا بالثبات في جوهره وباطنه وبالحركة في خارجه وأشكاله.

إن تفسير ظهور الأنواع المتمايزة من حالة هيمن عليها اللا تمايز، يقوم على حقيقة هي أن الكرة الأرضية تفسَّر بقانون الوحدة الجوهرية والكثرة الظاهرية. ولما كنا قد تصورنا الحالة الأولى المتجانسة واللامتمايزة، بوصفها عجيناً متناسقاً، فإننا نضيف إلى صورتنا تلك ما يلي: إن الطاقة المكنونة في حالة التجانس اللامتمايز اتصفت بقدرة على التنوع، فقسمت ذاتها، أي تمايزت، إلى خمائر كثيرة، لا حصر لها، تنوعت في الكم والكيف: الكم يمثل الكتلة والكيف يمثل الطاقة. ولما كانت هذه الخمائر تتمايز في الطاقة والكتلة فسوف تسعى إلى تحقيق طاقتها وكلتها، وذلك لأن التطور، وهو نتاج انفتاح الطاقة المغلقة، يتقدم إلى الأمام في تمايز وتنوع. وتتكشف الطاقة. وهي خصائص عقلية ونفسية كامنة، شيئاً فشيئاً، لتشكل خارجاً هو الكتلة أو الجسم أو العضوية. ولما كانت الخمائر متمايزة فإن بعضها يحقق النوع الذي تمايزت إليه في فترة زمنية قصيرة نسبياً. وأما الخمائر التي تركزت طاقتها وكتلتها، ونالت حظاً وافراً منهما فإنها ستتأخر في الكشف والانفتاح عن الخمائر الأخرى. وسوف تحقق كل خميرة ما تضمن فيها من طاقة هي باطن وصورة ومن كتلة هي خارج وشكل. ولما كان الإنسان هو التطور النهائي لخميرة تمايزت عن غيرها بطاقة شديدة وكتلة مركزة فإن ظهوره في سلّم التطور جاء متأخراً إذا قيس بتطور الخمائر الأخرى التي تمايزت بطاقة أدنى وكتلة أقل تركيزاً.

يتضمن هذا الشرح القول إن المملكة الإنسانية والحيوانية والنباتية والمادية خمائر تنتمي إلى عجين واحد. فهي إذن عجين واحد تمايزت خمائره وتطورت إلى ما فيه تحقيق كتلتها المادية وطاقتها النفسية أو العقلية. ووفق هذا المنظور، لم يتحدّر الإنسان من الحيوان، أو بالحري، لم يصعد منه. فالحيوان بأنواعه خميرة متمايزة بطاقة معينة. وجدير بالذكر أن الطاقة الإنسانية طاقة كبيرة والكتلة الإنسانية كتلة مركزة غاية التركيز.

7ـ حقيقة التمايز:

إذا كان التطور يتقدم إلى الأمام في عملية انفتاح وكشف. فهو لا يعرف الطفرة أو الافتجاء، لأنه بطيء غاية البطء. فالطفرة أو الافتجاء مصطلح اعتمده علماء التطور عندما وجدوا أنفسهم عاجزين عن تفسير التكامل المرتبط بعملية الانفتاح. فالتطور ليس صراعاً بل تكاملاً. وليس انقراضاً بل تواصلاً في النوع. فالنوع يتحول إلى نوع آخر في عملية تحقيق لباطن وخارج ولا يتعرض للانقراض لأنه يتابع مسيرته في نوع يتكامل فيه ويبلغ الهدف أو الغاية المتضمنة في القانون الذي يوجد من أجله لتحقيق ذاته على مستوى أعلى. إذن، يتابع الوعي المنغلق والطاقة الكامنة تطوره أو تطورها في سلسلة وجوده أو وجودها حتى يبلغ أو تبلغ الغاية المعبر عنها بقانون وجودها. فالتطور لا يتصف بالانقطاع بقدر ما يتصف بالتواصل؛ ولا يخضع للتجزئة بقدر ما يسعى إلى التكامل. وهكذا، يكون التطور حركة ديناميكية تكاملية وليس مكانيكية تجزيئية.

8ـ التطور والعقل:

تشير الدراسة السابقة إلى تطور التجانس اللامتمايز إلى انفتاح متمايز للوعي الكامن في التجانس. وتشير، كذلك، إلى اشتراك التمايز في خلفية واحدة: فبقدر ما هو كثير هو واحد. والحق يقال إن التمايزات العديدة تتنوع في الشكل والخارج وتشترك في النفس والطاقة. ولأن التمايزات كثيرة، تنحصر في ممالك أربع، يتطور الوعي الكامن في المملكة الأولى إلى وعي أكثر انفتاحاً في المملكة النباتية، وأكثر انفتاحاً في المملكة الحيوانية، وأكثر انفتاحاً في المملكة الإنسانية. وإذا كانت مقولتنا هذه تشير إلى صدق في الحقيقة فإن قولنا: إن العقل خاصة مميزة للإنسان قول باطل. فالعقل صفة مشتركة بين الأنواع كلها والممالك كلها. إذن، فالعقل قائم في الإنسان، وقائم في الحيوان والنبات والمادة الصرف. ومع ذلك، فهو يتدرج في التركيز والتفكير. فالعقل في الإنسان، وهو الطاقة النفسية المركزة، يعمل عن طريق الدماغ والحواس. التي هي إطالات الدماغ؛ والصلة التي تربط العقل الإنساني بالطبيعة بصلة غير مباشرة. وعندما يطرح العقل ذاته على الطبيعة، فإنما ليدرس ذاته فيها ويتعرف على حقيقته المطبوعة في الطبيعة. هذا، لأن كل ما في العقل موجود في الطبيعة. بأشكالها وأنواعها وممالكها. لذا، يتطلب العقل الإنساني التعلّم والتدريب والممارسة. والعقل

الحيواني قوة طبيعية تدرك ذاتها على نحو مباشر، الأمر الذي يشير إلى أن الحيوان لا يحتاج إلى التعلم لأنه يحقق طاقته النفسية المركزة بشكل مباشر. وإذا توخينا الدقة والوضوح ذكرنا أن العقل الإنساني دائري الاتجاه والعقل الحيواني واحدي الاتجاه. إذن، فالعقل الإنساني يقتضي التركيز لأن إشعاعاته تتجه منه إلى كل الاتجاهات، والعقل الحيواني لا يقتضي التركيز لأنه يلامس موضوعه بشكل مباشر. والعقل النباتي قوة طبيعية مستقرة سكونية. تكشف عما في الطبيعة المادية والطاقة الكامنة فيها بطريقة مباشرة. إنه يلتصق بالطبيعة التصاقاً جوهرياً، ويعبر عن ذاته عن طريق الشعور والإحساس. ولقد دلت التجارب الحديثة على امتياز النبات بالإحساس والشعور الذي يحيا فيه بدون الحواس أو الدماغ كما نفهمهما على المستوى الإنساني. فهو يسجل كل اهتزاز ويتجاوب معه سلباً أو إيجاباً. والعقل في الطبيعة المادية طاقة مغلقة. وعي كامن، غارق في سباته، يسعى إلى اليقظة. والحقيقة هي أن العقل في الطبيعة يشاهَد على أنه خصائص عقلية تسعى إلى الكشف عن ذاتها بفعل التطور. وهكذا، نرى أن العقل طاقة تنبث في العالم كله. وإذا كان هذا العقل منبثاً، ويتطور وينمو إلى حالات أكثر تركيزاً، فإنما ليدل على أن العقل لم يظهر في الإنسان فجأة أو نتيجة طفرة. لقد قام بمسيرته البطيئة الكبرى خلال العصور وملايين السنين، وعبّر عن ذاته في أنواع كثيرة من التركيز، في الإنسان والحيوان والنبات. وإننا نخطئ إذ نعتقد أن العقل الإنساني حصيلة تطور حدث لعقل الحيوان، ذلك أن الخميرة الإنسانية تشكلت منذ البدء، كما تشكلت الخميرة الحيوانية والنباتية أيضاً. وسارت كل خميرة في السبيل الذي خطته لذاتها للتعبير عن طاقة كونية. وفي كل سبيل، سارت الطاقة والكتلة في خطين متوازيين. وهذا يعني أن كل تقدم أو تطور للكتلة كان يسايره أو يوازيه تطور أو تعقيد للطاقة النفسية. ولقد سار كل فرع في طريقه، أي في اتجاهه، ليبلغ ذروة كماله في الشكل، في الباطن والخارج. ونستطيع القول: إن الإنسان والحيوان والنبات ينتمون إلى شجرة واحدة، هي شجرة الحياة؛ ويمثل كل واحد منها فرعاً من فروع شجرة الحياة. ونستطيع أن نضيف إلى قولنا هذا قولاً آخر هو أن الفرع الإنساني ينطلق من شجرة الحياة ليمثل نوعاً خاصاً يتميز بطاقة كبرى وتركيزاً كبيراً للكتلة. إذن، فالإنسان لم يتحدّر، أو لم يصعد، من فرع الحيوان.

يمكننا الآن، ونحن نقف قبالة شجرة الحياة نُطل على فروعها الكثيرة، أن نتساءل عن كيفية التمايز الذي انطلق من حالة لا تمايز أولى عُرفت بالتجانس.

9ـ التطور، التمايز واللا تمايز:

في العودة إلى ما قبل الحياة العضوية نرى، بحدس وبصيرة، الطاقة المتجانسة اللاّ متمايزة، في حالة تأهب للتحبحب، أي للتجمع في حبيبات ستكون النواة الأولى لتجمع متزايد ومتمايز. وفي تعمقنا، ونحن نتلمس المعالم الأولى للحياة وهي تختفي عن عيوننا، نستدل إلى استعداد الحياة، أي الطاقة، إلى التجمع في حبيبات ستنشأ عنها الخلايا الأولى. وفي هذه الخلايا، تجمعت جمهرة من الحبيبات التي ستتجه إلى تشكيل متعضيات متنوعة. وعلى هذا الأساس، تجمهرت حبيبات طاقية ستسير إلى تحقيق الإنسان. وهذا ما دعانا إلى تسميتها بالإنسان الكامن. وتجمهرت حبيبات طاقية أخرى في خلية ستسير إلى تحقيق الحيوان أو الطير بأنواعه. وتجمهرت حبيبات أخرى في خلية ستسير إلى تحقيق النبات.

في ضوء هذه الحقيقة، يمكننا تفسير الجسد الإنساني والجسد الحيواني والجسد النباتي. ففي الخلية الإنسانية الأولى تجمعت الكتلة الأرضية في تركيز طاقي شديد، بحيث أن المادة كلها تركزت بملء طاقتها. ولسوف ينشط هذا التركيز لتحقيق الجسد الإنساني. وهكذا، يقودنا مثل هذا الاعتراف إلى الإقرار بأن الجسد الإنساني تركيز لعناصر المادة وطاقتها في نقطة نسميها الخلية الإنسانية. ولا يغيب عن بالنا بأن تجمع الحبيبات في خلية، وتجمهر العناصر في نقطة هي الخلية، قد استغرق ملايين السنين الأرضية. إذن، فالانتقال من استعداد ما قبل الحياة العضوية إلى التشكل العضوي الأولي، واستغراقه ملايين السينين، يعني أن الخلية تحمل عمرين: عمر زمني مادي يقاس بالكم، وعمر نفسي يقاس بالكيف. وللدلالة على أهمية هذا التجمهر والتجمع، نعود إلى آراء العلماء المحدثين الذين ينفون الصدفةفي هذه العملية، آخذين بعين الاعتبار أن مبادئ الاحتمال تتعارض مع الصدفة. ويقول أولئك العلماء إن عملية التجمع، لو أنها تمت بالصدفة، لاستغرقت عمراً زمنياً يفوق عمر الكرة الأرضية بآلاف المرات، وتطلّبت مكاناً أو حيزاً تحدث فيه هذه الصدفة يفوق حجم الأرض بآلاف المرات. وإن مثل هذا الدليل برهان صادق على أن الطاقة المنغلقة على هيئة مادة كانت تعي ما ترسم لذاتها في كل خطوة تقوم بها، وفي كل تآلف أو تركيز أو تحبحب تحققه. فالوعي كان في البدء؛ والوعي، في كمونه، كان يستعد لينغلق من جديد في كتلة تعد أكثر حرية وأقل حتمية، ستعمل بدورها على الانغلاق في كتلة جديدة، هي متعضية، تعد أكثر حرية وأقل حتمية، حتى تبلغ

درجة الإنسان. هكذا، نرى أن تطور الإنسانية الأولى إلى الإنسان عبرت مجموعة من الانغلاقات والانطواءات يعبر كل منها عن حرية أكثر ووعي أكثر، وسلسلة غير منقطعة، بل متصلة، لطاقة تتحقق ضمن كيانات ووجودات ستبلغ غايتها في الإنسان.

في الخلية الحيوانية الأولى، تجمعت الكتلة الأرضية في تركيز طاقي أقل شدة. ولسوف ينشط هذا التركيز لتحقيق الجسم الحيواني. ولما كان الجسم الحيواني أقل تركيزاً لكتلة وطاقة فيمكننا الاعتراف بأن عقله متدن عن العقل الإنساني، لكنه أكثر اتصالاً بالطبيعة، على نحو غير مباشر، من العقل الإنساني. فالعقل الحيواني الذي يتصل اتصالاً يكاد يكون مباشراً بالكتلة المادية قد بلغ تعقيداً معيناً للدماغ لا يساعده على التجريد والتصور. لسبب وحيد هو أن كتلته غير مكتملة اكتمال الكتلة الإنسانية، وطاقته غير مكتملة اكتمال الطاقة الإنسانية. لذا، يتدنى دماغ الحيوان وعقله عن الدماغ الإنساني وعقله.

في الخلية النباتية الأولى، تركزت الكتلة والطاقة بحيث أبقت على الاتصال التام بهما في الطبيعة. لذا، كان عقل النبات يعمل بدون دماغ أو أعضاء حس. فهو لا يحتاج إلى دماغ يعمل كوسيلة للتعبير، لأنه كموني، طاقي، ذاتي الشعور وحدسي.

نستخلص مما تقدم أن الأشكال التي اتخذتها الأنواع كانت نتاجاً لطاقة باطنية تفعل. فلكل خارج طاقة باطنية أكسبته شكلاً أو ظاهراً. وهكذا، تفسَّر الأشكال بالطاقة الداخلية على غير ما فسر الأمر دارون. فقد شرح دارون الصفات الملازمة للأجسام أو للمتعضيات بنمو الشكل الخارجي. فالطاقة الداخلية، في رأيه، نتاج للمظهر الخارجي. لقد أساء دارون وأتباعه فهم الطاقة الكامنة، وجهلوا وحدة وتفاعل الحياة والطاقة والوعي والكتلة.

قادهم مثل هذا الانطلاق الخاطئ إلى أخطاء تراكمت، الأمر الذي جعلهم يتحدثون عن صراع في الطبيعة، وافتجاء أو طفرة، ومكانيكية دون تكاملية، وظهور للعقل دون رؤيا سابقة له. فلو استطاع دارون وأتباعه رؤية الوعي الكامن في الطاقة المغلقة على ذاتها، التي نسميها المادة، لرأوا التكامل في الطبيعة، والتطور البطيء، واتصال الأنواع، ووجود العقل وخصائصه الأولى. ومع ذلك، نُدرك الغائية في نظريته التطورية.

10- التطور في هبوطه وصعوده:

إن طرح مبدأ الطاقة المنغلقة على ذاتها والمنثنية على ذاتها، يستدعي البحث في معرفة جوهر هذه الطاقة التي تحولت بفعل علة داخلية إلى مادة. ولكي نستشف وجود هذا الجوهر، فإننا نعمد إلى تبيان حقيقة التطور في هبوطه وصعوده. هنالك تطور هابط من الأعلى باتجاه الأدنى، وتطور صاعد من الأدنى باتجاه الأعلى. ويُعد التطور الهابط مجرد تكاثف طاقة كونية لطيفة، ووعي كوني شامل. ولكي نستشف وجود هذا الجوهر فإننا نعمد إلى تبيان حقيقة الاهتزاز الطاقي. إذن، فالمادة الأرضية كثافة كونية بلغت درجات لطافتها أقصى درجات كثافتها. وإذا كانت المادة الأرضية مجرد طاقة مكثفة، فلا غرو أن تكون خصائص الطاقة والوعي متضمنة في المادة وكامنة فيها، على نحو انغلاق وانطواء وانثناء على الذات. وإن قولنا بأن الكرة الأرضية كانت في بدء تشكلها غازاً ملتهباً أخذ يبترد، دليل على أن مادة هذه الأرض نار ابتردت، الأمر الذي يدعونا إلى الاعتراف بأن خصائص النار منغلقة على ذاتها في القشرة الأرضية. وقولنا إن النار كثافة نور دليل على أن خصائص النور قائمة في النار؛ وخصائص النار قائمة في المادة. وهكذا، تكون خصائص النور والنار قائمة في المادة. هكذا نقول إن المادة إشعاع.

يشير ما أوردناه إلى تطور هابط من عالم أو من عوالم لطيفة رقيقة إلى عالم كثيف. ويتمثل هذا التطور الهابط بتخلخل النور الذي يزداد ابتعاداً عن مصدره. وجدير بالملاحظة أن التطور الهابط مجرد فيض أو صدور أو انبثاق لطاقة كونية لطيفة تنتقل في تحولها من نطاق إلى نطاق، من عالم إلى عالم، من سماء إلى سماء تبلغ عالمنا هذا وقد حققت كثافة كبرى، تسمى مادة. إذن، فالمادة كثافة طاقة كونية لطيفة، غاية اللطافة؛ تابعت مسيرتها الكونية منتقلة من نطاق أو سماء أكثر انفتاحاً ولطافة إلى نطاق أقل انفتاحاً ولطافة، حتى بلغت الهدف النهائي لها، فانطوت على ذاتها في عالم يسمى العالم المادي. وفي هذا العالم المادي «يغفو» الوعي، وتغفو الطاقة معه في كمون.

يقابل هذا التطور النازل أو الهابط تطور آخر، هو تطور صاعد من الأدنى. وليس هذا التطور الصاعد غير قاعدة جوهرية لتحقيق الكون في صدوره وانبثاقه من جوهر كوني، وعودته وإيابه إلى هذا الجوهر. إذن، فالفيض أو الانبثاق أو الصدور مجرد كشف لحقيقة كونية، حقيقة سامية، يسمى تطوراً هابطاً، والإياب مجرد

تطور صاعد لهذه الحقيقة، التي انغلقت في انطوائها الشديد، إلى مصدرها، لتعود إلى حالتها النقية الصافية. وجدير بالقول: إن كل تطور صاعد مرهون بدرجة كثافة المستوى الذي يحدث فيه هذا التطور. وعلى الرغم من أن العوالم كلها منغلقة على ذاتها في مستوياتها الدنيا، لكن التحقيق يتم وفق المستوى الذي يحتله العالم المنوط به.

11ـ التطور، الحرية والحتمية:

على كوكب الأرض، يبلغ التطور الهابط أدنى مستوى له في اللطافة وأعلى مستوى له في الكثافة. وتظهر هذه الكثافة على نحو انطواء في الصغير، وفي قدرة هذا الصغير على تحرير ذاته، بفعل طاقته الواعية، الغافية والكامنة، إلى مستويات أعلى في سلم الوجود. ويعود الوجود لينثني على ذاته من جديد في كائن هو الإنسان. ولا يحدث هذا إلاّ لكي يعمل الإنسان، بفعل حرية ووعي مُدركين، للعودة إلى الحقيقة التي انبثق منها. وهكذا، يمكننا أن نقول: إن التطور فعل حرّ، هو الحرية المتمثلة في الوعي. ولكي نتوخى الوضوح نقول: إن التطور فعل مبدع، مبدؤه الحرية وظاهره الحتمية، هو انعتاق دائم، هادف وغائي من عبودية تظهر على نحو حتمية في خارجها.

تتجه النظرة السطحية إلى اعتبار الانغلاق الكوني واتخاذه شكل المادة حتمية. أما النظرة العميقة فترى في الانغلاق والانطواء الطاقي حتمية ظاهرة وحرية باطنة. ووفق هذا المعيار، تكون الطاقة والوعي الكامنان القدرة الموجهة للصيرورة، والحرية الواعية المتطورة دوماً وأبداً إلى أشكال أكثر سمواً وارتقاءً وتكاملاً. وعلى هذا النحو، تطرح الحرية ذاتها مقابل الحتمية الظاهرية. فلا حتمية في الكون، ذلك أن الكون يعي ذاته بفعل حرية وغائية، ويرتقي سلم الوجود ضمن قانون ذاته. ولما كان قانون الكون، وهو قانون الوعي والحرية، متضمناً فيه وغير مفروض عليه من الخارج، فإن الحتمية تتقلص حتى تبلغ اللا شيء. ولكن الحق يقال إن حتمية ظاهرية تعاين في اللحظة التي تنغلق الطاقة الكونية على ذاتها. ولا تتصف هذه الحتمية الظاهرية بالواقع لأن الطاقة الواعية تنطوي على ذاتها، فتظل واعية في صميمها وجوهرها، وتظهر على هيئة حتمية في خارجها. ولما كان قانون الكون كله يتأرجح بين الانغلاق، وهو تطور هابط إلى أعلى درجات الكثافة في المادة، والانفتاح وهو تطور صاعد إلى أعلى درجات اللطافة في الوعي الكوني، فإن الانغلاق يبدو على هيئة

حتمية والانفتاح يبدو على هيئة حرية. فالتطور حريـة تفعـل في وجودهـا سـاعية إلى الانعتاق من إسار الانغلاق. والحقيقـة هـي أن الوعـي الكونـي لا يتحقـق، ولا يـدرك ذاته، إلا من خلال هذه العملية التي ينطوي فيها علـى ذاتـه، فيعـد مـادة، وينفتـح شيئاً فشيئاً ليدرك ذاته في مسيرة تطورية شاقة وطويلة، فيعد روحاً.

يؤدي انغلاق الطبيعة إلى تحقيق مقاومة سـالبة في المـادة. لـذا، تُعـرَف الكتلـة بمقاومتها السالبة. وتفسَّر المقاومة السالبة كما يلي: عندمـا تتكتـل الطاقـة في المـادة، تصبح هذه المادة قوة نابذة، قوة سالبة، وذلك لأنهـا تجمعـت علـى ذاتهـا، فسـلبت حقيقتها على نحو ظاهري ونفت ذاتها على نحو اغتراب. ويشير تجمع الطاقة علـى ذاتها ـ وهذا هو المقصود بالمادة ـ إلى بدء الزمان والمكان، كما يشير إلى انتفاء ظـاهري للوعي ـ الباطن. ولما كان هذا الوعي ـ الباطن قائماً أو كامناً فإنـه سـيفعل علـى نحـو مقاومة إيجابية تسعى للعودة بذاتهـا المغلقـة إلى الانفتـاح. وفي هـذا النطـاق، يمكننـا إطـلاق مصطلـح المـادة السـالبة علـى الحتميـة الظاهريـة، والمقاومـة الإيجابيـة علـى الانفتاح، والحرية والوعي الكاشف لذاته. وهكذا، يعني مصطلح نبذ، ومقاومة سالبة وحتمية شيئاً واحداً. ويعني مصطلح جذب، ومقاومة إيجابيـة وحريـة شـيئاً واحـداً. ولما كانت عملية الجذب والنبـذ، والمقاومـة الموجبـة والسـالبة، والحتميـة والحريـة، تفعـل في ذاتهـا، في واقعهـا وفي كتلتهـا، ولا تخضـع لعـامل خـارجي، فـإن النبـذ، والسلب والحتمية وقائع خارجية، ظاهريـة، وأعـراض شـكلية لحقيقـة باطنيـة هـي الجذب والإيجـاب والحريـة. وفي هـذا السـياق، نخلـص إلى تأسـيس قـاعدة للتطـور تتمحور حول الوعي: التطور انفتاح انغلاق ظاهري، وحرية حتمية ظاهرية، وجـذب نبذ ظاهري، وإيجاب سلب ظاهري. التطور هو الكون وهو يعي ذاتـه. والمـادة وهـي تعي حقيقتها، والطاقة وهي تعي جوهرهـا. إذن، فالمـادة هـي مركبـة الطاقـة، هـي الرداء الذي تلبسه، هي المظهر الذي تتخذه لتعي ذاتها ضمن عملية كونيـة تشـير إلى أن الوعي الكوني لا يتم إلا ضمن هـذه الجدليـة، وضمـن تـأليف يطـرح فيـه الوعـي الكوني ذاته، فيتذكر، ليعود إلى ذاته بعد انفتاح.

12ـ رؤية المستقبل، الإنسان وصيرورة التطور:

المستقبل، في هذا السياق، رمز للتطور بعد الإنسان، يشير إلى تحقيق الزمان المقبل، وإلى ملء هذا الزمان بالفعل والإبداع. ولما كان المستقبل نتاجاً لما يزرعه الإنسان والعالم الطبيعي، وتحقيقاً للطاقة المجسمة في الكتلة، فإنه يجسّد الحقل الذي يزرع فيه الإنسان البذور التي استخلصها من الطبيعة، أو بذرها هو، التي تمثل التركيز الطاقي والكتلوي للحياة. وإذا كان الإقرار بوجود الماضي ممكناً، فمن الصعوبة بمكان الاعتراف بوجود المستقبل. والحقيقة هي أن المستقبل، على مستوى الإنسان، سيوجد، وعلى المستوى الطبيعي سيوجد. ولكن، لما كان مستقبل الطبيعة المادية مجرد نفاذ للطاقة، وبخاصة بعد تحقيق غايتها، بجزئها الأكبر، بوجود الإنسان، فإن مستقبل الإنسان يتكشف في تآلفين اثنين: مستقبله ومستقبل الطبيعة المادية. فهو لن يألو جهداً عن الفعل الدائم المستمر للبلوغ بطاقته وطاقة المادة إلى ذروة كمالها في «نهاية قصوى للعالم». والقضية المطروحة يعبّر عنها في التساؤل التالي: كيف يكون الإنسان أداة لصيرورة الطاقة المادية والبلوغ بها إلى ذروة كمالها، وتحقيقها في أعلى المستويات؟.

يجب علينا، ونحن في صدد شرح هذه المقولة، أن ندرك:

1ـ كيف يكون الإنسان أداة للتحول، أي أداة لتحويل الطبيعة المادية إلى قدرة فاعلة بعد تنشيطها؟

2ـ كيف يكون الخطة القائدة لمسيرة الطبيعة المادية، بحيث أنه، بعد تنشيط الطاقة والإسراع في زيادة تفاعلها وفاعليتها، يروحن المادة، ويساعدها على تحقيق كيانها والتخلي عن ذاتيتها؟

هكذا، يكون الفعل الإنساني مضاعفاً: تحقيق كيانه وتحقيق كيان الطبيعة.

لن يتسنى للإنسان أن يكون أداة تحول مالم تكن الطبيعة المادية كلها، بكتلتها وطاقتها، مركزة فيه. وليس هذا التركيز إلا انغلاق مادة الأرض كلها في جسد الإنسان.

وكما ذكرنا سابقاً، تحمل الخلية الإنسانية عمرين: عمر زمني وعمر نفسي؛ وتحمل باطناً وظاهراً. فالباطن هو عمرها النفسي، والظاهر أو الخارج هو عمرها الزمني. لذا، نرى أن تشكل الإنسان في رحم المرأة يشير إلى أن الخلية التي ستنمو

لتصير إنساناً تحمل الماضي كله فيها: إنها تحمله بباطن هو طاقة نفسية، وخارج هو طاقة مادية، وبعمر زمني وعمر آخر نفسي. ومن هذا، ندرك أن بدء تشكل الإنسان في رحم المرأة يشير إلى انغلاق الأرض كلها، بطاقتها وكتلتها، في الخلية التي ستصير هذا الكائن. وبالإضافة إلى هذا، ندرك أن نمو هذه الخلية أو تكاثرها أو انقسامها يشير إلى صيرورة، أو تكوين ونشوء، ضمن خطين متوازيين: خط كمي، هو خارج ـ جسد ـ متعضية، وخط كيفي هو باطن ـ نفس. ويتابع الكائن الإنساني في رحم المرأة صيرورته عبر الأحقاب والمراحل التي اجتازتها الخلية الأولى أو الخميرة الأولى خلال تطورها ونموها. وإذا كان التشابه قائماً بين التكوين الإنساني الأولي. حتى الشهور الثلاثة الأولى، والتكوين الحيواني، فليس لأن الإنسان مر بالمرحلة الحيوانية وتابع مسيرته إلى عالم إنسانيته، بل لأن التكوينين متشابهان في الكم، حتى هذه النقطة، ولأن الخمائر واحدة، رغم اختلافها بالكم والكيف.

يتابع الإنسان، في رحم أمه، مسيرته التطورية حتى يبلغ المستوى الذي بلغته الطبيعة في التركيز الدماغي والتركيز النفسي. ويشير هذا إلى أن الإنسان، وهو في رحم أمه، يمثل، طيلة الأشهر التي يقضيها في غفوة طبيعته أي في أحضان الطبيعة، المرحلة الزمنية الكاملة التي قضتها الحياة لبلوغ الأنسنة. وهذا يعني أن التطور، المنطلق من الخلية الإنسانية الأولى حتى الإنسان عبر ملايين السنين. يكرر ذاته في رحم المرأة خلال شهور تسعة. فمن الخلية ينشأ الجسد، وفيها تنشأ النفس. ومن هذه العملية نستنتج أن الجسد كله والنفس كلها مركّزان في الخلية ومنطويان فيها. إذن، فالإنسان، في بدء تكوينه، يحمل العمر الزمني كله والعمر النفسي كله. ويمكننا القول: إن الإنسان يمثل، في المرحلة الجنينية حتى الخروج من رحم أمه، تكثيفاً للتطور كله حتى ظهوره على كوكب الأرض. ويتسم خروجه من رحم أمه بتطور آخر يمثل التطور بعد وجود الإنسان. وليس ثمة منظور آخر يفسر لنا مقولتنا هذه وهي أن الإنسان أداة للتحول التطوري.

13ـ التطور بعد الإنسان:

استعرضنا كم وكيف التطور قبل الإنسان، وأصبحنا، انطلاقاً من هذه اللحظة، قابلين لطرح التطور بعد الإنسان على بساط البحث. وبوجيز العبارة نقول: إن التطور بعد الإنسان يتجه إلى تنشيط الطاقة الكامنة فيه، وتوجيهها وجهة فكرية، عقلية، نفسية، أخلاقية وروحية. وإذا وضعنا مقولتنا في قاعدة لغوية سليمة قلنا: إن التطور

بعد الإنسان يتجه إلى الحقيقة السامية، إلى الغاية القصوى، إلى الحرية النهائية من الحتمية الظاهرية. إلى تحقيق الغاية المطلقة المتضمنة في القانون الأصلي، إلى بلوغ الياء التي انطلقت من الألف، إلى كمال النهاية المركزة في البداية. وإذا أردنا أن نضع مقولتنا هذه في عبارة أكثر تركيزاً قلنا: إن تطور ما بعد الإنسان يعني روحنة المادة.

نتساءل: كيف تتروحن المادة؟

إن الكون المنغلق على ذاته في عالم الأرض، يعي ذاته في تطور بطيء، هادف، ويتركز في الإنسان. ويعيد تركيز الإنسان الدراما الكونية كلها متمثلة في ما كان سابقاً وفي ما سيكون لاحقاً. ولما كان الإنسان هو الكون الذي يعي ذاته وكيانه؛ وبدأ يدرك حقيقته المنطوية في باطن الوجود وفي صدر الحقيقة السامية، فسوف يعمل على روحنة ذاته لتحقيق كيان الروح المنغلق في المادة، ويفعل بطاقته لروحنة المادة الأرضية. وفي هذا الفعل الثنائي المتحد، تتآلف الطاقة مع الكتلة. ولما كانت الكتلة الأرضية طاقة كونية منغلقة على ذاتها، فإنها تسعى جاهدة للعود بذاتها إلى أحضان الطاقة. الأمر الذي يجعلها تتروحن. ولأن الإنسان أصبح الأداة المحوّلة للتطور بعد تركيز الكم والكيف فيه، فإنه سيزيل الفاصل الوهمي والحد المصطنع بينه وبين الطبيعة المادية. وهذا ما جعلنا نذكر في فقرة سابقة أن الظاهرة الإنسانية لا تُرى «بمعزل عن الطبيعة المادية».

يؤسفني القول: إن الصدع القائم بين الطبيعة والإنسان أمر مأساوي وخطير إلى أبعد حدود الخطورة. ويُعد هذا الصدع نتاجاً للثنائية التي كرسها العلم في بدء دراسته التي قامت على التجربة الحسية وحدها. لقد أقام بعض الفلاسفة والعلماء جداراً أو فجوة بين الإنسان والطبيعة، بين العقل والمادة، وخلقوا من الإنسان سيداً على الطبيعة يحاول إذلالها وإخضاعها. لكن الحكمة القديمة تمثلت هذه الخطورة وأعلنت قيام وحدة بين الإنسان والطبيعة. والواقع أن علماء وفلاسفة محدثين، تأثروا بالثيوصوفيا، أي الحكمة الإلهية كما تُرى في الكون، وبشّروا بها وهم راؤون وعوا حقيقة الكون والوجود، بدأوا يدركون الحقيقة وينادون بمبدأ إعادة الصلة بين الإنسان والطبيعة. في اتحاد والتحام وانسجام.

لقد أدّى العلم، بثنائيته المهدّدة، إلى خلق مشكلة لا يعرف العلماء كيف يتخلصون منها. إنهم أخطأوا في اعتقادهم أن سيادة الإنسان تتجسد في تفجير الطبيعة وفي سيطرته على الحيوان؛ وأخطأوا عندما فجروا الذرة ـ هذا التفجير الذي يجر الويلات والكوارث على الطبيعة والإنسان؛ وأخطأوا عندما تنكروا للحكمة

القديمة التي دعت إلى اتحاد الإنسان مع الطبيعة، إلى الالتحام والانسجام معها، وإلى محبة الإنسان للحيوان؛ وأخطأوا في تجربتهم التي أدت إلى انشطار الذرة وتفجير كتلتها: كان على العلماء أن يصغوا لإرشاد الحكماء ليدركوا أن سيادة الإنسان تعني وعي القانون الكوني، والاتحاد مع المادة والطبيعة، والالتحام بهما. كان عليهم أن يدركوا أن الحقيقة قائمة في وحدة الإنسان والطبيعة. وفي محبة الإنسان للحيوان والنبات، وأن القانون الكوني مبدأ مشترك بينهما، وأن روحنة المادة هي الطريق الوحيد للوعي والمعرفة والعلم.

أحب، وقد بلغنا نهاية بحثنا الوجيز، أن ألمح إلى السر العميق القائم في الإنسان، السر الذي يسمح له أن يكون أداة تحويل للطبيعة المادية، والقائد الذي يتجه إلى تحقيق نهاية متضمنة في بداية، وغاية متضمنة في قانون أوّلي. ويمكنني التعبير عن هذا العمق المتأصل في الإنسان في مفهومين:

1ـ إن الإنسان حصيلة التطور الطبيعي للمادة ـ والمادة طاقة واعية منطوية على ذاتها. وهذا يعني أن الوعي المنطوي في الطبيعة المادية وعي منطوٍ كذلك في الإنسان، وأن الجسد الإنساني تركيز للطاقة المادية.

2ـ إن الجسد الإنساني الذي تتركز فيه الطاقة الأرضية كلها، بعناصرها كلها، لا يمثل الكيان الإنساني كله. والحق يقال: إن جسداً آخر، هو جسد روحاني، يفعل في الكيان الإنساني. ويعد هذا الجسد الروحاني تركيزاً لطاقة عليا، بلغت غاية تركيزها. إذن، فالإنسان تركيز للعالم الأرضي في جسمه المادي، وتركيز للطاقة الكونية في جسمه الروحي. وهكذا، يكون الإنسان أكثر مما هو في ظاهره، ويكون عقله أكثر من دماغه.

نستطيع أن نفهم الآن كيف يكون الإنسان أداة تحويل للعالم المادي. إنه يحمل هذا العالم في جسمه المادي، وهو قادر على تنشيط المادة وروحنتها من خلال جسمه الروحي. وهذا ما يدعوه إلى أن يكون الفاعل الأول على كوكب الأرض. وعلى الرغم من أن الكتلة المادية طاقة مركزة وكثيفة، لكنها، بعد أن تبلغ مستوى معين من التطور، هو مستوى تعيين الجسد الإنساني، لن تكون قادرة على روحنة المادة الكلية للعالم. وسوف يتوجب على الجسم الروحاني أن يقوم بهذه العملية على صعيدين:

1ـ صعيد الطبيعة، بالاتحاد معها، والانسجام معها. والالتحام بها، والتفاعل

معها، وعدم تفجيرها أو إخضاعها.

2ـ صعيد الإنسان نفسه، بالسمو بجسمه المادي إلى مستوى الحرية والوعي، والاتحاد مع الآخرين في نطاق المحبة، ومع الكون في نطاق الحقيقة.

مراجع البحث

1- P.Teilhard de Chardin: Le Phenomène humain.

2- P.Teilhard de Chardin: La place de L'homme dans la nature.

3- P.Teilhard de Chardin: Activation of Energy.

4- E.Lester Smith: Intelligence came first.

5- Sri Aurobindo: The Future Evolution of Man.

6- Charles Darwin: The Origin of Species.

7- Charles Darwin: The Descent of Man.

الفصل السابع

الحرية الإبداعية والمبدأ الكلّي

تتألف هذه الدراسة من الموضوعات التالية:

1ـ مقدمة.

2ـ الحرية والحتمية: ديالكتيك المعضلة.

3ـ التباين بين الفلسفة النظرية والثيوصوفيا.

4ـ مناظرة بين العقل والدماغ.

5ـ الوضع الكلي الشامل.

6ـ السببية في الكون الهولستي ـ الكلي.

7ـ التمايز والتكامل.

8ـ وحدة التعارضات المتقابلة.



1 ـ مقدمة:

تهدف هذه الدراسة إلى فهم قضية الحرية من وجهتي نظر:

أ ـ الثيوصوفيا، ب ـ السياق المعاصر، القارن والمتكامل الذي يتصل بالمبدأ الثاني للثيوصوفيا. وتقتصر هذه الدراسة على توجيه المبادئ، التي سنطرحها على بساط البحث، إلى الفلاسفة الذي يقفون خارج نطاق الثيوصوفيا[1].

يعتقد الثيوصوفيون أن الوقت ملائم لاستشفاف الحرية وتبصر مفهومها بما يتوافق مع وجهة النظر الثيوصوفية. فهم يؤكدون أن المبادئ الكونية التي تشكل القاعدة الرئيسة لفهم قضية الحرية ـ مبادئ الوحدة والشمول والكلية التي هي مبادئ جوهرية في وجهة نظر الثيوصوفية إلى العالم، وطريق حياة ـ تفرض ذاتها على عقول العديد من الأفراد الذين يسلكون مسالك عديدة في دروب الحياة. فقد دلت الوقائع أن العاملين في حقل أو آخر من حقول العلوم الطبيعية أو الاجتماعية ــ الفيزياء، البيولوجيا، علم النفس، الطب النفسي والعقلي، الأنثروبولوجيا، علم الاجتماع، ومناهج أخرى لها صلة وثيقة بهذه العلوم ـ أدركوا أن النماذج أو الأمثلة التقليدية وقفت عاجزة عن تفسير الكثير من ملاحظاتها التي استقتها أو كوّنتها من مصادر أخرى، وقصرت في مجال التوفيق بينها. وبلغ هؤلاء العاملون نقطة اتصال في بحوثهم حينما اقتضت الضرورة أن يتفهموا طبيعة أو خاصة معضلات الكليات والكل الشامل. واهتم آخرون. وقد شغلوا أنفسهم بأشكال لا إتفاقية للشفاء، والعلاج، والتغذية، والثقافة، والتنظيم الكوموني وحقول أخرى ذات صلة، اهتماماً كبيراً بالمبدأ الكلي من حيث علاقته بهذه المساعي. وعلاوة على هذا، يمكننا أن نقدّم الأدلة الكثيرة التي تُعنى بالمبدأ الكلي، ونستقي المعلومات المستمدة من التجربة من حقول مختلفة، وبخاصة من حقل الفيزياء، ومن حقول العلوم الطبيعية، ومن ملاحظات الثيوصوفيا ذاتها. وأخيراً، نصرّح بأن الوقت مؤات لسبب أصيل هو أن المعطيات الخيرة، وهي تشهد، ولو على نحو غير متعمد أو مقصود، على كلية الطبيعة بظهوراتها كلها،

[1] ـ المبادئ الثلاثة الأساسية التي أعلنتها الثيوصوفيا هي:

1ـ تشكيل نواة للأخوة الإنسانية الشاملة، دون التمييز بين العرق، والعقيدة، والجنس واللون.

2ـ دراسة مقارنة للفلسفة والعلم والدين.

3ـ استقصاء العلل الغامضة لقوانين الطبيعة والقدرات الكامنة في الإنسان.

تثير، على نحو إصرار، إلى القضية المتعلقة بطبيعة الحقيقة السامية أو المطلقة.

2ـ الحرية والحتمية: ديالكتيك المعضلة:

يُعد الوعي الذي يرافق القدرة على العمل والتصرف، وفق ما تمليه سلطتنا الداخلية الآمرة، جوهرياً مثل الوعي الذي يرافق الذات، إذ يجتاحنا إحساس متأصل في صُلبنا يشعرنا بأننا مقيدون ومحدّدون بسمات فرديتنا الخاصة. وتعكس هذه المشاعر المتضاربة والمتناقضة التي يختبرها كل إنسان تناقضاً ظاهراً يتصف به الوضع البشري.

وإذا ما تساءلنا: هل أن قياسنا لحريتنا الداخلية حقيقي أم أن الحرية وهم؟ ولو كانت الحرية حقيقية، فعلام تقوم حريتنا النسبية؟ وإلى أي مدى نسعى إلى تحقيق الغاية من الحرية؟

تقف الفلسفة الغربية، وبخاصة المتافيزياء والأخلاق، من حرية الإرادة والاختيار موقف من يجد فيها موضوعاً صعباً مثيراً للجدل والخلاف. وتتجسد هذه الصعوبة في اعتبار الحرية ملازمة للمسؤولية والإبداع، وفي التواصل والالتزام بينهما. وهكذا، تكون الحرية عنصراً أساسياً وهاماً لنظرية الأخلاق. ومع ذلك، تواصل الفلسفة النظرية نزاعها مع المعضلة التقليدية المتمثلة في التوفيق بين الإرادة الحرة والحتمية. وأما هذه المعضلة، فيمكننا الإفصاح عنها بالكلمات التالية التي اقتبسناها من الموسوعة الأمريكية: «الإرادة الحرة والحتمية تصوران أو مفهومان فلسفيان يتعارضان على نحو عام ومتواصل بشأن أصول الأحداث ومنشئها، وبخاصة تلك التي ترتبط بالأفعال البشرية. فأنصار الحتمية والضرورة يعلنون أن كل ما هو موجود ضروري ومحتوم. إنه المعلول الناتج من علل أو من بعض المبادئ المجردة التي لا تسمح إلا بالوضع الراهن للشيء. ومن جهة أخرى، يقف أنصار حرية الإرادة، وهم المؤيدون لمذهب حرية الاختيار، من الموضوع موقفاً آخر. فهم يقولون إن أفعال الناس الواعية، في حدها الأدنى، اختيارات مستقلة بذاتها بين مجموعة من المسؤوليات الواقعية».

على الرغم من لا يقينية الفلسفة، تفترض اتجاهات فكرية أخرى واقع الحرية وتؤكد على حقيقتها. وتضرب هذه الاتجاهات مثالاً تقتبسه من المجتمع. ففي المجتمع، يتصرف الأفراد بحيث يُعتبرون مسؤولين عن أفعالهم، وأحراراً لأنهم يتصرفون في سلوكهم على نحو مسؤول. وبالفعل، تقر البديهة الخلقية أن الإنسان لا

يعد مسؤولاً ولا ينال عقاباً أو يخضع لجزاء لو لم يكن قادراً على القيام بعمل، ولو لم يكن فعله إرادياً. وعلاوة على هذا، تقر الديانات الرئيسة في العالم بقدرة الإنسان على التمييز بين الخطأ والصواب، وتؤكد على إمكان التصرف وفق هذا التمييز. ولا تتوانى الفلسفات الدينية الشرقية عن التأكيد، وهي تلح على حاجة الإنسان لتبديد الوهم، على حرية الإنسان في خلاص نفسه من الوهم والعبودية من أجل توطيد كيانه في عالم الحقيقة الذي ينتمي إليه. وبالمثل، تؤكد مناهج علم النفس والطب النفسي، على نحو عام، بطرق عديدة وبحسب المدارس التي يبلغ اختلافها حداً كبيراً، على أن المنجزات والمآثر الإنسانية الأساسية تبدأ بذات الإنسان.

شهدت العصور الأخيرة انبثاق نمط معين من أنماط الحتمية استُتبع كنتيجة لابد منها في الخلاف الناشئ بين حرية الإرادة والحتمية، وعُرف بالحتمية السببية المكانيكية أو الآلية. وقد تأصلت الآلية في فيزياء نيوتون التي تصورت العالم على هيئة منظومة مكانيكية. ويُعتقد أن كل حادثة في هذه المنظومة تخضع، على نحو نظري، لتنبّؤ مسبق في حال توافر معرفة قوانين الحركة والموضع الذي تحتله جزيئات المادة موضوع البحث في زمان معين.

هكذا، تُعد الآلية شكلاً مميزاً وخاصاً من أشكال الفلسفة المادية التي تفترض إمكان تقليص كل الوقائع والحقائق إلى خصائص مادية تخضع لتبدل الحركة في المكان، وتدرك أن كل العلوم ـ البيولوجيا، الكيمياء، علم النفس، الفيزياء، الاقتصاد وعلم الاجتماع إلخ... ظاهرات، هي في جوهرها، ظاهرات مادية ترتبط ببعضها على نحو سببي. وتفترض الآلية أيضاً أن الكون لا يتصرف على نحو غائي بل يعمل بانتظام أو اطراد غير واضح، ووفق نمط لا يتغير. فالأحداث، في كون مكانيكي آلي، تقع لأن أسباباً مكانيكية تتحكم بها. ومتى كانت الأسباب واحدة كانت النتائج واحدة.

تتمثل الحتمية السببية بصورة مصغرة في العبارة الشهيرة التي قالها بيير لابلاس، الفلكي الفرنسي الذي عاش في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر: «لو أنك زودتني بالأوضاع الحالية وسرعات الجزيئات في الكون والقوى التي تتحكم بها، لأنبأتك بالتاريخ المقبل كله».

هكذا، تكون الحتمية السببية التسلسل المتتابع المحدد للأحداث الهامة. لذا، يجدر بنا أن نقيم تمييزاً بين الحتمية السببية أو الآلية ــ وتدعى أيضاً «الحتمية العلمية»، والسببية ذاتها، بمعنى أنها واسطة الكمونية الموجودة بالقوة، أو القوة

التي تجعل هذا الكمون واقعاً. أما أولئك الذين استشهدوا بالسببية بهذا المعنى، مستتبعين قدرة الله أو واسطته أو قدرة الطبيعة كنتيجة لا بد منها، فإنه يُشار إليهم بصفتهم «حتميين». ونلاحظ أن استعمال هذه الكلمة، بطرق مختلفة، يضيف إلى تعقيد موضوع معقد تعقيداً إضافياً.

يمكننا تعريف نظرية الحتمية السببية كما يلي: لكل شيء موجود شروط سابقة، قد تكون معلومة وقد تكون مجهولة، مفترضة أو معينة، بحيث أن ذلك الشيء لا يمكنه أن يكون غير ما هو عليه. فبالنسبة للسلوك البشري، تنص نظرية الحتمية السببية على أن أفعال الإنسان الإرادية واللا إرادية، مثلها مثل سلوك الأشياء كلها، مشروطة بحيث لا يمكن لسلوك آخر أن يحدث خارج تلك الشروط المحددة.

نتساءل الآن: ما هي مضامين الحتمية السببية؟

تتلخص هذه المضامين بالأسلوب التالي: تهب الحتمية السببية المادة عرش السيادة، وتنصّبها الحاكم المطلق على العقل، وتفيد بأنها حتمية صارمة ومقدّرة في تتابع محدد للأحداث، الأمر الذي يجعلها تعبّر، على نحو منطقي، عن جبرية تشير إلى حتمية وقوع الأحداث على نحو لا يمكن تجنبه. ومع ذلك، تحول دون الأخذ بإمكان حرية الإرادة وما يلزم عنها من نتائج طبيعية تتمثل في مبادئ السلوك الأخلاقية والإبداع. وفي هذا الحد نقول: إن مضامينها تدب الهلع في القلوب.

قال عنها الفيلسوف وليم جيمس: «الحتمية، وهي تُنكر أي بديل آخر سواها، تعرّف الكون بأنه المكان الذي يستحيل فيه وجود ما يجب أن يكون ـ وهذا يعني أن الكون نظام ابتُليت بنيته بداء عضال، وخلل لا سبيل إلى معالجته».

وعلق الفيلسوف هنري برغسون تعليقاً لاذعاً على الحتمية السببية عندما قال: «إذا كانت اللحظة الراهنة لا تتسع لاختيار إبداعي مفعم بالحياة، وكانت، على نحو مكانيكي، نتاجاً لمادةٍ وحركة اللحظة السابقة التي هي بدورها المعلول المكانيكي للحظة سابقة، كانت بدورها لحظة سابقة... فلا بد أن نصل في نهاية الأمر إلى السديم البدئي الذي نعزو له العلة الكلية التي أدت إلى كل حادثة لاحقة، وكل سطر من سطور مسرحيات شكسبير، وكل ألم اجتاح نفسه، بحيث يمكننا القول إن البلاغة أو التعبير الكلامي الكئيب الذي نقرؤه في ثنايا مسرحيتي ماكبث وهملت، وفي كل عبارة أو شبه عبارة، دوّنتها بنية ومضمون تلك الغمامة الأسطورية منذ زمان

قصي في الأجواء البعيدة وفي الدهور التي لا تعرف نهاية لهـا. ألا يحـق لنـا، ونحـن نفكر بهذا الأمر، أن نهتف قائلين: إنه إعلان لا يُصدّق! إنه نظرية تتطلب ممارسـة الإيمان! ونضيف مشدوهين: أية معجـزة في هـذا اللغـز الـذي تنطـوي عليـه التـوراة وينأى بنا عن التصديق سوى هذه الخرافة الرهيبـة، الجبريـة، وهـذا السـديم الـذي ألَف مأساة كوكبنا».

حقيقة الأمر هي أن نظرية الحتمية السببية بدأت تتضاءل تدريجياً بعد شـروق شمس الفيزياء النظرية حـول منتصف القـرن العشـرين. فقـد أهملتهـا هـذه الفيزيـاء وتخلّت عنهـا لأن الدفاع عنهـا أصبـح متعـذراً، وبخاصـة أن النظريـة الماديـة ذاتهـا أصبحت في نظر الفيزياء الحديثة أثراً قديماً ومهجوراً.

لكن الغريب في الأمـر هـو اسـتمرار الحتميـة السـببية في الظهـور علـى مسـرح الخلاف والجدل القائم بين الحرية والحتمية. فأنصار الحتميـة يفكـرون، علـى نحـو ظاهري، بأن الحتمية التي يعلنونها حتمية نفسية أكثر منها فيزيقية أو طبيعية. لكن الواقع يناقض تفكيرهم، لأن مـا يضعونـه موضـع التنفيـذ هـو حتميـة سـببية تحفـل بتحكم صارم وكلي للأحداث من قبـل شـروط مسـبقة تلازمهـا إمكانيـة كاملـة للتنبـؤ بالأحداث قبل وقوعها، ويرافقهـا تضييـق علـى حريـة الإرادة والمسـؤولية والإبـداع. وقولنا إن الحتمية السببية قضية يتعذر الدفاع عنها في العـالم المـادي، وتعـد ملائمـة وقابلة للتطبيق في نطاق من نطاقات الأهداف والمفاهيم البشرية يُعرف بتعقيد شـديد، وفي نطاق البواعث والسلوك، قول لا يصدّق، وبخاصة عندما ندرك أن إقحام السـببية في نطاق الفيزياء هو المسؤول عن إدخالها إلى نطاق السلوك البشري.

لم ينجح واحد من الفلاسفة، الذين عارضوا الحتمية السببية معارضـة عنيـدة، في دحضها إلى درجة ترضي الفلسفة النظرية. ولهذا السبب، لا تنفـك الفلسفة تجـد ذاتها في مأزق، وتعجز عن تبني قاعدة للاعتقاد بالحرية. وهنالك سبب آخر يتجلـى في أن دحض الحتميـة السـببية في النطـاق الإنسـاني لا يعـني الاسـتغناء عـن عنصـر وضعي هو، كما قال بعضهم، إن «الوخز الذي تُحدثه السببية الغائيـة» يسـاعد علـى تبني حرية مسؤولة ... لكن الفلسفة لم تتمثل، لحد الآن، فكرة واضحة عما تشـتمل عليه هذه السببية اللاّ مكانيكية.

يثابر هذا الوضـع الفلسـفي البـائس رغـم الجهـود الـتي بذلهـا فلاسـفة عُرفـوا بحصافتهم ـ لكنهم أقل شهرة من غـيرهم ـ ليعيـدوا الكرامـة إلى هـذه القضيـة الـتي اختُبرت على مقياس واسع. وقد وصف ألفرد نورث هوايتهد هـذه الخـبرة بالكلمـات

التالية: «اختيار قرار تتخذه الكائنات البشرية يؤثر في الغايات الشخصية ويكون قاعدة للمسؤولية، والتصديق أو عدم التصديق، والتوافق مع الذات أو تأنيب الذات، وحرية التوكيد». ويضيف قائلاً: «ثمة عنصر هام جداً في التجربة لا نكف عن إساءة فهمه أو تفسيره... عنصر يسود اتجاهنا الأخلاقي العام ويهيمن على أسلوب الحياة الإنسانية».

أما الآن، فيجب علينا أن نفترض، نتيجة لما تقدم، أن الحتمي لا يشارك القائل بمذهب حرية الإرادة عقيدته، أو أن هذا الأخير لا يشارك الحتمي موقفه، ذلك أن المشهورين من المفكرين الذين تركوا بصماتهم على الفكر الإنساني برهنوا، في آن واحد، عن أنهم موغلون في حتميتهم بشكل أو بآخر، ومؤمنون بإمكان حرية الإرادة أو الاختيار. وينضوي الرواقيون، وسبينوزا وإينتشتاين تحت راية هذه المقولة. هذا، على الرغم من أن بعضهم لم يحاولوا، على نحو عملي، أن يوفقوا بين مفهومهم للحتمية مع اعتقادهم بالحرية. ورغم أن كانْتْ ينتمي إلى هذه المدرسة الفكرية. فقد حاول بالفعل أن يوفق بين وجهتي نظره، لكن محاولته هذه ظلت ناقصة.

والواقع أن النظرة التوفيقية التي حظيت، كما يبدو، بأكبر قسط من الاعتراف والقبول ـ لكن أدعياء الحرية والحتمية لم يعترفوا بها اعترافاً شاملاً وكلياً ـ هي نظرية توماس هوبز التي تمثلها كلٌّ من دافيد هيوم وجون ستيورات مِلْ. وقد أطلقت عليها نظرية هيوم ـ مِل، لكونها نسخة معدلة لنظرية توماس هوبز في «الحتمية المعقولة».

تنص هذه النظرية على أمرين، أولاً، فيما يتعلق ببعض الأفعال والتصرفات، يمكننا القول بوجود شروط مسبقة لحدوثها تجعل كل الأفعال الأخرى والتصرفات مستحيلة. ثانياً، أن لا تكون تلك الأفعال والتصرفات مقيدة أو معاقة يعترض سبيلها مانع. وإنه لأمر منطقي أن نقول عن هذه الأفعال بأنها محتمة على نحو سببي وحرة في آن واحد. وهكذا، تقوم مصالحة بين الحرية والحتمية. وللدلالة على ما نقول، نقتبس ما كتبه ريتشارد تايلور في كتابه «المتافيزياء». يقول تايلور: «لما كانت الحرية شرطاً للمسؤولية الخلقية والشرط الوحيد الذي تبحث فيه المتافزياء على نحو جدي، فإن الأنصار والموالين لوجهة النظر هذه يفترضون أن الحتمية تتساوق على نحو تام مع مسؤولية كهذه». ويتابع المؤلف قوله: «إن أفعالي الحرة هي تلك الحوافز اللامعاقة واللامقيدة التي تنشأ عن دوافعي الداخلية الخاصة، وعن اختياراتي وأنواع

إرادتي. لكننا نسأل: من أين تنشأ هذه الأحوال والأوضاع الداخلية التي تحدد ما سيفعله جسدي؟ وهل تخضع لي أو أنها تفلت من زمام يدي؟

عندما نطرح هذين السؤالين، يُصدر الحتمي أمره بالتوقف عن السؤال آملاً أن لا يتنازل عن أي شيء ويتجنب، في الوقت ذاته، المعضلة المتضمنة في السؤال. وهو يبرر موقفه هذا في قوله إن السؤال يخلو من المعنى. ويعلن صراحة: إن اعترافي بقدرتي على فعل شيء آخر يتضمن قدرتي على الفعل بطريقة أخرى لو كانت تلك الأحوال أو الأوضاع الداخلية مختلفة، وأقصد قدرتي على اتخاذ القرار. على نحو مختلف، لا يختلف عن سؤالي الذي أصوغه كما يلي: لو كنت قررت أن أتخذ قراراً على نحو مختلف... لقررت أو اخترت أو أردت على نحو مختلف. والواقع هو أن مثل هذا السؤال حماقة غامضة لا يمكن فهمها».

يتابع المؤلف قائلاً: «ليس الأمر حماقة أن أسأل إن كانت أسباب تصرفي وسلوكي، أي اختياراتي وقراراتي ورغباتي الداخلية، مسببة. وبالطبع، تكون مسببة في حالة واحدة تكون فيها الحتمية صحيحة، وذلك لأن كل ما يقوم على هذه الفرضية مسبّب ومحتّم. وإن كانت تصرفاتي مسببة ومحتّمة، فلن أكون قادراً على تجنب الاستنتاج الذي يشير إلى أنني، وقد عُينت الشروط السببية لأوضاعي الداخلية، غير قادر على اتخاذ قرار أو إرادة أو رغبة غير ما تصرفت به بالفعل..».

لا نكتفي بما ورد في هذا المصدر؛ وسوف نختم مناقشتنا القائمة حول قضية الحتمية ـ الحرية بما نقرأه في كتاب «مدخل حديث للفلسفة» لمؤلفيه بول إدواردز وآرثر باب: «الحتمية، وفق ما عرضتها نظرية هيوم ـ مل، تدعي أن الأفعال البشرية، برمتها، قابلة للمعرفة المسبقة. لكنها لا تدعي أن الأفعال والتصرفات، برمتها، محتمة مسبقاً، إن كان هذا يعني أن سلوك الكائنات البشرية مستقل عن رغباتهم، واختياراتهم وأفكارهم المدروسة المتأنية، وأوضاعهم النفسية الأخرى وطموحاتهم». ويتابع المؤلف بحثه ذاكراً أن للنظرية أنصارها العديدين بين الفلاسفة المعاصرين، فيقول: «لم تعد هذه النظرية مقبولة على نحو عالمي شامل. وإن ما حدث، خلال السنوات العشر الأخيرة، هو أن العديد من الفلاسفة تبنوا أفكاراً مغايرة لها. فبعضهم يعتبرون الحتمية قضية لا يمكن الدفاع عنها أو الاحتفاظ بها سليمة من كل نقد. وبعضهم الآخر أدلوا برأيهم معترفين أن الفعل، في طبيعته الحقة، يتضمن في أنه لا يُسبَّب كما تسبَّب حركة البليار أو كما يسبَّب فعل منعكس على نحو لا يرقى إليه الشك، الأمر الذي يجعل أنصار الحتمية يعتبرون الأفعال

كلها مسببة. أما أنصار التقليد الذي أحدثه هيوم ومل فإنهم لا يسلمون دائماً من نقد يوجَّه في هذا المجال إذ يتهمون بعجزهم عن التمييز الدقيق الكافي بين السبب بمعنى العلة أو الموجب وبين السبب الذي يبرره العقل. ولقد تعرض النقاش الذي أثاره أصحاب المذهب التوفيقي بين الحرية والحتمية للنقد عندما بحثوا المعنى المتضمن في فعل نُطلق عليه صفة «حر»، وذلك لأن بحثهم هذا عُد ناقصاً غير مكتمل... والواقع هو أن النقاد، برمتهم، يعارضون الحتمية. ومع ذلك، فقد أجاب أصحاب المذهب الحتمي أن النقد الموجه إلى موقفهم غامض وسطحي في وجوهه العديدة الهامة. ويلخص النقد الموجه إلى التوفيقيين في أن تصورهم لينابيع السلوك الإنساني غير واف وغير ملائم».

يمدّنا ما سبق عرضه بقدرة تمكننا من تشكيل فكرة واضحة عن ديالكتيك المعضلة.

3ـ التباين بين الفلسفة النظرية والثيوصوفيا:

يتضح للباحث الثيوصوفي أن الاستمرار في عدم الوصول إلى حل للخلاف أو الجدل القائم بين أنصار الحرية وأنصار الحتمية محتوم، وذلك لأن مثل هذا النزاع الناشئ يرد إلى السياق أو إلى الوسط المتحيز أو الجزئي الذي صيغ فيه أو شُكل فيه أو تكيف معه. إنه تحيز أو تجزئة وتقسيم للمعرفة التي هي جوهرية للطرائق الفلسفية في عصرنا الحالي، ذلك أن الفلسفة لم تعد فرعاً من فروع المعرفة الشاملة كما كانت في سالف الأزمان. وهكذا، تسيطر النظرة الجزئية المتحيزة أو المغرضة عندما تخفق الفلسفة أن تستوعب أو تتمثل مضامين نتائج بحوث فروع المعرفة الأخرى الوثيقة الارتباط، مثل علم النفس والفيزياء، وتطبيقاتها في نطاق الحرية ـ الحتمية. وفي رأينا، تستمر المعضلة لسبب آخر مبِّرر، هو أن الفلسفة، على نحو عام، وفي هذه الحالة على نحو خاص، لا تلح في طلبها على الفيلسوف لكني يحقق نظرياته بتطبيقها على حياته الخاصة.

إذا ما تعمقنا في فهم الثيوصوفيا، وجدنا الوضع مختلفاً اختلافاً كبيراً في أمرين: أولهما، هو أن الثيوصوفيا، إذا ما أخذناها بعين الاعتبار، دلت على أنها فلسفة شمولية في مداها وغرضها، وأنها، في الوقت ذاته، متماسكة في صميمها ومنطقية في ترابطها الداخلي وانسجامها. ثانيهما، لما كانت الثيوصوفيا تتجاوز المعرفة اللا مباشرة أو الفكرية التي تتبناها الفلسفة، إلى المعرفة التي نحصل عليها

عن طريق مباشر، فإن عقائدها ومبادئها قابلة للتحقيق ـ أو هكذا يدعي الثيوصوفيون. وبهذا القول، أعني أن كل إنسان مهيأ لتحقيقها إن هو اختبرها بوسائله المباشرة الخاصة، أي بالانضباط الذاتي، والمعرفة الذاتية والتجاوز الذاتي والتسامي. والواقع هو أن الثيوصوفيا لا تناشد الإنسان وتدعوه إلى بلوغ مستواه العقلي فحسب، بل تدعوه أيضاً إلى تحقيق مستويات الوعي التي تتجاوز العقل التحليلي وتتسامى عليه ـ إنها تدعوه إلى الحدْس والبصيرة والوعي الروحي. إنها تنقل البحث عن الحقيقة إلى ما بعد نطاق الاستقصاء العقلي الصرف، والاستغراق في نطاق التجربة الروحية وتحقيق الكيان. وهكذا، تسعى الثيوصوفيا إلى الحقيقة التي توطد قاعدتها على عقيدتين مرتبطتين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً: أولاهما، هي أن إدراك المرء لعلاقته بالكل الأعظم. الذي هو جزء متكامل معه، منوط بإدراك امتداده واتساعه الذي يتجاوز حدود ذاته. ثانيتهما، هي أن المرء لا يستخلص دوره السامي في العملية العضوية الكلية إلاّ من خلال كلّية كينونته أو كيانه. وبناء على هذا، ترى الثيوصوفيا أن المعنى الذي تشتمل عليه أية ظاهرة، أياً كان نوعها، متضمن في علاقته بالماكروكوزم.

ظل المبدأ الكلي، بوصفه طريقة فهم للحياة البشرية والمصير الإنساني، منهجاً غير معمول به حتى الأزمنة الحديثة. ولم يخرج هذا المبدأ إلى نطاق الفلسفة العلنية إلا على يد هيلينا بلافاتسكي. الثيوصوفية الأولى، التي عرضته عرضاً وافياً في كتاباتها الهامة، الفريدة من نوعها. ويُعد مؤلفها «العقيدة السرية» الذي ظهر في عام 1888، تبشيراً أو تصريحاً جديداً موجهاً إلى عصرنا الحاضر، يبسط الفلسفة السرية بكاملها، ويشتمل على شرح تلك العقيدة السرية في مضامينها كلها: منشأ الكوزموس والإنسان، تفسير مصيرهما والعلاقة المتبادلة بينهما. ولقد عدّت هيلينا بلافاتسكي الدين والفلسفة والعلم معالم وسبل حقيقة كونية واحدة ـ حقيقة كونية لا ينتهي البحث الإنساني عنها والسعي إليها. وتوقعت بلافاتسكي ظهور نتائج بحوث علمية في القرن العشرين تتوافق مع مبادئ الثيوصوفيا. وتحققت أقوالها المأثورة بشأن المادة الفيزيقية في المكتشفات الثورية التي فجرتها الفيزياء الحديثة.

تعد كتابات هيلينا بلافاتسكي المراجع الأولى التي تعتمد عليها مقالتنا هذه. لكن هذا الاعتماد لا يحول دون الاقتباس من الكتب الأخرى التي كشفت عن مضمون الحكمة، والإدلاء باستبصارات لها صلة عميقة بالمناهج المعاصرة المختلفة.

لما كانت هذه المصادر الثمينة في متناول يدنا، فسوف نتمكن من الاستشهاد بالمنظور الكلي الشامل. وكما نعتقد أن هذا المنظور الكلي الواسع وحده كفيل بتوضيح

التناقض الظاهري الأساسي في الوضع الإنساني بطريقة تُرضي العقل، والحدْس والتجربة.

إن إلقاء الضوء على طبيعة الحرية الحقيقية منوط بإلقاء الضوء على طبيعة الإنسان الحقيقية. وإن استنارة الإنسان سبيل إلى استنارة كل مفهوم إنساني.

4ـ مناظرة بين العقل والدماغ:

لا يزال الفلاسفة والمفكرون منقسمين حول قضية طبيعة الإنسان. فالفلسفة المادية، التي تجاوزتها الفيزياء الحديثة، تنظر إلى العقل والوعي بأنهما نتاجان من نتائج حركات الجسم الإنساني أو تفاعله الكيميائي. والثيوصوفيا، وهي حكمة يأخذ بها عدد كبير من العلماء البارزين، ترفض هذا التصور التقليصي للإنسان لأنها تعتبره، عوضاً عن ذلك، كائناً روحياً يعصى الشرح والتفسير وفق المصطلحات المادية وحدها. أما الفلسفات الأخرى، فتقف من هاتين النظريتين المختلفتين اختلافاً جذرياً موقف الحائر. فهي تميل إلى اعتناق المبدأ القائل بروحانية الكيان الإنساني، على الرغم من أنها لا تقتنع قناعة تامة بتمايز العقل عن الدماغ المادي.

إن إخضاع التعقيد الإنساني وتفسير دوافعه، واختياراته، وأفكاره، وأبعاده الاجتماعية والخلقية، إن لم تكن الروحية، في ضوء الكيمياء وحدها، يعني تقليصه إلى آلة ذاتية الحركة ومبرمجة. ويعني مثل هذا التقليص للثقافة، والتدريب المهني، والعلاج الطبي النفسي، وعلم الجريمة، وقانون العقوبات وغيرها حماقة كبرى. ويتضمن مثل هذا التقليص معنى آخر يشير إلى تفاهة الفكرة التي تشير إلى أن الكيمياء تولِّد أو تنشئ الوعي. والحقيقة هي أن الوعي، كما برهن الكثيرون، عملية عضوية وظيفية ذات طبيعة مادية ونفسية ـ مادية. وتقوّض هذه العملية الفكرة التي تشير إلى وجود كون فيزيقي بحت.

في هذا الصدد، نورد النتائج الفكرية التي توصلت إليها مجموعة من العلماء المميزين الذين كرسوا أنفسهم لدراسة الجدل القائم بين العقل والدماغ. ونقرأ في كتاب «في البدء كان الوعي» الفقرة التالية:

«يقف الكثير من العلماء البارزين، الذين ينادون بثنائية العقل ـ الدماغ، موقف الرفض إزاء وجهة النظر التقليصية التي تنفي كل شيء خلافاً للدماغ. فهم يستخلصون وجود عقل غير فيزيقي من ظاهرات التنويم المغنطيسي ومعالجة الأمراض

العقلية إلخ. ويعترف المتأمل وفق طريقة زن البوذية، والمتأمل الترانسندنتالي أن العقل يهيمن على الدماغ وأجزاء الجسد كلها، بما فيها وظائفه اللاّ إرادية أو التلقائية. وتتأكد هذه الحقيقة إذ نعلم بأنه يمكننا الكشف وإقامة الدليل عن طريق التحكم بطرائق بارعة تظهر كيف يكون الجسد في وضع أو حالة استثنائية تتصف بالاسترخاء العميق. وتلزمنا طريقة التفكير الحديثة المطبقة في نطاق وفهم اللغة على الاعتراف بوجود كيان واعٍ في الإنسان يسمو على الدماغ».

إن التعمق في دراسة القدرات والاستعدادات الخارقة التي تدل على إمكانية الحصول على معلومات من دون الاستفادة أو الاعتماد على التلامس والتماس الحسّي دليل على أن الدماغ ليس عضونا الوحيد الذي نعتمد عليه للحصول على المعرفة. وإذا كان الأمر كذلك، فإن وجود مثال غير فيزيقي للوعي حقيقة تدعمها القدرات الخارقة.

تؤكد الثيوصوفيا وجود عقل غير فيزيقي متميز عن الدماغ. وعلاوة على هذا، تُثبت وجود مستويات حاذقة لطيفة، أو فوق فيزيقية، أو فوق حسّية للكيان تسمح بتحقيق تلك القدرات وتفسير الاستعدادات الخارقة التي تشتمل، فيما تشتمل، على قدرات الإنسان النفسية، التي ما زالت كامنة ومستترة، وعلى إدراكه الروحي والحدْسي. وهكذا، يُشاهَد الدماغ ويُدرك، ليس بوصفه مولداً أو مُنشئاً للظاهرات العقلية، بل بوصفه أداة أو واسطة يُستفاد منها في تجميع الاهتزازات القادمة من سُبُل حسية مختلفة من جهة، وفي إنزال أنواع عديدة من الطاقات، التي تستخدم الدماغ في العوالم العليا الفوق فيزيقية، إلى الوعي الفيزيقي. وهكذا، يعد الدماغ مجرد حجاب - شاشة - تُسقط عليه ظاهرات العوالم المختلفة ظلالها. وعندئذٍ، يقوم العقل بدوره المتمثل في تثبيت أو توثيق المعنى المتضمن فيها.

يؤسفنا القول بأن العلم، لخطأ ناشئ عن إهمال، يعتبر العقل والتفكير معطيين يقفان خلف الظاهرات المادية التي يحقق فيها أو يستقصي أسبابها - إن نتيجة هذا التحقيق أو البحث خطأ ناشئ عن إهمال يشير إلى أن العلم لا يُقحم دراسة الذكاء أو الوعي في دائرة اختصاصه.

تكشف الدراسة المعمقة عن أن المادة ذاتها تسلك بطريقة تبدو فيها وكأنها تمتلك ذكاء أو أن الذكاء لا ينفصل عنها. وتعتمد هذه الدراسة على اكتشافات الفيزياء الحديثة في تبيانها أن المادة، في مستواها الجوهري، تحتوي على مراكز دوّامية معقدة وسط حقل قوة، لا يمنح استقرارها وثباتها أية صلابة مادية بل نوعاً

من أنواع الصلابة الناشئة عن علاقة الجاذبية المتبادلة بين هذه المراكز.

فيما يلي تصريح خارق للفيزيائي البريطاني سير جيمس جينز نقتطفه لأنه مفعم بالحجة: «ثمة اتفاق كبير، في وقتنا الحاضر، يبلغ في الجانب الفيزيائي من العلم حد الإجماع تقريباً. ويعبر هذا الاتفاق عن أن تيار المعرفة يتجه، في دفقه، إلى الحقيقة اللاّ مكانيكية. فالكون، وفق هذه الحقيقة، يبدو على صورة فكرة عظمى أكثر منه آلة كبرى. ولم يعد العقل يظهر على شكل متطفل عرضي، غير جوهري، يدخل مملكة المادة. وقد بدأنا نعتقد أنه يجب علينا أن نمجده بوصفه خالق وحاكم مملكة المادة».

تنحو نتائج البحث العلمي إلى توطيد أسس العقيدة السرية القديمة في ما يتعلق بالوعي، أو الروح، وعلاقته أو علاقتها بالمادة. أما الثيوصوفيا، فإنها تنظر إلى الروح والمادة ـ والمادة في هذا السياق هي المادة ـ الطاقة الفيزيقية والفوق فيزيقية ـ بأنهما معْلمان متكاملان غير منفصلين للظاهرات كلها، المرئية وغير المرئية، المستترة وغير المستترة.

تعترف الثيوصوفيا أيضاً أن الوعي أو الروح هو المعطى الأولي المنبث في كل مكان، وأن التفاعل بين هذين المبدأين المتقابلين، المادة والروح، يتمثل بالحياة. ويتم هذا التفاعل على ما يسمى بالمستوى اللاّ حي وعلى مستوى النبات، والحيوان والحياة الإنسانية، الأمر الذي لا يتيح لنا مجال التفكير بوجود مادة ميتة، لا حية.

تتماثل فكرة أو تصور الجزيء ـ الموجة التي تعد مفهوماً أساسياً للفيزياء الكوانتية، تماثلاً تاماً مع فكرة وحدة الضدّين، المادة والروح. ولا يضيرنا أن نوضح مفهوم الموجة ـ الجزيء لمن ليسوا على دراية وافية به. فقد وُجد الإلكترون ـ وهو نموذج من نماذج الجزيء دون الجوهري ـ يسلك سلوك الجزيء، كما اكتُشف أن الإلكترونات، في ظروف أخرى، تسلك سلوك حزم من الأشكال الموجية. لذا، كان الإلكترون جسيماً وموجة في آن واحد. ولقد صنف الفيزيائي بور هذه الحالة تحت مبدأ التكاملية. ونتيجة لهذا، يكون الإلكترون مادة في مظهره الكروي أو الجسيمي كما يتكيّف وفق نموذج الفعل أو العملية العضوية أو علاقته مع كل ما يحيط به وهو مظهره الخارجي. ويصف الفيزيائي هايزنبرغ الوضع في الأسلوب التالي: «يُستفاد من مفهوم التكاملية في وصف حالة تمكننا من مشاهدة حادثة واحدة من خلال إطارين مختلفين صالحين كمرجعين أو سندين. ويستثني كل واحد من هذين الإطارين الآخر على نحو متبادل. لكن وجود الواحد منهما بجانب الآخر، أو تجاوز أحدهما الآخر

تجاوزاً ناشئاً عن هذا الوجود، يزودنا بنظرة كاملة شاملة لظهور أو لهيئة الظاهرة».

لن يكون بوسعنا التعمق في فهم العقيدة المتافيزيائية المتصلة بالروح والمادة إلاّ في القسم التالي من هذا البحث.

إذا كان الأمر كما هو مفسَّر أعلاه، فإن قضيتنا تقتصر على السؤال التالي: كيف يمكننا التصريح بأن ذرة من الرمل مفعمة بالحياة، ونُنكر هذه الحياة على الإنسان ذاته؟ ألا يتلاءم الإنسان مع كلية الحياة في الكون ويتجاوز حدود مادته؟ ولئن اعترفنا بمادية الجسد ـ علماً بأننا أشرنا بامتلاء كل جزيء مادي فيه بالذكاء والوعي الذي يتخلله ـ فلن نتورع عن الاعتراف أيضاً بأن الجسد أداة نقل للإنسان الحقيقي الذي يحيا فيه. إذن، فالواقع البديهي، حتى ولو كان مستعصياً على البرهان، هو واقع وعينا الخاص. فقد يكون وعياً مشروطاً، لكن مثل هذا الأمر قضية ثانوية تعتمد على واقع حقيقي هو أننا كائنات واعية وذكية.

مع ذلك، فما زلنا قاصرين عن تمثل الفكرة التي تعني أن الإنسان يُقاس بحريته الداخلية على نحو مادي. ولا يمنعنا هذا التصوّر عن أن نضع، إلى جانب البحث السابق، النقاش الدائر حول الحتمية السببية. وإن الانتماء إلى وجهة النظر المادية المستهلكة، لا يفيدنا في القول إن الإنسان مجرد تجميع أشياء مادية وعمليات عضوية. ويلاحَظ أيضاً أن سلوك الإنسان نتاج قراراته الحرة التي تشير إلى أنه كائن يقرر مصيره بإرادته وليس مجرد شيء محكوم ـ شيء يكشف بسلوكه عن أنه حصيلة أوضاع وحالات كائنة الآن. فالإنسان، في كيانه، حادث وليس وسيلة.

5ـ الوضع الكلي الشامل:

إنه لأمر يدعو إلى الغبطة، ونحن نحيا أيامنا هذه، أن نسجل اهتماماً متزايداً، ولو كان بطيئاً، بمبدأ الفعاليات العضوية الوظيفية للكل في زمان تسود فيه التجزئة والتقسيم والتحيز في النطاق الفكري، والعوامل التي تسبب الخلاف والشقاق في العلاقات الاجتماعية والاجتماعية المتداخلة. وإنه لجدير بالذكر أن تتسلّل كلمة «كلّي» إلى لغتنا انطلاقاً من عام 1926 حين وضع جـ.س. سْمط كتابه «المذهب الكلّي والتطور». وبالفعل، تُستخدم هذه الكلمة، على نحو شائع في عصرنا الحاضر، في حال ارتباطها ببعض الطرق غير التقليدية في نطاق الطب، والطب النفسي، وعلم

النفس، والثقافة، والتنظيم الاجتماعي إلخ. وثمة اهتمام يعادل الاهتمام السابق، إن لم يكن يتجاوزه، في نطاق العلوم ينصب على الكليّات. وكما يبدو، فقد بلغت العلوم الاجتماعية والطبيعية مرحلة حاسمة جعلها تلتقي عند نقطة لقاء في بحوثها، وتقف من مشكلة الكلّيات موقفاً يستحيل فيه الاستغناء عنه.

أما الفيزياء، وهي أكثر العلوم الدقيقة جدارة بالاعتماد والقبول، فقد عانت من تبدل، أقل ما يقال عنه، إنه ثوري في أساسه. فقد بلغت، في تبدلها، مستوى بدا العالم لها منظومة من مكونات أو عناصر أساسية لا منفصلة، ومتوافقة ودائمة الحركة، يقف الإنسان منها موقف الجزء الذي يتكامل مع هذه المنظومة. يقول الفيزيائي فريتجوف كابرا: «عندما نتوغل إلى أعماق المادة، لا تكشف لنا الطبيعة عن «كتل بناء أساسية». وعلى غير ذلك، تظهر وكأنها نسيج معقد من العلاقات بين الأقسام المتنوعة للكل. وتشتمل هذه العلاقات على الملاحِظ، وهو الإنسان».

يتكلم عالم البيولوجيا الرائد، لودفيغ فون برتولانفي، عن هذا الوضع كما يلي: «أظهرت التجربة أن انعزال الأجزاء والتتابعات السببية ومحصّلها وتطابقها تتقدم بجهد على نحو واسع. لكن علوم العصر الحديث تواجهنا بمعضلات من نوع أشد صعوبة. فها هي ذي الكليات، والمنظومات والتفاعلات المتداخلة والمتبادلة التي تعود لعناصر كثيرة، والعمليات العضوية الوظيفية، والتنظيمات... تواجهنا... دون أخذ التعبير الذي نختاره بعين الاعتبار. وليست هذه الكليات، في جوهرها، جمعية وإضافية، وبالتالي، لا نستطيع أن نعالجها على نحو وافٍ بالطرق التحليلية. ويظهر عجزنا عندما نحاول تجزئتها إلى عناصر تقبل الانعزال، وصياغتها في تسلسلات سببية. ولدى مقارنتها بطريقة الفهم والمعالجة التي اتبعها العلم الكلاسيكي، نجد أنها تتطلب تصورات، وأنماطاً وطرائق جديدة ـ إن كانت المشكلة هي مشكلة نواة جوهرية، منظومة حية أو منظمة عمل. ففي التصور الجديد يحل التفاعل الداخلي المتبادل محل السببية الخطّية، ويحل التعقيد المنظم محل تجميع الأحداث الإحصائية غير الموجهة ـ وتحدد هذه الأمور المعضلات الجديدة».

6ـ التسلسل الرتبي للأحداث:

إذا كان ما نشاهده في الطبيعة العضوية الحية واللا حيّة ـ اللا عضوية ـ، أو في وحدة اجتماعية كلاً، أو كان ما نسمعه في إبداع جمالي، مثل السمفونية، كلاً، لكننا، مع ذلك، لا نستطيع أن نقول عن الكل بأنه مجرد تجمع أو ترتيب للأجزاء.

فالكل يختلف عن أجزائه، وهو أعظم من مجموعها أو أكثر من حصيلتها. وقد يتبين لنا ما نقوله في المثل التالي: يختلف جزيء من الماء عن العنصرين اللذين يتألف منهما ظاهرياً، وهما ذرتا هيدروجين وذرة أوكسجين. والحقيقة تشير إلى أن مركبات الجزيء المتنوعة تلتحم أو تتماسك ضمن الكل، مؤلفة بذلك وحدة ـ في ـ تنوع ديناميكية. لذا، قد يكون اختصاص الأجزاء ضخماً، كما هي الحال في خلايا حيوان أو في امتزاج الحياة النباتية والحيوانية في نطاق التفاعل الكلي. ومع ذلك، تتعاون الأجزاء على نحو إرادي أو لا إرادي، في سبيل تحقيق أهداف الكل. ففي حالة كلية، يكشف كل شيء عن كلّ، مستقل، متساوق وذاتي التوكيد، كما يكشف عن جزء ثانوي، تابع. إذن، فالوضع الكلي يتميز بمنظومات أو مجموعات ديناميكية تتفاعل على نحو متبادل ضمن منظومة ديناميكية: وقد توصف بأنها سلسلة متدرجة من مستويات التنظيم. وعلى سبيل المثال، لو أخذنا حالة المادة الأرضية لوجدنا المستويات على النحو التالي: الدقائق الأساسية، الجواهر، المركبات، المتعضيات الصغيرة، الخلايا، ـ وهي الخط الفاصل بين المادة «الحية» و«اللا ـ حية» ـ بحسب اللغة الاتفاقية ـ النسيج، الأعضاء، المنظومات العضوية، المتعضيات، الكائنات الحية، المجموعات، الجماعات والبيوسفير أي النطاق الحي.

وكما توضح كتب البيولوجيا، يتزايد عدد الوحدات المؤلفة في كل مستوى من هذه المستويات، كما يزداد التعقيد البنيوي، وحجم الوحدات، والطاقة المطلوبة، والترتيب أو النظام ولا استقرار الوحدات. وعلى هذا الأساس، تشكل المستويات هرماً أو تسلسلاً رتبياً متدرجاً، يمكن تعريفه بأنه تسلسل رتبي متدرج من المخلوقات الذكية أو الأسباب الفعّالة. لكن البيولوجيا التقليدية لا توافق على هذا التعريف. ويشتمل كل مستوى من هذه المستويات، في ذاته، على المستويات الأدنى كلها بوصفها عناصر أساسية، الأمر الذي يجعل من هذا المستوى ذاته عنصراً أساسياً للمستويات العليا كلها. وعلى سبيل المثال، تحتوي الجواهر دقائق دون جوهرية هي عناصر أساسية تركّبها أو تكوّنها، وتكون هي ذاتها عناصر أساسية تؤلف المركبات الكيميائية.

يبدو لنا أن ذكاء أو وعياً مستتراً يَمثل على نحو كوني كلّي في الطبيعة. والواقع أن البيولوجيا التقليدية لا تشغل بالها، في الوقت الحاضر، بهذه الفكرة. ولكننا، نستبق الزمان ونقول بأنها ستبدل موقفها، عاجلاً أم آجلاً، في هذا الشأن. ويُعد هذا الذكاء الوعي الذي يعرف ما يفعل ويدرك كيف يتصرف، ويعي الغاية

التي يسعى إلى إنجازها والوسائل المطلوبة في كل مرحلة. وعلاوة على هذا، يندمج هذا الوعي مع إرادته في كل مكان في الطبيعة والإنسان. وتتجلى حقيقة هي أن السبب الأقل شأناً يسلك دائماً ضمن الحدود التي يعيِّن حدودها السبب الأعظم شأناً.

7ـ الوحدة ـ في ـ التنوع:

يتمثل سبيلنا في اتخاذ الجسد الإنساني نموذجاً نسعى إلى تبيانه. فالإنسان الفرد كلٌّ وجزء من كلٍ أعظم وأشمل. ويتشكل الكل من الجسد الفيزيقي ـ مع عناصره الأساسية التحتية أو الفرعية: الخلايا، الأنسجة، الأعضاء. إلخ ـ ومن النفس ـ مع مستويات وعيها العديدة ـ علماً بأن الجسد والنفس ينسجمان في اتكال متبادل وتوافق. ويقف هذا الكل، من خلال الجسد الفيزيقي، موقف الجزء المتكامل في البيوسفير، وفي النطاق العام المشترك للأفكار والمشاعر من خلال النفس. وهكذا، يسهم كل فرد، على نحو محتوم، في أن يكون متوافقاً مع وخاضعاً للنطاق العام المشترك للأفكار والقيم، ولنتائجها في العالم الخارجي. وعلى هذا الأساس، يُعد الإنسان وحدة ـ في ـ تنوع.

إن ما نجده في وحدة ـ في ـ تنوع الإنسان نجده حقيقياً أيضاً في نطاق المعرفة. وبمقتضى هذه الحقيقة، تجابه النظم المنهجية بعضها، وتتداخل مع بعضها. وهذا الأمر نراه واضحاً في الحقول المتشابكة المتداخلة مثل الجيوفيزياء، والجيوكيمياء، والطب النفسي العقلي، والاقتصاد الاجتماعي والإيكولوجيا. وبالمثل، تكشف الإدراكات البشرية الحدْسية والروحية عن وحدة ـ في ـ تنوع. ويبدو هذا جلياً في القواسم المشتركة للديانات الرئيسة، وفي الدعوة الشاملة التي نجدها في تضاعيف روائع الأدب والموسيقا والفن.

يتجلى مبدأ الوحدة ـ في ـ التنوع في الشؤون البشرية العامة على كوكبنا. فالتعليم القديم الذي أشار علينا أن نكون حرّاس إخواننا والحافظين لوجودهم، يكرر ذاته في أيامنا هذه، نتيجة لتطورات لم يوجد لها مثيل، تمثلت في تقدم وانتشار التصنيع الذي لم يُعترف به على المستوى الشعوري. وإن أنواع التلازم في حقل التصنيع ـ تطوير واستغلال الموارد الطبيعية استغلالاً وتطويراً مكثفين، والتجارة المكثفة، والأسفار الجماعية والمواصلات ـ قلّصت حجم الكوكب. وقد صرّحت مارغريت ميد، عالمة الأنثروبولوجيا، بما يلي: «ضاعفت تكنولوجيتنا حجم الوحدات المتوافقة والمتكلة على بعضها على نحو تبادلي إلى حدٍ شمل الكوكب كله».

ومن خلال النتائج الدرامية، المأساوية في غالبيتها، تبين لنا أن إسهاماتنا وأفكارنا في أي حقل من حقول الحياة تؤثر، عاجلاً أم آجلاً، في الحقول الأخرى في مناطق أخرى من العالم. لذلك، تستدعي ضرورة معالجة المعضلات العامة المشتركة على نحو تعاوني إقامة منظمات دولية ووكالات اختصاصية. ولقد أصبح السلام والأمن، وحقوق الإنسان والقضايا الاقتصادية والاجتماعية كلها ـ إنتاج الغذاء وتوزيعه، العمل، الصحة، الثقافة، ضبط النسل، تطوير الموارد الطبيعية وتنميتها، ضبط التلوث، الطيران المدني، تطوير وتنمية موارد المحيط، الفضاء الخارجي إلخ ـ نطاقات عالمية لا تتجزأ.

8ـ النظريات الهولوغرافية ـ الكلية:

بقي علينا أن نذكر خاصة مميزة من خصائص الكليات. ففي أمثلة عديدة وهنيهات كثيرة، كشفت لنا الخبرة عن إمكان الجزء وقدرته على تقديم معلومات تتعلق بالكل. وهذا يعني أن المعلومات الهامة الأساسية التي تتصل بالكل هي معلومات محوّلة إلى رموز، ومدوّنة في كل جزء لأنه يستقيها من مصدرها. وعلى سبيل المثال، تزودنا خلية نعزلها عن الجسم المادي بمعلومات عن حالة الفرد الصحية.

تُعد النظريات الهولوغرافية ـ الكلية الحديثة التي تطرح قضية الدماغ والكون هامة وممتعة من هذه الناحية. ويقال إن ما أحرزته هذه النظريات من تقدم يعود إلى اختراع أو اكتشاف الهولوغرام[1] الذي تم بناؤه في عام 1965. وقد وجد فيه عالم الأعصاب كارل بريبرام أنموذجاً عظيماً للعمليات الدماغية، العضوية الوظيفية. كما وأن دافيد بوم، الفيزيائي الشهير، تأثر بالهولوغرام، وتأمل وبحث طبيعة الكون الهولوغرافية. وعندما علم الواحد منهما بالآخر، أي بالأبحاث المستقلة التي يجريها الآخر، تعاون العالمان وصاغا، على نحو واقعي، نظريتيهما الوثيقتي الصلة اللتين تقران، في جوهرهما، بأن الدماغ هولوغرام يفسر كوناً هولوغرافياً ـ كلياً. وقد هللت الدوائر التي تأخذ بمبدأ النظام المتداخل لهذه النتيجة الرائعة واعتبرتها مثالاً يستطيع أن يجعل من العلم والفلسفة والدين حقولاً متكاملة. وإذا كان الأمر كذلك،

---

[1] ـ هو جهاز فوتوغرافي قادر على إنتاج سجل فوتوغرافي يزودنا بالصورة الفوتوغرافية الكلية من أي جزء معين من السجل.

فيكون العلم قد اكتشف، بطريقته الخاصة، الإدراك السري القديم. الذي مثله الشاعر وليم بلاك بصورته المصغّرة في الأبيات التالية:

... أن ترى العالم في حبة رمل،

والسماء في زهرة برية،

وتحمل اللا نهاية في راحة يدك

وتضبط الأبدية في ساعة من الزمن

يحق لنا أن نتساءل: ما هو المبدأ الكلي؟ هل هو مجرد نظرية، منظومة أو فرضية؟

إذا كنا نسعى إلى جواب شافٍ، فعلينا العودة إلى تلك الإجابة التي قدمها تيارده شاردان عن السؤال الذي طرحه عندما أراد فهم حقيقة التطور. ويعد الجواب الذي زودنا به، والتأكد الذي خصه به، ملائماً للمبدأ الكلي. إذن فمبدأ الكل، مثله مثل التطور، هو حالة شاملة تنحني أمامها النظريات والمنظومات والفرضيات. وجدير بالذكر أن الدفاع لن يكون ممكناً عن هذه النظريات والمنظومات والفرضيات مالم تكن متوافقة مع مبدأ الكل. وهكذا، يكون المبدأ الكلي، مثل التطور، نوراً يضيء الوقائع كلها. وحالة تخضع له الحيوات كلها.

ثمة يقين تعتمده الثيوصوفيا، وتسبغ عليه المعطيات التجريبية قيمة كبرى. إذ تؤكد أن الكون وحدة تترابط فيه الظاهرات كلها، وحدة حية يتشابك فيها الكل ويتصل اتصالاً داخلياً عضوياً وديناميكياً. ولما كانت هذه النظرية موجهة إلى الكوزمولوجيا ونشأة الكون، فإن الضرورة تقتضي، وقد بلغنا هذه المرحلة من البحث، أن نوجز مبادئ نشأة الكون وبنيته العامة وفق ما بسطته العقيدة السرية:

تعلّم هذه العقيدة أن كوننا واحد من سلسلة لا نهائية من الأكوان التي تظهر وتختفي مثل مد وجزر منتظمين من الدفق والانحسار. فالكون، وفق هذه العقيدة، سلسلة لا بداية لها ولا نهاية. وكل كون ينبثق أو يصدر عن الحقيقة الواحدة السامية ويرتد إليها؛ أو ينسحب إليها في النهاية بعد أن يكشف عن ذاته وينفتح إلى الحقيقة. وهكذا، يكون كل كون كياناً حياً وعلة علل تحكمان حقله الخاص. والكون، في معْلمه الحياتي أو الذاتي، يدعى اللوغوس؛ ويُدرك اللوغوس بأنه مصدر أو ينبوع أو منشأ أو مولّد النور والحياة والوعي. ويمكننا أن نعتبره قانون العمليات العضوية الوظيفية العالمية، أو العقل الإلهي، أو الكلمة التي كان بها كل شيء:

العقل القدسي أو الحكمة القدسية. وهكذا، يمكننا القول: إن اللوغوس يعمل داخل وخارج كل كيان فردي ووحدة. إذن، فكلّ فرد، وكل نموذج، وكل نوع يحمل داخل ذاته نمطه الخاص الذي يحدد تطوره وكماله النهائي وميزته الفردية. والحق يقال إن هذه العناصر كلها عناصر لوغوس واحد، وصدورات عن الوحدة السامية. إذن، هنالك وحدة كلية الانبثاث تتخلل التنوع ــ في ــ الوحدة أو الكثرة ــ في ــ الوحدة. وكما سيكشف لنا البحث، يتألف اللوغوس من العوالم السبعة التي تتميز عنه، إنما لا تنفصل عنه. فهي ظهورات أو تجليات هذا اللوغوس، وتظهر متزامنة معه، بحيث أنها تمثل سراً ندركه بالحدْس وبالبصيرة الروحية.

9ـ النشوء التصاعدي:

يمثل تتابع الأكوان أو اللوغوسات، في علاقة الواحد منها بالآخر، تتابع العلّة والمعلول. ويعد «قانون القوانين» الفعل ـ القوة الذي يدفع بهذه العملية إلى الأمام أو يسيّرها. ويُحدث «قانون القوانين» على الدوام حالات جديدة تتيح، بدورها، الفرصة لتراكم أو تجمع متواصل للتجربة. فحصاد المعلومات المتراكمة من أكوان سابقة متاح ومتوافر لأنه قائم في صميم ملايين الحيوات والوجودات التي تتوازى في تطورها مع اللوغوس ذاته. فالعملية كلها تتمثل في المحافظة أو الإبقاء على التجربة والخبرة، وتعقيد الأشكال، وتطوير الوعي، وتكون قابلة للتطبيق على مستويات الظهورات وأنواع التجليات كلها.

يبدأ كل لوغوس متعاقب، بواسطة التطور المُنجز على هذا النحو، تجسده عند نقطة عليا من نقاط اللولب التطوري. وفي هذا الصدد، تعلمنا العقيدة السرية النشوء أو التطور الصاعد أو التصاعدي والمتقدم لكل شيء، لكل العوامل والجواهر. وتعلن هيلينا بلافاتسكي أن هذا التطور المذهل لا تُدرك بدايته، فتعصى على التصّور، ولا تُدرك نهايته، فتعصى على التخيل.

في كتاباتها، تكرر بلافاتسكي قولها بأن الظاهرات الطبيعية تبوح لنا بأسرار العقيدة السرية. ففي الطبيعة، نجد تناظراً لمبدأ الكثير المنبثق من الواحد والعائد إليه: ينطلق كل نبات وحيوان على هيئة خلية واحدة. وتنبثق من هذه الخلية ملايين الخلايا التي تتشكل في أنسجة وأعضاء، وتتحد كلها لتشيد المتعضية الكاملة. وتتوضح العملية المعكوسة عندما ينحل أو يتفسخ شكل بالغ بحيث يتضمن من جديد في خلية، ويحمل معنى وجوده ـ إنه ينطوي في الخلية الجرثومية.

يقترح علم نشأة الكون، كما هو معروف في كتاب «العقيدة السرية»، ثلاثة أمور:

1ـ وجود خطة شاملة وكلية، هي مخطط متماسك ومترابط انبثق منه الظهور أو التجلّي.

2ـ الحيوات التي تؤلف الكون تقيم مع بعضها علاقات متداخلة على نحو ديناميكي.

3ـ الحيوات كلها تتطور وفق نمو تصاعدي باتجاه وعي أعظم وأسمى.

10 ـ الوعي أساسي وأولي:

يجدر بنا، قبل متابعة حديثنا، أن نطرح على أنفسنا السؤال التالي: كيف تتوافق هذه الأفكار مع وجهات النظر العلمية في الوقت الحاضر؟ وفي سبيل الإيضاح، يجب علينا عرض وجهة النظر العلمية قبل كل شيء. وبشكل عام، يُنكر العلم كل فكرة أو تصور يرى خطة وقصداً خلف الظهور أو التجلي، الأمر الذي يجعله:

آ ـ يرفض نشوء الكون من حركة ناشئة عن الوعي.

ب ـ يعتبر نشوء الكون نتيجة لمتتالية من المصادفات والأفعال وردود الأفعال العشوائية.

تبني وجهة النظر الثنائية قاعدتها على مقدمة مادية تفترض وجود الطاقة والمادة في الكون، وتُغفل أي شيء آخر ـ تتجه الفيزياء الحديثة إلى دحض هذا الزعم ـ وتؤكد أسبقية المادة وثانوية الوعي الناشئ عنها بطريقة ما. لكن هذا المعتقد يتعذر الدفاع عنه وفق ما جاء في بحث الخلاف القائم بين العقل والدماغ. فالعلم، وإن كان يعترف بعملية عضوية تطورية، يسلم بأولوية المادة على العقل في نشوء وتطور الأنواع. أما العقيدة السرية، فإنها تقف من هذا التسليم أو الافتراض موقفاً مغايراً. وفي هذا المجال، يهمنا أن نعلم أن علم البيولوجيا وعلوم الحياة الأخرى تختبر الآن صعوبة متزايدة في معالجتها للفرضية المادية. وقد بدأت هذه العلوم تقتنع، وهي تعالج الوضع وفق أسس أو قواعد تجريبية اختبارية صرف، بأولوية الوعي وأسبقيته.

إن معرفة هذه النتيجة التي توصل إليها العلم لا تحول دون تساؤلنا عن الموقف الذي تتخذه الفلسفة إزاء الوعي في الكون. ويتجلى هذا السؤال في إدراكنا أن الآراء الفلسفية تتباين وتنقسم حول هذه القضية الأساسية، تماماً كما تتنازع في

القضايا الجوهرية المطلقة. فهنالك العديد من المدارس الفلسفية التي تسلم بالتعدد فيما يتعلق بنشأة الكون، وتنزع إلى الإنتقاص من قدْر المقدمة المنطقية التي توجهنا إلى الاعتراف بحقيقة مطلقة سامية، وتتحفظ من الانغماس في المناقشات المتافيزيائية لأنها تعتبرها مناقشات غير منطقية أو غير ذي صلة بالموضوع، وبالتالي عديمة الأهمية، إن لم تكن عقيمة.

قبل أن نختم بحثنا عن أسبقية الوعي، يجب علينا التعريف بالخطة الواسعة الكلية التي يصعب تصورها: هي تفتح إيقاعي، متواتر، متناغم، متناسق وديناميكي، يمكننا تشبيهه بتتالي الحركات الديناميكية والمحتومة على نحو مُلزم في سيمفونية عظيمة.

11ـ الانفتاح أو الكشف السباعي:

تعلمنا العقيدة السرية أن انفتاح نظامنا الشمسي سباعي في طبيعته. أما رقم سبعة فهو العدد الكامل للاتحادات والمجموعات المؤتلفة والتبدلات الأساسية التي يمكن إجراؤها ضمن الرقم ثلاثة الذي يشتمل على الروح والمادة والعلاقة المتداخلة والمتبادلة بينهما التي هي الحياة. وتتراءى لنا هذه الحقيقة في الكلمات البليغة التي عبّر بها كرشنا برم ومادهافا آشيش: «يتمثل جوهر الفعل الإبداعي في انفصالية الذاتية الفاعلة والموضوعية من الوحدة الأولية. ونتيجة لذلك، تنبثق الذات واللاّ ذات إلى الكينونة، إنما ليس في كينونة مستقلة: وذلك لأن الواحدة منهما ترتبط بالأخرى بوحدة تشكل كلتاهما معْلمين قطبيين أو محورين لها. والرباط الذي يجمع بينهما أو يوحدهما هو القدرة التي يفعل بواسطتها الكون كله... وهكذا، تتشكل لدينا عناصر ثلاثة: الذات، اللاّ ذات، والقدرة. وتحرك هذه الثلاثة نسيج الكون».

تشكل الثلاثة والسبعة المبدأ الأساسي وعلة التنظيم السباعي المتناغم للطاقات أو القدرات اللوغوسية ـ يذكرنا هذا بالألوان السبعة للطيف المرئي، والنوتات السبع للسلم الموسيقي، والشهرة التي اكتسبها الرقم سبعة في الديانات العالمية الرئيسة والفلسفات والأساطير الدينية. وتتفاعل السبعة لتُخرج إلى حيز الوجود المستويات السبعة، وحالات الوعي السبع ـ الموجودة على نحو متماثل في الطبيعة والإنسان. وتؤلف السبعة إرادة اللوغوسات إذ تنقل أو ترسل الإرادة اللوغوسية إلى كل الكينونات والكيانات في الأكوان. ويمكننا اعتبارها كينونات سبعاً عظمى تطورت في أكوان سابقة. وكما عبر ألفرد تايلور: «تجتذب الفكر الإلهي اللاّمشخّص، أو العقل،

وتستفيد منه في استعمال معْلم إرادتهـا، وحكمتهـا والتصـور المثـالي وذلـك لكـي تبـدأ وتوطد تطور الكون». وهكذا، يمثل رقم سبعة الزواج الكونـي بـين رقـم ثلاثـة، الرمـز الروحي. ورقم أربعة، الرمز المادي.

نقرأ الآن ما جاء في كتاب برم وآشيش: «إن الكون البدئي هو الأبدية التي يُعد الزمان صورتها المتحركة... ومع ذلـك، ليـس هـو نسـخة وهميـة أو خياليـة لنمـوذج أحدثه مخطط جعل صورته المؤقتة أو الزمنية المؤقتة نسخة ثانوية وأقـل شـأناً. إنـه، بـالحري، السـلم السـباعي للنوتـات الموسـيقية الـتي تصـدر عنهـا الأفكـار الرئيسـة والألحان المتكررة مع بعض التغيير. وتآلف الألحان أي الإيقاعات والتوافقات... أمـا الكون الخارجي، فهو نسيج بُنى طاقية تتمثل في دفق ثانوي مـن الـذات، الـلا ذات والقدرة».

يضيف برم وآشيش: «هنالك جهاد غائي يسـعى إلى التعبـير عـن ذاتـه، نـراه مغروساً في كل جسيم حي ضمن نطاق وجودنا. وعندما نواجه ذلك المجد الكلي الذي يتسم به الانسجام الكلي، والدهشة التي تثيرهـا فينـا العمليـة العضويـة التطويريـة، والكمال التقريبي لدى الأشكال الطبيعية، نرى أنفسنا مضطرين إلى أن ننسب الغائيـة إلى القدرة التي أحدثتها»، هذه الغائية التي نجدها في نظرية دارون التطورية.

«إن نور الحقيقة السامية يضيء في العقل الكوني الكلي، كمـا يضـيء في عقـول البشر، وفي كل جزيء، أو جسيم من جسيمات المادة. إنه كامن فيها كمـا هـي فيـه. وإذا ما نظرنا إلى العالم، بطريقة معينة، رأينا الأشكال المتنوعة للكينونـة تـتراقص في نوره: وإذا ما نظرنا بطريقة أخرى، رأينا النور الكلي قائمـاً في الأشـكال. ولـولا هـذا التناقض الظاهري لتجاوزنا صعوبة فهم أنفسنا. ومـن أجـل تحقيـق اليقـين، يجـب علينا أولاً أن نقرر ما إذا كان الإنسان في جوهره شكلاً مادياً، أو نـور وعـي نقـي، أو مزيجاً من الاثنين».

12ـ السببية في الكون الهولستي ـ الكلي:

في هذا البحث الذي نخص به الكوزمولوجيـا، تـبرز ثلاثـة مبـادئ تتميـز عـن المبادئ الأخرى بجوهريتها: المبدأ الأول يشـير إلى أن الكـون واحـد. والمبـدأ الثـاني يشير إلى أن الكون كيان، والمبدأ الثالث يشير إلى أن الكون والكينونات الـتي يشـتمل عليها تتطور. ووفق هذه المبادئ، يكشف الكون المعرّف على هـذا النحـو عـن وحـدة تترابط وتتداخل فيها الظاهرات، بحسب مستويات ظهورها وتجلّيها، وتتفاعل علـى

نحو عضوي. وفي هذه الحالة، تشكل نسيجاً يتصف بعلاقات لا نهائية، هو نسيج حيك من خيوط جوهرين، ندعوهما المادة والروح، تآلفاً في جوهر واحد. ويتميز اتحادهما بالتواتر والديناميكية، كما يتصف بأنه «زواج متقد أو إلفة متقدة بين ضدين، تترك الجوهر في حالة توتر والروح الإنسانية في حالة قلق».

الكون حي تتخلله الطاقة الواعية في مستوياتها كلها. والمقصود من قولنا هذا، هو أن مضموناً نفسانياً يخترق الكون وينبث فيه. وفي هذا الصدد، يذكر برم وآشيش: «كل حركة هي ظهور أو تجلٍ لقدرة نفسانية حية، شبيهة بتلك القدرات التي تبدي التعاطف والإرادة وغيرهما عن طريق التخيل». والحق يقال إننا لا نجد أثراً للعلل المكانيكية أو للأحداث العشوائية التي تخضع للمصادفة في هذا السياق. وليس هذا إلا لأن كل طاقة (مادة - روح) هي طاقة واعية. وعلاوة على هذا، ليست السببية أمراً مشروطاً بالزمان، وذلك لأن إحداث أثر ملائم في الكون يقتضي دائماً وجود ترديدات متبادلة، وصلات أو تآلفات متبادلة، ومشاركات وجدانية أو تعاطفات متبادلة أو روابط متبادلة بين أجزائه، أو حيواته المختلفة. وتعد هذه المزايا جوهرية في طبيعة «النسيج» وملازمة لبنيته ونمطه. وبالإضافة إلى هذا، تعد حقيقة جوهرية لما هو «مكتوب في السموات». وصفة ملازمة للثلاثة والسبعة البدئيين، اللذين يُعتبران «القدرة الضابطة، المهيمنة، ليس على أحداث أي مستوى من المستويات، بل أيضاً على الارتباطات المتبادلة بين المستويات المختلفة. وهكذا، نرى كيف يكون الكون كله نسيجاً واحداً لقانون القوانين، ترتبط فيه الأحداث العقلية مع الأحداث المادية وتقيم علاقة متبادلة بينها».

وبالطبع، لا تنفرد الثيوصوفيا بفكرة وجود روابط أو علاقات غير منظورة بين الأشياء كلها. وحول هذا الأمر، يعلق آرثر كوستلر منبهاً إلى ما ذكره هيبوقريط عن وجود «تعاطف أو مشاركة وجدانية بين جميع الأشياء». ويضيف كوستلر: «ثمة دفق أو سيلان واحد مشترك بين جميع الأشياء، ونَفَس واحد مشترك، الأمر الذي يجعلنا نقر بأن الأشياء كلها تتعاطف وتتشارك». وبالفعل، نجد هذه الفكرة تتكرر في تعاليم الفيثاغورثيين، والأفلاطونيين المحدثين، وفي كتابات فلاسفة عصر النهضة. وليس من أمر آخر سوى هذا النظام الخفي يفسر الفنون السرية مثل الكيمياء القديمة وعلم النجوم وحدوث المطابقات والمصادفات المتزامنة التي تفيدنا بأنها توافقات. ويُمسك هذا النظام الخفي بالمفتاح الذي يفتح لنا باب الولوج إلى بواطن علوم تفسّر القدرات البشرية الخارقة مثل التلباثي والإشراق.

نعود من جديد إلى برم وآشيش لنقرأ عبارتهما المتعة التي تلقي، على نحو غير مباشر، ضوءاً على وجهة النظر المادية والحتمية السببية: «لولا وجود علاقة متبادلة كامنة في صميم كوكبنا، لما أمكننا تقليص أي واقع في الوجود، مادياً كان أم نفسياً، إلى علاقات مستواه المادية المشتركة. وإن من يصمم على اكتشاف علة كل شيء، على المستوى المادي وحده، يتمكن من أن يجد دائماً، ليس علته فحسب بل، على الأقل، مجموعة من العلاقات المتبادلة المادية التي تتكشف له ليقدم تفسيراً للظاهرة الخاصة. ومع ذلك، تعد الطريقة المضادة، وهي الطريقة التي تعيد الأحداث المادية إلى روابطها النفسانية وتفسرها في ضوئها، منهجاً أكثر أصالة وأقرب إلى الحقيقة. ولا يكون هذا صحيحاً لو لم تكن المستويات الدنيا تشتق من المستويات العليا. وانطلاقاً من هذه الحقيقة، يجب علينا أن نفسر الأحداث الخارجية كلها والخصائص الكاملة لبيئتنا المادية في ضوء أحداث نفسانية داخلية هي متلازماتها العليا... وبناء على هذا، تكون الأحداث النفسانية أوثق صلة من الأحداث المادية بالمصدر الذي ينبثق منه الكل، وتشارك على نحو أفضل في قدرته المبدعة».

خلاصة القول هي أن العملية العضوية الكونية هي تواتر أو تناغم كلّي الشمول، تجيز الاستقرار، وتتيح الفرصة للتبدل والتحول والتطور ـ عملية كونية ديناميكية، لكنها، مع ذلك، ثابتة في اتجاهها.

كما ذكرنا سابقاً، يعد قانون القوانين، الذي يدفع الكون ويحثه ويضبط العملية الكونية، القانون الأسمى للطبيعة.

أما اصطلاح «قانون القوانين» فيشير إلى الفعل أو العمل. وبالإضافة إلى هذا، يرمز هذا الاصطلاح إلى التفاعل بوصفه التوازن أو رد الفعل الملائم لأي فعل. وتعد عقيدة قانون القوانين المبدأ الأساسي في الثيوصوفيا والحكمة البوذية والهندوسية. ومن وجهة نظر الحكمة المذكورة، يفعل قانون القوانين ضمن مجال السلوك البشري، على مستوى الأفعال المادية، وفي نطاق القصد والنية والإرادة، كما يقوم بدوره النسبي فيتصل بالفعل الفردي والجماعي، أي الفعل الذي تقوم به الجماعات.

لا يستقيم الأمر إلا في اعتبار قانون العلة والمعلول، الذي يدركه العلم، جزءاً من قانون القوانين الأشمل.

علقت هيلينا بلافاتسكي على هذا الموضوع فذكرت أن عمل قانون القوانين وقوته عمق لا يمكن سبره حتى ولو كنا نشاهد قانون القوانين يعمل في كل مكان.

يصف الكاتب البوذي غارما تشانغ قانون القوانين في العبارة التالية: «عندما نعّبر عنه بالمقياس الكوزمولوجي يكون قانون القوانين، وهو قدرة ـ فعل، قوة مذهلة تسيّر الكون والحياة. وعندما نعبر عنه بالمعنى الخلقي، يكون قانون القوانين قانوناً لا مشخصاً يُحدث النظام الأخلاقي، ويُعفي من المكافآت الطبيعية ومن الثواب والعقاب. وعندما نعبر عنه بالمقياس المتافيزيائي، يكون قانون القوانين طاقة إبداعية تحدثها الأفعال الجماعية التي تعود لجماعات معينة. ويدعم قانون القوانين نظام ووظيفة كون خاص تقطنه هذه الجماعات. وأخيراً، يظل هذا القانون سراً ومعجزة تتملّص من إمكانيات الفهم البشري».

يجدر بنا أن نؤكد أن السببية هي في مفهومها النهائي سر. وهذا تأكيد شددت عليه هيلينا بلافاتسكي وكتّاب مرموقون آخرون اقتبسنا بعضاً من أقوالهم. وليس بالأمر السهل، أن نسعى إلى توضيح كامل في هذه الدراسة.

ثمة اقتناع ـ يبلغ حد الإدانة ـ لدى علماء النفس، يشير إلى أن التبدل في كل من النطاق النفسي والفيزيقي خاضع للقانون. ويشارك فلاسفة، أمثال كانْتْ وسبينوزا وشوبنهاور، علماء النفس اقتناعهم هذا. فنظرية كانْتْ التي صنّفت قانونين، لا قانوناً واحداً، وناصرت الحتمية السببية، تعلن صراحة أننا نحيا في عالمين مختلفين ونخضع، تبعاً لذلك، لنوعين مختلفين من السببية ـ الأفعال «العقلانية» والأفعال التي نفسرها على أساس من الأسباب «المكانيكية» مثل حركات الدماغ أو الجسد. ويصرّح شوبنهاور الذي، كما يقول آرثر كوستلر، ترك تأثيراً قاطعاً في كل من فرويد ويونغ، إذ قال: «إن حكام العالم ابتدعوا السببية الفيزيقية وجهلوا سببية أخرى هي في جوهرها حقيقة متافيزيائية، تُعرف بالوعي الكوني». ونجد عند سبينوزا وإينشتاين إيماناً راسخاً في التآلف والتناسق المتأصلين في الطبيعة والوعي أو الذكاء المتضمن فيها. وبالفعل، لم يتزعزع إيمان إينشتاين عندما أخفق في توطيد أساس موحد للفيزياء. ورفض إينشتاين القبول بالخلاصة التي توصلت إليها مكتشفات معينة في المكانيك الكوانتي بدت وكأنها تدل على وجود عشوائية في الطبيعة. ويُعتقد الآن أن إينشتاين أصاب الهدف عندما أنكر أن يقوم عمل الطبيعة على قاعدة عشوائية، إلا في حال وجود أسباب خاطئة».

بالإضافة إلى ما ذكرناه من نظريات، هنالك مدارس فكرية، مثل البراغماتية والفلسفة الإنسانية، تميّز بين أحداث يسودها القانون السببي، وأحداث مصادفة، وأحداث تقع خارج نطاق هيمنة القانون السببي. وإن بعض أنصار المصادفة ـ نذكر

وليم جيمس بشكل خاص - برروا الحرية وسوّغوها بالواقع عندما أوجدوا تطابقاً بينهما. لكن الفيلسوف كامبل يعارض تسوية الحرية بالمصادفة ويُحل محلها «الحرية المضادة للسببية» التي يميزها عن الأفعال التي، من حيث المبدأ، تحتمل التنبؤ المسبق عن أفعال المصادفة التي يُشك في وقوعها وحدوثها».

لمّا كنا نبسط وجهة نظر الثيوصوفيا أو الموقف الذي تقفه العلوم السرية القائلة بوجود شبكة حية من العلاقات التي تؤلف الكون، فإننا ننفي المصادفة العشوائية. وإن ما ندعوه الأحداث السببية - هي أحداث لا يمكن اعتبارها أحداث مصادفة بل جزءاً متكاملاً لهذه العلاقات. وبالفعل، تصادق الفيزياء الحديثة على نحو راسخ، في مضامينها الناشئة كنتيجة طبيعية، على هذا الاتجاه الهولستي - الكلي. وسوف نقيم الدليل على أهمية القانون بالنسبة للحرية.

في القرن الثامن عشر، أسهم الفيلسوف دافيد هيوم في بحث عن السببية ؛ ومدّنا بتبصر هام عندما أبان أن السببية أو العلة الحادثة التي تقع ، حتى بين أبسط حادثتين، تستبعد كل برهان، وبذلك لأن العلة ليست أمراً معطى بالتجربة. ولما كان دافيد هيوم تجريبياً راديكالياً تقبل فقه ما هو معطى في التجربة الحسية ، فإنه لم يكن في وضع يسمح له بتقبّل ما ترفده به الأفكار السرية. ويمكننا تقديم خلاصة وجيزة لوجهة النظر السرية بما يلي: ليس ثمة شيء يسبّب شيئاً آخر، هذا لأن السببيّة لا تكمن في الأجزاء بل في الكل. ويوضح برم وآشيش هذه العبارة كما يلي: «لا تقع الأحداث المستقلة بسبب وجود أية قدرة في بعض الأحداث الأخرى التي يقال عنها بأنها أسبابها ؛ بل بسبب وجود صلة عضوية في صميم كلية التجربة الكونية ، صلة صادرة تجعل أحداث الكوزموس ترتبط مع بعضها في علاقة متبادلة ، متآلفة ومتناسقة. ولبيان الصلة الموحّدة نقول: إن حركة أي «جزء» أو عنصر من أجزاء أو عناصر الكون تقتضي بالضرورة حركة العناصر كلها ، ليس بسبب أية «قدرة سببية» مباشرة، تفرضها الحركة الأولى، بل لأن الكل يوجد معاً ويرتدي لباساً لا درزة فيه ، هو الكل».

ترتدي وجهة النظر السببية حلّة جميلة في العقيدة البوذية الصينية التي تتحدث عن النشوء المشترك للأشياء والمبادئ، أو العقيدة التي تتحدث عن «الكل في الواحد» وعن «الواحد في الكل» أو تلك العقيدة التي تبشر بـ «الاختراق المتبادل والتماثل والتطابق المتبادل» للأشياء والمبادئ كلها. ويُعتقد، وفق هذه العقيدة، أن جميع الأشياء ستبقى على ما هي عليه ، مهما بلغ تنوعها واختلافها ، ولن تشكل

لبعضها أية تحديدات أو تقييدات، سببية كانت أم غير ذلك. وإذا شئنا أن نفهم كيف يكون هذا الوضع ممكناً، فمن الضروري، على نحو ظاهري، أن نتذكر أن العقيدة تفترض أن فاعل التجربة، عن طريق التحليل والتجربة، قادر على التأكد والتحقق من وجود حقيقة لا مادية ولا نوعية نعجز عن وصفها، على نحو وافٍ، بالفكر خشية أن نقلّصها إلى مقولة موضوع. وجدير بالذكر، أن هذه الحقيقة تحتوي في ذاتها زوال ولا مادية الأشياء والمبادئ كلها على كل المستويات. فاتحاد هذه العناصر يمد عقيدة النشوء المشترك للأشياء والمبادئ بقاعدة، ويهبها معنى. وبكلمات أخرى، يكون النشوء المشترك ممكناً لأن توحيد الوجود واللا وجود ممكن.

يمكننا، وقد بلغنا هذا الشأن من الدراسة، أن ننظر إلى العقيدة المذكورة أعلاه بأنها ترجمة لعقيدة بوذا في «البدء المتزامن للأشياء التي يتوقف تطورها أو نشؤوها على بعضها». ولقد عرض شرحاً لهذه العقيدة اللاّما أنا جاريكا غوفندا الذي يعد مرجعاً مميزاً للسرية البوذية التيبيتية. كتب غوفندا: «يؤكد بعض المراقبين السطحيين على هذه العقيدة قائلين: إنها أكثر من تصريح عن قانون علمي للسببية، قُصد منه البرهنة على تماثل فكرة بوذا مع وجهة نظهرهم اللا روحية المكانيكية عن العالم. فسببيتهم تفترض مسبقاً تتابعاً للأحداث لا متبدلاً ومشروطاً بالزمان، وأقصد مسلكاً للفعل وسبيلاً ضرورياً للتصرف يمكن التنبؤ به.

تشير الحقيقة إلى أن عقيدة «البدء المتزامن المتوقف على تفاعل عناصره» لا تتقيد بتتابع الزمان بل يمكن تفسيرها بأنها تعاون مشترك متزامن أو متواقت بين حلقاته وعناصر تكوينه، وذلك بقدر ما يمثل كل واحد منها الحاصل الكلّي للحلقات الأخرى كلها، وهي تُشاهَد بوصفها معْلماً مستقلاً ومفرداً، وأعني، عندما تؤخذ من وجهة نظر الزمان ومسلك الوجود الفردي المستقل، أي، من وجهة نظر دنيوية تترجم عقيدة البدء المتوقف على تزامن نشوئه على نحو سببي. ولا تفسرها من وجهة نظر الحقيقة العليا السامية».

يهمنا أن نعلم أن الفيزياء الحديثة تواجه ظاهرات معينة مشابهة لنمط العلاقة السببية المعلنة. وإننا لواجدوان في نظرية المكان ــ الزمان التي قالت بها الفيزياء النسبية ما معناه أن «الأحداث كلها... متداخلة العلاقة؛ لكن علاقاتها «ليست سببية». ويمكننا تفسير التفاعلات المتداخلة بين الجزيئات وفق مصطلح العلة والمعلول في حالة واحدة حينما نقرأ الرسوم البيانية ـ الرسوم البيانية للعملية المبعثرة أو المبدّدة للجزيئات دون الذرية ـ في اتجاه محدد ومعين... متى اعتبرناها أنماطاً

رباعية البعد من دون أي اتجاه محدد للزمان الملحق بها، بحيث ينعدم وجود «قبْل» أو «بعد» وبالتالي تختفي السببية».

وعلى نحو عام، يتجه علماء الفيزياء، في الوقت الحاضر، إلى التساؤل عن معنى كلمة «لماذا» ويحذرون، أو يخجلون، من استعمال كلمة «سبب».. وبالطبع، فهم يهتمون، كالسابقين، في التنبؤ والتحكم. وبالفعل، يحرضهم هذا الهدف النفعي بالدرجة الأولى أكثر مما يحثهم على البحث عن الحقيقة. لكن تنبؤات الفيزياء الحديثة لا تقوم على العوامل السببية بل، بالحري، على الانتظامات الإحصائية المصوغة في مصطلحات إحصائية، الأمر الذي يجعل من هذه التنبؤات احتمالات لا يقينات. وتكون النتيجة متطابقة مع ما يكتبه الفيزيائي فريتجوف كابرا: «في المستوى دون الذري، لا يتوافر لدينا اليقين من وجود المادة في أماكن معينة أو محددة، إنما تُظهر المادة «ميولاً للوجود». كذلك، لا تقع الأحداث الذرية على نحو يقين في أزمنة معينة أو محددة وبطرق معينة، بل تُظهر «ميولاً للحدوث». ففي شكلية النظرية الكوانتية، نعبّر عن هذه الميول بأنها أشبه ما تكون باحتمالات نربطها بمقادير رياضية تتخذ شكل الموجات. ولهذا السبب، يُحتمل أن تكون الجزيئات موجات في الوقت ذاته. فليست هي أمواجاً ثلاثية البعد «حقيقية» مثل موجات الصوت. وعلى غير ذلك، هي «موجات احتمالية» أي مقادير رياضية مجردة تتصف بالخصائص المميزة للأمواج المتصلة باحتمالات وجود الجزيئات في نقاط مستقلة من المكان وفي أزمنة مستقلة أو خاصة. ولما كانت تلك هي الحال فإن التعبير عن قوانين الفيزياء الذرية بأكملها يتم من خلال هذه الاحتمالات. لذا، لا يمكننا أبداً أن نتنبأ عن الحادثة الذرية بيقين؛ وإن ما يمكننا قوله هو كيف يُحتمل أن تحدث».

إذا كانت الفيزياء الكوانتية تسمح بتنبؤات تُستقى من نظام نظري، فلكي تصاغ في مصطلحات إحصائية تدل على أنها مجرد احتمالات. ولما كنا نسعى إلى التوغل إلى عمق مضامين النظرية الكوانتية، فإننا نكتفي الآن بالقول: إن الحتمية السببية لا تجد لها مكاناً في الفيزياء الحديثة. وإذا كانت قد اعتُبرت أمراً مسلّماً به في الأوساط الفكرية على أساس أن الاعتراف بها كان قائماً في الحقل الفيزيائي الصرف، فإن الضرورة تقضي بإنهاء هذا التسليم لأن القاعدة التي قام عليها هذا التخمين لا وجود له في يومنا هذا. وإذا أنعمنا النظر في ما تحفل به هذه القضية من مضمون فلسفي، لوجدنا أن الضرورة تقتضي عدم التحتيم بقدر وقضاء الأفعال البشرية على نحو تام وربطها بشروط سابقة.

يتجلى وضوح هذه المضامين عندما نتفحص الأسباب الداعية إلى إهمال الحتمية السببية والتخلي عنها. في مزيد من البحث والتعمق، نعود إلى مقال نشره سير آرثر إدينغتون، عام 1975، وعالج فيه قضية اندحار الحتمية. وفي مقاله المذكور، يعلن إدينغتون، وهو يسير على خطى لابلاس، أن العلم سعى في الماضي إلى هدف محدد هو أن يخص ذاته على نحو تقريبي، ودون تحديد، بذكاء ووعي متميزين يُستدل إليهما من الوضع الحالي للكون، وبقدرة التنبؤ بالعملية المستقبلية برمتها، بحيث يمد تنبؤه إلى الجوهر ذاته. ومع ذلك، نشأ في أواسط القرن التاسع عشر فرع جديد للفيزياء هو الترموديناميك، أخذ لذاته وجهة جديدة. وفي الوقت الذي بذل العلماء جهداً كبيراً لبلوغ كمال منظومة قانون تسمح لهم بالتنبؤ بما سيحدث على نحو يقين، انصب اهتمامهم على منظومة أخرى تساعدهم على التنبؤ على نحو احتمالي.

يصوغ إدينغتون العلاقة القائمة بين الفيزياء الحديثة والقديمة بالأسلوب التالي: «يُنظر إلى نطاق القوانين القديمة أو الكلاسيكية بوصفه جزءاً من النطاق الكلي للقانون الجديد الذي «يكون فيه الاحتمال عالياً» بحيث يعادل اليقين على نحو عملي. وعن طريق الاحتمال، أبان العلماء الخطأ الناتج عن القوانين السببية التي تكون فعاليتها أكيدة بشكل محدد. وإن كان العلماء قد أدركوا واعترفوا بخاصتها الإحصائية، لكنهم أضاعوا الخطة الأساسية الأولية... لم يبق أثر يدل على الخطة القديمة للقانون السببي، ولم نجد، لحد الآن، بداية قانون جديد».

يهمنا أن نلاحظ كيف يقتبس إدينغتون، في بدء مقالته، عبارة من هرمن ويلْ، الفيلسوف الشهير الذي كتب عن الفلسفة العلمية. تقول العبارة: «يجب علينا أن ننتظر ما سيتمخض عنه العلم في تطوره المقبل. وقد يمتد انتظارنا على مدى قرون قبل أن نكون قادرين على رسم صورة حقيقية ومفصلة لنسيج المادة المتداخل الحياكة، وللحياة والروح. وهكذا، لن ننساق بعد الآن، ولن نخضع، للحتمية الكلاسيكية القديمة التي نادى بها كل من هوبز ولابلاس».

يتوجب علينا أن نتعمق في دراسة مقالة إدينغتون لكي نستمد مضامينها الفلسفية الكاملة من النتائج التي توصلت إليها بحوث الفيزياء الحديثة. يتابع إدينغتون بحثه ويناقش متغيّرية اللاّ تحديد أو اللاّ تعيين ومغزاها العملي. وعلى سبيل المثال، «لو أُعطي لنا إلكترون وظروفه، لوجدنا أن الخطأ في تبنؤ وضعه بعد انقضاء ثانية واحدة قد لايكون كبيراً، لكن الارتياب يكون خطيراً، وبخاصة إن كان لزاماً علينا أن نحسب مسألة إن كان الإلكترون سيصيب أو يخطئ هدفاً صغيراً مثل

نواة جوهرية. ومن جهة أخرى. لو أُجريت التجربة ذاتها بعد معالجة أصغر كتلة على نحو مجهري، لوجدنا أن اللاّ تحديد أو اللاّ تعيّن أقل بكثير لأن الكتلة أكبر؛ ويكون فحوى هذا اللا تعيّن هاماً في المسائل المكانيكية الاعتيادية... على الرغم من عدم وجود تغير في أساس القانون».

يضيف إدينغتون: «المستقبل لا يُحد أبداً على نحو كلي بالماضي، ولا ينفصل عنه كلياً. وللدلالة على القسم الثاني من هذه العبارة، نردّد ما ألمحنا إليه سابقاً عن تحديد مستقبل ظاهرات عديدة على نحو عملي. وللدلالة على القسم الأول نقول: إن انحلال نواة الراديوم مثال على انفصال مستقبل ظاهرة عن ماضيها».

لما كانت عبارتا إدينغتون الأخيرتان تنفذان إلى لبّ قضيتنا، فإنه يتوجب علينا أن نتأملهما بروية. وعلى الرغم من أن إدينغتون يحصر حديثه في النطاق الفيزيائي، لكن ما يقوله عن المادة صحيح أيضاً في النطاق النفسي. فمستقبل الكائن البشري لا يتحدد كلياً بالماضي، ولا ينفصل عنه كلياً. وبالفعل، يتساوق هذا القول مع ما تسلّم به الثيوصوفيا بشأن السببية. ونعني أن الكون، حتى أصغر جزيء فيه، يتخلله ويضبطه قانون حيّ، ذكي واعٍ، هو قانون القوانين الكلّي. وللسبب ذاته، تتخلله غاية ومعنى. ذلك أن قانون القوانين قانون حيّ وليس قانوناً مبهماً.

بالإضافة إلى ما ذكرناه، نقول: إن مضامين الفيزياء الحديثة وتطبيقاتها في نطاق السببية أكثر عمقاً مما عبّرنا عنه باختصار. فثمة مكتشفات علائقية حديثة العهد. لم تقدم لحد الآن منهجاً واضحاً لمضامينها في هذه الناحية. لكن العقل الإنساني يتعمق في معناها. وسوف يواصل على نحو احتمالي حل ألغازها في المستقل القادم. هذا، مع العلم أن مضامينها وتطبيقاتها بعيدة المنال. وقد يكتشف طالب الثيوصوفيا أنه لأمر مثير أن يدرك أن هذه التبصرات المنبثقة أو الناشئة تؤكد مبادئ سرية راسخة في عقول المدركين لها والمؤمنين بها.

وعى بعض الفيزيائيين، بجلاء ووضوح، وجود الصلة الكلية في العمليات الذرية. وها هو دافيد بوم، الفيزيائي الذي أشرنا إليه في علاقته بالنظريات الهولوغرافية ـ الكلية، يعبر عن وجودها بالطريقة التالية: «تتضمن التصورات الكوانتية ما معناه أن العالم يعمل كما تعمل وحدة متصلة غير منقسمة. تعتمد فيها الطبيعة «الجوهرية» لكل جزء، موجة كان أم جزيئاً، إلى درجة معينة، على علاقتها ببيئتها المحيطة... الأمر الذي يحول دون تحليل دقيق للعالم إلى أجزاء متمايزة. وعوضاً عن ذلك، تلزمنا الحقيقة على النظر إليه بوصفه وحدة لا منقسمة أو لا

متجزئة تظهر فيها الأجزاء المنفصلة والمستقلة كأنها قيم تقريبية صحيحة في الحد الكلاسيكي فقط. وبحسب الدقة التي نتوخاها في المستوى الكوانتي. لا يتصف الموضوع أو الشيء، موجة كان أم جزيئاً، بأية خصائص جوهرية تخصه وحده دون غيره. وعوضاً عن ذلك، نراه يشارك بخصائصه كلها، على نحو متبادل ولا منقسم، مع المنظومات التي يتفاعل معها..».

عندما ندقق النظر. نلاحظ على نحو عرضي أن العلماء يعبّرون عن النتائج التي توصلوا إليها في مكانيك الكوانتوم في صيغ إحصائية ليس لأن الطبيعة عشوائية بل لاستحالة تحليل دقيق لجزء من أجزاء العالم بمعزل عن الأجزاء الأخرى. وسوف ندرك أن النظرية الكوانتية تؤيد المبدأ القائل بعدم وجود المصادفة.

تفنّد النظرية الكوانتية فكرة وجود مركز أو موقع للمادة، لأنها تتساوق مع النتيجة التي توصل إليها البحث العلمي الذي يؤكد على وجود مشاركة متواصلة أو تبادل متداخل بين الجزيئات التي تعود لجوهر مادي واحد. ففي عام 1964، حاز «مبدأ اللاّ مركز أو اللاّ موقع المحلي»، تأييداً جديداً من قبل العلماء. وحاز هذا المبدأ تقديره عندما قدم جون بلْ فرضيته، المعروفة بـ «فرضية بلْ» التي اعتبرها العلماء اكتشافاً رئيساً وعميقاً.

لئن كانت فرضية بلْ تُرد إلى النظرية الكوانتية، لكنها تتصل بالأحداث الماكروسكوبية. فهي تبين أن العلة قد تمتلك تأثيراً فورياً قوياً على المعلول، حتى ولو كانت العلة نائية عن المعلول؛ وبالتالي، لا يمكننا اعتبار الموضوعات الماكروسكوبية المعزولة عن بعضها بمسافات شاسعة منفصلة أو متمايزة عن بعضها بالمعنى العادي. وتقيم فرضية بلْ الدليل على أن اتجاه الاستجابة الماكروسكوبية ينزع إلى إلغاء المصادفة... ويدعم لورانس بنيام هذه الفرضية فيقتبس من هـ.ب. ستاب العبارة التالية: «إن العملية العالمية الأساسية، وفق هذه الفرضية، تعني نشوء أو تطور منظومة علاقات لا توحّد ذاتها مع المكان والزمان، بل تُظهر، إذا ما أُخذت ككل، معالم يمكن تنظيمها أو رسمها بالتفصيل في متصل زماني ـ مكاني».

على هذا الأساس، يتضمن واقع اللا مكان أو اللا موضع أو «الاتصالية الكوانتية المتداخلة بين الأحداث البعيدة»، أمرين: أولهما، أن الكون متصل، متعدد، كثير الأجزاء والعناصر على نحو لا نهائي، أو هو وحدة وحيدة، ثانيهما، أن كل ما يسمى «جزءاً» يحتوي «الكل».

كان دافيد بوم قد عرض رأيه في عام 1971 وأبان فيه أن الجزء يحتوي الكل. وتقوم فرضية بوم على أن العالم مبني على ذات المبادئ العامة التي يتألف منها الهولوغرام. ويؤكد أن هذه الفكرة الجديدة للنظام لا تُدرك كلية من خلال ترتيب انتظامي للأشياء ـ كما هي الحال في الصفوف ـ أو بوصفه ترتيباً انتظامياً للأحداث ـ كما هي الحال في المتتاليات؛ وبالحري، تتجلى الفكرة في أن نظاماً كلياً متضمن، بمفهوم حتمي أو مطلق، في كل منطقة من مناطق المكان والزمان، وأن كل منطقة تشتمل على بنية كلية «منطوية على ذاتها أو منغلقة على ذاتها» في داخلها.

يحدثنا بوم عن كون «منطو ـ منفتح». ويميّز النظام المنطوي أو المنغلق بالقوة عن النظام المنفتح أو الجلي الواضح. والنظام الثاني، في رأيه، هو النظام الذي نراه وندركه ـ هو وصفنا القياسي أو الاعتيادي للحقيقة والواقع. أما النظام الذي ينطوي أو ينغلق بالقوة فهو نظام كلي شامل مستقل، في جوهره، عن الزمان. ويشير هذا القول إلى أن علاقات الكل ليست هي علاقات الزمان ـ المكان، بل هي علاقات لها صلة بنوعية تختلف تمام الاختلاف، ندعوها الانغلاق أو الانطواء. إذن، فالنظام المنغلق أو المنطوي أو الكامن هو نظام يكون فيه الكون وكل ما يشتمل عليه حاضراً أو ماثلاً على نحو تضمن فعلي في كل نقطة من نقاط الكون.

يرى بوم أن الحركة الأساسية للكون تتجه إلى الإنثناء والطي، أي أنها تصبح لا ظاهرية. وتتجه هذه الحركة إلى التحرر من الانثناء والطي، أي أنها تصبح ظاهرة جلية. وفي سبيل تبيان حقيقة هذه العملية، يستعمل بوم اصطلاح «الحركة الكلية»، ويرمي إلى التعبير عن «كلية أو مجموع كلي غير محدد للحركة في الكون». ويؤكد أن الوضع الحالي للفيزياء النظرية يتضمن ما معناه أن كل منطقة من مناطق المكان يشتمل على مقدار من الطاقة يتجاوز، على نحو ضخم، المجموع الكلي للطاقة ـ المادة المعروفة في الكون. وفي رأيه، يُعد هذا المجموع الكلّي محيطاً من الطاقة لا يوجد في الأصل في المكان والزمان على الإطلاق، بل في النظام اللاّ ظاهر أو المنطوي. والمادة ذاتها، يقول بوم، هي «مجرد ثنية أو تموج في هذه الخلفية». ويعتبر بوم الوعي شكلاً سامياً أو رقيقاً للحركة، ومعْلماً رقيقاً سامياً للحركة الكلية الشاملة.

سنعمل، في ما تبقى من حديثنا، على توضيح الصور العديدة للمفاهيم والأفكار المستقاة من الفيزياء الحديثة الشبيهة بالعقائد السرية المنوّه عنها أعلاه. ويقوم توضيحنا على اختيار بعض منها:

1ـ إن نظامي بوم المنطوي والظاهر الجلي ـ أولهما قائم وموجود في ما وراء

الزمان والمكان ـ يذكّراننا على نحو مؤكد بالكون البدئي الـذي يعـود للنظـام البدئي الخفي المستتر والمتمثل بالثلاثة والسـبعة، وبالنظـام الظـاهراتي علـى التوالي. ويذكراننا أيضاً بـ «الأبدية التي يمثل الزمان فيها الصورة المتحركة».

2ـ إن لا فردية الجزيئات دون الذرية وتبادلهـا التواصـل مـع بعضهـا لجوهـر مادتها، توازي العقيدة البوذية الصينية التي تعلّم مبدأ «الاختراق أو التغلغل المتبادل والتماثل أو التطابق المتبادل» لكل الأشـياء والمبـادئ. وتتسـاوق مـع مبدأ بوذا «الاتصال والبدء المتزامن».

3ـ تتساوق فرضية بلْ، التي تقيم الدليل على وجود ترابطات واسـعة وفوريـة بين الأحداث الماكروسكوبية المنفصلة، مع العقيدة الثيوصوفية التي تعلّـم أن الكون نسيج موحد من العلاقات والأحداث يسـودها الوعـي الـذي لا يـترك مجالاً لإمكانية الأحداث العشوائية.

4ـ تتوافق فرضية بلْ مع الفكرة الثيوصوفية التي تشير إلى أن الوعـي والمـادة ــ الطاقة لا ينفصلان.

لم يتورع ستانيسلاف غروف عن التعليق، على نحو جدير وملائم، على النمـط أو المثال الموحد المنبثق من الفيزياء قائلاً: إنه يتصل بالوعي صلـة وثيقـة. ولقـد عـبّر غروف عن هذه العلاقة في بحثه، الذي أجراه في نطاق الطب العقلي والنفسـي، كمـا يلي: «الزمان الخطي والمكان الثلاثي البعد، والترتيبات السببية، تظهر أنها صفـات تجريبية لحالة مفردة من حالات الوعي أكـثر ممـا تُظهـر أنهـا خصـائص لا متغـيرة للواقع الموضوعي».

لابد لنا من إضافة كلمة تتعلق باقتناعنا، إن لم يكـن بإداننتـا، في أن مسـتقبل الكائن الحي البشري لا يحد على نحو كامل بالماضي، كما وأنه لا ينفصل كليـاً عـن الماضي. ولا ينكر أحد أن الإشراط الماضي المعاكس لهو عائق خطير للحرية الداخليـة. أما في ضـوء المبـادئ الكونيـة الـتي أوجزناهـا، فـإن مـاضي الفـرد هـو أيضـاً ضمانـة لإمكانيات لا حصر لها. ولقد أوضح اللاّما غوفندا هذه الفكرة على نحو رائع، فقـال: «ليس من فرد يوجد، في طبيعته الخاصة، مستقلاً عن عناصر أو عوامل أنواع الحيـاة الأخرى... وإذا كنا نعجز عن الكشف عن أية بداية أولية لأي فرد أو لظاهر أو باطن أي ظاهرة بمعزل عن الأفراد والظاهرات الأخـرى، فـلأن كـل فـرد أو ظـاهرة تمتلـك مجموعاً كلياً للكون يجثم في قاعدتها. وإذا أردنا أن نعـبر عـن هـذه العبـارة الأخـيرة

من وجهة نظر الزمان، فيمكننا أن نقول: إن كل ظاهرة من تلك الظاهرات، وبخاصة كل فرد من الأفراد، يمتلك أو تمتلك ماضياً لا محدوداً يقوم، نتيجة لهذا، على لا نهاية من العلاقات التي لا يمكنها أن تستثني أي شيء وُجد أو هو عرضة للحدوث في الوجودات. إذن، يمتلك كل الأفراد، أو بالحري ما له وجود فردي، الكون كله بوصفه أساساً مشتركاً بينها. وتصبح هذه الكلية أو الكونية، والاشتراك في كونية واحدة، واعية في تجربة الاستنارة، حيث يستيقظ الفرد، أو ما له وجود فردي، ويوقظ معه ما هو كامن فيه من كلية كونية، فيحقق طبيعته الحقة التي تحتوي الكل».

هكذا، ندرك أن التفاعل القائم بين الفردي والشامل قضية يتوجب علينا تقديرها على هذا النحو. وبالمثل، يتوجب علينا اعتبار التفاعل القائم بين النزعات الظاهرية التناقض في حياتنا البشرية.

13ـ التمايز والتكامل:

كانت هيلينا بلافاتسكي نزّاعة إلى التوكيد على أهمية التناظر لأنه مفتاح يفيدنا للولوج إلى المعرفة السرية، ما دامت مبادئ وقوانين الطبيعة فعّالة على مستويات الظهور والتجلي كلها. وهكذا، رأت أن التناظر مفتاح البصيرة الداخلية للتوغل إلى نطاق فهم السببية.

ذكرنا في مرحلة سابقة من حديثنا، أن الكون الحي كشف عن ذاته، وتجلّى في ظهروه نتيجة للفعل المبدع الذي يتصف به التمايز، أو نتيجة للفصل الذي وقع بين الذاتية والموضوعية لدى الانبثاق من الوحدة البدئية، أي عندما انبثق إلى الوجود كلّ من الذات واللاّ ذات وتأصلت فيهما تلك العلاقة الديناميكية المتبادلة والدائمة الوجود. وعلى هذا الأساس، تعكس ملايين الحيوات التي تؤلف الكون، كما تعكس كل حياة فيها، هذا الثالوث ـ الذات، واللا ذات والعلاقة القائمة بينهما ـ ليس على نحو وعي ذاتي، باستثناء الإنسان، بل في الجهاد الفطري الجوهري الذي يهدف إلى الحفاظ على الذات وتحقيقها، والذي، من خلالها، تميِّز كل حياة بين الذات واللاّ ذات. ومع ذلك، لا تكون كل حياة فردية ذاتاً فحسب، بل ايضاً جزءاً من كلٍّ أعظم، الأمر الذي يؤدي إلى وجود توازن بين حاجيات الذات ومتطلبات الكل الذي تتأصل فيه الذات: هو توازن يُعاد تأسيسه وتوطيده، على نحو متواصل، من خلال عملية رائعة لتمايز وتكامل متناوبين.

يُعد ما ذكرناه، في العبارة الأخيرة القضية الأساسية في التافيزياء أو في العقيدة الثيوصوفية، الواقع الذي يمكن إقامة الدليل عليه على نحو تجريبي. وفي هذا الصدد، كتب آرثر كوستلر الذي تفوّق في عرضه التجريبي لهذه الظاهرة في كتابه «جذور المطابقة»، ما يلي: «في الجنين الناشئ، تتشعب أجيال متتابعة إلى نسج متنوعة، تتكامل في آخر الأمر في أعضاء. ويتصف كل عضو بما يمتلكه من خاصة ثنائية: فهو جزء ثانوي في مرتبة أدنى وكلٌ مستقل بذاته في آن واحد. وبالمثل، تعد الذات الفردية كلاً عضوياً، وجزءاً من أسرتها في آن واحد. وكذلك، تتصف كل جماعة اجتماعية بمزايا كلٍ متماسك ومزايا جزء يتكل على غيره ضمن جماعة ذات تنظيم مشترك أو أمة. وهكذا، نستنتج أن الأجزاء والكليات غير موجودة في أي مكان بمعناها المطلق... ولذا، يتوجب على كل هولون، وهو الكلمة التي ابتدعها آرثر كوستلر لتقوم مقام الفرعي ـ الكل، أو الجزئي ـ الكل، أن يحافظ ويؤكد على سيادته أو استقلاليته الذاتية. وفي الوقت ذاته، يتوجب عليه أن يظل جزءاً ثانوياً أدنى وخاضعاً لمتطلبات الكل القائم أو المتطور. وهكذا، تتميز النزعة إلى توكيد الذات بأنها تمتلك نظيرها في نزعتها المتكاملة لتؤدي وظيفتها بمثابة جزء من كلٍ أعظم... والحقيقة، أن جانوس ـ إله الأبواب والبدايات ـ يهيمن في طبيعته التي تعوزها الحيوية... ولا شك، أن مبدأ التكاملية يعزو إلى الوجودات دون الذرية طبيعة ثنائية. وفي الكون الكلّي، يترسخ الثبات والاستقرار عن طريق توازن القوى المتقابلة والمتعارضة: الميول الظاهرة في القصور الذاتي وفي قوة النبذ، تقف مقابل قوى الالتحام والتماسك المتمثلة بالكهرطيسية والجاذبية الأرضية.

الآن نفترض أن «الواحد» استهل عن طريق فعله البدئي في التمايز الذاتي «تجربة وعيه المثيرة» لكي يتمكن، بواسطته، من التعبير لذاته عن صفاته المتضمنة في طبيعته الأساسية. وعلى أساس هذا الافتراض، يمكننا اعتبار عملية التمايز والتكامل المتناوبة عملية يتطور الكون بواسطتها، بتوافق وانسجام، مع الغاية العامة التي هدفت إليها تلك المغامرة أو التجربة المثيرة.

لا يغفل عن فكرنا أن المادة الحية، والمخلوقات الفردية والمجموعات المختلفة تكشف، حيثما وُجدت، عن كمون موجود بالقوة تعتمد عليه لبناء أشكال ذات تعقيد أكبر، تكشف، بدورها، عن وحدة ـ في ـ تنوع على مستوى أعلى، هي «وحدة يمكن بلوغها أو تحقيقها عن طريق السير في التفافات وانعطافات التنوع».

14ـ وحدة التعارضات المتقابلة:

رأينا كيف يكون التمايز والتكامل قطبين متكاملين وغير منقسمين. ومن الأهمية بمكان أن نعتبر فكرة الاستقطابية أو القطبية هذه وحدة تجمع بين طرفين متقابلين. لكن، قبل أن نعترف بصواب هذه الفكرة، يتوجب علينا ملاحظة التفاعل الإبداعي بين الطرفين المتقابلين المتمثلين بقطبين في الصورة التي ترتسم في الإنسان على نحو فريد.

يدعونا التزامنا بالافتراض المذكور أعلاه والمرتبط بـ «مغامرة الوعي أو تجربة الواحد المثيرة في الوعي» إلى اعتبار الإنسان ـ وهو الكائن القادر على إنشاء تفكير ذاتي. الكائن القادر على معرفة قدسيته ـ مقياس تلك المغامرة. والحق يقال: إن حياة الإنسان تحفل بالمعنى في القياس الذي يبلغه وهو يفكر بالشمولية والكونية واللا نهاية والسرمدية ليعكسها في ذاته ويعيها. ولا يختلف تصور يونغ للا وعي الجمعي عن مضامين ما نذكره. وبالفعل، يتألق تفاعل القطبين أو الطرفين المتقابلين، مثلا اللا نهائي والنهائي، الأبدي والعابر، الكوني الكلي والفردي، في روائع الموسيقى والفن والأدب، نظراً لأنهما يتصفان بتوق ينشدان، من خلاله، الشمول والكونية اللذين يمارسان من خلال صيغ وأساليب تعبير عينية، وواقعية فردية متناهية، وأحياناً مزاجية في بنيتها.

كلما أوغلنا بفكرنا إلى عمق المعاني المتضمنة في مصطلحات اللا نهائي، الأبدي والكوني الشامل، وجدنا أن فهمها مرتبط بإدراكنا لها من خلال تعارضاتها المتقابلة وهي النهائي، العابر والفردي. وبالمثل، نختبر فكرة الخلود من خلال استقراء فكرة اللا خلود. وبحسب ما تعلّمه الثيوصوفيا، يمثل الإنسان تلك الوحدة التي تتحد فيها، على نحو احتمالي، الروح «العليا» والمادة «الدنيا». وإن هذا الاتحاد المحتمل، يصبح ممكناً عن طريق العقل الإنساني الذي يصلح لأن يكون جسراً تعبر فوقه المادة إلى الروح.

تعزو وجهة النظر الثيوصوفية، وكذلك الفلسفات الشرقية، الفكرة التي تشير إلى أن العضوين في زوج ثنائي التعارض يقفان من بعضهما موقف القطبين في علاقتهما، ويؤلفان طرفين متقابلين لكل هو، في أساسه، وحدة. وليس من سبيل لتبيان هذه الثنائية الظاهرية أفضل من الحكمة الصينية التي تعلّم كيف يشكل الـ «ين» والـ «يانغ» الطاو، أي الطريق. وتفصح العقيدة السرية عن حكمتها إذ تقول:

إن الكون الظاهر المنبثق إلى الوجود «تتخلله الثنائية التي هـي، في أساسـها، حـاضراً وماضياً، جوهر وجوده في هيئة ظهـور وكشـف». ومـع ذلـك، تشير الحقيقـة إلى أن «القطبين المتعارضين اللذين نطلق عليهما الفكر والموضوع، الروح والمادة، همـا معْلمـان للحقيقة الواحدة التي تؤلف بينهما، فيتآلفان معاً». وإن ثنائيات اللذة والألم، الخـير والشر، الموت والحياة تبيّن أن التجربة خبرة نسبية وليست مطلقـة. وليسـتِ هـذه الثنائيات غير وجهي أو جانبي قضية واحدة ـ هي وحدة في حقيقتها. والحـق يقـال إن الوضع الأمثل للكائن البشري هو ذلك الوضع الذي يتسنم فيه درجـة تسـمح لـه، بفكره كما بعمله، أن يسـجل نجاحـاً في توحيـد «السـماء والأرض»، المـادة والـروح، الذكر والأنثى، وإلى ما هنالك من ثنائيات ظاهرية.

في تباين مع الثيوصوفيا والفلسفات الشرقية، تعتمد غالبيـة الفلسـفات النظريـة على المنطق الأرسطي الثنائي أو ما يسمى بالمنطق الاصطلاحي التقليدي الذي يتحكـم فيه قانون التناقض والتضاد والثالث المرفوع. وهذا هـو شكل المنطـق الـذي نجـده في أساس كل مدرسة من مدارس الفيزياء الغربية، أو على الأقل، في كل المدارس الفكرية التي لا تتخذ المتافيزياء قاعدة لها.

وإذا ما التفتنا إلى العلم الحديث ـ الرياضات، الفيزياء، وعلم النفس التحليلي، بشكل عام، والفيزياء الكوانتية والنسبية، بشكل خاص ـ وجدناه يعمـل بـإصرار مـن أجل أن يضع موضع الاستعمال فكرة أو مفهوم تكاملية ووحدة التعارضات والأضـداد. وفي هذا الصدد، كتب الفيزيائي كـابرا: «يمكننـا أن نكتشـف الأمثلـة والعـبر، الـتي تشير إلى وحدة المفاهيم المتعارضة في الفيزياء الحديثة، في المستوى دون الذري. في هذا المستوى، تكشف الجزيئات عن مظهرين: قابليتها للإتلاف وعدم قابليتها للإتلاف: هنـالك، نجـد المـادة متصلـة ومنفصلـة، والطاقـة والمـادة معْلمـين مختلفـين لظـاهرة واحدة»... ويضيف كابرا: «إن النظرية النسبية حاسمة في وصف هذا العـالم (المؤلـف من جزيئة دون ذرية). وهــي تـرى أن المفـاهيم أو التصورات الكلاسـيكية في النظـام النسبي قضايا تجاوزتها حقيقة هي المكان ـ الزمان الرباعي البعد. فإذا كانت الفيزياء الكلاسيكية قد نظرت إلى الزمان والمكان بوصفهما مفهومين أو تصورين مختلفـين عـن بعضهما تمام الاختلاف، فإن الفيزياء النسبية وحدتهمـا في تـآلف تكـاملي. وليسـت هذه الوحدة الجوهرية شيئاً آخر سـوى القـاعدة الـتي يشيّد عليهـا توحيـد المفـاهيم المتعارضة أو المتناقضة، في ظاهرها، التي سبق ذكرها. وكما تتحقق وحدة التعارضـات والأضداد، التي يختبرها الحكيم السري، كذلك تتحقق هذه الوحــدة المذكـورة أعـلاه

على «مستوى أعلى»، وهو بُعد أعلى. وتتشابه هاتان الوحدتان، وحدة الأضداد المتعارضة في الطبيعة والتصورات والمفاهيم المتعارضة، ووحدة الصوفي مع الحقيقة الكلية السامية ـ في أنهما وحدة ديناميكية. فالواقع الزماني ـ المكاني حقيقة ديناميكية في وجودها، تكون فيها الموضوعات عمليات عضوية وظيفية، والأشكال كلها أنماطاً ديناميكية».

إننا لواجدون في الفلسفة المعاصرة وجهة نظر مماثلة، هي وجهة نظر ألفرد هوايتهد (1861–1947). لقد قطع هوايتهد صلته مع المنطق التقليدي. وعُد هذا الانقطاع أمراً مثيراً للدهشة وبخاصة إذا تذكرنا بأنه فيلسوف مشهود له في حقل المنطق الرمزي، وأنه، بالمشاركة مع برتراند راسّل، وضع كتاب «مبادئ الرياضيات». واهتم هوايتهد اهتماماً كبيراً بما اصطلح على تسميته بـ «التعارضات المثالية» ـ مثل الفرح والأسى، الخير والشر، الوضوح والغموض، الاتصال والانفصال، الدوام والتغير المتواصل، الواحد والتعدد، الحرية والضرورة، النظام والفوضى، الجاهل والعالم. ويصرح هوايتهد إذ يقول: «التعارضات والأضداد كلها عناصر أو عوامل في طبيعة الأشياء، قائمة فيها ولا سبيل إلى تفسيرها. وإن تصور «الوعي الكوني» هو الطريق الذي نفهم فيه هذا الواقع الذي لا يُصدّق، ويعبّر عنه كما يلي ـ ما لا يمكن أن يكون كائن فعلاً».

في فلسفة هوايتهد ذات المنحى التأليفي، أو كما أسماها «الفلسفة العضوانية» أو كما دعتها الكتب الفلسفية «فلسفة العملية العضوية المتكاملة»، يقوم الدليل على وجود تصور فلسفي واسع غير اعتيادي، تعتبر فيه القضايا المطلقة قضايا تُعرف بعلائقيتها الجوهرية بمعالم التجربة كلها. ولقد أكّد هوايتهد تأكيداً واضحاً على الإبداعية البشرية بوصفها قوة وواسطة للتوفيق بين التعارضات أو الأضداد المثالية، يعاين فيها علاقة متبادلة بين ما نفعله على الأرض و«الحقيقة في السماء». وهكذا، ندرك التشابه أوالصلة التي تجمع بين فلسفة هوايتهد والثيوصوفيا.

مراجع البحث

1- Paul Edwards and Arthur Pap: A New Introduction to Philosophy.

2- Richard Taylor: Metaphysics.

3- E. Lester Smith: Intelligence Came First.

4- Sir James Jeans: The Mysterious Universe.

5- Fritjof Capra: The Tao of Physics.

6- P. Teilhard de Chardin: The Phenomenon of Man.

7- Helena Blavatsky: The Secret Doctrine.

8- Prem and Ashish: Man, the Measure of every thing.

9- Arthur Koestler: The Roots of Coincidence.

10- Garma Change: Budhism teaches Holism.

11- Arthur Edington: The End of Determinism.

12- David Bohm: The Involuted – Evoluted Universe.



المادة والروح

تأليف جديد



مقدمـــة

تتمثّل الغاية التي هدفت إلى توضيحهـا، أو التعبير عنهـا في هـذا الكتـاب، في تحقيق مصالحة أو إحداث توفيق وتأليف بين الثنائية الظاهريـة لـلروح والمـادة. ولمـا كان عنوان هذا الكتاب يشير إلى التـأليف بينهمـا، فقـد عمـدت إلى تقريـب وجهـتي النظر المادية والروحية، وإقامة البرهان على أن المادة والروح وجهان لحقيقة واحـدة، تتآلفان على مستوى كوكب الأرض، وأن مبـدأ التوحيـد يكمـن في تحقيـق وحدتهمـا الجوهرية. وعلى هذا الأساس، طرحت مبدأ التكاملية أو الوحدة الضمنية التي تفعـل في باطن الكائنات والأشياء والموضوعـات. وفي هـذا المنظـور، أدركـت أن الحيـاة هـي العلاقة المتداخلة والمتبادلة بين الروح والمادة.

في الفصل الأول، وهو «تكامل المادة والروح في الحكمـة والعلـم»، تحدثـت عـن «العلم الروحي» الذي تبنّته الحكمة القديمة، وعن «العلم المادي» الذي وضعه العلماء، الماديون منهم والنظريون، موضع التجربة والاختبار. فقد رأى حكماء المـاضي وعلمـاء الحاضر أن الطاقة هي القوة الفاعلة، بمعنى الحياة، في الواقع المادي، وأن الروح هي الطاقة الفاعلة في الكون، بمعنى الحياة أيضاً. وبـالفعل، أدركـت أن «العلـم المـادي» الحديث بدأ يتلمس الطريـق، ويتيقّـن مـن مثاليـة وواقعيـة «العلـم الروحـي» المتمثـل بالحكمة القديمة.

في الفصـل الثـاني، وهـو «مـا بعـد الـ بارلسيكولوجي»، سعيت إلى توضيـح مصطلحي «ما بعد» و«ما وراء»، بوصفهما مفهومين يشيران إلى التقـدم الـذي يحـرزه العلم في نطاق البحث عما هو أبعد وأعمق في سيرورة تطـوره. وأدركـت أن تعبـير «مـا بعد» لا يشير إلى وجـود مفـارق، يتهمـه بعضهـم «بالغيبيـة». وعلـى هـذا الأسـاس، حاولت أن أقول بأن «الغيبية» هي غياب العقل عن الفهم والإدراك. ولما كان العلماء، بتعدد وتنوع اختصاصاتهم، قد اختبروا العالم الخارجي بما فيه الكفاية، فإنهم بـدأوا رحلة عودتهم إلى العـالم الداخلـي. وفي هـذه العـودة، استهلّوا دراستهم للظـاهرات الخارقة، أو غير المألوفة، التي يتميز بها بعض الأشخاص الذين تجاوزوا حدود علـم نفس السلوك، وعلـم النفـس العـام والاختبـارات الموضوعيـة. وعلمـوا أن الخصـائص العقلية والمادية والنفسية وُجدت مع وجود الحياة وبداية التشكّل العضوي.

في الفصل الثالث، وهـو «العلـم والجسـد الأثـيري»، حـاولت أن أتحـدث عـن وجود جوهري وسرّاني للمادة، يتجاوز الأشكال الثلاثة: الصلبـة والغازيـة والسـائلة.

ودعوت هذا الوجود المتجاوز «المادة المتأينة». وتحدثت عن وجود تماثل بين هذه «المادة المتأينة»، التي يتحدث عنها بعض العلماء، و«الجسد الأثيري».

في الفصل الرابع. وهو «العلم الحديث وروحانية المادة»، ركّزت بحثي على النتائج التي توصّل إليها بعض العلماء النظريين، وتوافقت مع مبادئ الـ «ثيوصوفيا». وتؤكد هذه النتائج على الطبيعة الروحية للطاقة، وعلى وجود ذاكرة بيولوجية وكونية. وأوساط «ما تحت كمية»، وصيغ رقيقة ولطيفة للمادة. وذكرت أن النتائج، التي توصل إليها «عرفانيّو برنستون»، تحدث عنها العالم الفرنسي رويّه في كتابه «غنوص برنستون». لقد اتفق أولئك العلماء على أن الكون المادي ظاهرة متجلّية للروح. بمعنى أن «الكون البدئي هو الأبدية التي يُعد الزمان صورتها المتحركة».

في الفصل الخامس، وهو «شجرة الحياة الإنسانية»، وفي الفصل السادس. وهو «انفتاح العين الثالثة»، تحدثت عن الغدة الصنوبرية، والغدة النخامية ومراكز الطاقة في الإنسان. وشبهت الجهاز العصبي الإنساني بشجرة تتماثل أغصانها مع أعصاب الجسد المتشعبة. وذكرت أن الحاسة السادسة ترمز إلى العقل، بمعنى أن الغدة النخامية هي عضو السمو العقلي، وأن الغدة الصنوبرية هي عضو العقل الفوقي الذي يستنير بالمعرفة والحكمة، بمعنى أنها ترمز إلى الروح.

في الفصل السابع، وهو «أحادي الجنس المقدس»، تحدثت عن مبدأ وحدة ثنائية الجنس. فقد كان الإنسان البدئي أحادي الجنس. وقد أصبح هذا الكائن ثنائي الجنس وذلك لكي يتوافق مع طبيعة كوكب الأرض. وهكذا، يتحقق التكامل بين الذكورة والأنوثة. وأشرت إلى أن الكائن البشري يحتفظ بأحادية جنسه في حالة كمون، على الرغم من انفصال الجنسين، وذلك لأن كل فرد. ذكري أو أنثوي، يمتلك في بنيته أصول الجنس الآخر.

في الفصل الثامن، وهو «العود إلى التجسّد»، وفي الفصل التاسع، وهو «التطور»، ذكرت أن التطور بكليته يعتمد على هذا المبدأ. هذا، لأن الإنسان يتخلّص من جسده القديم ويكتسب جسداً جديداً. وتحدثت عن الجوهر الثابر في استمرار الحياة الطبيعية والبشرية، والذي هو الشرارة الإلهية في الكائن الذي يحتوي، في ذاته، الخبرة المكتسبة والمختزنة من حياة إلى حياة ليزداد الوعي انفتاحاً.

في الفصل العاشر، وهو «الإنسان وأجساده»، وفي الفصل الحادي عشر، وهو «العوالم»، تحدثت عن أجساد الإنسان الخمسة المتوافقة والمتطابقة مع العوالم

الخمسة. وسعيت إلى توضيح حقيقة الأجساد الإنسانية الخمسة التي هي أغلفة الكيان الحقيقي. وذكرت أن الإنسان لا يحقق كماله مالم يوحّد أجساده الخمسة في كيان واحد. وفي توحيدها. يتحقق توحيد العوالم الخمسة. وعلى هذا الأساس. يكون الإنسان كائناً كونياً. أما العالمان، السادس والسابع، فقد ذكرت بأنهما يخصّان عالم الألوهة.

في الفصل الثاني عشر، وهو «اليوغا، حقيقتها ومغزاها». ذكرت أن اليوغا علم روحي وجسدي. يدعو إلى توحيد الإنسان لكيانه، وذلك لكي تتكامل وظائفه النفسية والعقلية والجسدية. وعلى هذا الأساس، لا يستطيع الإنسان أن يحقق اتحاده مع الألوهة مالم يكن متحداً بذاته. وسعيت إلى البرهان أن اليوغا ليست مجرد ممارسات جسدية فحسب، بل هي أيضاً حكمة ومعرفة ووعي. لذا: لا تتمثل اليوغا بكلمة أو بمصطلح بقدر ما تتمثل بالنقاء، وصفاء العقل، ومحبة الحقيقة، وتحقيق العظمة الروحية المتكاملة في التوحيد.

ندره اليازجي



الفصل الأول

تكامل المادة والروح في الحكمة والعلم*

مقدمة

أود، قبل البدء ببحث هذا الموضوع وفهم أبعاده المتكاملة، أن أتحدث عن الحكمة في سرّانيتها وعلنيتها، في شمولها وخصوصيتها، ضمن نطاقات ثلاثة متصلة في جوهرها:

آ ـ **الحكمة الكونية**: هي الحكمة المستغرقة في ذاتها، في سكينة الأبدية والسرمدية؛ هي الحكمة الكلّية والشاملة التي تتخلل الوجود وتنبث فيه دون تعيين أو تحديد؛ هي الحكمة التي ندعوها الحكمة الإلهية أو الحقيقة السامية. هي الحكمة التي ندعوها ثيو ـ صوفيا.

ب ـ **الحكمة البدئية**: هي الحكمة التي تميّز بها الإنسان الأول، الكائن الروحي الذي كان على اتصال وثيق مع الحكمة الكلية والكونية؛ هي الحكمة التي اتصف بها ذلك الكائن الإنساني ـ الروحي قبل ممارسة اتصاله بالواقع المادي عن طريق العقل؛ هي الحكمة التي تشير إلى المعرفة التي اختبرها الإنسان الأول بالعلم الذي ندعوه «العلم الروحي». هي الحكمة التي ندعوها صوفيا.

ج ـ **محبة الحكمة**: هي الحكمة التي تميز بها الإنسان بعد ممارسة اتصاله بالواقع المادي؛ هي فعل العقل الذي أحب الحكمة وهو يمارس تجربة وجوده، ويختبرها في عالمه ـ عالم الثنائية والتعدد. هي الحكمة التي تشير إلى المعرفة التي يتوق إليها الإنسان، ويسعى إلى اختبارها بالعلم الذي ندعوه «العلم المادي». هي الحكمة العقلية التي ندعوها فيلو ـ صوفيا.

---

* محاضرة ألقيت في المركز الثقافي العربي، دمشق.

أولاً ـ الحكمة والعلم:

يعد هذا البحث تعبيراً عن وجهة نظر «الحكمة القديمة أو البدئية». وقد تبنّت وجهة النظر هذه، خلال مسيرة التاريخ الإنساني، المبادئ والعقائد التي نجدها في نصوص العالم القديم، وفي نصوص العالم الحديث. وتتمثل «الحكمة القديمة» في وعي شامل وكلّي يتجاوز التقليد السائد في العقائد الفئوية والمذهبية الخاصة، وذلك لأنها تعتمد الحكمة في مصادرها العديدة والمتنوعة.

تؤمن الحكمة القديمة التي يدعوها بعضهم «ثيوصوفيا»[1]، بكل المبادئ السامية؛ وتسعى هذه الحكمة إلى تحقيق لقاء يوحّد أبعاد الفكر الإنساني ومستويات تنوعاته دون الوقوف عند حدوده الضيقة وقواعده المشروطة. ولمّا كانت هذه الحكمة شاملة وكونية، فإنها تمثل تجلّي مبدأ الشمول والكلّ على مستوى عالم الإنسان. ولئن كانت الحكمة تتصف بالشمول، إنما تتميّز بخلفية تلقي، من خلالها، ضوءاً على ما جاء في الفلسفات والعقائد العديدة لتنتقي من مبادئها ما يتماثل، أو ينسجم مع هذه الخلفية أو اللوحة التي تُرسم عليها صور الإنسانية المشرقة. وفي هذا المنظور، ندرك أن الحكمة البدئية لا تقف من أي مبدأ موقف الرفض الكلي، أو تقف منه

---

[1] ـ في فصل «النزعة الإنسانية والشمولية في الفلسفة» من كتابي «وحدة الفكر الإنساني»، ذكرت أن الحكمة، بمفهومها المطلق، تتدرج، في تطورها الهابط، في مستويات ثلاثة:

آ ـ الحكمة الإلهية ـ ثيوصوفيا، وهي الحكمة السامية المطلقة، أو الحقيقة السامية.

ب ـ الحكمة البدئية ـ صوفيا، وهي حكمة الإنسان الروحي البدئي الذي كان، عبر حكمته، على صلة مع الحكمة الإلهية ـ الإنسان الذي كان يعرف أن العالم المادي ظهور للعالم الروحي، ويمارس فيه سموه الروحي.

ج ـ محبة الحكمة ـ فيلوصوفيا، وهي المستوى الذي تراجعت فيه الحكمة البدئية عن علاقتها الوثيقة مع الحكمة الإلهية. وفي هذا المستوى، أصبح الإنسان محباً للحكمة، ولم يعد حكيماً. والحق، أن تراجعاً جديداً، وأخيراً، وقع لمحبة الحكمة، تمخّض عنه ظهور العقل الذي يسعى إلى المعرفة عن طريق التجربة، فيخطئ ويصيب.

تشتمل الحكمة القديمة، أو البدئية ـ صوفيا، وهي تسعى إلى تحقيق الحكمة الإلهية ـ ثيوصوفيا على مستوى كوكب الأرض، على المبادئ الثلاثة الرئيسية التالية:

أ ـ تحقيق الأخوة الإنسانية، ومحبة جميع الناس بمعزل عن عرقهم أو لونهم أو عقيدتهم.

ب ـ توحيد نطاقات الفكر الإنساني في دراسة مقارنة للدين والفلسفة والعلم.

ج ـ دراسة القوانين الإنسانية والطبيعية والكونية، والولوج إلى محراب أسرارها.

موقفاً سلبياً أو عدائياً. وعلى غير ذلك، تسعى إلى بناء جسر بينها وبين الحكمة المنطوية في المبادئ الأخرى.

في هذا السياق، ندرك الجانب الفلسفي ـ اللاّ هوتي للحكمة البدئية التي تميّز بها الإنسان الأول لدورنا الحالي الذي اصطُلح على تسميته بـ «آدم». أما الجانب العلمي. النظري أو الواقعي، فإننا ندركه في المبادئ العقلية ـ المنطقية المتسامية التي يتحدث عنها العلماء ـ الحكماء الذين بلغوا، في بحوثهم، تخوم الحكمة المضمونة في صدر الحقيقة الواحدة والشاملة. وإن من يتعمق في دراسة هذه الفئة المفكرة، الواعية والحكيمة، يعلم أنها تتجاوز العلوم المادية التي نجدها في بطون الكتب، وفي البحوث الرائعة.

ثانياً ـ الحكمة القديمة والعلوم الحديثة:

تبحث «الحكمة البدئية» في الموضوعات والقضايا المطروحة في نطاق الفكر الإنساني دون أن تتجاوز المستوى الذي بلغته العلوم التجريبية التي ندعوها العلوم المادية. وإن هي تجاوزتها، فلأنها تريد أن تشير إلى أن المستوى الذي بلغته مبادئ الحكمة التي نجدها في تعاليم الـ «ثيوصوفيا» أسمى بكثير من المستوى الذي بلغته المعرفة العلمية المُختبرة. فالعلوم الفيزيقية. في نظرها، ما زالت متخلفة عن معرفة الحقيقة في جوهرها، وما زالت تلمس سطوح المعرفة المنطوية في الحكمة، وتدرك ظاهراتها فقط. وفي هذا التسامي والتجاوز، تبوأ «العلم الروحي»، المنطوي في الحكمة والمعبِّر عنها، الصدارة. هذا، لأن «العلم الروحي» يشير إلى أن المعرفة السامية والوعي الصافي لا يتحققان إلاّ بالحكمة التي تتجاوز التجربة الحسّية ـ الحكمة التي عبّر عنها حكماء الماضي، وتوصلوا، من خلالها، إلى معرفةأسرار الكون، والحياة والإنسان.

يمكننا أن نقول: إن «الحكمة القديمة» لا تتنكر للنتائج الباهرة التي توصلت إليها العلوم الحديثة في أبحاثها الأخيرة المتطورة. فقد عمد علماء البيولوجيا، والفلك والفيزياء، في الفترة الأخيرة، إلى إقامة تأليف بين اختباراتهم وأبحاثهم؛ وسعوا، بجهودهم المتواصلة في مراكز بحوثهم، إلى تحقيق علاقة بين هذه العلوم. ولاشك، أن التأليف الذي أحدث تكاملاً بين هذه العلوم بلغ نطاق التوحيد. وقد وطّد الاعتقاد والإيمان الرّاسخين بالوحدة الروحية ـ النفسية ـ الفيزيقية للكون. ويشير هذا التأليف إلى أننا سنجتاز عتبة أو مرحلة جديدة للحياة والوعي تتسم بتلاقي العلوم وتآلفها، وتتسامى على التشتّت الذي أصابها في القرون الماضية. ويعود الفضل، لهذا التلاقي،

إلى الجهود التي بذلها علماء ـ حكماء عديدون في نطاقات العلم الثلاثة: الفيزياء، والبيولوجيا والفلك. وفي سبيل تحقيق التأليف، وُضعت مؤلفات عديدة تبحث في النتائج التي اختبروها، وتحمل، على سبيل المثال، العناوين التالية: العلم والروحانية؛ الطاقة والمادة الحية؛ الطاقة والخصائص النفسية والعقلية للمادة؛ الروح، ذلك المجهول؛ التأليف الجديد للمادة والعقل. وقد ساهم علماء ـ حكماء أفذاذ في هذه الدراسات والبحوث، نذكر منهم، على سبيل المثال: جان شارون، الفيزيائي اللامع؛ إيليا بريغوجين، عالم الكيمياء الحاصل على جائزة نوبل؛ روبير لنسن، العالم والفيلسوف.

إن دلّت هذه النتائج العلمية التأليفية على شيء، فإنما لتبرهن على وجود حقيقة كونية واحدة، تتجاوز الظاهرات كلها وتشملها في آن واحد. ولا يدهشنا أن نعلم أن هذه النتائج، التي توصل إليها العلماء ـ الحكماء بعد جهد كبير استغرق قروناً عديدة، اتخذت، أثناءها، من التجربة والاختبار طريقة للبرهان الذي يؤكد حضور حقيقة شاملة وكلية، نجدها في مؤلفات «الحكمة القديمة» المتصلة بـ «الحكمة الكونية»، أو في تعاليم بعض الحكماء أمثال إخوان الصفا ومؤسسي هيكل دلفي، الذين احتفظوا بسرّانية هذه العلوم، وعلّموها لأتباع أو مريدين مختارين أصبحوا، بدورهم، معلمين حكماء ومرشدين.

في الوقت الحاضر، تبعث «الحكمة القديمة» مبادئها المكنونة وعلومها السرّية السامية إلى الوجود، وتركز جهودها على دراسة كل حصيلة علمية وكل بحث اختبره العلماء في كل الحقول، وذلك لثلاثة أسباب:

أولاً ـ هو أن هذا العصر قد طُبع بطابع البحث العلمي، والتجربة، والإختبار والسعي إلى صياغة قانون يوحّد القوانين والقوى الأربع الرئيسية؛ فلابّد، في هذه الحالة، من اعتماد طريقة علمية ومنطقية وعقلية تضع الحكمة البدئية موضع الاختبار.

ثانياً ـ هو أن النتائج، التي توصل إليها العلماء ـ الحكماء، تتوافق مع ما جاءت به كتب الحكمة القديمة ومبادئ المعلمين الحكماء الكبار. وهكذا، لا نجد اختلافاً بين العلم الروحي والعلم المادي، حتى ولو كانت الأسبقية من نصيب العلم الروحي.

ثالثاً ـ هو أن العلماء ـ الحكماء الباحثين عن الحقيقة يسعون إلى معاينة مبادئ الحكمة في تجاربهم واختباراتهم، الأمر الذي يجعل العلم الحديث عوداً إلى الحكمة.

نستدل، مما تقدم، أن الحكمة المضمونة في الحكمة الكونية، أو في المؤسسات

الفلسفية والعلمية التي تسعى إلى المعرفة اللاّ مشروطة، وإلى الحقيقـة الصافيـة تتبنّـى الطرائق الكفيلة بشرح وتوضيح قضايا الحكمة القديمة وحقائقها. وتثابر هـذه الحكمـة في جهدها، على المستوى العلمي والروحي، وتشدد على طرح قضية هامة على بسـاط البحث هي أن الـروح والمـادة قطبـا كيـان واحـد علـى مسـتوى كوكـب الأرض، وأن الدراسة العلمية المعمقة تعجز عن رؤية الكـل أو اختبـاره في الظـاهرة وحدهـا، الأمـر الذي يشير إلى تقاعس التجربة الجزئية عن معالجة الحقيقة الكلية. وعلى غير ذلك، تستطيع الحكمة، وهي العلم المختبر بمفهومـه الروحـي، والـتي تبحـث عـن الكـثرة المتنوعة ضمن وحدة متكاملة، أن تشاهد الوحدة التي تؤلـف هـذه الكـثرة الظـاهرة في الأجزاء الفردية. أما العلم التجريبي الذي يبحث في الكثرة والتعدد التجزئ والمتنوع، فإنه يعجز عن تأليف أبعاد الكثرة في وحدة أو تكـامل. لـذا، يؤكـد العلـم الروحـي، الممثّل في الحكمة، على أن الفرق القـائم بينـه وبـين العلـم المـادي، الممثـل بالتجربـة الحسية والإدراكية، فرق في الدرجة وليس في الجوهر. هذا، لأن الروح والمـادة وجـود واحد يتصف بمراتب اهتزازية تتدرج من الكثافة إلى اللطافة.

يمكننا أن نوجز ما أوردناه أعلاه، فنقول: إن العلم الروحي، وهـو علـم مـادي متطور، لا يبحث في وجود الجسد الإنساني كظاهرة واقعية فحسب، بل يدرسه على نحو وجود متصل بالكون. فالجسد الإنسـاني يُـدرس مـن حيـث أنـه حقيقـة كونيـة وكلية. ولا تكتمل هـذه الدراسـة إلاّ إذا وعينـا الكـل الكونـي في الإنسـان. فـإذا كـان الجسد الإنساني، في حقيقته، خمسة أجساد وكـان الكـون كلـه سـبعة عـوالم، فـإن دراسة هذا الجسد تشير إلى وجود توافق بين الأجساد الخمسة وما يتماثل معهـا مـن العوالم السبعة. ولما كـانت الأجسـاد الخَمسـة تتوافـق مـع العـوالم الخمسـة وتتمـاثل معها، فإن دراستها لا تتم بمعزل عن دراسة العـوالم الخمسـة المذكـورة. وفي الواقـع، يتجاوز العالمان الأخيران الوجود الواقعي للأجساد الخمسة، ويمثلان الحقيقة الإلهية السامية.

يشير هذا التصور إلى ثلاثة أمور:

أولاً ـ تقصير العلم الفيزيقي في حقل الوعي الشامل.

ثانياً ـ اعتماد هذا العلم على وسائل المعرفة المجزأة.

ثالثاً ـ اعتبار العلم المادي المتطور طريقاً يؤدي إلى المعرفة المتكاملة.

والحق أن العلم المادي يعرف الكثير عن الغدد، ويجـهل الكثير عـن حقيقتهـا.

وفي هذا الصدد، يعوّض العلم الروحي عن التقصير الذي يعاني منه العلم المادي، فيشرح، على سبيل المثال، حقيقة الغدة الصنوبرية والغدة النخامية وغيرهما، والدور الذي تقوم به كل غدة في الجسد. ولدى الاطلاع على ما جاء به العلم الروحي في هذا المجال، نتأكد أن الخلفية التي اعتمدها هذا العلم مادية، والحقيقة التي وضّحها روحية. وعلى هذا الأساس، يكون الفرق بين هذين العلمين كبيراً، ليس لأنهما يتناقضان، بل لأن العلم المادي لم يدرك غير المستويات الأدنى والأغلفة الظاهرية من وعي المادة. والحق أن النتائج التي توصل إليها العلم الروحي تعتبر مذهلة إذا قيست بالنتائج التي توصل إليها العلم المادي. لذا، يقف الباحث من هذه النتائج عند مفترق طرق عاجزاً عن تبيان الطريق الذي يوصله إلى الغاية المنشودة ما لم يركّز تفكيره ويحث طاقته على الفعل وعقله على التأمل. وفي هذا المنظور، لا يكتمل كل علم منهما إلاّ بالآخر. وبالتأكيد، يكون الفشل حليف العلم المادي في حال عجزه عن تصور الكل، أي وحدة الوجود الروحية والنفسية والمادية. هذا، لأن الروح والمادة كيان واحد، وما الفرق بينهما غير فرق في درجة الاهتزاز. وبالمثل، يعد العلم الروحي والعلم المادي علماً واحداً؛ وما الاختلاف بينهما غير اختلاف في الفهم والوعي. وفي القديم، قالت الحكمة: كما في السماء كذلك على الأرض.

أقرّ العلم المادي أن المادة طاقة في درجة اهتزاز معينة. وتأكد علماء الفيزياء المحدثون الذين يختبرون تجاربهم جنباً إلى جنب مع علماء الفلك والبيولوجيا أن الجزيئات الدقيقة التي وجدوها في قلب النيوترون، ودُعيت نيوترينو، تتماثل مع الأشعة التي تأتينا من مسافات بعيدة جداً. وبرزت حقيقة جديدة في هذه البحوث هي أن الالكترونات السالبة هي أيضاً الكترونات موجبة. وبعد مخاض طويل في هذه البحوث، أدرك العلماء أن هنالك، في أعماق المادة، مادة أخرى هي مادة مضادة. وفي هذا المجال، يمكننا أن نسأل: ما طبيعة هذه المادة المضادة.

لا توجد مادة مضادة، ولاتوجد مادة كثيفة. هنالك حقيقة واحدة ندعوها الطاقة، وذلك وفق مستوى كوكبنا الأرضي. ولا نخرج عن نطاق الحقيقة إذا نحن دعونا هذه الطاقة حياة أو روحاً. ولهذا، يؤكد العلماء الحكماء ــ المحدثون وجود نفس شاملة وكونية، هي حياة، أو طاقة أو وعي أو روح واحدة للكون كله؛ فكأن للكون رئة واحدة يتنفس منها، وروحاً واحدة تحييه، وأعضاء واحدة تسري فيها حياة واحدة. والحق، أن الجوهر الثلاثي للكون يشير إلى الروح والمادة والعلاقة المتداخلة والمتبادلة بينهما التي هي الحياة. ولقد أدى هذا المنظور إلى وضع نهاية

للنظرية الآلية التي نادى بها فلاسفة وعلماء قدامى، في غضون القرون الماضية، إذ جعلوا من الكون آلة ضخمة تتحرك أجزاؤها وفق نظام وتدبير يصدران عن كيان أو مهندس يقع خارجها، يضبطها ويحركها.

وقد أحلَ علماء ـ حكماء وجهة النظر الديناميكية محل وجهة النظر المكانيكية ـ الآلية. ووفق وجهة النظر الديناميكية، تسري حياة واحدة في الكون، وتتخلل أجزاءه كلها، وتنفذ إلى كل نقطة من نقاطه. ويرى أنصار الديناميكية أن الروح ـ الحياة التي تنبث في الكون واحدة، والطاقة التي تفعل فيه واحدة، والمادة التي نراها، ونحس بها ونلمسها ونُجري تجاربنا معها، وفيها وعليها ليست أكثر من تموجات اهتزازية معيّنة لهذه الطاقة، أو الحياة، أو الروح، أو هي مجرد كثافة معيّنة لها تتوافق مع مستوى كوكبنا. وهكذا، يتجلى الكون في مستويات هي موجات اهتزازية وحقول طاقة تمتد من الأدنى إلى الأعلى، من الأكثر كثافة إلى الأقل كثافة، أي الأكثر لطافة. وبالإضافة إلى ذلك، يعتقدون أن الكون البدئي هو، كما يقول أحد العلماء ـ الحكماء، الأبدية التي يُعد الزمان صورتها المتحركة.

ثالثاً ـ التكامل أو الوحدة الضمنية بين الأقطاب المتقابلة:

تنتهي نظرية الأضداد عند تخوم النظرية الديناميكية التي يعترف أنصارها تعترف بأن الأضداد غير موجودة في الكون. وعلى غير ذلك، يقرّ أنصارها أيضاً بوجود ثنائية ظاهرية تتجلّى في قطبين هما وجهان لكيان واحد أو لحقيقة واحدة. والحق أن هذه الثنائية لا تحتفظ بواقعيتها وظاهريتها ونحن نتوغل إلى أعماق الوجود المادي، لأننا نجدها جوهراً واحداً هو إشعاع.

لما كان كوكبنا هو الكوكب الأدنى في سلم مراتب الوجود، واتصف بكثافة كبرى وبدرجة اهتزاز ضئيلة، فإن الثنائية تبدو لنا وكأنها مسلّمة أو ضرورة أو حتمية. وإذا كان الكون يتألف من عوالم يتداخل بعضها ببعض، بحسب درجات اهتزازها، فإنما لنشير إلى أنه نطاق واحد حي، تسري فيه طاقة واحدة، وعي واحد، وخصائص نفسية وعقلية واحدة. وعلى الرغم من اختلاف وتنوع مستويات الكون، لكن تداخلها ببعضها، أو مع بعضها، يشير إلى تفاعلها ضمن كيان كوني واحد.

والحق، أن مستويات الكون ليست منضدة أو مرتبة فوق بعضها، وذلك لأن التنضيد أو التسلسل الرتبي يحرم المستوى الأدنى من مزايا المستوى الأعلى. ومع

ذلك، لا يستطيع سكان هذا الكوكب أن يشعروا، أو يُحسّوا باهتزازات العوالم الأخرى، وذلك لأنها تخرج عن نطاق كثافتهم. ولن يكونوا قادرين على الشعور أو الإحساس بها، ما لم يتجاوزوا كثافتهم. ولا شك، أن دائرية الكون، أو كرويته، دليل على تداخل العوالم. لذا، نجد أن بعض العلماء يخطئون إن هم شبهّوا الحياة على مستوى آخر، أو على كوكب آخر، بمستوى الحياة على كوكبنا، وإن هم أخضعوا تلك الحياة لمقاييسنا ومعاييرنا. فنحن لا نستطيع أن ننفي الحياة في مستوى آخر، أو في عالم آخر، أو نؤكد وجودها لمجرد أن حياتنا الأرضية تخضع لمعايير اصطلاحية نتفق على وضعها، ونصوغها بقواعد معيّنة.

لما كانت العوالم، حتى العالم الخامس، متضمنة في جسدنا الإنساني، فيتوجب على الإنسان أن يعرف الحقيقة الكونية ويعيها، وهو يحيا حياته الأرضية. ولا شك، أن هذه المعرفة تُعتبر غاية في الصعوبة. إذن، فالإنسان المكوَّن على صورة نظام كوني يحيا وجوده على كوكب هو أدنى مستويات العوالم، وأكثرها صعوبة، وأقلها اهتزازاً أو لطافة، وأكثرها كثافة. وتقضي الغاية التي من أجلها وُجد هذا الكائن أن يحقق أعلى المستويات، وأرقاها، وأسماها وألطفها وهو يحيا حياته الأرضية. ولن يكون الإنسان قادراً على إنجاز هذا التحقيق إن ظل محتجزاً ضمن نطاق المقاييس والمعايير الفيزيقية المحدودة. ومن الأهمية بمكان أن أشير إلى أن مصطلح «أدنى العوالم» لا يحمل الإساءة إلى كوكبنا أو يوجه إليه الاحتقار بقدر ما يشير إلى أنه يحتل المستوى الأول بين المستويات الكلية.

رابعاً ـ العلم المادي يتلمس الطريق

بدأ العلم يتلمس الطريق المؤدي إلى معرفة الحقيقة. وأخذ هذا العلم يدرس القوانين الكونية الشاملة ساعياً إلى إدراك هذه الحقيقة الكلية على نحو تصوّر وحدْس معاً. وفي دراسته، توصل هذا العلم إلى الإقرار بروحانية المادة وخصائصها النفسية والعقلية، والاعتراف بنفس للكون تنبض بالحياة، وبطاقة ديناميكية تفعل فيه، وبحياة دائمة لا تضمحل، وبوعي مكنون، وكامن ومنطو، وبعقل يتجاوز الدماغ. وتأكد هذا العلم من استمرار وجود الطاقة بعد تقلّص الكتلة. فالمادة لم تعد تحتفظ بتعريفها القديم الذي يشير إلى أنها طاقة هامدة أو خامدة. وعلى غير ذلك، أصبحت تُعرف بأنها الطاقة ذاتها، الفاعلة ضمن اهتزاز معين. ولذا، يضيّق العلماء ـ الحكماء المحدثون الفجوة الواسعة التي كانت تفصل بين الروح والمادة. فقد بنوا جسراً يصل قطبي الثنائيات الأرضية. وعلى هذا الأساس، لا يعتبرون الوجود على مستوى

كوكب الأرض تناقضاً لثنائية ضدّين. والحق أنهم بدأوا يدركون ويعون الوحدة الكامنة والمنطوية في قلب تنوعات الأشياء والموضوعات.

يمكننا أن نقول: إن الثنائية، أو الازدواجية، المطروحة على مستوى تناقض الأضداد أدّت إلى تأخر البشرية وتخلّفها في نطاق المعرفة وتضامن البشر في المحبة أجيالاً طويلة. فقد قلّصت هذه الثنائية العدائية القدرة على المعرفة إلى حدّها الأدنى، وفرضت حصارها على مجال البحث، والتقصّي والاختبار. وفي الآونة الأخيرة، بدأ العلماء ـ الحكماء يدركون أن الكون لا ينضوي تحت مقولتي المادة والروح، بل يتصف بمزايا الوحدة المتكثرة ضمن جوهر واحد يتدرج عبر مستويات سلسلة الوجود الكبرى.

إذ أدرك العلماء ـ الحكماء هذه الحقيقة، سهُلت عليهم الدراسات والبحوث، واتجهت حقول اختصاصاتهم إلى التكامل أو التوحيد، ونزعت مفاهيهيم وقيمهم إلى التقارب. وفي الوقت الحاضر، يعترف أولئك العلماء بوجود كوني، وقانون واحد يشمل الصيغ والقواعد كلها، الأمر الذي كان يرفضه أدعياء ثنائية الأضداد المتناقضة على المستوى الأرضي والكوني، إن كانوا ينتمون إلى العقائد الدينية أو العلمية. فالثنائية، في مفهومها العامي، تحمل في ثناياها بذور التناقض: هي ثنائية نزاعيّة وتخاصمية، أدت إلى كل ما نجده من تناقضات عدائية بين الروح والمادة، بين العقل والدماغ، بين المثال والواقع، بين الظلام والنور، بين الفناء والبقاء، بين الحياة والموت، بين المادة الحية وغير الحية، بين الرجل والمرأة، بين الخير والشر، بين الله والعالم، بين الأعلى والأدنى، بين الإله المشخّص والشخصي الذي يتعارض مع الوجود ويتعالى عليه. لقد أقامت هذه الثنائية الخصامية والعدوانية حواجز منيعة بين تعارضات أقطاب ظواهر الوجود، وأدت إلى تعزيز الكثرة والتجزئة دون وعي للوحدة الكامنة فيها. وهكذا، تقهقرت التكاملية التي تصالح التعارضات الظاهرية في أقطابها الثنائية المتقابلة.

خامساً ـ الثنائية، التنوع والوحدة

في الوجود الذي نحيا فيه، نعاين ثنائية ظاهرية ووحدة حقيقية. وفي هذا الوجود ذاته، وهو كوكب الأرض، يسود مبدأ هو، في ظاهره ثنائية. وبالفعل، لا يتشكل هذا الوجود الأرضي إلا بالثنائية، بمعناها العلمي والروحي. ومع ذلك، لا نستطيع أن نكرّس الثنائية ونعززها، ونعتبرها المبدأ القائم بذاته ولذاته. وفي الوجود الذي نحيا فيه ويحيا ناموسه فينا، وهو الكوكب الأدنى في سلّم المستويات، توجد

وقائع وحقائق. فالوقائع هي ما نجده في المحسوسات، والتعيينات، والموضوعات والتشخيصات. والحقائق هي ما نجده في الماهيات، والجواهر والأنماط البدئية التي نتصورها وتتمثلها. لذا، كان مبدأ الوجود الذي نحيا فيه، ونطلق عليه مجازاً اسم الوجود المادي. يعني انتقال الإنسان من الثنائية والتعدد والتنوع إلى الوحدة أو التكامل. ونعني تحقيق الوحدة الشاملة للثنائية والتعدد والتنوّع.

في الوجود الذي نحيا فيه، وهو كوكب الأرض، توجد كثرة وتعدد وتنوع. وبالفعل، لا يتشكل هذا الوجود إلاّ بهذه الكثرة والتنوع: وقديماً قيل: الوجود هو الكل في الواحد وقد تكثّر. فالكثرة هي ما ندعوه الواقع أو الوقائع، والوحدة هي ما ندعوه الحقيقة أو الحقائق. والحقيقة هي المثال الذي يلازم الواقع. والجوهر البسيط الذي يلحم تعدده وكثرته. هذا، لأن المثال يقبل التعيين، والجوهر البسيط يقبل التشكل والتكوّن. وفي هذا المثال ـ الواقع، تكمن صعوبة فهم الوجود المادي خلال كثرة تعدده. لذا، يتمثل مبدأ الوجود المادي في تحوّل الإنسان من الكثرة إلى الكل في الواحد. ولما كانت العلوم، في تجزئتها، تبحث في الوجود من خلال الكثرة المتنوعة، والثنائية الظاهرية، فإن الضياع كان من نصيب العقل، والتشتت كان من نصيب العلوم. وفي الآونة الأخيرة، بدأت هذه العلوم تتلمس الحقيقة الواحدة، وتسعى إلى التأليف بين فروعها، وذلك كي تكون قادرة على تصوّر بنية واحدة ونسيج واحد للكون، تتداخل خيوطه وتتواشج. فما تجده هذه العلوم في الكون الصغير، أصبحت تجده أيضاً في الكون الكبير. وما تجده في أعماق الذرة، أصبحت تجده في أعماق الفضاء. وهكذا، بدأ العلم يوفّق بين الأدنى والأعلى، ليستنتج أن بنية الكون واحدة وخيوط نسيجه المتنوعة والمتواشجة واحدة. وبدأ يعلم أيضاً أن الاختلاف بين الكبير والصغير، بين الكل والجزء، بين المادة والروح اختلاف في الدرجة وليس في الجوهر.

عندما نتساءل عن جوهر المادة وحقيقتها، ومسألة اعتبارها طاقة في درجة اهتزاز معينة هي درجة كثيفة، ندرك الجواب التالي: إن الكون، في أكبره، يتجه إلى التركيز في أصغره، ونعني التركيز في بؤرة أو نقطة. فكل وجود في الكون سعى إلى التركيز في المكان أو الموضع. وكما أن الشجرة تتركز في البذرة وتنطوي فيها، وكما يتركز الإنسان في الخلية، كذلك يتركز الكل الشامل في الوجود المادي، الكثيف والصلب. ومع ذلك، لا تُفصح هذه البؤرة الصغيرة المركزة عن الحقيقة الكامنة فيها بسهولة. فلو أننا أمعنّا النظر في الخلية، وسعينا إلى تكبيرها آلاف آلاف المرات لشاهدنا فيها صورة الإنسان. ويحتمل أن نرى دماغه، وقلبه وعينه وشعره ...إلخ.

وإذا ما طرحنا على أنفسنا السؤال التالي: كيف تعيّنت هذه الظاهرات كلها، ومن أين انبثقت؟ أجبنا: إنها كانت منطبعة، أي مصوّرة، أو كامنة في الخلية ذاتها. وهكذا، نقول: إن الصورة الإنسانية أضحت كثيفة ومقلّصة لدرجة أنها تركزت في بؤرة اصطُلح على تسميتها بالخلية. وبالفعل، تكون الخلية هي الصورة التي سعت إلى تكثيف ذاتها، وتغليف ذاتها في بؤرة صغيرة، لتنطوي فيها. ولا شك، أن هذه البؤرة ستُفصح عن ذاتها بفعل قدرتها، أي طاقتها وحياتها وروحها على التطور والنموّ. وإن ما نجده في الخلية، نجده في الذرة أيضاً. فالذرة هي الكثافة الوجودية؛ هي صورة الوجود وقد بلغ أدنى مراتب لطافته وأعلى مراتب كثافته والتفافه على ذاته. فالذرة هي الصورة الكونية وقد سعت إلى إظهار ذاتها، أي الكشف عن ذاتها، بفعل تطور هابط منطلق من اللطافة لينتهي إلى الكثافة. وإذا ما سعينا إلى تكبير الخلية والذرة، أي لو توافرت لدينا الوسائل العلمية لتحقيق هذا التكبير، لوجدنا صورة الإنسان في الخلية وصورة الجوهر المادي والكوني في الذرة. ولو أننا سعينا إلى تكبير الإنسان، أي لو توافرت لدينا الوسائل الكفيلة بهذا التكبير، لوجدنا الكون كله، حتى درجاته العليا، وقد تغلّف في الإنسان وانطوى على ذاته فيه. أما عملية التطور الهابط من الكون إلى الإنسان، وتغلّفه فيه، وتكاثف الوجود في الذرة والخلية، وانغلاق الكل الكبير جداً في الكل الصغير جداً، فندعوها الكون الملتفّ على ذاته في انطواء. وبالمثل، ندعو عملية التطور الصاعد من الخلية إلى الإنسان، ومن الإنسان إلى الحقيقة السامية أو الكل المطلق، وانفتاح الصغير إلى الكبير، النمو والتطور الصاعد، أي الانفتاح. إذن، هنالك هبوط من الأعلى إلى الأدنى، ندعوه الانثناء أو الانطواء أو الانغلاق، وصعود من الأدنى إلى الأعلى ندعوه الانفتاح والتطور، أي الكشف عن الحياة الكامنة، والطاقة المستترة والروح الفاعلة.

لا تكتمل العملية الثنائية، وهي انفتاح الصغير الكثيف، المنطوي على ذاته، إلاّ بالوعي والحرية. هذا، لأن الوعي يعني تطور الشيء في ذاته ومعرفته لذاته. والتطور، أو النمو أو الانفتاح، يعني الوعي المتزايد والحرية التي تسعى إلى كمالها. فكما أن البذرة تصبح شجرة ورد، وتنغلق على ذاتها في البرعم، لتنفتح إلى الوردة بأريجها وشذاها الرائع، كذلك ينغلق الوجود في الخلية، لتنفتح بدورها على ذاتها وتتحرر من انغلاقها، حتى تصبح إنساناً. والإنسان، في هذا المثل، يشبّه بالبرعم: إنه ينغلق على ذاته على نحو كمون يسعى إلى معرفة ذاته، ووعي كينونته أثناء تطوره الصاعد.

هكذا، يشتمل الإنسان، في جسده الخماسي، على العوالم الخمسة. فقد تركزت هذه العوالم في الإنسان، في أجساده، فتداخلت وتفاعلت. وأصبح كل جسد يماثل عالماً من العوالم، من حيث أن الكبير يتركز في الصغير. فالصغير يتماثل مع الكبير، ويتطابق معه ليكون قانون الكون واحداً. فإذا ما سعى الإنسان إلى تحقيق الكون في وجوده الجسماني الخماسي، سعى أيضاً إلى تحقيق العوالم الخمسة الكبيرة المتداخلة ببعضها والمتحدة في جوهرها. وعلى هذا الأساس، يمثل الإنسان صورة الكون، بعوالمه الخمسة، ويتركز في بؤرة تماثل النقطة التي هي تركيز الدائرة. وهكذا، لا يكون الإنسان جسداً واحداً مالم يحقق وحدة الأجساد الخمسة أو تكاملها في حقيقة واحدة. وبتحقيق هذه الوحدة، يحقق الوجود، والكون والحقيقة السامية، ويصبح كائناً نورانياً. ولهذا السبب، تشير الحكمة إلى أن الإنسان الذي يحقق ذاته في كيان واحد يحقق الوجود كله. والإنسان الذي يعرف نفسه، يفهم الكون كله ويتّحد معه. وهذه هي حكمة وسرانيّة الوجود الإنساني.

سادساً ـ الشك المعرفي واللا أدرية في العصر الحديث

حاول العديد من «المفكرين التقليديين» إتهام العصر الحديث باللاّأدرية[1]. ومن جانبنا، لا يمكننا الأخذ بهذا الاتجاه الفكري المحدود. ونعتقد أن علماء العصر الحديث قد تعرّفوا على جوهر المادة، وتفحصوها وأدركوها بالتجربة والاختبار، وبالدراسة النظرية والواقعية، وأقروا بأنها روحانية في صميمها، أو أنها حية في طاقتها. فقد سعوا إلى معرفة حقيقة الوجود والتعمق في فهمه. وفي تعمقهم هذا، وجدوا الأساس الجوهري ـ وجدوا أنفسهم في طريقهم إليه ــ الذي بنوا عليه، وما زالوا يبنون نظرياتهم الحاضرة والمقبلة. ونعتقد أيضاً أن هذا العصر، في نهاياته، سوف يتمخّض عن وعي متسام لماهية العالم المادي. ويعود الفضل، في هذا السعي الحثيث إلى المعرفة، إلى العلماء ــ الحكماء، وإلى أمثالهم الذين أسهموا في القديم لإدراك هذه الحقيقة. أما اتهام هذا العصر باللاّ أدرية فمرده إلى ضيق أفق المنهج التقليدي الذي تتبناه مؤسسات تقليدية ــ دينية كانت أم عقائدية ــ ترى في كل خروج عن تقليدها الصارم انحرافاً غير مبرر. وهكذا، تصبح اللاّ أدرية صفة زائفة ألحقت بهذا العصر، وبغيره من العصور، لسبب هو أنه رفض الانصياع للمؤسسات المنهجية التقليدية أو السير في ركاب التقليديين المنفعلين بمنهجية العقائدية الضيقة.

---

[1] ـ هي الاعتقاد بأن وجود الله، وطبيعته وأصل الكون أمور لا سبيل إلى معرفتها.

وإذا كان العقل العلمي والفلسفي، في هذا العصر. قد استهل تجربته العلمية انطلاقاً من بداية حسنة ولم يعاين الحقيقة بكاملها، فانحرف قليلاً عن المألوف، فإنما يعني أن اللاّ أدرية تشير إلى الشك المعرفي وليس الشك بمعنى الرفض أو الإنكار. فقد اعتبر الشك المعرفي السبيل الوحيد لإقناع العقل الباحث بأن الحقيقة موجودة فيه كما هي موجودة خارجه في الطبيعة والكون، وأن الظاهر هو الباطن، والمادة، في نهاياتها القصوى، هي الروح، والروح، في نهاياتها الصغرى، هي المادة، وأن الوجود حقيقة واحدة ضمن مستويات ورتب اهتزازية تتضمن الأدنى منها في الأعلى. وتيقّن العلماء من أن الكل لا يوجد في الجزء، وذلك لأن الكل، وهو الجوهر البسيط اللاّ منقسم، لا يتجزأ: فلا جزء في الكل، ولا كل في الجزء. وفي هذا المجال، أخطأ العقل وتعرّض للضياع. هذا، لأنه تاه في ظلمات الكثرة والتعدد وهو يتحدث عن الجزء. وعندما تفرعت العلوم وتنوعت، بدأ العقل يدرك أن ثمة حقيقة واحدة تجمع الكل في خلفية واحدة. وعلم أن الجزء هو الكل المصغّر أو المقلّص، وليس جزءاً من كل مفترض وفق اصطلاح.

سابعاً - تكامل العلم الروحي والعلم المادي

ظلت الأطروحات العقلية والروحية القديمة ضمن نطاق الرمزية طيلة قرون عديدة. ولم يبذل الباحثون جهداً كافياً ليبدعوا طريقة ناجحة تهدف إلى تفسير أو ترجمة سرانيتها، الأمر الذي جعل منها قضية أسطورية مُتهمة بالغموض، أو أحجية سحرية أو قصة تخرج عن نطاق الحكمة والفلسفة والعلم. والحقيقة هي أن هذه الأطروحات احتفظت بسرانيتها وعاشت في طيّ الكتمان. ولهذا السبب، اتهمت سرانية الحكمة باللغز، والغموض والغيبية كما تفهمها عامة الناس. وعلى غير ذلك، تنأى السرّانية عن العجز في الفهم أو القصور في الإدراك والوعي. فهي تعني التعمق في العرفان. وليس السرّ غير الحقيقة التي يزداد الإنسان فهماً لها ومعرفة بها، فتزداد عمقاً، ويزداد تأمله المعمّق بها. لذا، تكمن السرّانية في الحكمة التي تحاول أن تميط اللثام عن الحقيقة المستترة في عمق الوجود والطبيعة والإنسان... إنها الرؤيا التي تسبر عمق الحقائق والوقائع التي نعجز عن معرفتها إلاّ بالتجربة الفكرية والتأملية.

هنالك عمق في الكون، ندعوه سرّاً. وهنالك إنسان، هو عمق بذاته، أو سرّ يسعى إلى فهم سرّه وسرّ الكون. ولمّا كانت السرانية كامنة فيه وخارجة عنه، وعميقة كل العمق، فإنه يستغرق في هذه السرّانية، ويتدرج في مستويات فهمها ووعيها حتى

يبلغ حدود تحقيقها وفق كمال هذا العالم الأرضي. لذا، تشير حقيقة الحياة إلى رؤية السرّانية ومعاينتها عبر الرمزية، بحيث نبصر سرّانية الرمز في الداخل والخارج. وإذا كنا نعترف بأن الحياة سر، والحقيقة السامية سر، والإنسان سر، والوجود، في مستوياته، سر، والمادة، في جوهرها، سر، فإنما نعني أن السرّانية تغلفنا، وتحيط بنا وتحيينا في عمقها، وتحملنا في أحشائها تماماً كما نحملها. وفي النتيجة، نرى أنفسنا ونحن نسعى جاهدين لفهمها الذي يشير إلى فهم أنفسنا وكل ما تنطوي عليه سرّانية الوجود.

هكذا، نعلم أن العلم الروحي هو العلم المادي ذاته، إنما يتصف بعمق وسرّية هذا العلم. وفي هذا المنظور، يمثل العلم الروحي النومين، أي الباطن والجوهر، ويمثل العلم المادي الفنومين، أي الظاهر والخارج الذي يشير إلى السر الكامن في الجوهر والباطن. وهكذا، يتجلّى الرمز في الظاهر، ويتجلّى السرّ في الباطن.

هكذا، يكون حكماء الروح علماء مادة تعمقوا في دراسة سرّانية علم المادة. وبالمثل، يكون علماء المادة حكماء يختبرون سرّانية الروح في تجاربهم وبحوثهم. وفي هذه الصورة التأليفية، نشاهد العلم وهو يضع الحكمة موضع التجربة والاختبار.

الفصل الثاني

ما بعد الـ «بارابسيكولوجي»

أو علم نفس الظاهرات الخارقة*

مقدمة

ما بعد مصطلحي para و meta:

أود، قبل البدء ببحث هذا الموضوع، أن أطرح، في هذه المقدمة الوجيزة الأسئلة التالية:

هل يوجد تفاعل بين وعي الإنسان وكلِّ ما يحيط به من طبيعة ندعوها مادية ووجودٍ كوني ندعوه لا مادياً؟. وهل أن ما يدعوه بعض المفكرين والعلماء بمصطلح «ما بعد» أو ما «وراء» يشير إلى وجود يقع فعلاً بعد أو وراء الوعي الإنساني ويكون مفارقاً له ومتعالياً عليه؟ وهل أن التعابير والمصطلحات التي تتحدث عن «ما بعد الطبيعة» أو «ما بعد الفيزياء» ـ المتافيزياء، أو «ما بعد علم النفس» ـ الـ «بارابسيكولوجي»، وهو العلم الذي يعالج الظاهرات التي تجاوزت نطاق علم نفس السلوك أو علم النفس العام ـ هي تعابير ومصطلحات دقيقة وصحيحة، أم أن هناك حقيقة واحدة، هي علم واحد تتفاعل مقوّماته أو أبعاده، المرئية وغير المرئية، المعلومة وغير المعلومة، المحسوسة وغير المحسوسة، المعروفة بالوعي والطاقة والمادة؟ وهل أن الـ «بارابسيكولوجي»، أي «ما بعد علم النفس» يقع فعلاً بعد علم النفس، ويشير إلى علم يعالج القضايا الخارقة والظاهرات التي عجز عن تفسيرها أو الاعتراف بها علم النفس العام أو علم نفس السلوك، أم أنه يشير إلى مرحلة متطورة ومتقدمة لعلم بدأ يكشف الغطاء عن أسرار إنسانية وطبيعية وكونية، حاضرة أو ماثلة في واقع وجودنا، وتحدث ظاهراته الخارقة في بعد نفسي أعمق أو أعظم نتيجة للتفاعل بين عناصر

* ـ محاضرة ألقيت ضمن برنامج الجمعية الكونية، دمشق.

الوجود، ووظائف النفس، ومجموعة الحواس الخمس والحواس الأخرى المتمّمة، وتيطل أن تكون خارقة متى سبرنا عمقها وفهمنا حقيقة تمثلت بـ «معرفة النفس»، وعلمنا أنها تطور لاحق لمرحلة سابقة؟

يمكننا، على هذا الأساس، أن نعبر عن أنفسنا قائلين: لا يشير مصطلح «ما وراء» أو «ما بعد» PARA و META إلى وجود يقع إلى ما بعد وجودنا. وعلى غير ذلك، يشيران إلى المفاهيم التالية:

آ - انطلاق العلم إلى ما هو أبعد وأعمق أثناء عملية تطوره. هذا، لأن الأبعد أو الأعمق اصطلاح اعتُبر «ما بعد» أو «ما وراء» أو «ما فوق» قبل معرفته.

ب - الموهبة أو القدرة التي تتجاوز المنطق العقلي القائم على الإدراك الحسّي وحده.

ج - تطوير وتنمية القدرات العقلية والحسية، بحيث يدعى هذا التطوير «الإدراك الحسي النامي أو الزائد Extra Sensory Perception».

نستطيع أن نستنتج ما يلي: إذا كانت الطاقة تتفاعل مع الكتلة، بمعنى أنها تتحول إليها، وهذه الثانية، بدورها، تتفاعل مع الطاقة، بمعنى أنها تتحول إليها، فيتكامل الطرفان، فلا نخطئ إذ نقول: إن الوعي الإنساني يتفاعل مع الطبيعة الحية وغير الحية. والحق، أنه لا يوجد ما ليس حياً في الطبيعة التي تحيط بهذا الوعي. وذلك لوجود حقيقة مشتركة، أو جوهر أو واقع مشترك بينهما. ويتفاعل الوعي الإنساني مع الكون بكامله، أو مع مستويات الكون، لوجود حقيقة مشتركة أو حياة مشتركة أو جوهر أو واقع مشترك بينهما. ألا يتفاعل الإنسان مع الغلاف الغازي الذي يحيط به، ويستنشقه ويُدخله إلى صدره، ومع الأشعة القادمة من أغوار وأعماق الكون السحيقة؟

أود أن أنبّه إلى أن مصطلح «ما بعد» أو «ما وراء» أو «ما فوق» هو مجرد تعبير يشير إلى أن علماً معيناً قد تجاوز الحدّ أو المستوى الذي كان قد بلغه سابقاً. لذا، يعد مصطلح «بارابسيكولوجي» مرحلة متقدمة أو متطورة من مراحل البحث السيكولوجي تجاوزت البعد الفكري، أو التساؤل أو التحليل الذي كان قد بلغه علم نفس السلوك أو علم النفس العام، إنما، مع ذلك، ظل قائماً في علم النفس ذاته. وهذا يعني أن الباحثين لاحظوا أو شاهدوا واختبروا ظاهرات لم يضعوها موضع التجربة سابقاً، وبدأوا يتساءلون عن حقيقتها، فتحدثوا عن «ما بعد» أو «ما وراء» أو «ما فوق».

عندئذٍ، أضيفت السابقة المعروفة بـ Para إلى كلمة Psychologie لتشير إلى بلوغ البحث مستوى أعمق في نطاق الدراسة أو إلى ملاحظة وتسجيل ظاهرة تتطلب التساؤل والتقصّي. وإذا كان الفيزيائيون قد بلغوا في بحوثهم الأخيرة حداً أو مستوى جعلهم يتقصّون إلى ما وراء المستوى الذري أو ما هو دونه، فلا بدّ وأن تصبح السابقة المعروفة بـ meta المضافة إلى كلمة Physics إشارة إلى التعمق في البحث الفيزيائي. وفي الوقت الحاضر، أطلق بعض الباحثين الذين وجدوا تماثلاً بين اللاّ وعي الإنساني، وهو الوعي الكامن غير المكتشف، والمنطوي في الأنماط البدئية داخل الكيان، وبين مضامين المستوى دون الذرّي في الفيزياء، مصطلح «بسيكوترونيك» على تفاعل الطاقة والمادة والوعي الإنساني تماماً كتفاعل المراقِب، وأداة المراقبة والمراقَب. وبهذا الصدد، نستطيع أن نقول: يُعد مصطلح «بسيكوترونيك» Para أو meta، أي «ما بعد» أو «ما وراء» أو «ما فوق» بالنسبة لل «بارابسيكولوجي». ولقد دعاه بعض علماء النفس علم نفس الأعماق، أو علم النفس التجاوزي. ولا نبالغ إذ نقول بأننا نفضل التسمية الأخرى على تسمية «بارابسيكولوجي»، وذلك لأن الإنسان أصبح يعلم أن السابقة Para أو meta مضمونة فيه بعمق. وبقولنا هذا، نعتمد على قدرة الإنسان على اكتشاف العمق أو البعد الذي لم يعد، بعد تقدّم العلوم الفيزيائية والفيزياء الفلكية والبيولوجيا، مجرد ظاهرة خارقة تخضع لتسمية محددة. هذا، لأن الإنسان ذاته وجودٌ خارق، ولأن كل ما في الطبيعة والكون والإنسان، أي لأن كل ما في المادة والطاقة والوعي، يتحدث عن وجوده بعظمة، وعمق وإجلال.

في هذا البحث، نطرح أفكاراً أو أطروحات تشتمل كلٌّ واحدة منها على مفهوم التفاعل بين المادة والطاقة، أو بين المادة والطاقة والوعي.

ما بعد الـ «بارابسيكولوجي» أو الـ «بسيكوترونيك»

في كتاب «الصفر واللا نهاية»، كتب آرثر كوستلر، المختص بفلسفة العلوم التي يدعوها بعضهم «ما وراء» أو «ما بعد» أو «ما فوق العلم Para-Science»، ما يلي: «لو لم يكن الإدراك الحسي النامي أو الزائد Extra Sensory Perception موجوداً لما كان ثمة شيء يحدّ من ازدياد شعوري بالطمأنينة؛ إنه موجود، وأنا أدرك هذا». وإن ما يؤكد وجوده هو أن العلم، في حالته الراهنة، قد ضمنه في بحوثه، وان العلماء يدققون في ملاحظات ضُبطت، وفي فرضيات تجاوزت، في مضامينها، الفهم البشري العادي أو التقليدي.

استطاعت هذه العلوم أن تتجاوز الـ «بارابسيكولوجي»، وأشارت إلى عدم

وجود علم النفس «إلى جانب» أو «إلى ما وراء، أو ما بعد أو ما فوق» علم النفس ذاته. فليس هناك إلاّ علم نفس يشمل الكل، الطبيعة والإنسان والكون. وفي الوقت ذاته، لا يوجد «ما وراء أو ما فوق العلم» لأن ما يوجد فعلاً هو العلم ذاته. ثمة تسمية واحدة تشتمل الآن على دراسة الظاهرات «غير المألوفة»، السرانيّة وغيرها، والموجودة فعلاً. ولقد أطلق عليها ستانلي كريبنر تسمية هي «بسيكوترونيك»، الاصطلاح أو التعبير الذي يشير إلى وجود «علم متداخل التنظيم والعلاقة»، يدرس تفاعل المادة والطاقة والوعي، علم يشير إلى دراسة التفاعلات بين الإنسان والأشياء الحية وغير الحية، أي المادة الجامدة ظاهرياً والحية جوهرياً.

طوال السنوات الأخيرة، ساهم التدقيق والتأليف بين المادة والطاقة والوعي في إبطال الزعم الذي جعل من الكون ساعة أو آلة. فكم هم العلماء الذين، وقد استوفوا شروط عملهم، رفضوا، عن زهو علمي محدود، الانكباب على كل بحث علمي حقيقي يُبنى على متابعة التقصّي في كل الحقول. ولا شك، أن مثل هذا الرفض يقيم الدليل، مرة تلو الأخرى، على أن الطبيعة البشرية سريعة العطب، قابلة للتأثر نتيجة لاعتناق مذهب معين، وقابلة للتشوه.

في هذا المجال، يمكننا أن نستشهد بما قاله فيرسوف: «يُعد التأكيد على أن المادة وحدها موجودة أقلّ الافتراضات ثباتاً من الوجهة المنطقية». فقد برهنت تحقيقات الفيزياء الحديثة على عدم وجود مادة بالمعنى التقليدي للاصطلاح. وفي الوقت الحاضر، تنشأ الافتراضات المذهلة في حقل الـ «بسيكوترونيك» في بوتقة المختبرات الرائعة في عدد كبير من البلدان. وتغذّي هذه المختبرات التصورات المدهشة التي تجد ذاتها مرغمة على الاستنجاد بالمتافيزياء. ولا شك أن الطبيعة الخاصة بالظاهرات، موضوع البحث، تُقلق نفوساً تعجز عن تقبل التجربة، وتثيرها في آن واحد، لسبب هو أن هذه الظاهرات تعصى على الإدراك بمقتضى المعايير المحددة بالعلم الوضعي المعاصر. ومع ذلك، تتطلب المزيد من المشاركة.

تتطلب هذه المشاركة تبدلاً أو تحولاً أكثر تجاوزاً، وأكثر عمقاً من مجرد الانتقال من منهج بطليموس، على سبيل المثال، إلى منهج كوبرنيكوس. وهذا يعني الانتقال من فكرة تسطح الأرض إلى فكرة دائريتها، أي من افتراض الأرض مركزاً للكون إلى الإثبات بأنها كوكب تابع للشمس. والحالة هذه، يُعتبر الموضوع أكثر فداحة وجسامة. فنحن نعتقد أن الإنسان قد وُضع أمام أعظم قرار اتخذه في تاريخه: يجب عليه أن يخلّف وراءه «أوهاماً عزيزة» على قلبه... يجب عليه أن يدرك أن ثمة تطوراً في المفاهيم.

صورة ملخصة لهذا التطور

نبحث. بالتفصيل، ما حدث في نطاق العلم. فحوالي عام 1930، كانت الجزيئات الأصلية البسيطة، التي اعتُبرت بأنها المشكلات أو المكونات النهائية والقصوى للمادة، ثلاثة بعددها:

- الالكترون - وهو شحنة سالبة.
- البروتون - وهو شحنة موجبة.
- النيوترون.

وقد شكل هذان الأخيران النواة الذرية التي وُجد أن فيها تتركز فعلياً كتلة الذرة كلها، وحولها تدور الإلكترونات التي تؤلف نمطاً من قشرة خارجية.

في الوقت الحاضر، استطاع العلماء أن يتعرفوا على عدد وافر من الجزيئات الأصلية، بعضها عابر، وبعضها كالفوتون، يبدو وكأنه يمتلك وجوداً لا نهائياً من الوجهة العملية. وتبدو هذه الجزيئات، التي قيل عنها بأنها أولية وبسيطة، وكأنها ملزمة على التشكل من كيانات أو وجودات أكثر بساطة وأصالة.

لمّا كنا لا نشاهد هذه الكيانات، فإننا لا نستطيع أن ندرس مساراتها إلاّ في غرفة الفقاعات؛ أما سرعتها فأمر يصعب تخيله. وقد تمتد آثار مساراتها التي منها نقيس الأطوال، والزوايا، والسرعة، والمنحنيات، والقدرة والشحنة الكهربائية. وبالفعل، لا نستطيع إلا أن نتصور ونقيس آثار راقصات هذا الباليه غير المرئي الذي لا يصدَّق. وبهذا، نلاحظ اللاّ معقول الذي نعبّر عنه كما يلي: تتحول الطاقة إلى كتلة، وتتحول الكتلة إلى طاقة. وبالإضافة إلى هذا، تشير نتائج بحوث بعض العلماء الكبار إلى أن النيوترينو هو أكثر الجزيئات الأصلية، البسيطة والمشوشة طيفياً. ففي عام 1930، استطاع بولي تصوره والتنبؤ به. وفي عام 1956، اكتشفه العالمان رينز وكوان. وهذا النيوترينو، لا يمتلك كتلة، ولا شحنة كهربائية، ولا حقلاً مغنطيسياً. فهو لا يجذب، ولا يدفع، ولا يستميل إليه الجزيئات الأخرى. وبإمكاننا أن نفترض النيوترينو وكأنه يُقبل من مسلك لبني، ويجتاز الأرض بكاملها، أو كأنه حيِّز فارغ، لاشيء يحول دونه إلا إذا اصطدمت مقدمته بجزيء آخر. وعندئذٍ، قدّر العلماء أن نسبة اصطدام كهذا، وهو يجتاز كوكب الأرض، تكون واحداً على عشرة مليارات. ومع ذلك، توجد نيوترينات تُحدث اصطدامات، وإلا لما كان بوسع العلماء الكشف

عنه. ولقد أبان مارتن غاردنر، بل جعلنا نـدرك أن مليـارات النيوترينـات الطيفيـة، القادمة من النجوم، ومن الشمس، ومن المحتمل من مجرات أخرى، تجتاز، في هـذه اللحظة، أدمغتنا.

المادة والروح - منظور علمي

عند هذا الحدّ، وجد الفيزيائيون أنفسهم، وقد أصابتهم الحيرة والدهشـة وهـم علماء المادة، يبحثون عن الحلقة القائمة بين الروح والمادة، بين الطاقة والكتلة.

يعتقد فيرسوف ومعاونوه في الجمعية الملكية لعلم الفلك أن الـروح كيـان أو هـي تفاعل شامل شبيه بنظام الكهربـاء الموجـود في كـل مكـان، أو هـو شـبيه بالجاذبيـة الشاملة. ومن المحتمل أن تكون الروح معيـاراً للتحـوّل بحيـث تكـون نظـيرةً لمعادلـة إنيشتاين الشهيرة: الطاقـة = الكتلـة مضروبـة بمربـع سـرعة الضـوء $E=mc^2$: هـذه المعادلة التي أعادت الإلفة أو التفاعل بين المادة العقلية وبين الكائنات الأخرى الـتي تمت إلى العالم الفيزيقي بصلة.

يحتمل أن تمتلك هذه الروح جزيئات أولية من «المادة العقلية» هي خصائص عقلية بدئية تدعى ميندونات Mindons، ومـن «المـادة النفسـية» هـي خصـائص نفسـية بدئيـة تدعى بسيكونات Psychons. ويُحتمل أن تكون خصائص الميندونات والبسـيكونات من خصائص النيوترينو ذاتها. وقد غاص كلٌّ مـن العـالم سـيريل بـرت والفـيزيولوجي إيكلـه والفيزيائي أدريان دوبس في علومهم، وتفهموا، بل طوروا، هذه الجزيئات الأصلية.

أما موريس ديراك، الحائز على جائزة نوبـل لعـام 1933، فقـد جعلنـا نتفهـم ظاهرات أشد غرابة على نحو أفضل. وقـد تنبـأ بـإبداع الإلكترونـات المضـادة، وهـي الإلكترونات الموجبة، التي اكتشفها كارل أندرسن بعد عـام. وبعـد هـذا الاكتشـاف، تحققت اكتشافات أخرى لجزيئات مضادة تناظر الجزيئات المعروفة.

في الوقت الحاضر، ينكبّ الفيزيائيون الفلكيون على دراسة فرضية تتحدث عن وجود عوالم أخرى، ومجرات أخرى، تتألف من جزيئات مضادة تتحد لتشكل المادة المضادة. ومن المحتمـل أيضـاً أن تنشـأ أحـداث علويـة، عظيمـة كـل العظمـة، مـن مثيلاتها السوبرنوفا، وأمطار أشعة إكس، مـن اصطـدام الغيـوم وتلاقيهـا أو تلاشـيها المتبادل، أو من تجمعات وتركيزات المادة والمادة المضادة.

عندما حصل العلماء على هذه النتائج الرائعة، بدأوا يدرسون موضوع الزمان.

الزمان:

يعتقد ريتشارد فاينمان، الحائز على جائزة إنيشتاين لعام 1953، وعلى جائزة نوبل لعام 1965، أن الجزيء المسمى بوزيترون يمتلك خاصة التقهقر في الزمان.

يحتمل أن يكون مثله مثل جزيئات أخرى. هكذا، توجد جزيئات قادرة على إحداث تبديل في موضعها، والارتحال في الماضي بينما نتقدّم نحن في المستقبل كما يتقدم الالكترون. وها نحن نتساءل إن كانت المجرات، وهي تتألف من مادة مضادة، ترتحل كلياً في الماضي.

فيما يتعلق بالتلباثي، أي التخاطر، والوضوح البصري. والهاجس الداخلي. قدّم علماء أمثال دوبس وإدنغتون شروحاً تتعلق بالمنهج الفيزيقي وتعتمد عليه. وعندما نتحدث عن وجهة النظر الفيزيقية، نجد «معاملات منتظمة تتهيأ سلفاً لمستقبل يُنشئ أنماطاً نوعية خاصة». ويقدّر دوبس أن الأمر يتطلب معاملات احتمال في نسق يُنشئ مستقبلاً مؤلفاً من مبعوثين افتراضيين يدعون «بسيترونات» تعمل في بعد يكون الزمان في حالة معطاة وليس في حالة تنبؤ أو كشف... العرّاف يقرأ كتاب المستقبل... إنه لم يعد عرّافاً بل أصبح مُدركاً. ولقد أصبح الزمان، الذي يعرِّفه كل من كوزيرف وهويلر، شكلاً من أشكال الطاقة التي تكون قد تجمعت. وترتحل هذه البسيترونات، أي الخصائص النفسية والبدئية الموهوبة بقدرات مذهلة شبيهة بقدرات نيوترينوبولي، أو تنتقل بسرعة أكثر من سرعة الضوء دون أن تفقد طاقتها، غير أنها تقع في بُعد آخر مختلف. وتستطيع هذه البسيترونات الجزئية أن تؤثر في الخلايا العصبية التي تعود لمادة مستقبلية على نحو خاص، فتنتقل إليها المعلومات المتعلقة بحالة فعلية بالإضافة إلى المعلومات السابقة لحالة مقبلة ومحتملة. وسوف تلعب البسيترونات دوراً شبيهاً بدور الفوتونات من وجهة النظر العادية، وتختلف في أنها، أي البسيترونات، تؤثر مباشرة في أدمغتنا دون المرور في عضو خاص كالعين مثلاً. وكذلك تطوِّق الجهاز الحسِّي، كما يقول الفيزيائيون. ونحن نعلم أن حكماء الشرق سبقوا وقالوا، منذ آلاف السنين: إن جسدنا كله، وأعضاءنا كلها، مستقبلة بكليتها. وبدورنا، نتحدث عن الأصم منذ ولادته، الذي، وقد وُضع أمام البيانو، يسمع موسيقى باخ وبيتهوفن، ويبتهج وهو يميّز بينها.

نتائج ذات علاقة

يقول آرثر كوستلر: إن الدراسة المقارنة للمادة والطاقة والوعي تُبطل الاعتقاد

بوجود مصنع آلي وكيميائي يصنع الفكر؛ وبأسلوب آخر يقول: تُبطل هذه الدراسة وجود طيف مغلق في الآلة.

والحق، أن العلماء الذين يُحرزون تقدماً في بحوثهم المتصلة بهذه الدراسة، التي تقدّم لنا احتمالات ومنظورات تتجاوز حدود المنطق العقلي السائد، يُعدون بالمئات في الوقت الحاضر، وتزداد الانجازات التي تتم، شهراً بعد شهر.

النفس الكونية الشاملة والطاقة الكونية

اعترف العديد من العلماء بوجود نفس للكون، وقالوا: ليست المادة إلا كشفاً عن أنماط اهتزازية وجاذبة عديدة للطاقة الكونية. وإذا ما تساءلنا: ما هو جوهر هذه الطاقة؟ أجبنا: إننا لا ندركها تماماً. إننا نستعمل الكهرباء دون علم بحقيقتها؛ ولا نعرف سوى القليل عن الطاقة والنفس اللتين تحييانا وتُنشطاننا. ومع ذلك، يعترف علماؤنا بها، بل، يؤكدون وجودها، ويسجلونها... وتعد هذه النفس متطورة ونامية في حقول الوجود كلها: في المادة الحية وفي المادة التي يزعم بعضهم بأنها ليست حية، وفي النباتات والحيوانات، وفي الكائنات البشرية.

نعتقد أنه توجد كائنات وُهبت أكثر من غيرها بقدرة إدراك هذه الظاهرات التي تبرز في العالم اللا مرئي، الذي هو أكثر اتساعاً وامتداداً من عالم المادة. ويكون هذا العالم اللا مرئي، بالنسبة لعالمنا، طيفاً. والواقع هو أن المادة ليست هي حقيقة العالم وواقعه: هي ظهور لا شأن له. فالذرة تتشكل وفق صورة النظام الشمسي: قليل من المادة الظاهرة، أي الشمس، والكواكب التي تحيط بها، وكثير من الفراغ، هو فراغ واسع... إنه فراغ فحسب بحسب مقياس عيوننا... إنه فراغ يهمنّا كثيراً. وفي هذا الفراغ توجد تركيزات أشد للطاقة في مناطق، وتركيزات أخفُّ في مناطق أخرى؛ فهل هي عوالم أخرى غير مرئية؟ يبدو هذا الأمر محتملاً.

«التبدّل» ودماغنا

بناء على ما تقدّم، يمكننا أن نقول: يتعقّد العالم في نظر بعضهم، ويتّضح في نظر بعضهم. ويعتمد التعقيد أو الوضوح على حساسية إدراكهم. فإما أن يكون الإنسان قد تغلّف وانطوى على نفسه في ذكاء دماغي ـ عقلاني، أو عقلاني فوقي، وإما أن يمتلك قدرة كامنة يستقيها من النطاق الشمسي في الدماغ ومن الهيبوتلاموس ـ ما تحت السرير البصري. وفي الواقع، يتألف دماغ الإنسان من مرتبتين رئيسيتين تقومان بوظيفتهما، كلٌّ على حدة. فهما متعارضتان ومتكاملتان. وبذكائه، يعتقد

الإنسان الـ «بروميثي» أن في إمكانه فهم كل ما يتعلق بالطبيعــة، ويزعـم أنـه يمتلك القدرة على السيطرة عليها، ويدّعي الحق بامتلاكها وتسخيرها لرغبتــه، وإخضاعهـا لمشيئته. ولقد أضاع الإنسان قضيته الجوهرية، وهـي نزعتـه الكونيـة الـتي تشـير إلى تناغمه مع الطبيعة والكون. والحق، أن إضاعة هذه الطبيعة الجوهرية هي التي تقـود عالمنا إلى الإخفاق الذي يشير إلى القضاء على الوحدة وتكريس التجزئة.

القوانين الكونية الكبرى

يسعى العلم، وهو يقتفي آثار مســالكه الجديـدة الواقعيـة، إلى إعـادة اكتشـاف هذه القضية الجوهرية، وهي، كما ذكرنـا، التنـاغم مـع الطبيعـة والكـون. وفي ضـوء اكتشاف هذه القضية الجوهرية، يتحقق أمل الإنســان ورجـاؤه. فدماغنـا هـو «الأداة» الأكثر غرابة... هو الأداة الــتي تتطلـب معرفـة استعمالها والاسـتفادة منهـا. ولكننـا نتساءل: من يعلّمنا طريقة استعمالها بما يتطابق مع القوانين الطبيعيـة والكونيـة؟ ألا يؤلمنا أن نقول: ليس ثمة من يعلمنا الحقيقة الجوهريـة والاسـتفادة ممّا وهبتنـا إيـاه الطبيعة حتى نتجه إلى الأفضل في كل ظرف وحالة؟ لقد أنسـتنا منهجيتنـا الخاصـة أننا لسنا وحدنا في هذا العالم... ثمة كيان له نواميسه: هــي القوانـين الكـبرى الـتي ذكرها ألكسي كاريل. هي القوانين التي تنبثق في الكون وتديره. وليس سـيرنا باتجـاه فاجعة محتومة غير نتاج لعيشنا بخلاف هذه القوانين.

نذكر، في هذا السياق، بعض القوانين الـتي اكتشـفها العلـم عـن حـق: قـانون الترابط، قانون التوازن والتناسق، قانون الاقتصـاد، قـانون الصـدى والرجـع، قـانون العلة والمعلول، قانون الحركة والجهـد، قـانون وحـدة التعارضـات المتقابلـة، قـانون وحدة التنوعات، قانون الإيقـاع، قـانون الفعـل ورد الفعـل، قـانون الـتزامن، قـانون الجمالية، قانون التطور النوعي أو النشوء المستقيم، قانون الالتزام، الارتباط والتواكـل أي الاعتماد المشترك، قانون العدالة، قانون المحبة، إلخ...

الإنسان كائن حرّ، وبإمكانه أن يُغفل هذه الحقيقة. هو حرّ أن يخلـق جحيمـه في عالمه هذا... ثمة النور الكثير لمن شاء الفهم، وثمة الظلام الكثـير لـمن شـاء الرفـض والجهل. والحق يقال: إن الحقيقة أمر ميسـور لكـل مـن تـزوّد، أو يـتزوّد، بموهبـة الملاحظـة الدقيقـة... ثمـة خـبرات عديـدة يسـتطيع كـل امـرئ أن يضعهـا موضـع التجربة. وبذلك، يستطيع توجيهها شيئاً فشيئاً نحـو الإحاطـة بالطبيعـة والكـون... ثمة خبرات تشير إلى وجود «ما بعد» يتكشّف لمن يبحث بـإخلاص، بذكـاء، وإبـداع ومثابرة. لكن الإنسان المتشبث برأيه لـن يحقـق كيانـه وكونيتـه؛ فهـو يبـدّد حياتـه

هباء... وبشرّه هذا، يضيّع حياة الآخرين.

ولادة الإنسان الجديد

يجب على الإنسان أن يعرف كيف يكون حراً، ويدرك كيف ينفتح إلى الحقيقة ببصيرة وفطنة. وبالإضافة إلى هذا، يجب عليه أن يصممّ على البحث في القانون الكوني، وعلى فهمه واحترامه... هذا القانون الذي يُمده بالحرية الحقيقية، وبالرصانة والسعادة التي تنشأ من الفكر الحقيقي والعمل الحقيقي. عندئذٍ، يتحوّل موقفه، ويصبح الإنسان الجديد.

تؤدي بنا مراقبة حواسنا وتنميتها، بمرور الزمن، إلى هذا التحوّل الجديد.

حواسنا الخمس، تطويرها وتنميتها

تتميز حواسنا الخمس التقليدية والمألوفة بخاصة تكميلية هي إطالة أو تنمية عالم الداخل. وتعد بصيرتنا الداخلية مسلكاً يقع خلف عيوننا، تتصل من خلاله بهذا الجزء أو بذاك الجزء من أجزاء جسمنا، ونخص منها أجفاننا التي نعتبرها تمريننا الأول لمارستنا. ومن هذه الممارسة، ينتج ارتباطنا بمركز الانتباه لننطلق إلى ما هو أبعد. وتتجاوز هذه الممارسة ذاتها إلى البصيرة الداخلية. وإن ما ينطبق على الجفنين، ينطبق أيضاً على حاسة اللمس. وتعد حاسة الشم هامة جداً. فثمة أمور كثيرة تتجلى لنا بواسطة حاسة شم دقيقة ولطيفة. ولا نبالغ بقولنا إن هذه الحاسة تتجاوز إدراكاتنا العادية عنها. فمن منا لم يلحظ حساسية منخريه المفرطة؟ ألا نعلم أن الهواء المستنشق يزودنا، في الجزء الأعلى، بغذاء أكثر لطافة من الغذاء الذي يحمله في الجزء الأدنى، أي في الرئتين؟ ألا نعلم أن الجسم الأثيري، وهو الجوهر فينا يتغذى من خلال منخرينا؟ والحق أن هذا الجسم الأثيري هو ذاته الجسمُ الذي تم تطويره بسهولة في جهاز كيرليان، وأُطلق عليه اصطلاح علمي هو: الطاقة الحية Bio-Energy. ويمكننا تطوير حاسة السمع تطويراً كبيراً. فثمة تمارين عديدة تستطيع أن تجهّز أشخاصاً هيئوا سلفاً للإصغاء والاستماع المرهف، وإلى اتصالات مع الـ «ما وراء» بقدرات عظيمة. لذا، يمكننا أن نقول: إننا قادرون على اكتساب قدرات تنتج عن تطوير حواسنا الخمس. وعلى هذا الأساس، نقول: إن الحاسة السادسة المزعومة ليست أكثر من تطوير وتنمية كل حاسة تطويراً وتنمية يبلغان الحدس والبصيرة وإدراك أو معرفة الـ «ما وراء» أو الـ «ما بعد».

قدرات هي أم مؤاهب

يشير واقع الأمر إلى أن عدداً وافراً من الناس يرغبون في زيادة قدراتهم؛ ويرغب بعضهم في إلحاق الأذى بالآخرين؛ ويسعى بعضهم الآخر إلى إذهال المستمعين. ومع ذلك، لابدّ لنا أن ندرك أن هذه المواهب لا تحدث جزافاً؛ لعلها تكون ضارة لدى استعمالها على نحو سيء. ونحن نعجز عن التسامي إن كنّا نسلك سلوك الأنانيين. ولذا، فإنه لا يوجد في «الما وراء» أو «الما بعد» إلا القوى الخيّرة. ولكن هذا لا يعني عدم وجود القوى السالبة القادرة على إحداث الفواجع، فتجعل من المستفيدين منها سجناء يدفعون الغالي والنفيس في سبيل ضلالات كهذه.

والحق، أن من يستطيع توجيه ذاته يجد أن كل تنمية لإمكاناته في متّسع الحياة تناظر موهبة. وهذا يعني أن هذه الموهبة معطاة لنا على نحو كمون يتطلب التحقيق. ولذا، نرى أن الموهبة قادرة على إخراجنا من الظلمات. هذا، لأن كل موهبة تمثل إمكانية أو احتمال الدخول إلى حقل جديد. وهذا يعني الالتزام بفهمها، والشعور بها واحترامها. ويقع حقل الموهبة إلى ما بعد منطقتنا العقلي، بحيث أنه موجود فينا.

لا نبالغ إذ نقول: إن حواسنا الخمس، بسلوكها العادي، تُبقي ضيق أفقنا المظلم داخل زنزانة يُطل الإنسان من داخلها إلى الخارج من خلال كوة صغيرة لا ينتبه إليها ولا يتجاوزها إلا القلة. وبخروجه من هذه الزنزانة، يكتشف الكائن البشري إمكانات، وقدرات أخرى يستطيع تفسيرها للخير أم للشر. فهو يستطيع المرور، ويجتاز الكوة الصغيرة؛ ومع ذلك، يظل مستقراً في ظلمات داخله. وعندئذٍ، يفسر المواهب التي تمتاز بالقدرات على نحو خاطئ.

تجاوز الأنا

وُجدت هذه الهبات فينا لكي تساعدنا على أن نتجاوز الأنا ونتسامى، ولكي تؤمن لنا السعادة. هذا، لأن السعادة لا تتحقق إلا في هذا التجاوز. أما أنواع اللّذات فليست هي غير سعادة مزيّفة تنطوي تحتها الفردية السطحية.

يكمن البحث عن السعادة في تكونّها المستمر. وهذا يعني أنها من صنعنا. وهكذا، يعود الأمر لنا لنتعلّم كيف تضعنا هذه الهبات على طريق التطور والنموّ. وهذا واجب عهدت لنا به الطبيعة لتحقيق الحياة قاطبة. ولهذا السبب، لا نُعلن أن الوقت قد فات بل أن الوقت يجهزنا بالقدرة على البدء. إننا نمتلك قدرات فطرية،

هي مخلفات ماض ناء. ويجب علينا أن نكتشفها ونعمقها فينا ليتسنّى لنا فهمها ومعرفتها على نحوٍ أفضل؛ إننا نملك قدرات عقلية وحدسية تقتضي منّا التطوير والتنمية. وبالإضافة إلى ذلك، نمتلك قدرات روحية تتطلب منّا اكتشافها لأنها وعي يسعى إلى مزيد من التفتح. وتكون هذه القدرات في كل واحد منّا على درجات متفاوتة.

إنه لأمر خلّاب أن نتعلّم كيف نتصوّر ونتفهم قضية تُعاش. وعلاقة تنبثق من الداخل لتنطلق إلى داخل الآخر، ونسمة تمر، واهتزازاً يدوّن، وإدراكاً لعمق غير عادي يتأسس فينا. كل خير متاح لقلب يعرف كيف يشعر ولعقل يعرف كيف يُصغي، ويعرف كيف يتجاوز الثنائيات والأقطاب المتقابلة والأضداد الظاهرية والانقسامات المفتعلة. هكذا، يكون القلب المنفتح والعقل المنفتح طاقة كبرى تساعد كل من يرغب في الانفتاح، وكل من يتوق إلى تسنّم قمة الحقيقة، والعيش في الحقيقة الفضلى المتوافقة مع الاهتزاز الكوني، ومع الانفتاح. وهكذا، يكون واجب الإنسان الحقيقي أن يجعل من كل ما هو فيه حياة قائمة بذاتها، يساعد نفسه ويساعد الآخرين ليعرفوا كيف يحيون وفق أفضل إمكانية ضمن إطار القوانين الكونية.

إحساسات عديدة

تتجلى الإحساسات التي نستطيع تنميتها بحذاقة ولطافة، بالدرجة الأولى، في الحواس السبع المتممة للحواس الخمس، والتي يمكن أن نجد ما يفيدنا عنها في كتابات رودلف شتاينر؛ وتتمثل هذه الإحساسات السبع في:

1ـ الإحساس بالتوازن.

2ـ الإحساس بالحركة.

3ـ الإحساس بالحياة.

4ـ الإحساس بالحرارة.

5ـ الإحساس بالنطق.

6ـ الإحساس بالفكر.

7ـ الإحساس بالأنا وبالآخر.

وإلى «ما بعد» هذه الإحساسات النفسانية، توجد ظاهرات حواسية أخرى «فوق نفسانية»، نعدّد بعضها:

1ـ الإحساس بالاتجاه ـ إحساس لم يطوّره جميع الناس.

2ـ الإحساس بالصعوبات ـ هنالك خلائق عمياء، تمتلك نوعاً من الرادار يُعلِمها عن وقوع أو وجود صعوبة قبل أن تكون قد لمستها أو أحسّت بها.

3ـ إحساس الإيحاء الذاتي ـ هو القدرة على وصف خلل عضوي أو غيره.

4ـ إحساس تقبّل الإشعاعات الكهربية ـ هو إحساس يسمح بتحقيق عمليات حسابية معقدة، واكتشاف خلل في ميزان حسابي. وأمور أخرى.

5ـ إحساس المعايير النفسية ـ يعني البيئة الفكرية والنفسية التي تحدث فيها أحداث مأساوية أو سعيدة.

6ـ صفاء الرؤية ـ رؤية سريعة عابرة، هي إدراك حالة وجدانية لدى شخص آخر.

7ـ السماع الفوقي ـ هو الشعور بصوت داخلي، كما كانت حالة سقراط.

8ـ التخاطر وانتقال الأفكار ـ هو اتصال؛ هو تزامن المشاعر والأفكار بين شخصين.

9ـ الإخطار ـ هو تنبيه، أو إلهام لظاهرة بعيدة.

10ـ الإخطار المسبق ـ هو نوع من التخاطر، هو اتصال؛ هو إحساس يسبق دافعه ويعلن عنه مسبقاً.

11ـ التّلستزي ـ هو نوع من التخاطر، يحدث بين شخصين يتبادلان أفكارهما على نحو دائم ومتبادل دوري.

12ـ التلكنزي ـ هو إمكان تحريك الأشياء، أو تحويلها أو نقلها عن بُعد دون لمسها أو دفعها.

13ـ السيكوسينزي ـ ينتج هذا التحريك عن تأثير مباشر لقوة الفكر ودون تدخّل لأية قوة أخرى.

14ـ إحساس الانتباه اللاّ عقلي ـ لا يرتبط هذا الانتباه بقشرة الدماغ بل بانتباهنا إلى حياتنا الداخلية اللطيفة... هذا هو الإحساس بالحياة.

15ـ إحساس الانتباه الهامشي ـ هو الشعور بأن شخصاً ما يراقبنا.

16ـ الإحساس بالضمير ـ هو إحساس ضمن نطاق التكوّن المستقيم.

17ـ إحساس العدالة ـ هو إحساس «فوق طبيعي» منحته الطبيعة للإنسان. ولما كنا لا نستطيع أن نلاحظ أن العدالة غير موجودة في الطبيعة، من حولنا، أو بين الحيوانات والنباتات، فإننا نعلم أن العدالة تلعب دور العلاقة بين القوى. ففي كل مكان، نجد مستويات أو اتفاقات بين القوى المتعارضة. وبهذا الصدد، نرى يقينية هذا الإحساس عند كل إنسان، وخاصة عند الطفل وقد جُرح إحساسه أو صُدم، يصرخ قائلاً: ليس هذا عدلاً. ولاشك أن الإحساس بالعدالة كشف للضمير أو ظهور له؛ وهو، بالتالي ظاهرة فوق نفسانية.

الإحساس الأعظم النهائي

في دراستنا هذه، نذكر الإحساس ما قبل الأخير، الإحساس النوراني الذي نعبّر عنه ونصفه بأنه إحساس الانفتاح إلى مثالية الحقيقة الكونية السامية. والحق، أن الإحساس النوراني يؤدي إلى الشعور بالوحدة، ويتجاوز الثنائية والأضداد، ويحفز االإنسان إلى اكتشاف الأبدية التي يجدها في عمق كيانه. ويلازمنا هذا الإحساس إلى «ما وراء» العوائق، والظواهر والانقسامات؛ وهو يشبه البذرة الموجودة في كل واحد منّا، والمهيأة للبذار؛ وهذا هو الإحساس الذي يُبدع ويخلق الإشعاع والاستنارة عند بعضنا؛ وهو الذي يوجّهنا، مرحلة تلو مرحلة، في حقل تطبيقنا للحرية الحقيقية، ويعلّمنا إياها؛ وهذا هو الإحساس الذي يهبنا التواضع، والبساطة، ومحبة الآخرين؛ وهو الذي يسير بنا إلى التسامي والتعالي، وإلى الحقيقة المذهلة، وإلى إبدال أبعادنا وقياساتنا أو تعديلها. وبهذا الإحساس، نحقق التحرر والانعتاق، والاستعداد الدائم، واليقين الشخصي من وجود الحقيقة السامية والوعي الكوني.

بهذا الإحساس، نكتشف فائدة المحبة. هذا لأنه القانون فوق الطبيعي الذي يعني أن المحبة هي التجاوز المتسامي. ويقودنا هذا الإحساس النوراني إلى الصمت الداخلي، وإلى السلام ضمن كمال الكيان. والحق، أن السلام لن يتحقق على كوكب الأرض ما دام الإنسان عاجزاً عن اكتشاف هذا السلام في داخله. لذا، فإن إحساسنا الكوني يرشدنا إلى التّسامي.

في ختام هذه الدراسة، نسأل: ماذا يعني حضور الإنسان في هذا العالم؟ ونجيب قائلين: إن حضور الإنسان في هذا العالم يعني أنه محمّل برسالة.

حضور الإنسان في العالم

تخضع الدورات النباتية والحيوانية لقانون تطورها. أما الإنسان فإنه يعتني، نتيجة لكونيته، بتطوره الخاص، وبتحقيق سعادته الخاصة وفق قوانين معينة، مرئية وغير مرئية.

لقد أدرك حكماء الماضي أن عالمنا هو عالم الفكر. وفي الوقت الحاضر، يسعى العلم الحديث إلى اكتشاف هذه الحقيقة ومعرفة قانون التطور النوعي والكيفي. هذا، لأن لعالمنا غاية كيفية دُعيت بالقانون الغائي، أو الغائية. والواقع هو أننا لانجد على هذه البسيطة إلا النتائج والمعلولات، أي الـ «الكيف».

لما كان العلم التقليدي أو الوضعي لا يمتلك الوسائل لاكتشاف الأسباب، أي الـ «لماذا». فإن إمكان أو احتمال الكشف عن وجود الحقيقة السامية أو الوعي الكوني كان، وما زال، أمراً صعباً. ومن هذا المنطلق، لا يمتلك أحد القدرة على التأكد بأن الوجود الكوني حقيقة تكشف عن ذاتها بموضوعية تامة ودون منازعة. لهذا السبب، كان واجب كل امرئ أن يكشف الغطاء عن هذه الحقيقة بذاته ولذاته. وذلك بتجربة واختبار داخليين، وبمسار شخصي بكل ما في الكلمة من معنى. والحق، أن معرفة الحقيقة السامية تستحق الجهد بقدر ما تستحق المعرفة ذاتها الجهد.

العالم يشبه تدبيجاً دق صنعه. وهكذا، لا نُدرك إلا القفا أو الوجه الآخر؛ وكلّ شيء، يبدو وكأنه يشير بأنه الموضع الذي نراه. ألا يبدو لنا أن الشمس تدور حول الأرض تماماً كما يفعل القمر؟

وبالطريقة ذاتها، يكمن في أعماقنا حضور يجعلنا ندرك أننا الآخر، كالذي نعتقد أننا نكونه؛ وليس هذا الحضور غير الحضور الكلي.

إن التدقيق والبحث في الأعماق يؤدي إلى كشوفات؛ وتؤدي هذه الكشوفات بدورها إلى تقريب متدرج يتنامى مع هذا الحضور، وهو الوعي الكوني أو الحقيقة السامية. ويشير هذا البحث إلى قدرتنا على الإبداع؛ هذا، لأن الإنسان، ككل شيء في الطبيعة، يخلق ويعود ليخلق دون توقف - يجد نفسه ملزماً على الإبداع، والخلق. والإنسان يغتبط في إبداعه - إبداعه بإرادة لا تتشنج. والإنسان، أثناء تطوره، يمتلك إرادة لا تتقلّص، ذلك لأنه يعلم أن الأشياء التي يتوجب عليه صنعها، ستُصنع. والكشوفات التي يقوم بها تضعه ضمن علاقة مع ضخامة نفث الحيّز، ويغذّيه حدس بأنه ليس وحده، ويتملكه شعور من المعرفة ضخم، يقوده إلى شعور التواضع العميق.

الإنسان يشعر بالجوهر ـ الجوهر الذي يهتز فيه ويحوله. الحقيقة ـ الواقع أصبحت مثاله تماما كما أصبح النجم القطبي مثال البحار؛ ويشعر بأن كل ما تبقى ليس إلا مُثلاً خاطئة. ويعلم أن إنسان الحواس الخمس هو الذي يخلق الجحيم.

الفصل الثالث

العلم والجسد الأثيري

يشير المبدأ الأساسي، الذي نجده في أصول الديانات والفلسفات الإنسانية، إلى أن الإنسان كائن أسمى مما يبدو من وجهة النظر المحسوسة، وأنه كيان أكثر مما هو عليه في ظاهره، ندعوه الوعي، أو النفس، أو أي اصطلاح آخر كالروح. والحقيقة هي أن هذا الاعتبار الديني أو الفلسفي إثنيني في جوهره. وإن نحن قبلنا به، كما تقبل به غالبية الناس، فلأننا نطرح على أنفسنا السؤال التالي: ما الآلية التي بواسطتها، يؤثر الوعي في الواقع المادي، في الجسد المادي وفي الدماغ... ويجعلنا كائنات واعية؟ وعن هذا السؤال، تجيب الحكمة: يتم هذا التفاعل المتبادل بوساطة الجسد الأثيري. وفي هذا المجال، نقدم، باختصار، بعض المبادئ العلمية التي تشير إلى أن العلوم البيولوجية بدأت تتقبل وجود كيان يمت إلى الجسد الأثيري بصلة.

تحدثنا وجهة النظر الـ «ثيوصوفية» عن وجود المادة في حالات سبع محتملة، تشكل، بكليتها، المستويات السبعة التحتية أو الفرعية لما ندعوه المستوى الفيزيقي. ولقد تعرّفنا على الحالات الثلاث للمادة: الصلبة والغازية والسائلة. أما الحالات الأربع الأخرى فإنها تقع تحت عنوان «الحالات الأثيرية». ويعترف العلم أيضاً بوجود المادة في وجود متجاوز لأشكالها الثلاثة: الصلبة، الغازية والسائلة. وتكون المادة التي ندعوها «متأينة» وجوداً آخر لها أو شكلاً آخر لها. أما وقد بلغنا هذه النقطة، فيجدر بنا أن نتحدث عن هذه المادة المتأينة بعض الشيء. فالمادة التي ألفناها تتألف من ذرات تتشكل، بدورها، من نواة تحمل شحنة كهربائية موجبة، وتحيط بها إلكترونات لها شحنة سالبة. وفي الحالة العادية، تعادل شحنات النواة السالبة عدد شحناتها الموجبة؛ وبذلك، تكون الذرة محايدة. ويحدث، بعض الأحيان، أن يُطلق إلكترون من ذرة، فينتج عن هذا الإطلاق إتصاف الذرة بزيادة الشحنة الموجبة في النواة، فنسميها إيوناً موجباً. وفي حالات أخرى، تكتسب الذرة إلكتروناً إضافياً، فينتج زيادة في الشحنة السالبة، فنسميها إيوناً سالباً. وتسلك

الإيونات بأسلوب مختلف عن الإيونات المحايدة لأنها تكون قد تـأثرت بـالحقول أو المجالات الكهربائية، وذلك بحسب الشحنة التي تحملها. وإذا توافرت لنا مجموعة إيونات نقية، عمدنا إلى تسميتها «بلازما». وهكـذا، تستطيع الايونـات أن توجـد في المادة الفيزيقية، السائلة والغازية والصلبـة. وفي السياق ذاتـه، يُحتمـل ظهـور المـادة الإيونية.

المادة المتأينة والمادة الأثيرية شيء واحد

تهدف هذه الدراسة إلى تبيان دور المادة الإيونيـة في النسـق البيولوجـي. هـذا، لأن المادة الأثيرية، كما يبدو وكما تتحدث عنها الحكمة القديمة، هي كشف وظهـور للمستوى الفيزيقي، وهي أيضاً ظاهرة فيزيقية. لذا، توجد علاقة بـين المـادة المتأينـة وبين ما تدعوه الحكمة الـ «ثيوصوفية» المادة الأثيرية. وعلى هذا الأساس، يحتمل أن تكون الاثنتان شيئاً واحداً.

ننتقل الآن إلى تفحص المادة المتأينة في الأنساق البيولوجية.

تعتبر المادة المتأينة الحقول أو المجـالات الكهربائيـة، التي تخلقهـا توزعـات المادة المتأينة، عنصراً هاماً للمكوّنات البيولوجية. فلكل خلية مجالها الكهربائي الذي يتضامن معها على سطوحها الخارجية ويُصان معهـا حتـى مـوت الخليـة. ويخلـص الاكتشاف، الذي تحقق عام 1962، إلى أن الجسد الإنساني يمتلـك مجـالاً أو حقـلاً كهربائية متضامناً. وليس هذا المجال أو الحقل الكهربـائي المشـترك مجـرد حقـل أو مجال مرتبط بنبضات القلب أو الدماغ، أو بنشاط العضلات، بل هو أيضاً مجال معمم ومطلق يشير إلى بنية إيونية تحتية أو ملاصقة.

يعترف بيكر باكتشافه الذي حققـه عـام 1962، فيقـول: إن نهايـات الجسد تحمل شحنة سالبة، وإن منطقته المركزية تحمل شحنة موجبة. وإن مناطقــه الثلاثـة الرئيسية، التي تتركز في مؤخرة الرأس وفي ما بين عظمي الكتف والكليتين، تمتلـك، نسـبياً، طاقـة موجبـة كامنـة تعـود إلى نسـق الميكروفولـط والميليفولـط. وتتـأثر هـذه المجالات أو الحقول الكهربائية المرتبطة بتوزعات، أي انتشـارات، هـذه الشحنات بحالة وعي الإنسان وصحته. فهي تهبط أو تتقلـص نتيجـة لهبـوط الصحـة، وتسوء نتيجة لتعاطي المخدرات.

يشير ما تقدم إلى أن البنية الموزعة على النحو الذي ذكرناه ـ مجالات أو حقول كهربائية موزعة على النحو المذكور ــ تـدل علـى وجـود بنيـة إيونيـة تحتيـة. ومن

جانبنا، نعتقد أن هذا الاكتشاف كان البرهان الأول للدلالة على ما ندعوه «الجسد الأثيري». وقبل المضي في عرض اكتشاف هام حديث، نود أن نذكر، باختصار، نقطتين أساسيتين لنلمّ بما تم تحقيقه عام 1973 على يد العالم إدي في كليفورنيا. فقد تبيّن أن الدماغ حساس جداً للحقول الكهربائية والمغنطيسية الضعيفة. وقد أثبت هذا العالم، في ضوء التأكد من حساسية الدماغ لهذه المجالات الكهربائية الضعيفة التي لا تؤثر، بأي شكل، على الخلايا العصبية من الوجهة النظرية، إمكانية إدراك هذه المجالات أو الحقول أو التقاطها بواسطة بنية شحنة تتوزع أو تنتشر داخل الدماغ. الأمر الذي يجعلنا نمعن النظر بما دعوناه بنية أثيرية.

صورة كيرليان

تعتبر صورة كيرليان أهم حدث تحقق في هذا المجال. والواقع أن علماء الروس قد تقدموا في هذا الحقل تقدماً كبيراً، وتلاهم العلماء الأمريكيون في الآونة الأخيرة.

استطاع كيرليان إنجاز تجربته على النحو التالي: وُضع شيء بين صفيحتين معدنيتين زودتا بمجال أو حقل كهربائي شديد. ووُضعت صفيحة معدنية تصويرية، أو شاشة متألقة، أي متفسفرة، إلى جوار الشيء. وفي هذه التجربة، كانت الجزيئات المشحونة، أو المشبعة، أو الإيونات المتسارعة نتيجة لهذا الحقل، تصيب الشاشة فتصدر ضوءاً، أو تنطبع على اللوحة المعدنية التصويرية. وقد استخلص كيرليان من هذه التجربة ما يلي: تتصف جميع الأشياء الحية وغير الحية بحقل يرتبط بها ويتحد معها. وفيما يتعلق بالأشياء الحية، يُظهر هذا الحقل التغيرات التي تطرأ على الشيء موضوع التجربة. وعلى سبيل المثال نقول: لو أن أحدنا، بعد أن يكون قد تجرّع مقداراً معيناً من الكحول، اختار يده لتكون موضوع الاختبار، واستعمل لوحة معدنية ملونة، فلا بد له أن يلمح أن التغيرات التي تطرأ على اللوحة الملونة تصبح حمراء بقدر ما يكون قد تجرّع من الكحول.

تعتبر صورة كيرليان القاعدة الجديدة التي انتظرها الكثيرون لإقامة الدليل أو البرهان على وجود بنية تحتية لجسد إيوني أو أثيري. ومع هذا، نضطر إلى التأمل العميق هنيهة. فقد أشار الكثيرون، ومنهم من شدّد، على أن صورة كيرليان تبرهن على وجود الجسد الأثيري. لكن القضية لا تبدو بهذه السهولة. فإذا ما وُضع أي شيء في حقل كهربائي، نجد أنه يصدر إشعاعات لها شحنات. وهذا، بالضبط، هو ما يجري لكل التفريغات أو الإطلاقات التاجيّة. ومع ذلك، لا ينطبق هذا الإجراء، بالضرورة، على وجود بنية إيونية تحتية أو ملاصقة تشترك مع الجسد. ومرة

أخرى. نقف هنيهة لنتأمل. والحق، أن ما يبدو لنا معقولاً ومشجعاً هو ما يلـي: إن كانت صورة كيرليان مثالاً للتفريغ التاجي، فلا يعني هذا أننـا لا نتـأثر بحساسيتها المتوافقة مع التبدلات الطارئة على الوعي أو على الصحة. ولا يسعنا إلا أن نقول بأن هذا ما نشاهده بالفعل. لكننا، بعد تفكير ملي، نستطيع أن نعتبر أن صـورة كيرليـان تتصف بطاقة كامنة مذهلة؛ ونعتقد بأنهـا اكتشـاف هـام يتوافـق مـع قضيـة الجسـد الأثيري. وإن ما يبرهن، بالفعل، على أنها اختبـار حاسـم يشـير إلى وجـود الجسـم الأثيري، وإلى وجوده المستقل عن الجسد الفيزيقي الكثيـف، هـو أن نختـبر إمكانيـة تصوير ما ندعوه «الأعضاء الطيفية». ونعني بقولنا هذا احتمال الشعور بـالعضو المبتـور بعد بتره. وهذا ما يُسمى بـالعضو الطيفـي الـذي يُشـعر صاحبـه بـالألم. ومـع ذلـك، يُحتمل ألا تكون هذه النتيجة ضرورية. ومن الوجهة الذاتية، يبدو العضو، للشـخص الذي بُتر له هذا العضو، وكأنه تسرّب ثانية إلى الجدعة، أي إلى ما تبقى من العضـو أو من الجزء المقطوع. ولقد أكد العلماء الروس، كما ورد في كتـاب «بحـوث مذهلـة في حقل الـ «بارابسيكولوجي»، بـأنهم استطاعوا، وهـم يختـبرون صورة كيرليـان، أن يصوروا عضواً طيفياً بعد أن كان قد بُتر. وصرّحوا، في الوقت ذاته، بـأنهم اسـتطاعوا الحصول على صورة كاملة لورقة شجرة قُطـع جـزء منهـا بعـد أن وُضعـت في جهـاز كيرليان. وأثبتـوا أن الجـزء المصور يتمـاثل مـع الجـزء الـذي اقتُطـع. وعبثـاً حـاول البـاحثون الأمريكيـون، دون أن يحققـوا نجاحـاً، أن ينجـزوا مثـل هـذه التجربـة الاختبارية. وظلوا، كالروس من أمثالهم، في لبْس من حيث تفاصيل الاختبار. لهـذا، يتوجب علينا الانتظار قبل أن نتيقّن من حقيقة التجربة.

التطابق العلمي مع البرانا ـ طاقة الحياة في الهواء

إذا كان باستطاعة المـادة المتأينـة تشـخيص الجسـد الأثـيري، فـإن شـحناتها الموجبة المرتبطة بالجسد الفيزيقي تبدو أنهـا تـتركز في المنـاطق الـتي يعتبرهـا بعـض الباحثين بأنها تتجّمع في الضفائر، أي في مراكز الطاقة، وذلك من أجل تمثّل البرانـا وتوزيعها. ومن هذا الأمر، ينبثق السؤال التالي: هل هنالك شيء شـبيه ببنيـة أثيريـة تحتية أو ملاصقة تتطابق علمياً مع البرانا؟ وتكون الإجابة على النحو التالي: في الجو المحيط بنا، توجد إيونات موجبة وأخرى سالبة، تبدعها الأشعة الكونية وإشـعاعية الأرض. والإشعاع الشمسي إلى حدّ ما. ولقد برهـن البـاحثون أن الإيونـات الموجبـة، وهي تلك التي تعاني من نقصان الالكترونات، تزيد من نسبة الوفيات لدى الكائنـات التي تعاني من أمراض جهاز التنفس، والحساسـية، والأرق، وفـرط أو شـدة التوتـر،

والغثيان، والصداع، والأوديما، وتسارع نبضات القلب، والإنهاك. وبرهنوا، على نحو سواء، أن الإيونات السالبة تنقص من وفيات الكائنات التي تعاني من أمراض جهاز التنفس، وتعكس النتائج المذكورة. وعلى نحو عام، تبعث الإيونات السالبة الإحساس بالسعادة.

في أنحاء معينة من العالم، وفي أوقات معينة من السنة، تهب رياح ـ لعل السيروكو اسماً لإحدى هذه الرياح ـ تسبب زيادة في الأمراض العضوية، والنفسية والعقلية. فقد اكتشف الباحثون أن بعضاً من هذه الرياح يرافقها هبوط في تركيز الإيونات السالبة بالمقارنة مع الإيونات الموجبة. وعلى نحو اعتيادي، توجد، في الجو المحيط بنا، نسبة تتعادل فيها الإيونات السالبة والموجبة تقريباً. ويشير البحث إلى هبوط في تركيز الإيونات السالبة وارتفاع في تركيز الإيونات الموجبة قبل حدوث إعصار مرفق بالرعد، الأمر الذي يؤدي إلى ظهور أعراض الحساسية وأعراض جسدية أخرى. وقد اكتشف الباحثون أيضاً إمكانية ترميم النسج الجريحة أو المشوهة وإنعاشها بالإيونات السالبة. وقد أُجريت تجارب عديدة لمعرفة مدى تأثير تركيز الإيونات على نسبة التغيّب عن العمل. وقد عُلم أن نسبة التغيب في الأقسام التي لم يحدث فيها تبديل للتركيز الإيوني، كانت كما كان متوقعاً. أما في الأقسام الأخرى، حيث ازداد تركيز الإيونات السالبة على نحو اصطناعي خلال فترة ثلاثين دقيقة، هبطت نسبة التغيبية، ورافقها تحسّن كبير في مردود العمل في هذه الأقسام.

يبدو لنا أن ربط الإيونات السالبة بقضية البرانا أمر محتمل. فهي تبدو بأنها تتصف بكل المميزات العائدة للبرانا. وبالإضافة إلى ذلك، تظهر الإيونات السالبة ميلاً إلى التحرر وهي على مقربة من المناطق المشحونة سلبياً؛ وبالمقارنة، تضيء الإيونات السالبة، التي تتصف بشحنة سلبية خفيفة، أطراف الجسم، على غير ما يحدث للمناطق المركزية التي تتصف بشحنة موجبة. والواقع، أنها تقدم لنا قاعدة نشيّد عليها مفهومنا لعملية الشفاء الأثيري المغنطيسي بمجرد وضع اليد، والتي تفسر حقيقة أن الإيونات والمادة الأثيرية تتأثر، وفق ما يعتقد الثيوصوفيون، بالوضع الصحي. ويشير هذا الوضع إلى انطلاق الإيونات السالبة من الأيدي التي هُيئت مسبقاً لإصدار هذه الإيونات.

يمكننا أن نقول بأننا ما زلنا في بداية الطريق نتلمس النتائج المرجوة. ونعتقد أن العلوم البيولوجية بدأت تعترف، وتتقبل قضية وجود بنية تحتية أو ملاصقة تتأثر حساسيتها إلى حد كبير بالتأثيرات الخارجية، وبالحقول أو المجالات، وتساعد

على بناء صحة جيدة ونفس متوازنة ومطمئنة، وتدفع بالمركبة الجسدية قُدماً لتؤدي وظيفتها الدقيقة.

يتساءل بعضهم عن وجود جهاز يستطيع أن يصدر إيونات سالبة. وعن هذا التساؤل، نجيب بأن ثمة أجهزة أو وسائل تنتج إيونات موجبة، ووسائل أو أجهزة أخرى تنتج أيونات سالبة في آن واحد. وإن ما يتوجب علينا فعله هو انتزاع الإيونات الموجبة واستخراجها، والحفاظ على الإيونات السالبة في النطاق المحيط بنا. وعلى سبيل المثال، توجد شرارة كهربائية تحدث تركيزاً كبيراً للإيونات والأوزونات. لا نكون بحاجة ماسة لها. وتوجد مولدات كهربائية سكونية عديدة تخلق تركيزات ضخمة من الإيونات السالبة. ففي سويسرا، على سبيل المثال، وُضعت مولدات الإيونات في البيوتات التجارية موضع التنفيذ. وفي مدينة لوس أنجلوس، استُعملت إيونات سالبة لمعالجة الاضطرابات النفسية والجسدية، الأمر الذي أدى إلى تحقيق نسب عليا من الهدوء والسكينة بلغت ثمانين بالمئة في حالات القلق. وفي حالات معينة من العصاب النفسي.

أخيراً، نخلص إلى النتيجة التالية: لاحظ الباحثون أن التركيز الإيوني في الأجواء المقفلة ـ خاصة في المكاتب المعزولة تماماً عن البيئة الخارجية بواسطة الهواء المكيف ـ يهبط إلى حد كبير، مما يؤدي إلى إنقاص القدرة على العمل، وزيادة النزق، وزيادة الرغبة في النوم. وفي المكاتب التي تنشط فيها الإيونات السالبة، نلاحظ أن التركيز الإيوني لا يهبط بنفس النسبة التي يهبط في أجواء الإيونات الموجبة. وهكذا، نعلم أن المناطق التي توجد فيها تركيزات كبرى من الإيونات السالبة هي مناطق تكثر فيها المياه الغزيرة ـ المناطق التي تكثر فيها الأمواج والشلالات، وتتسع في الأراضي التي تولد إيونات سالبة.

نستنتج، مما تقدم، التأثير الكبير الذي تتركه الإيونات السالبة على العديد من المنظومات الانزيمية الكائنة داخل الجسد، بحيث أن هذه المنظومات تستمر في وظيفتها أثناء فترات هامة تكون على صلة بالإيونات السالبة. ولذا، يتأثر الجسد بهذه الإيونات السالبة أثناء اليقظة وأثناء النوم.

الفصل الرابع

العلوم الحديثة وروحانية المادة

برهنت التطورات الحديثة، في حقلي العلوم الفيزيائية والعلوم البرابسيكولوجية، عن تكامل أو تلاق في وجهتي النظر. فقد حملت إلينا هذه العلوم تأكيدات هامة وممتعة لفصول معينة مضمونة في المنشورات الثيوصوفية القديمة التي نجدها في كتاب «العقيدة السرية» الذي وضعته السيدة هيلينا بلافاتسكي، وفي مبادئ الكيمياء السرية.

تشتمل هذه التأكيدات أو المتوازيات على المواضيع التالية:

1ـ الطبيعة الروحية للطاقة التي تشكل القاعدة الأساسية للعالم المادي.

2ـ الطبيعة والتشكل النهائيان للذرات الفيزيائية بحسب تجارب وبحوث الفيزيائيين الروس.

3ـ فقاعات كويلون. كما عرضتها الكيمياء السرية وكما أثبتتها فرضيات الفيزيائي الأمريكي الشهير جون هويلر، مدير قسم الفيزياء في جامعة برنستون.

4ـ وجود ذاكرة فردية وجماعية.

5ـ البرهان على وجود أوساط «ما تحت الكمية»، وصيغ لطيفة ورقيقة للمادة تناظر، وفق مقياس معين، «مستويات» الطبيعة، تحدث عنها، ووضّحها، التقليد الهندوسي القديم والثيوصوفيا.

أولاً ـ روحانية المادة

أحدث تطور الفيزياء بين عامي 1925-1960 تبدلاً كبيراً في الأفكار النسبية المتصلة بالطبيعة الحقيقية للعالم المادي، وبجوهر طاقته الأساسية. وقد كشفت هذه

التطورات عـن الخاصـة المجـزأة للإدراكـات الحسـية، وعجزها عـن فهـم الطبيعة الحقيقية للمادة على نحو كـاف. وعلـى سـبيل المثـال، نقـول: إن مكعبـاً مـن مـادة النحاس يجهز إدراكنا البصري العـادي بصـورة المـادة الصلبـة، الكثيفـة، المتجانسـة والجامدة التي لا تتحرك. وفي الواقع، تهتز جزيئـات النحـاس، السـاكنة بظاهرهـا، بنسبة ثمانية آلاف اهتزاز أو ذبذبة في الثانية؛ وتفصل بينها فراغات تتداخل فيها الجزيئات. ولو أننا توغلنا إلى الأعماق لتحققنـا مـن أن هـذه الجزيئـات تتشـكل مـن ذرات توجد بينها مجالات فارغة، تتناسب مع الفراغات أو المجالات الـتي تفصل بين الأجرام الفضائية. وفي هذا المستوى، تتملكنا الدهشة، إذ نتيقن من أنـه يمكننـا، وفق بعض الاعتبارات، أن نقارن الذرات بأنظمــة شمسـية صغـيرة تتشـكل مـن نـواة مركزية موجبة تدور حولها إلكترونات كوكبيـة سـالبة تنشـطها سـرعة دوارة. وتقـدر سرعة دوران هذه الالكترونات حول النواة بسرعة تتراوح بين مئتي ألف وستة ملايين دورة في الثانية. وتتوسع هذه الحركات السـريعة فـوق تلـك الالكترونـات الـتي تقـدم بيانها. وعندما نتوغل أكثر فأكثر، نصل إلى النواة الـتي تشـتمل علـى عـالم غريـب، ونعني نيوترونات، محايدة كهربائياً، وبروتونات موجبة، وبيونات أو مزونات، هـي دقائق مكهربة لها كتلة وسطى بين الإلكـترون والـبروتون. وعنـد هـذا الحـد، تصبـح الحركـة مذهلـة. وفي كـل لحظـة تكـون البروتونـات والنيوترونـات موضـوع تبـادلات متداخلة خارقة ـــ مليـار مليـار مـرة. ولا شـك أن النويـات الذريـة للأجسـام الثقيلـة ستنفجر حالاً في حـال انعدام هـذا السـياق أو الإجـراء. ومنـذ عـام 1974، تم كشـف النقاب عن طبيعة البروتون. فقد أقام الفيزيــائي الشـهير فـان هـوف، حـامل جـائزة ماكس بلانك في الفيزياء، الدليل على بنية الـبروتون المعقـدة. وتتصـف المكونـات مـا تحت الكمية فيما بينها بسـرعة الحركـة وشـدتها، وبتبـادلات أوسـع مـن مثيلاتهـا الحاصلة بين البروتونات والنيوترونات من مجرد تداخل البيونـات. وهكـذا، نتخلـى عن الفكرة التي تشير إلى السكون الظاهري لقطعة النحاس.

يمكننا تلخيص ما سبق وذكرنا في إجابة العالم إدوار لاروا عن السـؤال التـالي: ما الكون؟ أجاب لاروا: «الكون صرح جبـار يتـألف مـن تنضّـد طبقـات اهتزازيـة... الكون كلّ معقد من الحركـات البطيئـة المسـتقرة فـوق حركـات أكـثر سـرعة، فـأكثر سرعة، حتى نصل إلى العمق. وفي ضوء هذا الاكتشاف نقتفي أثر حقيقة دائمــة، غـير مؤقتة، نعجز عن الإمساك بها، لأنها لم تعد هي ذاتهـا، وأصبحـت حضـوراً مبدعـاً ومتجدداً على الدوام».

تؤكد الفيزياء المعاصرة بعض التصورات البرغسونية، نذكر منها تصوره للحقيقة الأساسية والجوهرية التي، من خلالها، شبّه برغسون الكون بشهاب ناري في حالة تدفق دائم، تتشكل فيه المادة من كلية بقايا الشهاب الخامدة.

في يومنا هذا، نعلم كل العلم عدم وجود البقايا الخامدة. هذا. لأن جهلنا وحده هو المطفئ الرئيسي لنار الحياة وطاقتها. والحق، أن في قلب أبسط حصاة تنتشر. لحظة بعد لحظة، شدة مذهلة من الحركة تشبه انتشار موجات وأنوار ساطعة تبدو إلى جانبها أكثر النيران الاصطناعية لمعاناً باهتاً أو انعكاساً شاحباً.

ونحن، إن شئنا تحديد الطبيعة الحقيقية للمكونات الأساسية للمادة، فلابد لنا أن نصطدم بتعريفات مفارقة. وها هي بعض التعريفات التي يقدمها لنا لوي ده بروي، الحائز على جائزة نوبل في الفيزياء، يقول ده بروي: «بالكرية ـ الجسيم الذرية، نقصد منطقة من التأثيرات، هي حزمة من التموجات التي تمتلك كتلة وسرعة محددتين... تمركز عابر ومؤقت، لتموج ليس هو اهتزازاً مادياً ـ فيزيقياً «لشيء ما»، وذلك بحسب المعنى المألوف الذي نمنحه لهذا الاصطلاح».

يشير هذا القول إلى أن الجوهر الأساسي للمادة لا يمتلك أيّاً من الصفات المألوفة التي تؤلف، بالنسبة لنا، الخطوط المحددة والمميزة للمادة. فكلما زادت الصلابة، زادت الكثافة، وزاد السكون الظاهري، ونقصت الخصائص أو القيم التي تلقننا إياها إدراكاتنا الحسية. تلك هي الأسباب التي تلزم الفيزيائيين النابهين على الاعتراف بأن الفيزياء، وهي علم المادة دون منازع، قد آلت، على نحو متناقض، إلى تحويل العالم المادي إلى طاقة ـ أي تفريغ المادة من مادتها، أي من كثافتها، وتجعلنا نستشف حقيقة أساسية تنصل، في جوهرها، بالروح أكثر ممّا تتصل بالمادة. وهذا هو ما عبّر عنه كل من جينز وإدنغتون اللذين اعترافا بأن الجوهر الحقيقي للوجود المادي يماثل «فكرة عظيمة لا آلة كبرى».

يلخص ما سبق تطور فلسفة العلوم بين عامي 1925 و1960. ومع ذلك، فقد ظهرت بين عامي 1960 و1974، أحداث ووقائع متنوعة تتسم بأهمية كبرى في تاريخ فلسفة العلوم.

تتأسس أهمية هذه الأحداث على الإجراءات التي أدت إلى توحيد الصفة الخاصة التي تم التوصل إليها بين 1960 و1974 في كل من جامعة برنستون وباسادينا في الولايات المتحدة، وفي الاجراءات المتكاملة أو المتحدة التي ساهم بها

كبار علماء العالم من فيزيائيين، وبيولوجيين وفلكيين ذاع صيتهم في أنحـاء المعمـورة. وقد وضع العالم الفرنسي ريمون رويّه كتاباً تضمـن نتـائج أعمـال، وبحـوث أولئك العلماء الأفذاذ. ويمكننا تلخيص النتائج التي توصلوا إليها، كما يلي:

1ـ الكون، والكائنات والأشياء التي نألفها ليست إلا الوجـه الآخـر ــ القفا ــ لموضع جوهري وفريد من نوعه.

2ــ هـذا «الموضـع»، الـذي يتنـاظر مـع «حقـل مركـزي أو موحّـد» في نظـر الفيزيائيين، ليس غير وعي كوني.

3ـ تبدو سيرة المكونات الأساسية للمادة، والذرات والإلكترونات إلخ بأنها تعبّر عن ذكاء غامض، مشوش، أدنى من ذكائنا. لكنها، على غير ذلك، تعد تجلياً، أو كشفاً عن ذكاء أسمى من الذكاء البشري.

4ـ الكون المادي ظاهرة متجلية للروح، ينتج عن تداخلات لا حصر لها، يبلـغ فيها التنضيد المعقد والسريع درجـة قصـوى تضفـي علـى الظواهـر الـتي نألفها صفات الصلابة، والكثافة، والسكون والثبات.

5ـ تستطيع الكائنات البشرية كلها اكتشاف موضع الكون الـذي هـو حقيقتهـا الوحيـدة، والمشـاركة فيهـا. وبهـذا الاكتشـاف والمشـاركة، تتوطـد «سلامتهم» الحقيقية فيها.

6ــ ليـس هنـالك سـوى «حقيقـة» واحـدة في وجـود الكائنـات والأشـياء، وفي جوهرها.

هذه هي النتائج المذهلة التي توصّل إليهـا، ووافـق عليهـا، علمـاء وفيزيـائيون أفذاذ ينتمون إلى مناهج فكرية متنوعة. ويعتبر الثيوصوفيون هذه النتائج ممتعة جـداً، بـل وأمتـع مـن أن يضعهـا رويّـه، وليـس هـو بـالثيوصوفي، في كتـاب. وفي رأي الثيوصوفيين، صاغ رويّه انتقاداته وتعليقاته وعبّر عنها بجرأة.

دقائق الفيزيائيين و«الكيمياء السرية»:

يذكر قـراء «الكيميـاء السـرية» المخططـات أو الرسـوم التوضيحيـة الـتي تمثـل الذرات المادية الأساسية، والتي تبدو وكأنها أعاصير أو دوّارات معقـدة مـن التمـوج، والمشكلّة على هيئة قلب، والشبيهة بضفائر دوّامـة تحييهـا الحركـة، فتبـدو نشيطة جداً وشاذة ومعقدة.

توصلت بحوث الفيزيائيين الروس إلى وجود بنية للـذرة، تتوافـق وتتـلاءم مـع مثيلتها في «الكيمياء السرية». وبهذا الصدد نلخّـص، بكـل أمانـة، الصفـات والمزايـا المشتركة والمتوافقة:

1ـ الدقائق البسيطة الأساسية، التي تشكل المادة الأولية، تنضوي تحـت اسـم «دقائق». فهي تؤلف وحدة تامة. وليست هذه الدقـائق صلبـة أو سـائلة أو قاسية أو ثابتة. ولا ينطبق عليها أي من الخصائص التي نألفها.

2ـ تمتلك هذه الدقـائق أو العنـاصر الأوليـة، فيمـا بينهـا، فعاليـات متبادلـة. وتكون، بالتالي، طاقة حركية تعرف باصطلاح «دوران حول الذات».

3ـ يمكننا مقارنة هذه الدقائق بدوّامات صغيرة ضئيلة الشأن، تحييهـا حركـة دوران تخلق، بدورها، حقلاً أو مجالاً. ولا تعتبر هـذه الدقـائق «أجسـاماً» عادية. هذا لأن دورانها يختلف كلياً عن الدوران الذي نلمحه في الدوّامات العادية. ويمكننا التمييز بين نوعي الدوران على النحو التالي:

آ ـ تستطيع الدوامة العادية ـ الخذروف ـ أن تدور ببطء أو بسرعة. وفي هذه الحالـة، تكـون سـرعة دوران «الدقـائق أو العنـاصر الأوليـة» ثابتة، مهما كانت الظروف أو الأحوال.

ب ـ في دوامة عادية ـ خذروف ـ يجوب الجزء المركز عند القطبين، في كل مرة، مسافة أقصر وأقل من الجزء المركز عنـد خـط الاعتـدال. ويختلف الأمر تماماً في الدوامات ـ الدقائق. وتعادل سرعة الأجزاء المركزة عند خط الاعتدال سرعة الأجـزاء المركـزة عنـد القطبـين. ويكون التعادل نتيجة للتنضيد المعقد للبكتيريا الحلزونيـة الشـكل التي ذكرتها الكيمياء السرية.

في هذا المجال، كتب الفيزيائي الروسي فلاديمير كلر ما يلي:

«تشكل أوقيانوس المادة الأصلية من قطرات شبيهة بالدوّامات العادية، واتصفت ببرهة جركية خاصة وصغيرة قدر الإمكان. لذا، تمتاز المادة الأولى بنشاط ذاتي وتكوّن ذاتي. ولم تكن هذه المادة البدئية والأصلية تتفاعل إلا بذاتها وفي ذاتها».

«فقاعات كويلون» ونظرية جون هويلر:

يعتبر جون هويلر، أستاذ الفيزياء النووية في جامعة برنستون ومساعد روبرت أوبنهايمر في بناء القنبلة الهيدروجينية، أحد ألمع الفيزيائيين الأمريكيين. كان حلقة الاتصال مع «الأكاديمية الأمريكية لتقدم العلوم وتطويرها» عام 1971.

يمكننا تلخيص نظريته على النحو التالي: تتشكل الذرات الأساسية للمادة من فقاعات صغيرة جداً هي ثقوب صغيرة جداً ضمن «زمان ـ مكان» فوقي أصلي وأساسي. وقد قام البرهان على تطابق هذه النظرية، التي أقرّها العديد من الفيزيائيين المشهورين، مع وجود «فقاعات كويلون» التي تتحدث عنها الكيمياء السرية.

وجود ذاكرة كونية:

ألقى التقدم الذي أحرزته علوم الوراثة والعلوم البيولوجية ضوءاً على السياق المهيمن على ولادة الذاكرة والفكر.

نستطيع نحن، من نحيا في هذه المرحلة الزمنية، أن نفهم أن الذاكرة وجدت، منذ مليارات السنين، في التفاعلات الداخلية المتبادلة للذرات الكبرى، أي قبل وجود الإنسان، وقبل وجود الثدييات، وقبل وجود الحيوانات الأحادية الخلايا والأشنات الزرقاء التي تعود إلى ما قبل الكامبري. وأصبحنا ندرك أن شيئاً لم يتعرّض للضياع، وأن الحساب الختامي لهذه الذاكرات المتراكمة تشير إلى ثباتها في كرموزوماتنا، وفي «قانون الوراثة» الذي يتصدر تكاثر الكائن البشري لحظة تكوينه حتى لحظة ولادته. ففي لحظة تكوينه، تقوم خلية واحدة بالعمل. وفي لحظة الولادة، يتألف جسد المولود من مئتي مليار خلية تقريباً. وساعة بعد ساعة، وأسبوع بعد أسبوع خلال الأشهر التسعة، يطرأ التحول على الجزيئات والخلايا، التي لم تدخل نطاق الاختصاص، لتتجه إلى تشكيل الأعضاء، كالدماغ أو الكبد، بحيث أنها أصبحت تختص بوظيفتها اختصاصاً عالياً. ولا يتم هذا التحول بالصدفة أو المصادفة، بل باتّباع حقول قوى وبالامتثال لنهج يتميز بدقة خارقة. ولاشك، أن غنى هذا العمل ينشأ عن موازنة الحساب الختامي: ذاكرات متجمعة وطاقات نفسية ـ مادية تبدأ في الكشف عن ذاتها.

هذا ما يحدث من ناحية. ومن ناحية أخرى، تبرهن البسيكولوجيا التحليلية وجود نماذج أو أنماط مثالية بدئية للاّ وعي الجمعي تطابق، في مضمونها، ما نجده في النصوص الهندوسية القديمة. وقد سعت هيلينا بلافاتسكي، واضعة كتاب «العقيدة السرية» إلى شرح هذا التطابق.

مستويات الطبيعة وخططها

تلتقي الثيوصوفيا، وهي تعالج موضوع «مستويات الطبيعة» وخططها المختلفة وتوافقها مع النظرية الفيزيائية التي تعترف بوجود وسط دون الكمي. ومع الدراسات العديدة التي قامت بها العلوم الـ «بسيكوترونية» والـ «بارابسيكولوجية»، سواء في الولايات المتحدة الأمريكية أو في روسيا، وذلك في الفترة الواقعة بين 1952 و1975.

اعترف علماء أفذاذ، مثل جون إكْلِسْ الحائز على جائزة نوبل في حقل فيزيولوجيا الأعصاب لعام 1971، والأمريكيين دوبْسْ وبْرتْ العالمين الرياضيين. بوجود كون نفساني يتألف من عناصر نفسانية تخترق الكون المادي الذي نألفه.

أخيراً، يمكننا القول بأننا نقدّر، بل نعزز، هذا التقارب بين العلوم الحديثة والثيوصوفيا. وبالفعل، يستحق هذا التقارب دراسة معمقة وشاملة. ويفسح لنا هذا التقارب المجال للولوج إلى آفاق واسعة، مادية وروحية، نتعرف فيها على ذواتنا وعلى الكون.

مراجع البحث

1- La Gnose de Princeton. R. Ruyer.

2- L' Univers des Physiciens. V.Keler.

3- Scince et Spisitualité. R. Linssen.

4- Spiritualité de La Matiére. R. Linssen.

الفصل الخامس

شجرة الحياة الإنسانية

يتسم عرض هذه الدراسة بالصعوبة ويتطلب انتباهاً كلياً. وفي الوقت ذاته، يتوجّب علينا التأمل هنيهة لسبب هو أننا نقدم معلومات هامة تتعلق بالإمكانات والقدرات الموهوبة والمتاحة للإنسان لكي يتجاوز ثنائيته، ويأمل في استعادة وحدة كيانه نتيجة لمعرفة دقيقة لملكات جهازه العصبي والاستفادة منها على نحو ملائم.

يمكننا أن نشبه الجهاز العصبي لدى الإنسان تشبيهاً رمزياً بشجرة. وفي هذا التشبيه، تكون الأعصاب المتشعبة مماثلة لشجرة تتفرع أغصانها في الجسد كله، وتنتشر فيه. وعلى هذا النحو، يشكل العمود الفقري الجذع الذي تصعد فيه وتنزل منه الطاقات المتعددة للطاقة الحيوية لشجرة الحياة التي تمتد جذورها إلى المراكز العصبية للرأس، وتتعمق فيها. والحق، أن الإنسان، الذي وُضع على كوكب الأرض وحمل علم الثنائية، يمتلك، في واقعه، جهازين عصبيين هما:

أولاً ـ الجملة العصبية الودّية، أو المجموع العصبي السمبثاوي الذي ينظم الوظائف الآلية للجسد الإنساني، ويوجهها. وفي حقيقته، يمثل هذا الجهاز شجرة الحياة الإنسانية التي، وهي تقوم بدور الحارس الصامت، تصون الحياة في الجسد ليلاً ونهاراً.

ثانياً ـ الجهاز العصبي المخي الشوكي، أي المتعلق بالمخ والنخاع الشوكي، الذي يمنح الإنسان القدرة على وعي ذاته ومحيطه الذي يحيا فيه. وبالفعل، يمنحه هذا الجهاز القدرة على التفكير والتمييز بين ما هو شر أو خير له. وقد اصطلح الحكماء على تسمية هذا الجهاز المخي الفقري أو الشوكي بشجرة معرفة الخير والشر في الإنسان.

يترابط هذان الجهازان على نحو اتصال وثيق، ويتوافقان بحيث أن كلاً منهما يعتمد على الآخر. وتقتضي طبيعة الإنسان الجوهرية توحيد هذين الجهازين في

انسجام ليؤلفا جهازاً واحداً. الأمر الذي يؤدي إلى توحيد شجرة الحياة أو شجرة معرفة الخير والشر. ويُعد هذا التوحيد، أو الاتحاد المفتاح الذي يسمح للإنسان بالولوج إلى محراب حقيقته الواحدة، وتجاوز ثنائيته.

أولاً ـ الجهاز العصبي المخي ـ الفقري:

يمكننا، على نحو عام، تقسيم هذا الجهاز من وجهة النظر التشريحية والفيزيولوجية الكلاسيكية إلى:

آ ـ المحور المخي ـ الفقري الذي يتألف من المخ، والمخيخ، والبصلة السيسائية والنخاع الشوكي. وهذا يعني بأنه يتألف من أعضاء مركزية أو من مراكز عصبية.

ب ـ الأعضاء المحيطية والخارجية المؤلفة من الأعصاب المخية ـ الفقرية التي تتشعب في الجسد كله. وفي هذه الأعصاب، يمكننا تمييز الأعصاب الفقرية، المختصة بالعمود الفقري، والمنطلقة من النخاع الشوكي والأعصاب القحفية، أي الجمجمية، التي نجد جذورها في الدماغ. هذا هو الجهاز العصبي المحيطي الذي يوثّق العلاقة بين الجهاز العصبي المركزي وأعضاء الحس.

نستطيع أن نقول: إن تنبيهات العالم المادي، أي الخارجي، تلامس، بوساطة أعضاء الحس. نهايات أعصاب الجهاز المخي ـ الفقري بحيث أن الأحاسيس تنقل موجات الطاقة العصبية إلى الدماغ ومنه إلى القنوات الداخلية للوعي.

يترأس الجهاز العصبي المخّي الشوكي حياة العلاقة والربط لأنه يشكل عضو الوعي على المستوى الفيزيقي. وفي الوقت ذاته، يمثل هذا الجهاز قناة وظائف الإرادة والإحساس. وقد اصطلح الباحثون على تسميته بالجهاز العصبي الإرادي لسبب هو أنه يعمل، على نحو عام، تحت إشراف الفكر الواعي والإرادي. فنحن نرى، ونسمع، ونذوق، ونُحسّ ونلمس بوساطة هذا الجهاز.

يتصّف هذا الجهاز العصبي المخي ـ الفقري بالذكورة ويتميز بقطبية إيجابية. فهو يعبّر عن الوضع التطوري الذي اكتسبه الإنسان عبر تجسّداته السابقة. وبواسطته، تتحرك الروح، وتنمو وتتطور. وعلى المستوى المتافيزيقي. يتصل هذا الجهاز بالجسد العقلي بواسطة الغدّة الصنوبرية، أو بالغدة النخامية التي تتصف بقطبية إيجابية.

ثانياً ـ العمود الفقري:

يشتمل العمود الفقري، في جوهره، علـى النخـاع الشـوكي المحتجـز في القنـاة الفقرية التي تحميها الفقرات. وتنتهي هذه القناة، في أعلاها عند البصلة السيسائية. وفي ادناهـا، عنـد الفقـرة القطنيـة ـ الحقويـة ـ الثانيـة بشـعيرة طرفيـة ذات مـادة سنجابية.

تتمثل لنا هذه القناة الفقرية بشكل حيـة يتـم توازنهـا علـى ذنبهـا. وهـذا هـو السبب الذي دعـا الأقدمـين إلى اعتنـاق مبـدأ الحيـة كرمـز للحكمـة. ويمتـد النخـاع الشوكي، الذي هو إطالة للمخ، وللوعي الكائن في المخ على طول العمود الفقـري عـبر النخاع الشوكي. ولما كان العمود الفقري، وهو على المسـتوى الفـيزيقي. يعمـل كقنـاة تعـبره الطاقـات العصبيـة، فإنـه، علـى المسـتوى السـرّي. يحمـل طاقـات غايـة في الأهمية.

في وسط النخاع الشوكي، توجد قناة غشاء جوف الدماغ هي القنـاة النخاعيـة. وفي هذه القناة، تسيل طاقات لطيفة تدعى، وفق ما اصطلحت عليه تعاليم الحكمـة، «الزيت الذهبي» لشجرة الحياة[1]. ويسيل هذا «الزيـت الذهـبي» في الجسـد كلـه عـبر الأعصاب التي تتصل بعمق في النخاع الشوكي. وتكون هذه الأعصـاب. في جوهرهـا، أعصاباً فيزيقية وأعصاباً أثيرية.

يُعد هذا الممّر الضيق الذي يسمّى أيضاً «المر الضيـق المسـتقيم» وسـيلة التجـدد الرئيسية التي تُعتبر الرجاء الوحيد للإنسان الذي يهدف إلى تحقيق وحدته الداخليـة إذ يسيطر على الطاقة التي تمر عبر مراكز الطاقة في العمود الفقري.

ثالثاً ـ الطاقة الكونية:

عند قاعدة العمود الفقري، ترقد كرة ملتفة على ذاتها هي طاقة كونية، تسميها التعاليم الشرقية كونداليني.

تظل هذه الطاقة الكونية، لدى غالبية الناس، غافلة وكامنة، مثل كتلة كهرباء

---

[1] ـ هو، كما تحدثنا الحكمة الشرقية، النخاع الشوكي الأثيري الـذي يُعـد نسـخة ثانيـة للنخـاع الشـوكي الفيزيقي. وفي هذه القناة، تمر الطاقات اللطيفة، أي الأثيرية التي تقع قاعدتها عند أسفل العمود الفقري، وتصعد باستقامة حتى المناطق العليا في الرأس.

سكونية، تصون ذاتها وتخفي، في ذاتها، قدرتها العظيمة. ووفق ما تحدثنا التعاليم الشرقية، تعتبر كونداليني ناراً تصعد لولبياً انطلاقاً من الكرة الموجودة في قاعدة العمود الفقري. وهكذا، يعد هذا الصعود اللولبي الرحلة التي تستهلها الطاقة باتجاه الأعلى لتصل إلى الرأس، وتُحدث الهدوء والراحة.

في داخل الرأس، توجد الغدة الصنوبرية والغدة النخامية اللتان تمثلان الغاية التي تتوخاها الرحلة التي تقوم بها كونداليني. وبين كونداليني، الكائنة عند قاعة العمود الفقري، وهاتين الغدتين، يوجد مسلكان آخران للطاقة أو قناتاه أثيريتان:

الأولى ـ قناة أثيرية، أو طريق لقدرة مركزة تقع إلى يسار النخاع الشوكي الأثيري. وتكون قطبيتها أنثوية أو سالبة. وفي رحلتها باتجاه الأعلى، تحمل هذه القناة الطاقة إلى الغدة النخامية، وتتصل بالمنخر الأيسر. وتجذب هذه القناة المعدّة لحمل الطاقة الأنثوية قوى الأثير السالبة من الأرض باتجاه الأعلى[1].

الثانية ـ قناة أثيرية، أو طريق لقدرة قطبية موجبة مركزة تقع إلى يمين النخاع الشوكي. تنطلق هذه الطاقة من قاعدة العمود الفقري لتصل إلى الغدّة الصنوبرية وإلى الغدة النخامية الواقعتين في الرأس. وتكون هذه القناة على صلة بالمنخر الأيمن. وتعد هذه القناة الأثيرية المظهر الذكري أو الموجب للطاقة[2]. وتنقل هذه القناة قدرة الأثير الموجبة المنبثقة من الشمس[3].

لمّا كانت القوة السالبة والموجبة للأثير متوازيتين فإنهما تعملان بانسجام وتناغم. وتتقاطع هاتان القناتان للطاقة الموجبة والسالبة عند نقاط التقاء عديدة على طول العمود الفقري. وعند نقاط تقاطعهما، تتشكل مراكز الطاقة العديدة.

رابعاً ـ مراكز الطاقة:

هي المراكز السبعة للطاقة الأثيرية، أو هي أعاصير الطاقة التي تتركز في مناطق مختلفة من الجسم. وتتركز جذورها، باستثناء الطاقة التاجية القائمة في قمة الرأس، في العمود الفقري. ويمكننا أن نقول: إن مراكز الطاقة هي المطابقات الأثيرية أو اللطيفة للجهاز الغدّي لجسد الإنسان الفيزيقي.

---

[1] ـ دعاها المصريون إيزيس.

[2] ـ دعاها المصريون أوزيريس.

[3] ـ دعاها اليونانيون ـ نوس nous.

تتصل هذه المراكز بالجملة العصبية الودية في جسد الكائن البشري. وتستعمل هذه المراكز الغدد الصم، تماماً كما تستعملها الجملة العصبية الودية أداة للتعبير.

يمتلك الجسد اللطيف، أي الجسد الأثيري، جهازه العصبي الخاص بحيث أن المراكز أو الضفائر السالبة تتمثل في هذا الجسد.

تتمثل وظيفة كونداليني. التي تقبع ساكنة في قاعدة العمود الفقري. في الصعود على طول النخاع الشوكي الأثيري. وبصعودها هذا، تهب القدرة أو الحياة إلى المراكز المتعددة التي تتركز في مسلكها حتى تنتهي من رحلتها في الدماغ عند مستوى الغدتين الصنوبرية والنخامية، حاملة النور والحكمة إلى الإنسان. لكن هذه القدرة لا تستيقظ بذاتها على نحو طبيعي، وذلك لأن المراكز العديدة مغلفة بأجهزة مغلقة تتفتح شيئاً فشيئاً بعد القيام بتمارين عديدة.

هكذا، ندرك أن العمود الفقري هو الوسط الذي تلتف حوله الطاقات كلها، بحيث أن تطور الإنسان يتحقق في تحرير العمود الفقري وتنقية الممر الموجود في النخاع الشوكي حتى تكون الطاقات الأثيرية، أو سوائل النور، قادرة على المرور من قاعدة العمود الفقري إلى الرأس.

خامساً ـ المجموع العصبي السبمتاوي:

يشتمل هذا الجهاز على سلسلة مزدوجة من عقد تنطلق من المخيخ وتمتد على طول شوكات العمود الفقري وعلى جانبيه، فتقع إحداها إلى يمينه والأخرى إلى يساره.

تتحد هاتان السلسلتان عند مراكز عصبية مركزة كل التركيز تسمّى ضفائر: الضفيرة القلبية، الضفيرة الشمسية، الضفيرة الماساريقية، والضفيرة الخثلية[1]. وتتحد هاتان السلسلتان نهائياً في منطقة الحوض.

يقوم الجهاز العصبي الودي ـ السمبتاوي أو العصبي النباتي بوظيفته آلياً. ويعد هذا الجهاز مسؤولاً عن تنظيم وضبط وتوجيه آلية الجسم الفيزيقي كالتنفس، والهضم، والقلب، والأمعاء، ويعمل دون تدخل العقل.

يتحدد مقر النشاط الرئيسي للجهاز العصبي ـ النباتي في الشبكة الضخمة

---

[1] ـ غشاء يغلّف الأمعاء ويصلها بالجدار البطني.

للأعصاب التي تشكل الضفيّرة الشمسية. ويرتبط هذا الجهاز بطريقة معقدة بالإنسان الكوكبي (النوراني)... ويكون الجهاز الودي ـ السمبتاوي أداة الجسد الكوكبي (النوراني) للإنسان. والحقيقة أن رغبات الكائن الإنساني تستيقظ في هذه الشبكة، أي الضفيرة.

سادساً ـ ما تحت الشعور:

يهيمن الجهاز العصبي الودي ـ السمبتاوي وما تحت الشعور على جميع الوظائف الآلية في جسد الإنسان. وبالتحديد، يوجه ما تحت الشعور، وهو يعمل عبر الجهاز العصبي الودي ـ السمبتاوي، جميع الوظائف الآلية لجسد الإنسان. وتكون نقطة تماس ما تحت الشعور في الغدة النخامية. ويعترف العلماء، وهم يدرسون الغدد الصم، بالأهمية البالغة للغدة النخامية. وبالفعل، تعتبر هذه الغدة منحاً أصم حقيقياً يهيمن على الجهاز الغدي والجهاز السمبتاوي. وهكذا، نرى كيف يهيمن ما تحت الشعور على الجسم بواسطة الغدة النخامية التي هي ملكة الباطن.

يقوم ما تحت الشعور بدور فعّال، كل الفعالية، في وظائفه. فكل ما يؤمن به الإنسان بقوة يتخذ شكل أمر يرسل إلى ما تحت الشعور الذي يفعل، في هذه الحالة، عبر الوظائف الآلية للجهاز العصبي ـ النباتي. ومع ذلك، يبقى ما تحت الشعور محدوداً في نطاق الاستدلال والمحاكمة. ولما كان استنباطياً فإن المنطق يعصى عليه. لذا، يتحدد تأثير ما تحت الشعور في تأثره بالاقتراحات والتوجيهات التي يجهزه بها الجانب العقلي.

يتصف الجهاز العصبي السمبتاوي بقطبية سالبة، أي انثوية. وبالمثل، يتصف ما تحت الشعور، والغدة النخامية ومراكز الطاقة التابعة لشوكات العمود الفقري بقطبية سالبة. وهذه كلها تشكل الجهاز العصبي السمبتاوي الإنساني. أما الجهاز العصبي المخي ـ الشوكي فإنه يتصف بقطبية ذكرية موجبة.

سابعاً ـ اتحاد الجهازين العصبيين:

يوجد في الإنسان نظامان عصبيان:

الأول ـ الجهاز العصبي المخي ـ الشوكي الذكري، ذو القطبية الموجبة، الذي يشتمل على المخ، والقناة الفقارية، بالإضافة إلى النخاع الشوكي، والأعصاب المخية ـ

الشوكية، والأقنية المختلفة للقدرة: النخاع الشوكي الأثيري، والقناة الأثيرية اليمينية، المرتبطان بالغدة الصنوبرية وبمركز الطاقة التاجي. والقناة الأثيرية اليسارية التي تنتمي إلى الجهاز المخي ـ الشوكي: هي قدرة لها قطبية سالبة. وبقطبيتها هذه. ترتبط هذه القناة اليسارية بالجهاز الودي السمبتاوي وبالغدة النخامية. وتعمل كصلة وصل بين الجهازين العصبيين.

الثاني ـ الجملة الودية التي تتشكل من السلسلة المضاعفة للعقد. من أعصابها السمبتاوية ومن ضفائرها الفيزيقية المختلفة. وتنتمي الغدة النخامية إلى الجهاز العصبي السمبتاوي تماماً كما ينتمي مركز طاقة الحاجبين الذي تتصل به. ومراكز الطاقة الأخرى للعمود الشوكي.

تتمثل الغاية من تطور الكائن البشري في تحقيق وحدته التي تعني توحيد قطبي الجهازين العصبيين في طاقة واحدة بتناغم متوازن. ويمكننا توضيح الإجراء الذي نقوم به في سبيل التوحيد كما يلي:

أولاً ـ على مستوى العمود الفقري: تتحد القناة الواقعة إلى اليسار والقناة الواقعة إلى اليمين. وهما تيارا قوة الجهاز المخي ـ الشوكي. مع مراكز طاقة الجهاز السمبتاوي التي تنشّطها هاتان القدرتان.

ثانياً ـ في الرأس ـ توقظ القناة الأنثوية، أي البرانا السالبة، الغدة النخامية وتنشط مراكز طاقة الحاجبين. وتوقظ القناة الذكرية، أي البرانا الموجبة، الغدة الصنوبرية وتنشّط المركز التّاجي للطاقة.

ثالثاً ـ تندمج الغدتان الصنوبرية والنخامية، وهما ملك وملكة المملكة الداخلية، وتتحدان نفسانياً في زواج سري ـ روحي، ويستيقظ الإنسان ليعود إلى كيانه الحقيقي. وباتحاد الملك، وهو الغدة الصنوبرية، والملكة، وهي الغدة النخامية، يولد ابن للإله، هو في الوقت ذاته ذكر وأنثى. وفي الوقت ذاته، يولد الإنسان الجديد الذي يحقق الوعي والحكمة.

رابعاً ـ تستطيع كونداليني أن تصعد ببطء في النخاع الشوكي الأثيري لكي تتحد مع سيّدها، وهو الإنسان الجديد الذي تحمل إليه الاستنارة، الطاقة والقدرة، الأمر الذي يؤدي إلى ولادة كريستوس الكوني في الإنسان.

هذه هي المرحلة التي تتسم فيها سيادة الإنسان لذاته ذروتها. وتتحقق فيها الولادة الجديدة.



الفصل السادس

انفتاح العين الثالثة

تنوعت الآراء التي طرحت قضية حقيقة الإنسان على بساط البحث، وكادت تتناقض في مضامين تفسيرها وتأويلها. ولقد شبهت الآراء المشبعة بالتشاؤم، وقد أدهشتها الأنانية السائدة في أرجاء العالم، الإنسان الذي هو، في حقيقته حصيلة التطور الهابط لطاقة كونية، بعفن على ركام قذر.

والعالم، كما يراه المتشائمون. محكوم عليه بالشر والخطيئة، وخاضع لقواعد مملكة التفاهة. ويسوّغ أولئك المتشائمون رأيهم هذا بقولهم إن الإنسان. في عمقه، حيوان شرس ومفترس. ويعتقدون أن الحياة تفترض. بالضرورة، المنافسة والإبادة. وعلى الرغم من قسوة هذا الموقف المتشائم، لا تعيق شراسة بعض الكائنات البشرية وجود تطلعات روحية يتميز بها الكثيرون. وترهف هذه التطلعات حساسية الإنسان باتجاه انطوائه على ذاته، فيشعر بأنه محتجز داخل «أنا» ضيقة ومحدودة، وموجود في حالة انحباس. كأنه منفصل عن العالم، ومعزول عنه.

وعلى غير ذلك، يصرح الحكماء بأن هذا الإحساس ينطوي على القلق والضياع والغربة. فهم يرون أن الإنسان نفسه، وهو يعاني من أوهامه، قد فصل نفسه عن الكون. والحقيقة هي أن الإنسان والكون يؤلفان مادة جوهرية واحدة. وعلى هذا الأساس. يعد كل سموّ روحي، في جوهره، تحقيقاً للتكامل القائم بينه وبين الكل. الأمر الذي يعني التوقف عن تجزئة الاتصالية الكونية إلى أجزاء لا منتهية تنعزل الواحدة منها عن الأخرى. وهكذا، يرفض الإنسان عزل ذاته وفصلها عن الكل.

يؤسفني أن أقول: إن الإنسان لا يرى في الكون غير الجزء الذي يتخيله ويقتطعه لذاته، ولا يدرك إلا ما يكون وعيه قادرا على إلهامه في مرحلة تطوره الراهنة. فإذا ما ظهر له العالم وقد تعين في أبعاد ثلاثة، عجز، أو توقف أو تقاعس، عن تصور أبعاد أخرى.

ولما كانت نهاية هذا الدور قد أمدّت الإنسان بالقدرة على إدراك البعد الرابع، فلابد أن يهبه كل دور قادم بالقدرة على تصوّر بُعد جديد.

يزداد الوعي الإنساني تطوراً ونمواً يوماً بعد يوم. وقد استطاع معلّمو الحكمة أن يعاينوا، في رؤاهم السامية، سيرورة هذه الزيادة في حقل الوعي الذي يصبح، في نهايته، كونياً. وفي سياق هذا التطور المتنامي، تتولد رؤيا حقيقية تجعل الإنسان يشعر بوحدة كل الكائنات. ويثير هذا الشعور في الإنسان يقظة الوعي، فيتأكد من مسؤوليته التي تحثّه على القيام بواجباته تجاه الآخرين. وإذ ينعتق الإنسان من أسار أنانيته، يدرك أنه لن يعود بحاجة للنواهي الطقسية والتشريعية والتقليدية من أي نوع كانت. وعندئذٍ، يكون شعوره الغيري طبيعياً، يمليه عليه إحساسه أو إدراكه بالوحدة الجوهرية. أما سلوكه الأناني فإنه ينشأ من إحساسه بالانفصال والتجزئة.

هكذا، يكون تقدمه الروحي نتاجاً لتحول جذري في موقفه الداخلي المعدَّل، وليقينه من أنه واحد مع جميع الكائنات - هذا اليقين الذي يحل محل اعتقاده الخاطئ بأنه كائن منفصل أو معزول؛ وبالتالي، يجب ألا يكون هذا التطور أو التقدم نتيجة لرفض قاسٍ أو أناني للعالم؛ هذا، لأن رفضاً من هذا النوع سيؤدي به إلى انفصاله عن الآخرين. ويقوده هذا التطور إلى إحساسه بهبة الحياة المجردة والمنزهة عن كل رغبة بالمكافأة، أو بالكسب أو الحصول على الفردوس الذي صاغه على نحو يرضي أنانيته.

تعد سيرورة الإنسان الحكيم، أو الباحث عن الحقيقة، جهداً دائماً ومتواصلاً، تتمثل غايته في الارتقاء إلى مستوى ذات سامية تتميز بخصائص متعالية، وتكون ينبوعاً من القدرة والمعرفة لا ينضب. ويكون هذا البحث الدائب لتحقيق كائن أسمى الوسيلة الأكيدة للحصول على السعادة والغبطة، وذلك لأنهما لا تتحققان بالحصول على الحد الأقصى من الممتلكات بقدر ما تتحققان بتطلع الإنسان وتوقه إلى مثالية كائن يتسنّم درجة عليا في سلسلة الوجود الكبرى.

تعتبر الإرادة الفاعلة باتجاه السعادة والغبطة القضية الجوهرية لوجود الإنسان. ولقد تحدث الدالاي لاما عن هذه الغبطة بوصفها قضية جوهرية في كتابه «انفتاح عين الحكمة» التي هي العين الثالثة. وتساءل الدالاي لاما وهو يتحدث عن هذه القضية الجوهرية: كيف يحقق الإنسان السعادة والغبطة؟ ويجيب قائلاً: التوق الروحي الذي لا تعضده الجهود لا يكفي. ويذكّرنا الدالاي لاما، وهو يتمثل بالبوذية، بأن الألم السلبي ينتج عن الجهل. ويضيف قائلاً: لكل ألم سلبي علة،

أي سبب. ولإبطال هذه العلة، أو السبب، يجب على الإنسان أن يكتشف هذه العلة أولاً، ويعمل على وضع نهاية لها ثانياً. لذا، نرى أن توقف الآلام السلبية ينبع من معرفة الإنسان لذاته معرفة صحيحة أولاً، ومن نقل حوافزه الخاصة إلى وضح النهار ثانياً، ومن اكتشافه لما ترسب في لا شعوره من كبوتات، وكوابح، ورغبات وشهوات ثالثاً، ومن اختيار واضح لنوعية حياة لائقة ومعيشة ملائمة رابعاً. وهكذا. يحقق الإنسان جوهر وجوده، ويدرك علل أو أسباب آلامه الخاصة، ويعي القدرة التي تنجم عن مساعدة الآخرين ليصبحوا أكثر سعادة، ويكتشفوا في داخلهم جذور شرورهم، فيعمدون إلى اقتلاعها.

إذن، فالإنسان الذي يجهل نفسه، ويستسلم لخيالاته الجامحة. وإلى وساوس هذه الخيالات وأنواع كبتها يجد نفسه في سعي دائم عن اللّذة. وإذ يستقر في الجزء الأكثر ما يكون سطحياً من كيانه، يعرّض حياته، كما قال فولتير، للموت في وسط الحياة. وعندئذٍ، تنفعل روحه بما يدعوه الهندوس الإسقاطات أو اللّطخات العقلية. وتتولّد هذه اللطخات أو الإسقاطات عن الأمور التالية: الاشتهاء. الرغبة في التملك والتسلّط. الحسد. الكراهية، الاستغلال وشرور أخرى تؤدي بدورها إلى أنواع المحن. وخيبة الأمل وأنواع العذاب التي لا تُحصى. وعلى غير ذلك. يحل الانفتاح العقلي والروحي محل اللذة في قلب الإنسان الذي يتفهم السياق السيكولوجي لنشأة الألم السلبي. الأمر الذي يسير به إلى خيره الأعظم.

والحق، أن تحديد الإنسان لذاته في الحواس الخمس وفي عقله المتصل بهذه الحواس وبالدماغ فقط، يعني أنه قد حصل على الحقيقة النسبية. أما الحكيم الذي يطوّر مواهبه الروحية والعقلية تطويراً كاملاً فإنه يستطيع وحده أن يبلغ مستوى الحقيقة المطلقة. هذا. لأن تنمية هذه المواهب تعتمد على تنشيط عضو صغير، قليل الأهمية في نظره، يتركز في الدماغ، هو الغدة الصنوبرية التي تُذهل العلماء والعارفين من حيث الوظيفة الأساسية التي تؤديها. وفي هذا السياق، نقرأ في كتاب «العقيدة السرية» أن العين الثالثة كانت، منذ ملايين السنين، عضو الرؤية الروحية. وكانت هذه العين مركزة في مؤخرة الرأس. والحالة هذه، تتعارض فعالية هذه العين، أو هذا العضو، مع أي شكل من أشكال الحياة الخشنة. وعندما أضاع الإنسان، عبر السنين الخوالي، نقاءه الأول، تصلبت هذه العين وغرزت شيئاً فشيئاً في الجمجمة. وشكلت ما نعرفه اليوم بالغدة الصنوبرية.

تعرض مداد بلافاتسكي النهج التطوري الذي تم فيه ظهور هذه الغدة في

الإنسان المعاصر. ولن يفيدنا كثيراً أن نُصر على أهمية تلك الرؤى والتجليات التي تلقي ضوءاً على التحول الروحي ـ النفسي ـ الفيزيولوجي الذي تحققه بعض الممارسات. تقول مدام بلافاتسكي: تدوم العلاقة بين الغدة النخامية والغدة الصنوبرية ما دامت الحياة الفيزيقية.

وفق ما تقوله هيلينا بلافاتسكي، يعاين الرائي، أثناء حياته، هالة ذهبية حول كلّ غدة من الغدتين. وفي هاتين الغدتين تنبثق باستمرار، كما هي الحال في القلب، نبضات اهتزازية تنمو قدرتها وتزداد أثناء جهود يبذلها المرء لكي ينمي بصيرته وقدرته على الرؤيا. وفي النهاية، تبلغ الغدة النخامية، وهي تهتز أكثر فأكثر وتتنامى بالتدريج، الغدة الصنوبرية التي تصبح نشيطة بتأثير هذا التلاقي. وفي هذا التلاقي، يتحقق انفتاح العين الثالثة.

من جهة أخرى، ترى هيلينا بلافاتسكي أن الغدة النخامية تتطابق مع المستوى العقلي الذي يمثل الحاسة السادسة في الإنسان تماماً كما تتوافق الغدة الصنوبرية مع المستوى الروحي الذي يمثل الحاسة السابعة. وبهذا الصدد، تقول هيلينا بلافاتسكي: «في اللحظة التي توقِظ فيها الحاسة السادسة الحاسة السابعة، يكتشف الإنسان الطريقة التي ترشده إلى الاستفادة من المواهب والقدرات المتسامية التي كانت غافلة لفترة زمنية طويلة في الجنس البشري». وعندئذٍ، يصبح الإنسان كلي المعرفة، ويختفي الماضي والمستقبل ليتجليا في حضور دائم. وتضيف قائلة: يحيا الإنسان في هذا الحضور الدائم؛ وتمده العين الثالثة بالقدرة على استشفاف الماضي والمستقبل، فيكونان أحداثاً حاضرة على نحو ينتشران في موضعين متباعدين كثيراً في المكان.

هكذا، تعتقد مدام بلافاتسكي أن انفتاح العين الثالثة يؤدي إلى إضافة حقول اللا نهاية إلى الحقول الأخرى لسبب هو أن الإنسان يصبح كلي المعرفة، الأمر الذي يوحد الماضي والمستقبل في الحاضر.

بالإضافة إلى ذلك، تعتقد بلافاتسكي أن المريد الذي يوفَّق إلى إيقاظ عينه الثالثة لا يحتفظ في ذاكرته إلا بجزء مما يسمح له به انفتاح هذه العين بإدراكه. ولا يتم له إدراك كلية رؤياه إلا خلال سنوات بعد أن يكون قد أصبح نقياً من الوجهة النفسية والجسدية، ويكون قد اكتمل بعد اعتماده إلى مستوى الامتلاء الروحي أو الكمال الروحي. فهو يختزن في ذاكرته المادية المعارف التي يكون قد اكتسبها. وتضيف مدام بلافاتسكي قائلة: بقدر ما تكون الغدة النخامية عضو السمو العقلي، تكون الغدة الصنوبرية، بالقدر ذاته، عضو العقل الفوقي الذي يستنير بالمعرفة والحكمة.

نخلص إلى قول ما يلي: لا يحظى بمساعدة العين الثالثة إلا الإنسان العفيف، النقي الذي يحول طاقاته المادية إلى طاقات روحية. وعلى هذا الأساس، تقول مدام بلافاتسكي: كان النخاع الشوكي - وهو يتأثر كثيراً بالنشاط الجنسي - يمارس ضغطاً قوياً على الغدة الصنوبرية. لذا، تقضي الضرورة بأن يكون كلّ متعمق في نطاق الحكمة عفيفاً في كلامه، وفكره وفعله، ومترفعاً عن الأمور المبتذلة. وكذلك، تقضي الضرورة أن يحول الإنسان طاقته الجنسية، بشكل خاص، إلى طاقة روحية تحقق غاية نبيلة، تتوافق مع احترام الإنسان لنفسه وتقديره لمعنى وقيمة وجوده.

يشير التمييز الذي يعتمده البوذيون بين مستويي الحقيقة إلى تقصير العقل المتصل بالحواس وحدها في تزويدنا بتمثّل دقيق وكامل لحقيقة الكائنات والأشياء. ويؤكد العارفون الذين أسسوا مملكة العقل والطبيعة صعوبة إدراك الحقيقة الكاملة. فقد انتهت جهودهم لانتزاع أسرار هذه المملكة من الطبيعة إلى الدهشة، والتأمل والتساؤل. وكثيرون هم المفكرون المعاصرون الذين يشكون بقدرة العقل وحده على اكتشاف طبيعة الأشياء الحقيقية. فالعقل، وقد اتجه، في مسالكه، إلى الفعل الواقعي، وأقام استنباطاته واستقراءاته على المعطيات اللاّ مكتملة التي تزوده بها الحواس الفيزيقية، لا يزال عاجزاً عن حل رموز معضلات الكون الكبرى. وعلى الرغم من جدارة العقل على تقديم تصوّر مقنع عن الأشياء بحيث أنه يعد الفاعل الأساسي في العالم الخارجي، لكنه يبدو وكأنه يسعى، عبر رحلته التجريبية والاختبارية الطويلة، إلى فهم تعقيد هذا العالم الخارجي وطبيعته الجوهرية العميقة. ومع ذلك، يستطيع العقل أن يُسقط الوضوح المبسط على ما يتفحصه ويخضعه للتجربة والاختبار. ويتوافق هذا التوضيح والتبسيط مع ما قاله فولتير: «إنني كالجداول الصغيرة؛ فهي واضحة وصافية لأنها أقل عمقاً من سواها».

يصرح بونكاره في كتابه «العلم والفرضية» بأن المسلمات الهندسية عبارة عن اتفاقات واصطلاحات. ويضيف قائلاً: إن تفحصنا لحقيقة الهندسة الإقليدية لا يعني أكثر من بحثنا عن صحة الطريقة المترية وخطأ المقاييس القديمة. فالإنسان، في رأيه، وقد كيّف نفسه مع العالم الخارجي، اعتنق الهندسة التي بدت له مريحة وملائمة أكثر من غيرها. وفي كتابه «قيمة العلم»، يؤكد بونكاره «أن القواعد الأساسية والتعريفات العلمية، التي تم اختبارها، لا لأنها حقيقية بل لأنها مريحة وملائمة، ليست إلا ثمرة لم تبلغ نضجها».

هذا هو الارتياب الملازم للعقل الذي يعبر عن هذا المبدأ في بحث ورد على

لسان أحد الحكماء: «العقل هو الهادم الكبير» لذا، يجب على الإنسان، الذي يسعى إلى الحكمة، أن يهدم الهادم. وهذا يعني أن واجبه يقضي بألا يترك المجال للحكم على الأشياء من خلال الانفعالات التي تطيح بقدرته على المخاكمة السليمة، الأمر الذي يجعلها تتحكم به في الوقت الذي تكون هي أدنى مستوى منه. لذا، يفضل أن تكون القيادة للعقل المفكِر الذي هو أسمى وأجل، ويُسقط العقل المنفعل. ففي مرحلة أولى من تطوره، يجدر بالإنسان أن يتعلم كيف يوجه دوافعه ويضبط انفعالاته بقدرة عقله. وفي مرحلة ثانية، يجدر به أن يعمل جاهداً بتوجيه عقله إلى تحقيق ملكات ومواهب يتسامى بها وينفتح إلى الحقيقة. والحق، أن هذا التسامي والانفتاح لا يتحققان إلا باستيقاظ العين الثالثة من نومها الطويل. وعندئذٍ، تكون هذه الملكات والمواهب وحدها قادرة على الأخذ بيد الإنسان وتوجيهه إلى مستقبل ثري وممتلئ بتحقيقات سرّانية عظيمة. وإذ يحققها، يصبح قادراً على الانعتاق من تخيلات خاطئة تصورها واعتبرها قضايا حقيقية شكّلها من عناصر طبيعته الخاصة، والإصغاء إلى المبدأ الذي نادت به حكمة هيكل دلفي: «أيها الإنسان، اعرف نفسك».

خلاصة

إن كان الإنسان يحمل في ذاته وكيانه السلب والإيجاب، المثلين بالشيطان والله، فمن المؤكد أن يكون ساحة معركة محتومة بين هذين القطبين المتعارضين. وفي هذه الحالة، تعجز شهواته، المثلة بأنانيته وعدم وعيه لكيانه وجوهره، عن الاحتفاظ بواقعها قبالة طبيعته العليا السامية. وإذا ما تم لهذه الشهوات أن تحتفظ بواقعها، استطاعت أن تعيق تحقيق المواهب والملكات السامية التي تجعل منه أكثر من مجرد إنسان. وهكذا، يتوجب على الإنسان أن يفكر بمستقبله وبما فيه هو في آن واحد.

نحن نرى أن حكماء الماضي، الذين كانوا نخبة البشرية، قد أحدثوا ومضات نور بشّرت بحلول حقبة جديدة. ولقد برّر أولئك الرواد الأوائل، المتعمقون في فهم أنفسهم، ما أكده باسكال إذ قال: «إن الكون آلة تحيك الآلهة». والحق، أن الذين يسعون إلى تحقيق عمق كيانهم وحياتهم، يسيرون على الطريق الذي عبّده لنا حكماء الماضي. والإنسان، بحريته الكاملة، يختار التقدم بسرعة على هذه الطريق، ويعدل جهوده وفق هذه الغاية المختارة، ويبذل جهده ليسير أمام البشرية التي تتباطأ في سيرها، وتجد صعوبة في تقدمها، وتظل مثقلة بما فيها، وتنوء تحت نير مستقبل مذهل.

مراجع البحث

La Doctrine Secrete, VOL3, Helena Blavatsky.

الفصل السابع

أحادي الجنس المقدس

تعود كلمتا إرمافروديت وأندروجين. بأصلهما. إلى اللغة اليونانية. وتعنيان أحادي الجنس. ويشير هذان المصطلحان إلى الكائن الذي يتمثل فيه مظهران، أحدهما ذكري والآخر أنثوي. وبحسب ما تذكره الأسطورة الهيلينية، كان إرمافروديتوس ابناً لهرمس، رسول الآلهة. ولإفروديت إلهة الجمال والحب. وتروي الأسطورة قصة هذا اليافع المقدس الذي اقترب، ذات يوم من الينبوع الذي كان يخص إلهة الماء سلماكيس في بلدة كاري الواقعة في آسيا الصغرى. ولما كان إرمافروديتوس يبغي تبريد جسده، فإنه غطس في الينبوع الذي وجد مياهه الصافية الرائعة عذبة وممتعة. وأخذ يتردد على هذا الينبوع كل يوم ليستحم في مياهه العذبة. وإذ رأته إلهة الماء، فتنت به، وأحبّت هذا الزائر الذي سحرها برشاقته وجماله. ومن أجله، توسّلت إلى الآلهة ليمنحوها نعمة الاتحاد به. وبالفعل، استجابت الآلهة لدعائها. وفي يوم من الأيام، بينما كان افروديتوس خارجاً من الماء، وجد نفسه وقد تحول إلى أحادي الجنس. وكانت أحاديته الجنسية هذه حصيلة اتحاد الإله الشاب مع إلهة الماء في شخص واحد.

في كتاب «الطبائع» الذي وضعه ثيوفراست، تلميذ أرسطو، نجد مصدراً آخر لهذه الأسطورة الجميلة. ولقد أعاد الشاعر اللاتيني أوفيد لهذه الرواية أهميتها في قصائده الملحمية التي ضمنها في كتابه «التحولات». والحق أن مصطلح أحادي الجنس ظل موضوعاً يتردد كثيراً في الفن الإغريقي المتأخر وفي الفن الروماني.

كانت عقيدة ثنائية الجنس مبدأً واسع الانتشار في الديانات القديمة. وقد عالجت مدام بلافاتسكي هذه العقيدة في كتابها «العقيدة السرية». وفي هذا الصدد، نقتبس بعض المقاطع التي نجد العديد منها في الكتاب المذكور.

في الصفة 132–133 من المجلد الثالث، نقرأ ما يلي: «نجد عقيدة أحادي

الجنس في كتابات وتقاليد كل أمة تقريباً». وفي الصفحة 139 من المجلد ذاتـه، نقرأ ما يلي: «آمنت كل أمة بأن آلهتهـا الأولـين كـانوا أحـاديي الجنـس». وفي الصفحـة 126 من المجلد ذاته، نقرأ ما يلي: «تعد عقيدة أحادي الجنس الأول حدثـاً طبيعياً عرفه الأقدمون وآمنوا به». وأخيراً، نقرأ في الصفحة 139 مرة أخرى ما يلي: «كانت الإنسانية الأولى المولودة من العقل ثنائية الجنس. وتشير الرموز والتقـاليد القديمـة إلى هذه العقيدة».

نجد هذه الصفة المزدوجة، أو الثنائية، في اسم إله التوراة، الذي كان بأصلـه، الروح الواقعية والمجسدة لإحدى القبائل. فقد كان الاسـم الربـاعي الأحـرف، المعبّر عن أحادية الجنس، رمزاً لهذا الإله: كان المقطع الأول IOH رمزاً للذكورة، والمقاطع الثلاثة الأخرى رمزاً للأنوثة. ولما كان هذا الإسم يلفظ في اللغة العبرية Havah، فـإن الأحرف شكلت اسم حواء Eve، وهي المرأة الأولى وفق ما ذُكر في سفر التكوين.

نعود، من جديد، إلى ما ذكرته مدام بلافاتسكي في الصفحـة 132 مـن المجلـد الثالث من كتابها «العقيدة السرية»: «كان يهوه JEHOVAH، الذي جمـع في ذاتـه الجنسـين، تعبيراً رمزيـاً لنمطـــه أو لمثالــه الأصلـي Aryan-Brahman-Vach». وبالإضافة إلى ذلك، تذكر مدام بلافاتسكي في المجلد الثالث صفحة 194 مـن كتابهـا المذكور مايلي: «في شريعة مانو، يظهر براهما وقـد قسم جسـده إلى قسـمين، ذكـري وأنثوي».

تمثل كلمة Vach ظاهرة القدسية الأنثويـــة الـتي تتجلـى بوضـوح في الأسـاطير الدينية، وفي عقائد عديدة. ففي مصر تعد إيزيـس، زوجـة أوزيريـس، المثـال الأعلـى للمادونا. وفي القبالة، تتخذ لها اسم Sephira. الذي يشـير إلى المظهـر الأنثـوي لآدم كادمون، أي الإنسان السماوي، البدئي والأحادي الجنس. وفي التيبت، يكرم النـاس كوان ـ ين، إلهة الرأفة، ومكملها الذكـري كـوان ـ شـي ـ يـن. وباختصـار، تمثـل القدسية الأنثوية الأم الظاهرة المشتركة بين جميع الديانات.

تذكر مدام فلافاتسكي في المجلد الأول صفحة 139 من كتابها «العقيدة السرية» أن آلهة اليونان الأولين كانوا أحادي الجنــس. وفي نشـأتهم، كـان الآلهـة الأصليـون LOGOI يتمثلون بأشكال يتحد فيها الجنسان. وكان زفس يدعى «العذراء الجميلـة» الملتحية. وكان أبولّو، بادئ ذي بدء، ثنائي الجنــس. وفي الأناشـيد الأورفيـة، الـتي كانت تُنشد أثناء أعياد الأسرار، نقـرأ العبـارة التاليـة: «زفـس ذكـر، وزفـس عـذراء خالدة»... «فينوس ملتحية في بعـض رسـومها». راجـع المجلـد الثـالث مـن الكتـاب

المذكور، صفحة 143.

يحدثنا ماكروب، وهو مؤلف لاتيني عاش في القرن الخامس الميلادي، عن سكان قبرص الذين كانوا يكرمون تمثالاً لإفروديت الملتحية - كان أريستوفان يدعوها إفروديتوس. وقد تم اكتشاف تمثال صغير في كورينث يمثل إلهة ملتحية تنبثق من الأمواج. ويعود تاريخ هذا التمثال إلى القرن السابع قبل الميلاد. وفي مصر، كان أوزيريس متعاوضاً مع إيزيس؛ وكان ابنهما هوروس ثنائي الجنس.

في الصفحة 129 من المجلد الخامس، تتحدث مدام بلافاتسكي عن الثنائية الجنسية: «وجدت صور، كانت في الوقت ذاته ذكرية وأنثوية تقريباً، لكل إله في البنثيونات - مجامع الآلهة - الوثنية والموحّدة في آن واحد». وفي الصفحة 139 من المجلد الأول، تتحدث مدام بلافاتسكي بما يلي: «في نهاية رؤيا القديس يوحنا اللاهوتي، يظهر كريستوس - الكلمة أحادي الجنس: فقد وُصف بأن له ثدي امرأة». وفي الصفحة 43 من المجلد الثالث، نقرأ ما يلي: «في التماثيل الهندية العديدة، يمكننا أن نشاهد إلهة مشطورة شاقولياً، نصفها الأول أنثوي ونصفها الثاني ذكري. وتمثل الآلهة أردهْناري نموذجاً لشيفا الأحادي الجنس».

يشير ما تقدم إلى كون أحاديي الجنس المقدسين القدامى تمثيلات رمزية للثنائية الأولية التي تعد التمايز الأول الذي انبثق من الجوهر المطلق. وتتعين هذه الثنائية الأساسية في الفلسفة الهندوسية الإيزوتيرية باسم شيفا - شاكتي - تاتفا. وتدعوها العقيدة السرية «الأب - الأم»، أي المبدأ الأحادي الجنس الأول.

من الأهمية بمكان ألا نخلط بين هذه الثنائية الأولية اللا متجلية وبين بارابراهمان - مولابرا كريتي في كتاب الفدانتا الذي يشير إلى أنهما مظهر الجذر السامي الأصلي. والحق أن بارابراهمان يرمز إلى الاسم الذي نضفيه على الحقيقة السامية الوحيدة والخفية. وتوصف هذه الحقيقة وكأنها نوع من حجاب يستر الجوهر السامي أو الحقيقة السامية. وتعد مولابراكيتي الجذر المجرد. اللا متجلي للمادة على كل المستويات. وهذا هو المظهر الذي، من خلاله، تستطيع أنواع الوعي الفردية أن تدرك اللاّ مدرك. وفي هذا الصدد، تقول مدام بلافاتسكي: «لا يجدي أن ننسج شبكة من الدقائق العقلية، اللطيفة غاية اللطافة من جوهر العناصر الكونية السامية».

تشكل الوظيفة الثنائية المزدوجة لشيفا - شاكتي - تاتفا موضوعاً لدراسة معمقة

نجدها في كتاب «الإنسان، الله والكون» الذي وضعه تايمْني. فبقدر ما يوصف المبدأ الثنائي الجنس بأن الجذر الأصلي الذي يتكامل فيه الإيجاب والسلب، يوصف، بالقدر ذاته، بأنه منشأ كل الثنائيات القطبية لتجلّي الحقيقة السامية.

كما تعد شيفا الجذر النهائي السامي للوعي، كذلك تعد شاكتي الجذر النهائي، الأقصى والمطلق للقدرة أو للطاقة وهي في حالة كمونها، أو وجودها بالقوة. وهكذا، تمثل شيفا الإرادة الإلهية، وتمثل شاكتي القدرة التي تزودنا بالوسائل التي، من خلالها، تتحقق الإرادة أو تُنجز. ولما كانت طاقات الكوزموس كلها تتولد أو تنبثق من هذا المصدر المقدس، فإننا نرى كيف يتناقص الكمون، أو الوجود بالقوة، اللا مشخّص وهو يهبط سلّم الظهور أو الفيض أو التجلي من مستوى إلى مستوى آخر. وعلى هذا الأساس، تمثل شيفا - شاكتي - تاتفا المخطط المثالي الأول لأحادي الجنس السماوي الذي ينعكس في ثنائيات المستوى الفيزيقي.

يتطلب هذا التصور الجليل لشيفا التمييز بينه وبين الألوهة التي تشارك الثالوث الهندوسي بالاسم. فالفيدا، وهي أقدم الوثائق الهندوسية وأكثرها قدسية، لا تذكر اسم شيفا ولا تتمثله في عرفانها. هذا، لأن مثالها الأولي والجوهري، الذي يظهر باسم رودرا، يوصف وكأنه إله صالح وشرير، بنّاء وهادم.

على غير ذلك، يتعين الثالوث الإلهي الهندوسي بثلاثة أسماء: براهما، فيشنو وشيفا. وقد كانت هذه الألوهة الثلاثية الأقانيم أحادية الجنس في نشأتها وأصلها: براهما هو الأحادي الجنس السماوي؛ لا يصبح ذكراً إلا بعد أن ينفصل بذاته إلى جسدين (راجع الكتاب الخامس من العقيدة السرية، ص190).

وبالمثل، تصبح شاكتي المعالم الأنثوية للألوهة. فزوجة براهما هي فاش الإلهة التي أصبحت، في وقت لاحق، معالم ساراسفاتي المتصف بالحكمة والعلم. وزوجة فيشنو هي لا كشمي الرقيقة، أي فينوس الهندية. وزوجة شيفا هي بارفاتي الجميلة والمحبة، التي تتصف، أحياناً، بالطبائع الرهيبة التي تستقيها من دروجا القاسية، وكالي المخيفة.

في اللاهوت الإسرائيلي، تتحول السكينة Shekinah، وهي «مجد الله المقدس»، إلى شاكتي أنثوياً. وعند المسيحيين الأوائل، كان الروح القدس كياناً أنثوياً. وبالمقابل، كان الغنوصيون يقدمون عبادتهم إلى صوفيا، الحكمة المقدسة أو إلى اللوغوس...

تُطلق كلمة شاكتي أيضاً على قوى وقدرات روحية. وبهذا الصدد، يقول سوبارو: توجد قوى أو قدرات ستّ رئيسة في الطبيعة. (راجع المجلد الأول من كتاب «العقيدة السرية» ص284).

يقدم لنا تايمْني في كتابه «مدخل إلى الرمزية الهندوسية» وجهاً أو تفسيراً آخر لمعنى شيفا ـ شاكتي ـ تاتفا. ويشرح تايمْني تفسيره هذا على النحو التالي: ترمز الدائرة، وهي الشكل الأكثر كمالاً بأبعادها الثلاثة، إلى الحقيقة السامية الكاملة والكلية. وتشتمل هذه الدائرة على كل المبادئ في توازن كلي. ولما كان مركز الدائرة ينقسم إلى محرقين على نحو صليب، فإنه ينتج عن هذا الانقسام شكل محدد ومعين، هو المبدأ المزدوج أو الثنائي المستتر واللاّ مرئي.

يتصف هذا الشكل، كمثيله الإهليلجي، بأهمية كبرى على كل مستويات الكوزموس. وهكذا، ترسم أفلاك كواكب نظامنا الشمسي دوائر إهليلجية. وتتطاير الإلكترونات حول نواة ذرية محدثة مدارات إهليليجية. وتتميز الأجساد السرانية للكائن الإنساني، والتي يستطيع أصحاب الرؤى رؤياها بشكل الدوائر الإهليلجية. وبمقدار ما يشير الصليب إلى القداسة، فإنه بالمقدار ذاته، يشير إلى شعار أو رمز الثنائية المتسامية، والقاعدة النهائية والقصوى للقطبية المتقابلة للذكر والأنثى في تجريدها النقي. والحق، أن الصليب يمثل العود بالثنائية إلى وحدتها الجوهرية، أي كما كانت في البدء. ويؤسفنا أن نقول: إن زيغ العقل الإنساني قد أدى إلى إساءة تفسير هذا الرمز المقدس، والانحدار به إلى المستوى الأدنى هو مستوى الجنس الفيزيقي. وهذا هو ما أتت به ديانات الشريعة المعروفة بالديانات الفاليّة، أي الذكرية. وعلى غير ذلك، يتضمن معناه أو مغزاه الحقيقي في الأحادي الجنس المقدس الحاضر في النور الروحي المجّد.

في حقل آخر، يمت بصلة إلى الموضوع القائم، يمكننا اعتبار المنهج العددي مقدساً. وعلى سبيل المثال، يمثل العدد عشرة الظاهرة الثنائية. فالعدد واحد يمثل الوحدة الكونية، والصفر يمثل اللا نهاية الكامنة للجوهر أو للمادة الخفية من جهة، وللعنصر الأنثوي من جهة أخرى. وقد اعتبرت فلسفة فيثاغور العدد عشرة عدداً كاملاً للكوزموس، وأطلقت عليه مصطلح العشرية السرانية. ويتجلى هذا العدد في المثلث الشهير الذي يشتمل على عشر نقاط. وتنتظم هذه النقاط العشر بين العدد واحد والعدد أربعة، بحيث تكون كما يلي 10=1+2+3+4. وقد اشتق الاسم الرباعي من هذا الانتظام. ويشكل مجموع الأرقام الأولى المفردة أي الذكرية، والعدد الزوجي،

أي الأنثوي، كمال العشرية السرانية.

في منهج القبالا، تكون الصدورات Sephiroth عشرة في عددها؛ وتمثل القوى المبدعة للكون. ويؤلف مجموعها آدم كادمون أو آدم الأول: وآدم هذا هو الإنسان السماوي، الأحادي الجنس الإلهي، المدعو «مهندس الكون الأصغر». أما مظهره الأنثوي seplirah أو الإكليل، أو التاج الذي يهيمن على الشجرة السفيروتية.

يشير الإكليل، أو التاج المدعو Kether إلى صدور مزدوج أو ثنائي هو روح الحكمة Chokmah والعقل Binah. فقد اعتبرت الحكمة ذكراً، واعتبر العقل أنثى. ويؤكد التثليث القبالي الأحادية الجنسية لآدم كادمون.

يصف سفر التكوين خلق الكائن الإنساني بالكلمات التالية: «خلق الله الإنسان على صورته؛ وخلقهما ذكراً وأنثى». وهذا يعني أن الله خلق الإنسان أحادي الجنس على شبه أب الذرية الإلهي الذي كان يدعى إلوهيم Elohim. وقد ذُكر إلوهيم بالجمع لأنه يعيّن يهوه Jehovah خالقاً في محفل الخالقين.

توضح العقيدة السرية، وهي تعتمد المعطيات القبالية، أن الإنسان، بحسب ما ورد في الفصل الأول من سفر التكوين، هو آدم كادمون ذاته. أما الإنسان المادي، أي آدم الثاني الذي تشكل جسده من المادة ـ التراب، فقد ذُكر في الفصل الثاني من السفر.

تعد مجموعة كوكبة النجوم ذاتها مثالاً يؤكد المبدأ الكوني لأحادي الجنس. فقد حدثنا علم الفلك القديم عن معالم الـ «زودياك Zodiaque» أي الأبراج العشرة... أما حكماء السرانية فقد عرفوا العدد الكامل. فقد رمز المَعْلم الثنائي «العذراء ـ العقرب» إلى الإنسان الأحادي الجنس البدئي قبل انقسامه إلى قطبين جنسيين مستقلين. وفي عصر لاحق، أي بعد انقسام هذا المعلم الأحادي، أضيف الميزان لكي يكتمل العدد 12. (راجع الكتاب الرابع، صفحة 271 والكتاب الخامس، صفحة 430).

ألمحت هذه الرمزية البرجية إلى الحدث التاريخي الذي اعتُبر أهم حدث في التاريخ السراني للبشرية، وهو معرفة انفصال الكائن الأول البدئي إلى جنسين متمايزين. ويقول معلمو الحكمة إن هذا الإنجاز الكبير المتطور قد تم في غضون العنصر ـ التحتي الخامس للعنصر الجذري الثالث.

وقد رافق هذا التحول الرئيسي تحدر كائنات روحية قدموا إلى الأرض من

مساكنها السماوية، الأمر الذي أيقظ في الإنسان المادي الشرارة العقلية التي كانت ما تزال تنقصه.

في المجلد الثالث، صفحة 49 و365 من كتاب «العقيدة السرية». تحدثنا مدام بلافاتسكي بما يلي:

«إن الملائكة اللاّ جنسيين الذين عرفوا باسمهم الجنسي، آدم كادمون، كملوا الإنسان الذي انبثق جسده الأثيري من كائنات إلهية أخرى، إنما اتسم بقدرة أدنى بكثير. وهكذا، تتحدر سلالاتنا من أجداد وأسلاف إلهيين. ويجدر بنا ألا نختلف على الاسم الذي نلقبهم به. فقد ذكرت السجلات المدونة، العائدة لأمم عديدة أولئك الأجداد وأطلقت عليهم أسماء متنوعة... ففي الهند، دُعوا ريشيس ـ بيترس. أي سادة النار. وفي مصر، دُعوا إيزيس ـ أوزيريس ـ وتوث أو هرمس. وفي اليونان. دُعوا كبيرسْ، أحاديي الجنس، وهم آلهة نار مقتدرة، كانت تكرّم. على نحو خاص. في الأسرار الدينية اليونانية التي كانت تقام في ساموثراس. وكان الـ «كبيرسْ». أوصياء على أبناء الإنسانية. وقد تجسدّوا بصفة ملوك يتحدّرون من سلالات إلهية، ويوجّهون العقل الذي خصّوا الإنسان به باتجاه اختراع الفنون والعلوم.

من جانب آخر، تجسدت الكائنات السماوية الصالحة في اليونان في شخصية بروموثوس الذي أحضر «نار السماء» ومنحها إلى البشر. وترمز هذه الأسطورة إلى قدرة بروموثوس على إيقاظ الشرارة الإلهية في العقل البشري من أجل معرفة الذات ووعيها.

كانت السيرورة التي تم، من خلالها، انفصال الجنسين طويلة وتدريجية. ويوضح كتاب «العقيدة السرية» المراحل العديدة على النحو التالي:

«اكتمل هذا التعديل، أو التغيير الفيزيولوجي الهام، شيئاً فشيئاً عبر آلاف السنين». (المجلد الثالث، صفحة 202–203).

لذا، تعتبر عملية خلق حواء Eve، التي تشكلت من ضلع أُخذ من جسد آدم. كما يذكر سفر التكوين 2: 22، تذكيراً مجازياً لعملية انفصال الجنسين».

تتحدث القبالة عن الوضع الذي كانت عليه البشرية الأحادية الجنس (المجلد الثاني، صفحة 71) تماماً كما تتحدث مؤسسات العصور القديمة الإيزوتيرية. ويذكر أفلاطون، الذي كان عارفاً بالأسرار الإلوسية، هذا الواقع في محاورة «المأدبة». بأسلوب يدعو إلى الغرابة. يقول أفلاطون:

«في القديم، كانت طبيعتنا أحادية الجنس. كانتأجساد الكائنات مستديرة

بحيث أنها كانت تركض بطريقة دائرية. كانت قدرتها هائلة وطموحاتها خارقة. ولهذا السبب، قسم زفس كل واحد منها إلى نصفين، فجعلهما، بفعله هذا، أقل قوة وأكثر ضعفاً. أما أبولو فقد أغلق حدود جلدهما» (المجلد الثالث، ص142).

من تلك اللحظة، يبحث النصفان، باتفاق الطرفين، عن وسيلة لإعادة الوحدة. وليست هذه الوحدة غير الحب الذي يعتبر انجذاباً متبادلاً.

في محاورة «فيدروس»، يتحدث أفلاطون عن عنصر إنساني مجنّح. ولعل أفلاطون قصد بحديثه هذا، أو ألمح إلى «الأجساد الأثيرية للآدميين الأولين الذين استطاعوا السير والطيران على السواء» (المجلد الثالث، ص68)، الأمر الذي جعل أشكالهم تلتبس علينا لأن حدود أو دوائر أجسادهم كانت غامضة. ويؤكد بعض الثقاة بأنهم كانوا يطيرون. هكذا، كان العنصر الآدمي الأول مشروعاً أولياً بسيطاً ولا جنسياً، قبل أن تصلّب، وتكاثف وأصبح أحادي الجنس.

لما كان الوضع البشري، الواحدي الجنس، قد أغرق البشرية العادية في ماض منسيّ، فإن «قانون الإبطال» يصون الأحادية الجنسية كوسيلة للتناسل لدى أغلبية النباتات، ولدى عدد كبير من الحيوانات الدنيا (المجلد الثالث، صفحة 179).

تبنّت البيولوجيا الحديثة اصطلاح «الأحادية الجنسية» لتشير إلى مزيج الصفات الذكرية والأنثوية في المتعضية الواحدة. وتنطبق هذه المقولة على أعداد النباتات المزهرة وأنواع الحيوانات اللاّ فقرية. وفي هذا المجال، يورد كتاب «العقيدة السرية» أمثلة عديدة عن مخلوقات لا جنسية وجنسية مزدوجية (المجلد الثالث، ص142). فالوردة، ملكة الزهور وشعار الجمال والحب، والمعروفة بشذاها الممتع، تتميز بكمالها لأنها تحمل أعضاء ذكرية وأنثوية: سداة، هو عضو التذكير، ومدقة، هي طرف عضو التأنيث. وعلى هذا الأساس، تعتبر الوردة، في نطاق الأسطورة، الصورة الأنثوية. ويرى فيها أتباع وأنصار «الصليب الوردي» أنبل وأعظم رمز في الطبيعة. إنها تتضامن مع، أو ترتبط بإيزيس وبعذارى سماوية أخرى. (المجلد الخامس، صفحة 293). ومن جانب آخر، لا نسوّغ لأنفسنا التفكير بأن رمز الصليب الوردي يمثل الوضع الجنسي الأحادي لسبب هو أن الزهرة التي تغطي وسطه تمثل الذكورة.

وبالمثل، ترمز زهرة اللوتس، وهي الزهرة المقدسة في الهند وفي مصر القديمة، إلى الصورة الثنائية لأحادي الجنس، الإلهي والإنساني. (المجلد الثاني، ص95).

ولقد كانت هذه الزهرة زهرة إيزيس المقدّسة. وفي العديد من الحالات، تتمثل هذه الإلهة وهي تحمل زهرة بيد، وصليباً، تتوسطه وردة، بيد أخرى، الأمر الذي يعتبر شعاراً للوظيفة البشرية المزدوجة والثنائية.

على الرغم من انفصال الجنسين، يظل الكائن البشري أحادي الجنس في حالة كمون، أي في حالة وجود بالقوة، وذلك لأن كل فرد يمتلك في بنيته. أصول الجنس الآخر. ولئن كان الإغراء الجنسي يتسلط على جمهور الإنسانية الذي لم يرتق سلم الإنسانية بما فيه الكفاية، إنما هو، وفق ما تقوله مدام بلافاتسكي وحكماء السرّية الشرقيين. علاقة جنسية ترتبط فقط بالمظهر الأرضي للإنسان. أما الإنسان الذي يبلغ مستوى الحكمة، فإنه يضعها جانباً. (المجلد الخامس، ص25).

لا توجد ثنائية الجنس إلا على المستوى الفيزيقي. فقد بدأت الموناد رحلتها الطويلة، في طور الظهور، في حالة نقاء روحي، إذ كانت شعاعاً صادراً من الحقيقة السامية. وأثناء التطور الهابط للشرارة الإلهية إلى نطاق العوالم الدنيا، أطاحت بها عناصر أو أدوات تنتمي إلى مستويات المادة العديدة. ولما بلغت نطاق المملكة الإنسانية، أحيت، أولاً بأول، أجساداً لا جنسية، تحوّلت، خلال تطورها البطيء، إلى أجساد أحادية الجنس، وانتهت إلى انقسامها النصفي لتشكل أجساد الرجال وأجساد النساء. وعلى طريق العودة، وهو التطور الصاعد، يتلاشى الاختلاف شيئاً فشيئاً، وذلك حتى تصبح البشرية، من جديد، عنصراً روحياً. وفي هذه العملية، نتأمل تحقيق الوعود التي نقرأها في العديد من الكتب أو نسمع بها، وهي: «إن أدوار المادة، ستتبعها أدوار روحية وعقلية نامية كل النمو» (المجلد الثالث، ص444). وتتحدث هذه الوعود أيضاً عن الدور الحالي بما يلي: «يسير الدور الحالي على قوسه صعوداً، وسوف يتحرر العصر المقبل، وهو السادس، من ارتباطاته المادية بسرعة، ومن الشهوة الجنسية».

تشير هذه الوعود إلى أن أجسادنا ستصبح أثيرية وواحدية الجنس. وسوف تولد بشرية قدسية في الدور السادس: وستكون هذه البشرية العصر الذهبي للدور السابع، دور «الاستنارة» ودور «أبناء الله» الذين سيولدون من آباء وأمهات طاهرين وأنقياء. (المجلد الرابع، ص51). وهكذا، يحقق الإنسان كمال الأحادي الجنس الإلهي متى أكمل حجّة التطوري الطويل.



الفصل الثامن

العود إلى التجسد

يعني هذا المبدأ، أول ما يعني، التجسد، أو الولادة من جديد، أو ارتحال الروح عبر حيواتها. ويعتبر هذا التجسد، أو العودة من جديد، العملية التي، من خلالها، يكون التطور الروحي ممكناً.

عرف الشرق هذا المبدأ وآمن به. وتقبله الغرب بتحفظ. ومن فلاسفة الغرب الذين آمنوا به نذكر: هكسلي، وشوبنهاور، ولسينغ، وهردر، وهيغل، وسكوت، وأفلاطون وفيخته. أما الجمعية الثيوصوفية فقد نشرت العديد من الكتب التي تتحدث عن هذا الموضوع.

تشتق كلمة التجسد من جديد Reincarnation من البداءة Re التي تعني مرة ثانية - ومن الكلمة Carnis التي تعني اللحم - الجسد. والكلمة، بمجملها، تعني «لبس الجسد - اللحم من جديد، أي مرة ثانية». ويشير لبس الجسد إلى واقع هو أن الإنسان يتخلص من جسده القديم، ويكتسب جسداً جديداً. وبالفعل، يعتمد التطور بكليته على هذا المبدأ.

يقر العلم المادي، في أبعاده ومستوياته، بمبدأ الفعل ورد الفعل، ويعترف بواقعيته. ومع ذلك، نرى العلم ينأى عن تفسير هذا المبدأ أو توضيح علته وسببه. وعلى غير ذلك، يقدم العلم الروحي الإجابة الكافية والضرورية. ويعلن الحقيقة التالية: إن الكيان الكامن في قلب كل شيء يمتلك كل الإمكانات التي تساعده على الإستجابة لكل أنواع الاهتزازات، الأمر الذي يجعله يحوّل القوى الكامنة إلى وضع تسود فيه الديناميكية والفعالية الناشطة. وهكذا، نعلم أن البيئة التي تفعل في الشكل تؤدي إلى تبدلات تحقق، بدورها، التطور. وبالإضافة إلى البيئة، توجد الوراثة أو انتقال الشكل والصورة من الآباء والأمهات إلى أبنائهم وبناتهم عن طريق الإنشطار أو الانقسام والانبجاس. وتشكل الجنين في رحم الأم الذي يمثل نواة الأشكال الفيزيقية.

لكن استمرارية الحيــاة، وهــي مجــردة مــن الشــكل، لم تتلــقّ، لحــد الآن، الدراســة الكافية في نطاق العلوم الفيزيقية، الأمر الـذي جعـل مـن هـذا الموضـوع الحقـل المعـدّ والمؤهل لنمو الروحانية. والحق أن الحياة عملية مستمرة، وإمكاناتها الكامنــة تتحــرر وتنعتق بفعل البيئة وتأثيرها في الغلافات أو الأجساد المختلفة كما تم البحث في فصل الإنسان وأجساده. فبعد أن ينحل الشكل، يلبس الجسد البـذرة، أي الجسـد العلـي أشكالاً جديدة، ويختزن خبراته السابقة. لذا، فقد اتضح للعلـم، بمـا فيـه الكفايـة، أهمية الوراثة التي تلقي الضوء على استمرار الشكل واستقلال الذكاء والفكر والصفات الأخرى: الشكل الذي يتأثر بالآباء والأمهات. ويظهر الدليل القاطع ولادة عباقرة من آباء وأمهات عاديين وولادة حمقى من آباء وأمهات عباقرة. لذا، يدفعنا هـذا الواقـع إلى التساؤل: كيف حصل شكسبير أو المعري على نبوغه، وعمّن ورثه؟

يشير العلم الروحي إلى وجود نظام كامل، وترتيب تام يتحقق في عمل الطبيعـة وفعلها. ويشير أيضاً إلى أن الأساس أو الجوهر المثابر في اسـتمراريته هـو الكيـان، أي الشرارة الروحية في الكائن الذي يجمع أو يحتوي الخبرة المكتسبة والمختزنة من حياة إلى حياة ليزداد الوعي انفتاحاً، ويفصح عن ذاته أكـثر فـأكثر. وكمـا ذكرنـا في فصـل «الإنسان وأجساده»، يفصح الكيان عن ذاته ليتحـرر مـن أسـار غلافاتـه وينعتـق مـن المادة. والحق أن التطور يبدأ بعد انغلاق الكيان في ذاته وانطوائه أو انثنائه في المـادة، ويسعى إلى الخلاص من غلافاته وانطواءاته. ومع ذلـك، يهتـم العلـم المـادي بـالتغيّر الطارئ على الجسد الفيزيقي مـن ولادة إلى ولادة ليـدرك كيـف يشـكل تـاريخ حيـاة الكيان موضوع التطور.

لما كان الكيان في الإنسان ثلاثياً في طبيعته، فإن النفس الـتي تنغلـق في الشـكل الفيزيقي تكون هي النفس ذاتها الـتي تنغلـق في الجسـد العلّـي كـروح. ولكـي يُختـم الانسان بالقانون الحقيقي، فيتوجـب عليـه أن يجتـاز ولادات عديـدة ليتعلّـم دروس الحياة وهو يتبع كل مـا جذبـه في العـالم الخـارجي. وتقضـي الضـرورة أن يتعلّـم أن الاستزادة من المسرات واللذات سـتنقلب إلى ألم سـلبي. وبالخـبرة، يتعلـم الاعتـدال. وهكذا، تتطور المواهب والقدرات العقلية وتنمو وهي تنتقل من حياة إلى حياة، بحيث أن كل فرد يحقق أثناءها العملية التطورية.

في فصل «العــوالم»، نجـد كيـف أن الوعـي يفصـح عـن ذاتـه في أدوار الحيـاة الطويلة، وبخاصة في العوالم الثلاثة. فالتجسـد يسـتمر كعمليـة غـير نهائيـة في حـال استمرار الرغبة. وعندما تهدأ الرغبة وتنقضي، يبدأ الصعود إلى مسـتويات أعلـى هـي

درجات أعلى من العوالم الثلاثة، ويتوقف التجسد في العالم المادي.

حاول مفكرون عديدون إقامة الدليل على مبدأ التجسد. لكن الدليل الأفضل يتّضح شيئاً فشيئاً حينما يشعر الإنسان بحقيقة خلوده، ويتعمق في وعي «الكيان» الكامن في جسده. ويدرك أن أعضاء الجسد تخص هذا الكيان. وإذا ما سألنا أنفسنا: أين يقع «الكيان»؟ أجبنا بأنه الإنسان الحقيقي الذي لا يموت أبداً. وكثيراً ما يختبر الإنسان تجربة انجذابه أو رفضه لشخص يراه للمرة الأولى.

يعتمد تفسير هذه التجربة على التثبت من أن علاقة ما وُجدت بينهما في حياتهما السابقة. ويمكننا أن نذكر تجربة أخرى تتمثل في خبرة معينة تنطوي على مشاهدة أشياء نعتبرها مألوفة لدينا، الأمر الذي يستدعي ذكريات ماضية فينا، ويوقظها. وهكذا، توقظ المشاهد الأفكار التي تعود لذكريات واستعدادات سابقة. وبالمثل. تشير التجربة الناتجة عن قراءة كتاب إلى يقظة روحية تدل، أو تؤكد. أن القارئ سبق وقرأ الكتاب أو أنه اختبر تجربة أو حالة مماثلة. وهنالك الكثيرون الذين استطاعوا تزويد الآخرين بمعلومات عن حياة سابقة. والواقع أن هذه الأمور كلها تعتبر دليلاً قاطعاً على حدوث العود إلى التجسد. فقد استطاع أناس في التيبت تذكر حيواتهم الماضية بوضوح تام. وعلى نحو عام، تُختزن ذاكرة الماضي في خبايا العقل تماماً كما تختبئ أحداث حياتنا الحاضرة التي تتعرض لعامل النسيان. وبالفعل، لا نكون قادرين على تذكّرها مالم يذكّرنا أحدهم بها. وبهذا الصدد، نقتبس ما كتبه وليام نايت عن الذاكرة: «إن تذكر تفاصيل الماضي يكاد يكون مستحيلاً؛ هذا لأن قدرة الملكة الحافظة محدودة جداً. فنحن ننسى أموراً عديدة كنا قد اختبرناها سابقاً. ويتوجب علينا أن نستدعي خصوصيات أو تفاصيل حياتنا الماضية لنملأ حلقات الوعي المفقودة بدءاً باللحظة التي دخلنا فيها حياتنا الحاضرة قبل أن كنا في وضع يساعدنا على تذكر خبرتنا في فترة ما قبل الولادة. وهكذا، لابد للولادة أن يسبقها عبور نهر النسيان. أما القدرة على اكتساب جديد فإنها تبقى؛ وتحدد الثروة المختزنة من الخبرة القديمة كمية ونوعية هذه الخبرة الجديدة».

لما كانت الرغبة هي التي تجذب الإنسان إلى الولادة من جديد. فإن الروح التي انتهت من تحقيق كمالها على الأرض لا تلتزم بهذه الولادة التي تشير إلى العود إلى التجسد. وهكذا، تكون الرغبة هي السبب المؤدي إلى العودة. ففي حالة معينة من مراحل التقدم الروحي، تصبح عملية العودة أمراً أو قضية مُدركة. وتتأكد عملية العبور من حياة إلى حياة وتذكر الحيوات الماضية. وكما أن عواطف جديدة وتبدلات

جديدة تطرأ أثناء نمو الإنسان مـن الطفولـة إلى الرجولـة. كذلك تكـون أنـواع التـوق الروحي والرغبات أدلة على العبور من الولادة الثانية اللا واعية إلى معرفة التجسد أو العودة معرفة واعية: والحق أن أرواح البرابرة القدامى ومعاصري العصر الحجري قـد اجتازت عقبـات الـولادة العديـدة لتصبـح أرواح المتحضريـن في الوقـت الحـاضر. وفي مجرى الزمن، ستنفتح العيون الروحية لتشاهد أشعة الحقيقة. وهكذا، يتقدم الإنسان وهو يتجسد في ولادة بعد ولادة، الأمر الذي يجعل من التطور قضية حقيقيـة. ولـذا، يستحيل أن يصبح الإنسان كلباً أو هراً أو حيوانـاً آخـر. هـذا، لأن جسـد الإنسـان، الذي تنطوي فيه العوالم الخمسة، يتسامى على جسد الحيوان. والحـق، أن الجسـد الحيواني غير قادر على حمل أو احتواء الطاقة الروحية الكامنة في الإنسان.

الفصل التاسع

التطــور

تقر مبادئ الحكمة أن الموناد، وهي الفيض النهائي المنبثق عن الروح الإلهيـة، تتغلّف أكثر فأكثر في المادة الكثيفة على نحو تطور هابط من العالم السادس إلى العـالم الفيزيقي. وتعلمنا هذه الحكمة أن الجسد الفيزيقي يشكل الغطاء الخـارجي الكثيـف. فالهبوط من الأعلى، الأكثر لطافة، إلى الأدنى، الأكثر كثافة، يؤدي إلى انطواء الـروح وانغلاقها. وفي هذا الفصل، ندرس الصعود من الأدنى، الأقل لطافـة والأكـثر كثافـة، إلى الأعلى، الأكثر لطافة. وذلك من خلال عملية الإفصاح أو الانفتاح الذي هو جوهر التطور الكوني والتطور الروحي.

بحسب ما يذكر العلم على نحو عام والجيولوجيـا علـى نحـو خـاص، نشـأت الأرض، وهي كوكب من كواكب النظام الشمسي، من سديم يُحتمل أنـه انفصـل عـن الشمس. ولقد أدى هذا الانفصال إلى الانغــلاق والانطـواء، وذلـك لأن الأرض الكثيفـة تشكلت بفعل ابتراد السديم الرقيق. وكما ذكرنا، فقد أبدعت الحقيقة السامية الكـون من جوهر مادتها. وليس جوهر هذه المادة غير العقل اللا نهائي.

هكذا، يصدر الكون عن العقل الـلاّ نهـائي، ويوجـد فيـه، ويكـون فيـه. فهـو يشكل الطبقة أو القوام السـفلي. وفي وفـاق مـع الأدوار الزمنيـة، تتشـكل الأكـوان في «يوم» الحقيقة السامية، وتنسحب في «ليل» الحقيقة السامية، وتظل العملية مستمرة. وفي العالم الروحي، توجد الحقيقة السامية إلى الأبد. وحينما تريـد، يتشـكل الكـون. وفي بادئ الأمر، تشكل الصورة العقلية لمبدأ العقـل الكلـي والشـامل. وهـذا، بـدوره، ينشئ مبدأ الطاقة الكلية التي، بدورها، تبدع مبدأ مادة الكون. ووفق ما يراه العلـم، يوجد تحوّل متبادل بين الطاقة والكتلة. وهكذا، يتابع الانغلاق انتقاله مـن مبـدأ إلى مبدأ. ومن جـهة ثانية، تستمر العملية التطورية في كل المراكز الفردية. وقـد اسـتمرت عمليتا الانغلاق والانفتاح، وسوف تستمر إلى أبد الدهور. وعلى هـذا الأسـاس، تكمـن

قاعدة التطور في الروح المنطوية والمغلقة التي يتوجب عليها أن تتطور مفصحة عن ذاتها وكاشفة عن سرها، لتصير إلى مرحلة نهائية وذلك عندما تحقق كل ذات هويتها ووحدتها مع الواحد.

كانت هذه العقيدة، وما زالت، المبدأ الأساسي في الحكمة الشرقية. ويتلخص هذا المبدأ على النحو التالي: ثمة حياة في كل شيء؛ وثمة عقل في أكثر أنواع المادة كثافة. ومن خلال التطور، يتكشف المزيد من العقل في عملية الانفتاح، الأمر الذي يشكل التمييز بين المعادن، والنباتات والحيوانات. ولقد أقام العلم الفيزيقي الدليل على وجود الحياة في الذرة التي هي الوحدة التي يتألف منها كل شيء. فالتمييز في التركيب البنيوي للذرة هو الذي يساعد التطور على عملية الصعود. وهكذا، تجتاز الحياة المتطورة من شكل إلى شكل آخر، وتختزن في ذاتها الخبرات التي اكتسبتها عبر تكوّن الأشكال. ويشكل هذا الانتقال والتخزين قاعدة التجسد أو الولادة من جديد، التي تم بحثها في فصل العود إلى التجسد.

تبنّى دارون مبدأ تطور الشكل المادي في نظرية التطور التي عرضها. لكننا، في هذا المجال، سنتعرّف على نظرية التطور الروحي. ولقد عبّر الفيلسوف ـ العالم هيرن عن نظرية العود إلى التجسد بأسلوب علمي، إذ قال:

«تداعت تصورات الفكر القديمة بعد أن استوعب العقل الحديث عقيدة التطور. فقد نشأت تصورات جديدة، وحلت محل المعتقدات البالية. وترامى أمامنا مشهد حركة عقلية شاملة تمتد في اتجاهات عديدة تتساوق مع ما أتت به الحكمة الشرقية. لكن السرعة غير المتوقعة التي تم خلالها هذا التبدل، وتعدد أشكال ومناحي التقدم العلمي في غضون الخمسين سنة الأخيرة، أحدثا تسارعاً عقلياً غير متوقع بين العامة من الناس. فالآراء التي تتحدث عن تطور المتعضيات المعقدة والعليا من المتعضيات البسيطة والدنيا. وعن قاعدة فيزيقية واحدة للحياة هي جوهر مادة العالم الحي بكامله. وعن عدم إمكانية رسم خط فاصل بين الحيوان والنبات. وعن الفرق بين الحياة واللا حياة بأنه مسألة اختلاف في الدرجة وليس في النوع، وعن إدراك المادة على نحو أكثر سهولة من إدراك العقل وذلك لأنهما مظهران متبادلان لحقيقة واحدة: هذه الأمور كلها أصبحت أفكاراً أو مقولات شائعة في الفلسفة الحديثة. والواقع هو أن اعتراف السلطات الدينية بالتطور الفيزيقي سهّل الأمر لاعتراف مماثل من جانب التطور الفيزيقي. ذلك أن الحاجز، الذي أقامته العقائد التقليدية، والذي أدّى إلى منع الناس من النظر إلى الوراء، قد تداعى. وفي الوقت الحاضر، يعلم طالب

علم النفس العلمي أن فكرة الوجود الأسبق تخرج عن نطاق النظر إلى الواقع، الأمر الذي يؤكد التفسير اليوذي للسرّانية الكونية. لذا، تمد عقيدة العود إلى التجسد جذورها العميقة في عالم الواقع تماماً كما تمد عقيدة التطور جذورها فيه. وهذا هو ما ذكره العالم جوليان هكسلي في كتابه «تطور الأخلاق».

تمتلك الموناد، كما سبق وأظهرنا، كل الإمكانات الكامنة؛ ويتوجب على الإنسان أن يحثها ويحرّضها بالمؤثرات الخارجية. فطبيعة الحياة تتجاوب على نحو استجابة مع الكل الشامل، فتهتز مع الاهتزازات التي تعزف عليها. وهكذا، تبدأ القوى المهتزة المتماثلة والمتناغمة في القيام بدورها على نحو تأثيرات متبادلة ومتداخلة، الأمر الذي يجعل الأشكال كلها نشيطة بدورها. وبالفعل. تستند نظرية التطور إلى المبدأ القائل: توجد حياة في كل شيء. وتستجيب الروح المتضمنة من خلال اهتزازات شبيهة. وعندئذٍ، تبدأ جزيئات الشكل بالاهتزاز وإعادة ترتيب ذاتها.

عندما نشأت الأرض، كانت الروح متضمنة في الجزيء؛ ولم يكن هنالك وجود لغير المملكة المعدنية. ولقد أثبتت الأبحاث العلمية أن عمر الأرض يقترب من أربعة آلاف مليون سنة. وكانت الروح في مرحلة أقرب ما تكون إلى غيبوبة أو استغراق في كل جزيء من جزيئات المعادن التي كانت مظهراً لها. فالشكل البلّوري، وهو حصيلة المعادن والتفاعلات الكيميائية، يقدم لنا دليلاً كافياً عن الحياة، وعن قليل من العقل يعمل في ما ندعوه المعدن والتراب غير الحي. وبعد انقضاء ملايين السنين، تطورت أدنى أشكال الحياة تماماً كالبلورات، وتألفت من مادة مماثلة. ولقد أظهر هذا التطور المزيد من العقل. ونشأت هذه الأشكال البدائية الحية في الماء وليس على اليابسة. فقد بدأت بالنباتات وحيدات الخلايا. وكان من الصعب تمييزها عمّا يسمّى بالتراب اللاّ حي. ومن ثم تطورت أشكال أعلى عن طريق التكاثر والتوالد. وكانت، كالمعادن، تتألف من الأوكسجين، والكاربون، والهيدروجين، والنيتروجين وقليل من الفوسفور والكبريت. لذا، تشتق جميع المعادن من الهواء والماء والتراب. وعلى كل حال، يلعب عنصر الكاربون دوراً هاماً جداً، الأمر الذي يجعله العنصر السائد. فالأشكال الحية كلها ليست أكثر من تكثيرات الخلية الواحدة. وتعد البروتوبلازما الناتجة عن الكربون المادة التي تشكل كل خلية. وهكذا، نشأت الحياة في البروتوبلازما، وبالتالي كان الكربون، الذي يؤلف أشكالاً مختلفة كالماس والفحم الحجري، القاعدة الفيزيقية للحياة.

هكذا. تظهر كل خلية الحياة وتفصح عنها حينما تتكاثر بالانقسام بعد النمو. أما نقطة الانقسام هذه فإنها تكون في النويّات المركزية. وبعدئذٍ. تتشكل مجموعات الخلايا التي تتكوّن منها الاسفنجيات، والدْيخات إلخ التي وجدت في البحر. وبعد ذلك. تشكلت نباتات أعلى. ونمت وتطورت. والحياة التي كانت غافلة تماماً في المعادن بدأت تكشف عن ذاتها بالنمو. وفي الوقت الذي كانت المملكة النباتية تزدهر وتنمو. تولّدت المملكة الحيوانية بعد مليوني سنة. ولم تكن الحيوانات. في أشكالها الأولية. تتميز عن النباتات. ومع تقدّمٍ الأشكال عبر مسيرة التطور نشأ فرعان متميزان: كانت النباتات الأولى أعشاباً بحرية ضارة، وفطريات، وطحالب، وأشنيات، ونباتات راسخة، وأعشاباً صنوبرية، وشجيرات متأخرة كثيراً. لذا، فقد بدأت المملكة الحيوانية، مثل المملكة النباتية بالمتعضيات وحيدات الخلايا دُعيت مونيرا: وهي نقطة لزجة صغيرة مؤلفة من بروتوبلازما شبيهة بالغراء. وبعد كل ما حدث. ظهرت الأميبا، المنخربات، والاسفنجيات، والمرجانيات، وشقائق البحر، وقنديل البحر. وزنابق الماء، ونجوم البحر، والديدان. والسرطانات، والحشرات، والرخويات ..إلخ.. وبعد ذلك. ظهرت الحيوانات التي امتلكت عموداً فقرياً. ودعيت بالفقاريات التي بدأت بالأسماك. والزواجف، والبرمائيات والطيور. وفي فترة لاحقة. ظهرت الثدييات التي دُعيت باللاّ مشيمية. لأنها لم تكن تمتلك المشيمة. فكانت هذه الثدييات. مثل البلاتيبوس، وآكل النمل، أو حيوانات كيسية مثل الكنغر. تسمى الجرابيات. أما الشكل الأخير من الثدييات فقد وُلد حيوانات ناجحة تملك المشيمة، وتدعى ذوات المشيمة. وكان آخر ما برز في هذه الرتبة الحيوان الأكثر تعقيداً وهو الإنسان.

يعترف العلم الفيزيقي بهذه العملية التطورية التي تستدعي التبدل من شكل إلى شكل. أما العلم الروحي فإنه يفترض تطور الشكل من الروح أو النفس الكامنة ضمنه. ولما كانت النباتات قد أظهرت انبثاق الحياة بالنمو، وانبثاق المملكة الحيوانية بالحركة. فإن الحياة خطت خطوة إضافية وأظهرت فعل العقل. الأمر الذي أدى إلى مزيد من فعل العقل الذي وافق نمو وتطور الأشكال العليا. وعلى هذا الأساس. توجب على الشكل أن يصل إلى مرحلة نهائية وذلك لكي تتطور الروح وتؤدي إلى بروز أشكال وخسوف أشكال أخرى. وعندما تحقق الشكل في ظاهرة الإنسان. وافقت الروح وارتاحت نتيجة لتحقيق اكتمال المخطط التطوري للوجود الأرضي.

بالنسبة لما يقوله العلم المادي، استمر التطور المادي بالشكل ليؤدي وظائف

معينة على نحو ناقص، الأمر الذي أدى إلى تطور أعضاء ملائمة لهذه الوظائف. وبالنسبة لما يقوله العلم الروحي، يُحدث التوق، الذي هو الدافع إلى الأمام، وظيفة معينة. وهكذا، يضغط العقل المتضمن في أدنى الأشكال إلى الأمام، ويتطلب المزيد من الإفصاح والكشف وذلك لكي يتقدم التطور من شكل إلى شكل. وفي الحصيلة الناتجة، يتقدم تطور الأجسام مع تقدم تطور الروح.

وكما أن الشمبانزي أو القرد يعجز عن تصور ولادة الإنسان بعد ملايين السنين من الشكل المتطور، كذلك يعجز الإنسان الحديث فهم ووعي واجبه الذي يتطلب منه، عاجلاً أم آجلاً، أن يصبح إنساناً أعلى. هذا، لأن الواقع يشير إلى أن الحقيقة السامية المنطوية فينا ستكشف ذاتها في نهاية الأمر في المرحلة الأخيرة. وفي حالة كل فرد. لذا، يقال إن الإنسان يحتاج إلى مليون سنة ليبلغ هذه المرحلة الأخيرة عبر مسيرة العملية التطورية الطبيعية. هكذا، يتقدم التطور الطبيعي. ويستمر في دوران الأرض حول محورها، بينما تحدد النهارات والليالي انزلاق الزمان وانقضاءه. أما عندما يبدأ الفرد حركته على الطريق الروحي، فإنه يبدأ في الدوران حول محوره الذي هو عموده الفقري. وعندئذٍ، تعادل دقيقة من دورانه هذا حول محوره مائة عام من التطور الطبيعي الذي يكمله دوران الأرض. وهكذا، يمكننا السير بالعملية التطورية إلى المرحلة الأخيرة في غضون حياة الإنسان، وذلك في حال اعتراف الإنسان بأنه والحقيقة السامية كيان واحد.

لما كانت العملية التطورية من المملكة المعدنية إلى الإنسان قد استغرقت بضع ملايين من السنين، فإن العملية ذاتها تشاهد في الطبيعة وهي تتحقق كل دقيقة. فالنباتات تشيّد خلاياها باستنفاذ الأملاح المعدنية في التراب، والهواء والماء. وهكذا، تتحول المعادن إلى نباتات. ويبني الإنسان والحيوان خلاياهما بالتغذي بالخضار أو بالخلايا النباتية. وهكذا، يتم تحول الخلايا النباتية إلى خلايا حيوانية وإنسانية.

يشير ما تقدم إلى أننا أصبحنا ندرك أن العملية التطورية تتم عن طريق التبدل من شكل إلى شكل، وتستهل طريقها من تنظيم أحادي الخلية، وهو المونيرا، إلى الإنسان. وعلى هذا الأساس، يذكر كتاب الـ «غرانث» المقدس أن الإنسان كان، لحيوات عديدة، حشرة، ثم أصبح سمكة فطيراً، فحيواناً. وبعد اجتيازه أربعة وثمانين حياة مختلفة، حصل على الولادة الإنسانية الثمينة التي هي الفرصة النادرة لتكتمل العملية التطورية فيه، ويستغرق في الألوهة.

تتكرر العملية التطورية، التي استغرقت ملايين السنين من المونيرا إلى الإنسان،

في رحم الأم. هذا، لأن الطفل الإنساني المكوّن والمشكل بتمامه يخرج من خلية واحدة في الرحم. فالبويضة التي ينبثق الإنسان منها صغيرة جداً.

قدّر العلم عبقرية لامارك الذي دعم الفهم الروحي للتطور، وأكد أن التوق العقلي القوي شكّل القوة الحقيقية التي أدت إلى التطور. ولا شك أن العلم الغربي سيصل إلى هذه النتيجة الأكيدة في يوم من الأيام. أما نظرية دارون التطورية فإنها تتحدث عن بقاء الأقوى والأنسب. وفي رأيه، يزداد كل كائن عضوي بنسبة عالية جداً، الأمر الذي يؤدي إلى امتلاء وجه الأرض من ذرية زوجين من الأرانب، مالم يوضع حد لهذه الزيادة. والإنسان ذاته، وهو بطيء التوالد، قد تضاعف خلال عشرين سنة، الأمر الذي يؤدي إلى عدم وجود مكان لإنسان بعد ألف عام. وبويضة سمكة واحدة تحتوي على ما يقارب من تسعة ملايين بويضة، الأمر الذي يؤدي إلى امتلاء البحر بها في حال تفقيسها وبقائها. وهكذا، تكون القدرة على الوجود هي التي تتطلب بقاء الأنسب والأقوى.

بالنسبة لدارون، تحتل عقيدة الاصطفاء الجنسي الدرجة الثانية. فالذكور القوية تكسب صفات جديدة، وهي تتصارع في سبيل الإناث، وتنقل صفاتها إلى الذرية. وتزدهي جاذبية ألوان ريش الذكور الزاهية في عيون الإناث، فتميل إليها، الأمر الذي يؤدي إلى استمرار هذه الألوان الزاهية. ويعتقد دارون أن الإنسان والقرد يعودان إلى جد واحد مشترك. إذن، فالتطور الفيزيقي هو، بالفعل، تطور روحي. ولما كان جسد الإنسان هيكلاً للألوهة، فإننا نعتبره موضعاً هاماً جداً. فقد بدأ الإنسان على نحو كائن بربري؛ وأصبح الآن في مرحلة الإنسان المتحضر. ومع ذلك، فالقضية كلها ما زالت مجرد بداية. وعلى عاتق هذا الإنسان، تقع مسؤولية التقدم.

يتوجب علينا، بعد هذا العرض المبسّط للتطور الفيزيقي، أن نتتبع سياق التطور الروحي. فالمادة التي تشكل الجسد، والعقل والروح هي العناصر الثلاثة اللازمة للعملية التطورية الثلاثية. ومن الأهمية بمكان أن نعلم أن هذه العملية تلتزم بتحقيق التبدل الجذري للانتقال من كمون اللا وعي الذي تُعرف به المادة إلى فعل المعرفة الواعية. وذلك لتطوير الوعي المحدود من إطاره الضيق إلى الوعي اللا محدود. وهذا يعني وجود اللا وعي اللا محدود، ووجود الوعي المحدود، وتحقيق الانعتاق الذي يرافق الوعي اللا محدود. وعلى هذا الأساس، يعد التطور معلول العقل الذي يجاهد في سبيل إفصاح وتعبير كاملين، وذلك بالفعل في مادة الجسد بوصفها أداة مادية، والمجاهدة لتحرير ذاته من التأثير المعيق للمادة. وهكذا، تكون العملية

كلها مجرد إفصاح يظل الجوهر التطوري ذاته مع كل إمكاناته. أما الأقنعة والأغلفة فإنها تسقط. وفي هذا المنظور، يتطور العقل والحياة في المادة بحسب قانون الطبيعة. ووفق هذا القانون، تتحول المادة أولاً إلى مادة حية، وبالتالي إلى مادة واعية. وترتبط الحياة الطبيعية المتطورة بالموت. ويصطبغ العقل المتطور بالمادية والفعالية الناشطة. لذا، يتوجب على القدرة الروحية أن تحول المادة إلى عقل.

في هذا العالم الفيزيقي، يحيا الإنسان حياة مسرّات الحواس. ويعلّق أهمية كبرى على الأمور الموضوعية وعلى الحياة الخارجية، ويقلّل من اهتمامه بوجوده الداخلي. ويرغب الإنسان الحيوي في المزيد من خبرة الحياة والتأكيد على أهمية المعيشة في هذه الحياة. أما المستوى الذي يحتله العقل الصافي، والفكر المستنير والذكاء الإنساني المتجه إلى الخير فإنه يقع إلى ما بعد هذا المستوى. وفي نهاية المطاف، يأتي دور العقل الروحي. وهكذا، تتوطد سكينة العقل إذ تبدأ الروح بالعمل والشروع في عملية التطور. ويقود هذا التطور السريع جهدٌ عقلي واعٍ. ويكون هذا الجهد محاولة جدية لكسر جدران الجهل بإزالة الأقنعة التي تتراكم فوق الوعي، الأمر الذي يؤدي إلى التوغّل إلى الداخل. ومتى استهل الإنسان مسيرته على الطريق الروحي، يتطور وعيه، وينتقل من حياة الحس إلى حياة الفكر. وكما سنذكر في فصل «العوالم»، يتتابع التطور الروحي عبر دورة الولادة والموت في العوالم الثلاثة. وهكذا، يحصد الإنسان ما كان قد زرعه، بما يتناسب مع المصير الذي قدّره لنفسه. وفي تضاعيف الزمان، يصبح الإنسان أكثر وعياً، فيدرك غاية الحياة بعد أن يكون قد تعلم دروس الحياة عبر ولادات وميتات عديدة. فهو يتحقق من أن مسرات الحواس مؤقتة ولحظية؛ وعندئذٍ، يتسامى عليها، ويتجاوزها. وهكذا، يتولد فيه إحساس بحسن التمييز بين الأشياء، وشعور بعدم التعلق ناتج عن الحرية والوعي. وفي بعض الأحيان، ترتكس مسرّات الحياة إلى الإلحاح والتأكيد على ذاتها حتى بعد أن يكون الإحساس باليقظة قد استتب. وعاجلاً أم آجلاً، تنفك القيود الأرضية بعد أن تكون قد تبدّلت من قيود حديدية إلى قيود ذهبية، وذلك عندما يتعرّف الإنسان على الطريق الحقيقي. وعندئذٍ، يسعى إلى النجاة من الحيوات الأرضية والسماوية ليحقق الحرية الكاملة ويعاين المستويات العليا. ومتى تمت تنقية الذات وتهيأ للسير في الطريق، يخلع أجساده ببطء وذلك بإعمال عقله وقدرة وعيه القائمة في جسده الفيزيقي وفي أجساده اللطيفة.

يمكننا أن نقول: إن التطور هو الكشف عن الوعي والانتقال من إنسانية،

نصف حيوانية، إلى كيان مقدس. لذا، يتوجب على الإنسان أن يسمو بوعيه حتى يجتاز مرحلة الأدوات العقلية والحيوية والفيزيقية إلى نطاق الروح. ويتمثل واجب الإنسان في رفع كيانه كله إلى رتبة الوعي الروحي لتحقيق غايته عبر التحوّل المتكامل. فالإنسان، في جوهره، كائن مفكر يتصف بذكاء عقلي. ومع ذلك، نراه مهتماً بالوجود المادي المهيمن في العالم الفيزيقي. ولئن كان انغماسه في العالم المادي أمراً ضرورياً وأساسياً، لكن المعرفة المادية وحدها لا تكفي لتحقيق السعادة الصحيحة. هذا، لأن السعادة الصحيحة تتحقق بالنمو، والكشف، والانفتاح وتجاوز المستوى الفيزيقي. ولما كنا كائنات عاقلة، فإن وجودنا العقلي يشكل وجوداً حقيقياً. ولذا، يتوجب علينا أن نجرد ذاتنا العقلية في سبيل حياة أكثر حرية، وننمو لنصبح كائنات عقلية كاملة. فالعقل المتحرر، أي العقل الذي انعتق من مصيدة المعيشة وقلقها واضطرابها، وسما على المادة، هو عقل يخلق التوازن والانسجام. وفي هذه الحالة، تحقق الحياة الفيزيقية والحيوية دوراً أعظم. الأمر الذي يساعد العقل ذاته على التسامي نتيجة لتوجهه إلى الداخل وتعمقه فيه، واسترشاده بالبصيرة، وتجاوز سطح المعرفة إلى العقل الفوقي، وذلك ليصبح أكثر وعياً لذاته. ولكي يرتفع الإنسان إلى ما فوق المستوى العقلي، عليه أن يسمو إلى الوعي الفوقي، ويحيا في يقظة دائمة. ويتم هذا الأمر بمجرد انسحابنا من انشغالاتنا المادية لنحيا في توافق مع المستويات الداخلية العليا.

هذا، لأن يقظتنا في الوعي الروحي تؤدي إلى إزالة الجهل تماماً. عندئذٍ، يسود المبدأ الروحي الذي يحوّل الوجود الفردي إلى حقيقته وإلى ظاهرة الروح الواعية. وفي هذه الحالة، ينتهي الجهل الذي يفصلنا عن الحقيقة، وينبثق الإنسان الكوني المتجاوز لذاته والمتحد مع الحقيقة السامية. وتتحقق هذه المرحلة الأخيرة، وهي قمة التطور، في تحول الإنسان إلى الإنسان ـ الإله.

مراجع البحث

1- Le Phenonène Humain-P.Teillard de Chardin.

2- Spiritual Science-P.Varma.

3- Intelligence came First-Krishnamurti.

الفصل العاشر

الإنسان وأجساده

الإنسان، الكائن المفكر، يرتدي عدداً من الأجساد. وتساعده هذه الأجساد: أو الأغلفة على العمل على مستويات عديدة، وذلك بحسب درجة وعيه. وكما أن الإنسان يستعمل مركبات أو عربات عديدة خصّ بعضها لليابسة، وبعضها الآخر للبحر والجوّ، كذلك تعتبر أجساد الإنسان مركبات، يعمل الوعي من خلالها.

بالإضافة إلى الجسد الفيزيقي، تشير الكتابات الهندوسية إلى وجود جسد أثيري. وتنص حكمة الفدانتا على أن الذات الكاملة التي لم تتدنس وظلت نقية، تجمع في كيانها الأغلفة أو الأجساد الخمسة التالية:

1ـ الجسد الفيزيقي.

2ـ الجسد الأثيري - ويدعى الجسد الهوائي - الحيوي - الفيزيقي.

3ـ الجسد النجمي - ويدعى النوراني - النفساني.

4ـ الجسد العقلي.

5ـ الجسد العلّي أو الجسد - البذرة.

تعتقد غالبية الناس أن الجسد الفيزيقي يخطئ وحده بسبب رفضه لنعمة الوجود. أما الذين يتقدمون في الطريق الروحي ويشعرون بنعمته، فإنهم يدركون وجود أجساد لطيفة أخرى. وتكون نسبة من يعون ذاتهم وكيانهم الحقيقي واحداً لكل عشرات الملايين؛ وتكون نسبة من يعون أجسادهم اللطيفة واحداً من أصل من يعون ذاتهم. والحق أن من يبلغ هذا المستوى من الوعي يتحرر لأنه يتعلّم، من خلال الممارسة السرية، فنّ الخروج من سجن جسده المادي، ويتمتع بوعي مستويات الأجساد الأخرى، وهو لا يزال حياً على هذه الأرض، ويعود إلى الجسد الفيزيقي بملء إرادته.

في الصفحات القليلة التالية، نسعى إلى وصف الأجساد العديدة التي هي أغلفة الأنا الحقيقية. وليس ما نعرضه في هذه الصفحات سوى المبادئ التي تطرحها الثيوصوفيا وتتوافق مع مبادئ أخرى تماثلها.

أولاً ـ الجسد الفيزيقي:

هذا هو الهيكل المرئي الذي يُسجن ضمنه الكيان أو الأنا الموحّدة. وفي الواقع، يمثل هذا الجسد الهيكل الذي يقيم فيه الإنسان الحقيقي. ويتألف هذا الهيكل من خمسة عناصر مكونة هي التراب، والماء، والهواء، والنار والأثير بالإضافة إلى أقسام فرعية هي العنصر الصلب، والسائل والغازي. والروح هي الكيان الكوني الذي تهبه الحياة التي تحافظ على هذه العناصر على نحو متحد لتشكل الجسد. وعندما تغادر الروح هيكلها، يتداعى بناء الهيكل، وتتوزع الأجزاء أو العناصر، وتمتزج بالمواد الفيزيقية.

كما يحيك العنكبوت نسيجه ليقع، فيما بعد، أسير هذا النسيج، كذلك يتشكل جهازنا العصبي والحواس الخمس التي تتولد عنه، لنُلقي بأنفسنا في مصائد أنفسنا، أي في العالم الخارجي. ولا تكون النتيجة أكثر من ملذّات عابرة وآلام سلبية ترافقها. وهكذا، يكمن جهلنا في أننا نماثل، أي نوحّد أنفسنا مع الجسد الذي ليس هو أكثر من رداء أو خادم... وكما أننا نأكل لنحيا ولا نحيا لنأكل... كذلك يوجد الجسد الفيزيقي من أجلنا ولا نوجد من أجله. وإذا عكسنا هذه الحقيقة، ارتمينا في أحضان الألم السلبي.

ينقسم الجسد الفيزيقي إلى نوعين من الأعضاء: إرادية ولا إرادية. وتضبط هذه الأعضاء شبكة الأعصاب، وتصون الرئتين والقلب وعضوي الإفراز والبراز التي تديرها الأعصاب اللاّ إرادية للجهاز السمبتاوي ـ الودّي. ويشكل العمود الفقري منطقة نفوذ قوة الحياة. وقد خضع هذا الجهاز للسيطرة الحيوانية في المراحل الأولى للتطور، وأصبح لا إرادياً بمرور الزمن. أما ضبط الأعضاء اللاّ إرادية فيتم بتمارين خاصة. وهكذا، يمكننا إبطاء أو تسريع نبضات القلب تماماً كما يمكننا تعليق أو توقيف تنفسنا. وعلى غير ذلك، نمتلك جهاز أعصاب إرادي ينبع من الدماغ. وتصل الأعصاب الحسّية والحركية للجهاز الشوكي إلى كل جزء من أجزاء الجسد. ومع أن مراكز الحواس موجودة في الدماغ، إنما نستطيع ضبطها بالإرادة الناتجة عن ممارسات خاصة. وهكذا، نعلم أن هذا الجهاز يقوم بتأدية الوظيفة الرئيسة في الإنسان المفكر، الأمر الذي يذهل من يؤكد مادية جسده. فهو على كل حال، عاجز عن شرح علّة توقف هذا الجهاز المادي بعد الموت.

يخضع نطاق دراسة الجسد الفيزيقي للتشريح والفيزيولوجيا. وفيما يتعلق بالنطاق الروحي، فإننا نهتم بنقاء هذه الأداة، أي الجسد الفيزيقي، لتكون خادمة

وفيّة للإنسان الحقيقي الذي هو الروح. ويعد الطعام العنصر الأول والأهم لبناء الجسد المادي. وإذا لم يكن للموجّه الداخلي دور الإرشاد الأساسي. فسيكون الجسد بنية لبناء شُيد من القمامة. فمن الواجب الامتناع عن تناول اللحم وتعاطي الكحول والبهارات لأنها تلوث الجسد. ولما كان الجسد يتأثر بالاعتيادات. فمن الممكن أن يعتاد على تناول طعام معين. الأمر الذي يؤدي إلى صعوبة تعويده على غير ذلك.

تقول الحكمة: إن تحقيق الألوهة يعني أن يولد الإنسان كائناً إنسانياً. ولما كان الملائكة عاجزين عن بلوغ الألوهة، فإنهم يعانون من غيرة باتجاه الإنسان. وهذا يعني أن الألوهة تصبح مهيأة للفعل في أجسادنا عندما نسّهل لها الطريق المؤدي إلى النقاء. هذا، لأن نقاء الأفكار يتلو نقاء الطعام. فالذات الحقيقية في الجسد تبدو مغلّفة بقناع على نحو ملذات الحواس. لذا، يجب على الإنسان أن يجعل من جسده أداة لا تعيق تحقيق الحقيقة السامية. وهكذا، يصبح الجسد خادماً إذ يصبح نقياً.

يتألف الجسد الكثيف من آلاف آلاف الخلايا. وتشبه كل واحدة منها بطارية يسيل من خلالها تيار الحياة الذي يُفصح عن وجود الروح. فكما أن الكهرباء تنتج من دوران مغنطيسي حول نقطة. كذلك يُشحن الجسد الكثيف عندما نستلقي باتجاه الشمال والجنوب. ولما كان حكماء الماضي قد أدركوا هذا الواقع فقد عمدوا إلى وضع الإنسان المشرف على الموت. ويعاني من آلام عديدة، في الاتجاه المعاكس وذلك لكي تفرغ بطارية الحياة من شحنتها.

ثانياً ـ الجسد الأثيري:

يحيط الجسد الأثيري اللطيف بالجسد الفيزيقي. وقد دُعي هذا الجسد بالأثيري لأنه يتألف من أربع مراتب أثيرية. ويعد هذا الأثير أكثر ندرة من الأثير الذي يقع فوق مجالنا الهوائي الذي تنعكس فيه الموجات الإشعاعية. فهو لطيف جداً حتى يكاد يشبه الفراغ. ولّما كانت عملية تقدم الحياة فعلاً كهربائياً. فلا يخرج التيار الكهربائي عن كونه دليلاً على وجود الأثير في كل مكان على المستوى الفيزيقي.

وكما يتألف الجسد المادي من المواد الصلبة والسائلة والغازية التي تفعل ضمن اتحادات متنوعة. كذلك يتألف الجسد الأثيري من الأثيرات الأربعة التي تختلف في كثافتها. ولما كانت الأثيرات فيزيقية فإن هذا الجسد الأثيري يشكل جزءاً من الجسد الفيزيقي. وفي الواقع، يُعرف هذا الجسد بالجسد الحيوي لأنه يهب الحياة للجسد

الفيزيقي الذي يعتبر أداة كثيفة وصلبة. وهكذا، تعتمد عملية تقدم الحياة على مراكز الطاقة السبعة التي تخص الجسد الأثيري. وتستمد هذه المراكز السبعة العائدة للجسد الأثيري طاقتها من الشمس، لتزوّد مراكز الطاقة، العائدة للجسد المادي، بطاقة الحياة. وعندما يحقق الجسد الفيزيقي النقاء، يصبح الجسد الأثيري نقياً بدوره.

لما كانت البرانا نسمة الحياة التي تتوزع في الأعصاب، كان الجسد المادي الأداة التي تستعملها البرانا لتوجيه أو إدارة الذات على المستوى الأرضي. وهكذا، ينتج الموت عن انفصال الجسد الأثيري عن الجسد المادي.

في بعض الحالات الاستثنائية وغير العادية، يحدث انفصال جزئي للجسد أثناء الحياة الأرضية، الأمر الذي يؤدي إلى جهد عصبي، يجعل مسألة سيلان طاقة الحياة أمراً معقداً أو صعباً. أما الموت فإنه يحدث نتيجة للانفصال التام. ويدعى هذا الجسد أيضاً «المثيل الأثيري» أو «النسخة الأثيرية». هذا، لأنه نسخة مطابقة للجسد المادي. وليست الظهورات غير نسخة لهذه الثنائية، أو المماثلة والمطابقة. ويقال إن هذا الجسد، بعد انفصاله عن نسخته الشبيهة، يحوم حولها لمدة ست وثلاثين ساعة بعد الموت، ويكون شبيهاً بسحابة. فهو يتألم لسبب هو أن الجسدين كانا صديقي العمر. وبالفعل، يُقبل الهندوس على حرق الجسد المادي بعد الموت لأنهم يهدفون إلى تخفيف الألم الذي يعاني منه العقل الذي يعمل ضمن الجسد الأثيري. وبعد حرق الجسد الميت، أو بعد قيام الجسد الأثيري بواجبه أثناء فترة التحويم، ينحلّ، كالجسد المادي، ويمتزج الأثير الذي شكله بالأثير الفيزيقي.

ثالثاً ـ الجسد النجمي أو النوراني

تعني كلمة Astral النور. ومن هذه الكلمة، اشتقت كلمة علم النجوم Astrology. فالجسد النجمي هو الجسد النوراني الذي يحيط بالجسد الأثيري، ويتخلل الجسد الفيزيقي. ولما كان الجسد الفيزيقي يمثل وعي الإنسان أثناء حالة اليقظة ـ وهذا الوعي هو المعرفة المحدودة التي يستطيع التعبير عنها ـ فإنه، على المستوى النوراني، يعبّر، بمعزل عن الجسد الفيزيقي، عن معرفته إلى المدى الذي يكون باستطاعة الجسد النوراني تحقيقه أو بلوغه. ولا شك، أن هذا التعبير عن المعرفة والقدرة من خلال هذين الجسدين يزداد بازدياد الكمال. أما الوعي، حتى المستوى الفيزيقي، فإنه يكمن في الجسد النوراني. ويسمى هذا الجسد تسمية أخرى هي «التوق» أو «الجسد العاطفي». وأثناء النوم، أو في حالة التخدير، ينفصل الجسد النوراني عن الجسد الفيزيقي، الأمر الذي يؤدي إلى غياب الوعي. أما بعد الموت،

أي في حال إسقاط الجسد الفيزيقي فإن الإنسان يعمل من خلال الجسد النوراني الذي يحيط بالعالم الفيزيقي، وينبث فيه. وهكذا، لا يستطيع الإنسان، وهو في جسده الفيزيقي، إلا رؤية الأشياء الفيزيقية على مستواه دون وعيه بالجسد النوراني ومستواه النوراني. وليس الجسد النوراني سوى كتلة غير منتظمة، شبيهة بسحابة تشكله. أما المتعمقون في السرانية، فإنهم يبدأون بمعرفة وفهم جسدهم النوراني الذي ينمو ويتقدم نتيجة لتفعيل القدرة القدسية التي تشكل نسخة مطابقة لجسد الإنسان الفيزيقي. وإذ يبلغ الإنسان درجة التعلّم التي تؤهله للانعتاق من جسده الفيزيقي، يصبح قادراً على الدخول إلى جسده النوراني الذي يصبح، بعد هذا الحد، أداة وعيه الذي يعمل على المستوى النوراني. وبهذه الطريقة، يتحرر من سجن الجسد المادي، ويتجاوز الزمان والمكان، ويستطيع الانطلاق إلى كل مكان في هذا العالم، وإلى الكواكب الأخرى دون الخضوع لقياس الزمان والمكان.

ينتقل الجسد النوراني بسرعة تفوق سرعة الفكر. وفي الإنسان الذي يتقاعس عن تحقيق مواهبه الفكرية، يظل الجسد النوراني، أثناء النوم، ملاصقاً للجسد المادي. وفي الإنسان الذي يطوّر مواهبه، يكون الجسد النوراني قادراً على الانتقال إلى كل مكان، ويقوم بعمل مجدٍ على المستوى النوراني. ومن المحتمل أن يشعر الإنسان، الذي حقق هذا الجسد، برواحه وإيابه حتى تكون الروابط بين الجسدين، النوراني والمادي، قد نمت وانتظمت تماماً عن طريق الممارسة السرية التي توحد مراكز الطاقة في كلا الجسدين. ومتى تمت هذه العملية، يستيقظ الإنسان طوال اليوم لأن وعيه يظل مستيقظاً طيلة الوقت. وإذ يقترن الدماغ المادي بالجسد النوراني أو يتحد معه، يصبح قادراً على مشاهدة أي مكان، أو يصل إليه بإرادته وبواسطة الجسد النوراني، الأمر الذي يؤدي إلى تحقيق الحضور الكلي. وفي درجات أعلى من التحقيق، يستطيع الإنسان أن يتجسد في أي مكان وفي أي عدد من الأماكن. ومتى تم تطوير الرؤية النورانية، يصبح الإنسان رائياً، ذلك أن الرؤية النورانية تستطيع أن تعاين من خلال أجزاء الجسد كلها: من الخلف، من الأمام ومن القمة. وهذه الرؤية النورانية هي ما ندعوه «العين الثالثة».

وكما توجد حالات سبع فرعية في الجسد الفيزيقي وفي الجسد الأثيري المطابق له، كذلك توجد حالات سبع فرعية في المادة الأثيرية، وذلك بحسب رقتها أو لطافتها. ومستويات سبعة تحتية أو فرعية. ويؤلف هذا الوضع أداة للروح التي تتخلل الحياة بكاملها. وتنقسم هذه الحالات السبع إلى مستويين تحتيين.

فالمستويات التحتية الأربعة تسمى «جهنماً»؛ وتكون أكثر خشونة وكثافة. والمستويات الثلاثة العليا تسمى «سماء»؛ وتكون أكثر نعومة ولطافة. وهكذا، تكون السماء وجهنم حالتين عقليتين، وليس هما مكانين خاصّين.

يتبّدل لون الجسد النوراني بحسب حالة العقل ومستوى التفكير. فهو يتلون بالمؤثرات الفكرية. فاللون القرمزي، على سبيل المثال، يمثل الغيرة والغضب. واللون الأزرق يمثل حالة العقل التعبّدية. واللون الأصفر يمثل الموقف العقلاني. واللون القرنفلي يمثل الحب. لذا، يعد العقل العامل الرئيسي الذي يفعل في سيرورة نقائه، وذلك لأن المادة النورانية، لكونها لطيفة ورقيقة، تتأثر بالأفكار المتصلة بعالم الخارج وعالم الداخل.

عندما يستيقظ إنسان بعد حلم، يدرك أن ما اعتقده حقيقة كان مجرد حلم. وبالطريقة ذاتها، تبدو حياة الناس المادية حلماً بعد انفتاح الرؤية النورانية. ولما كان العالم النوراني أوسع بكثير من العالم المادي فإن الأرواح تفعل في الأجساد النورانية. ويعود هذا الأمر لسبب هو أن الأجساد المادية غير موجودة فيه. لذا، لا تتفتح الحياة الحقيقية ومسالكها إلا بعد تطوير الوعي النوراني وتنميته في الإنسان الذي يشبّه حياته المادية كلها بحلم. وفي هذه الحالة، يتوجب عليه، وهو على المستوى النوراني، أن يصعد من المستويات التحتية الأكثر كثافة إلى المستويات العليا الأكثر لطافة. وليس الفرق بين مستوى تحتي ومستوى آخر غير فرق في كثافة المادة النورانية. وعلى كل حال، تتداخل هذه المستويات وتستغرق في بعضها. وليس الصعود من مستوى أدنى إلى مستوى أعلى غير تنمية للوعي وقابلية التأثر بالاهتزازات العليا السامية.

على نحو عادي، يجتاز الإنسان بجسده النوراني إلى المستوى النوراني بعد أن يكون قد خلّف وراءه الجسد الفيزيقي بعد الموت. وتتوقف الفترة الزمنية التي يقضيها الإنسان على المستوى النوراني ومستوياته التحتية على مدى نموه الروحي أو تخلّفه الروحي. ففي الوقت الذي تحيا روح نامية كل النمو خلال هذا المستوى، تظل نقيضتها فيه عصوراً. هذا، لأن المكوث في أي مستوى خاص يتناسب مع مقدار لطافة أو كثافة مادة الجسد النوراني. وهكذا، يقلّص النقاء والأفكار السامية الفترة الزمنية على المستويات التحتية الدنيا. إذن، فخسارة الجسد الفيزيقي لا يعتبر أمراً له أهمية كبرى بالنسبة للإنسان العادي. وذلك لأن عقله وفكره يعملان بدرجة واحدة على المستوى النوراني. ولما كانت المؤثرات الفكرية تؤثر في الجسد النوراني، فإن حزن

أقرباء وأنسباء الميت يثير اهتزازات مماثلة في جسده النوراني وهو على ذلك المستوى، الأمر الذي يسبّب له ألماً وعذاباً شديدين. وعلى غير ذلك، تثير فيه الأفكار السامية العزاء والسعادة.

بعد أن تكون المادة النورانية قد استُنفذت بكليتها، وأصبح الجسد أكثر لطافة بانحلال المادة النورانية، تكتمل الإقامة على المستوى النوراني. ويجتاز إلى المستوى العقلي. وعندما يموت الإنسان وينتقل إلى المستوى النوراني، يخلّف وراءه الجسد النوراني المنحلّ الذي يمتزج بمادة ذلك المستوى تماماً كما يخلع الجسد الفيزيقي لدى موت هذا الجسد.

يستطيع الكائن الإنساني المتطور بروحه أن يكون كامل الوعي على المستوى النوراني وقادراً على التحرر والانعتاق من الجسد الفيزيقي. وعلى نحو عادي، يستخدم من يتسنّم هذه الدرجة العليا جسده العقلي كأداة أو كمركبة فيجتاز المستويات العديدة ليبلغ المستوى النوراني. ويفسح هذا الأمر المجال لحسنة الانتقال من المستوى العقلي إلى المستوى النوراني وبالعكس.

يحتمل ألا يكون المرء المتطور نفسانياً متطوراً من الوجهة الروحية. ويحتمل أيضاً أن تكون لديه قدرات نفسانية كامنة. ومع احتمال كونه واعياً تمام الوعي على المستوى النوراني، لكن بعضاً من رؤاه تكون خادعة وزائفة نتيجة للتبدل الحاصل في نطاق تذكره، إذ يحتمل أن يتشوّه كلياً. وعلى الرغم من أن العاملين في مجال السحر الأسود يطورون الوعي النوراني، لكن تطويرهم هذا يؤدي إلى الشر. وعلى غير ذلك، يطوّر المعلمون الكبار قدراتهم باتجاه الخير. ولما كان السحرة يسعون إلى توطيد أنفسهم، فإنهم سيعانون في حياتهم المقبلة، من خلال عقلهم الأدنى، من أنواع العذاب المرير.

يمكننا أن نخلص إلى ما يلي: يستطيع كل من يعرف كيف يفعل في جسده النوراني مشاهدة كل شيء يقع خارجه أو داخله، وذلك لأن رؤياه تستطيع أن تنفذ إلى جسم صلب. وهكذا، يستطيع أن يقرأ كتاباً مغلقاً أو فكرة تخطر في عقل إنسان آخر، ويدرك الاهتزازات الأثيرية، ويكون قادراً على إحداثها. وبالإضافة إلى هذا، يصبح قادراً على ضبط القوى فوق الفيزيقية، وإنشاء تيارات أثيرية. وفي مجال إحداث اهتزازات عاطفية على المستوى النوراني، لن تكون ثمة حدود لإنجازاته نتيجة لبسط هذه القوى. والحق أن هذا العالم قد أبدعته اهتزازات الكلمة Logos. ويمكن إحداث ظاهرات الإنحلال ذاتها باهتزازات سريعة وتقليص جسم إلى حالة

أثيرية وعكسها في آن واحد. ويستطيع المتعمق بالسرانية تجسيد الجسد النوراني أو الأثيري أو تجسيد فكرة وذلك باستخلاص المادة المناسبة من الأثير المحيط. ويتحقق هذا، لأن الجسدين متصلان اتصالاً محكماً لدرجة أن الجسد الفيزيقي يتأثر كما يتأثر الجسد المتجسد الذي يوجد في كل مكان. وليس من تفسير لهذه الظاهرة إلا عبر الاهتزازات العاطفية. وبالإضافة إلى ذلك، يستطيع السرّاني التغلب على الجاذبية أو عكس قوتها، والطيران في الهواء والسير فوق الماء وذلك عندما ينشئ قوة مغنطيسية بإرادته. وأما الشفاء، فمن الممكن إحداثه بتحقيق انسجام في الجهاز الفيزيقي العائد لشخص آخر نتيجة للتأثير الحاصل في القوى العاطفية للمريض وإحداث اهتزازات في جسده.

رابعاً ـ الجسد العقلي

ينقسم هذا الجسد إلى جسدين:

آ ـ الجسد الأدنى، أو العقلي التحتي، الذي يحيط بالجسد النوراني ويغلّفه تغليفاً كاملاً. ويتخلل هذا الجسد الأجساد الثلاثة التي تحدثنا عنها.

ب ـ الجسد العقلي الحقيقي، أو الأعلى، الذي يحيط بالتغليف الأول ويتخلل الأجساد الأخرى بكاملها.

لئن كان الجسد الأدنى يدوم بعد الموت وينحل بعد فترة حياته على حدود المستوى النوراني، لكن الجسد الأعلى هو الجسد الدائم الذي يشكل الجسد العلّي بالدرجة الأولى. وينقسم الجسد العقلي إلى سبعة مستويات تحتية تتجمع في ثلاثة مستويات عليا لا تتجلى في ظهور، وفي أربعة دنيا تظهر من خلال الجسد. ويكون الفرق بين المستويات هو الفرق ذاته في كثافة المادة العقلية التي تشكل الجسد. وتزداد هذه المادة لطافة لدرجة أن الجسد الأعلى لا يظهر تقريباً بسبب رقته ولطافته. وعلى الرغم من أن هذا الجسد هو أداة الوعي على المستوى النوراني، لكنه يؤثر في، ويعمل من خلال، الجسدين النوراني والفيزيقي، ويكون، بالتالي، مسؤولاً عن نشأة الأفكار أثناء يقظة الوعي. ولا يكون هذا الجسد، في الإنسان العادي، نامياً، ولا يقوم بتأدية وظيفته على مستواه الخاص. والحق أن هذا الجسد، بالإضافة إلى الجسد النوراني، يشكل هالة حول الإنسان، يزداد حجمها بالمقدار الذي ينمو فيه هذا الجسد.

يعد الفكر في هذا الجسد نتاجاً لتجلي جوهر الكيان فيه. وعندما ينتظم هذا الجسد بالممارسة السرانية، يصبح واضح التحديد إذ يتخذ شكلاً هو نسخة مطابقة

للجسد الفيزيقي. ويكون باستطاعة هذا الجسد صياغة ذاته، أو تكوين ذاته بأي شكل. والامتداد إلى أي حجم بحيث يكون قادراً على تغليف الكون كله. ولا يتسنى للإنسان العادي رؤية هذا الجسد. وعلى غير ذلك، يستطيع من انفتح بصره العقلي رؤيته. وكما أن الوعي الفيزيقي يبدو مثل حلم عندما ينفتح البصر الكوني، كذلك يبدو الوعي الكوني مثل حلم عندما ينفتح البصر العقلي.

يتمتع الإنسان بالحياة الحقيقية في الوقت الذي يتكاثر فيه العالم الظاهري. وهكذا، يوجد امتداد كبير في الوعي. ويصبح الجسد العقلي واعياً لكل شيء دون الاستعانة بالحواس الخمس. فالكلمات تعجز عن التعبير في هذا المستوى، والأفكار تنتقل كصور أو أشكال فكرية بواسطة الاهتزازات. ولا ينمو هذا الجسد إلا بالتأمل. ويؤدي التأمل، الذي هو الممارسة الدائمة لتنقية الجسد والعقل، إلى إحلال الجزيئات اللطيفة محل الجزيئات الكثيفة بواسطة الاهتزازات حتى يصبح هذا الجسد أداة كاملة لتحقيق الوعي. وعلى الرغم من إمكانية اكتساب الوعي النوراني بالجهود الخاصة، لكن اكتساب الوعي العقلي يتم فقط عندما يكشف هو ذاته الطريق للطالب الروحي الذي يتعلم الممارسة السرانية والروحية ليفعل في مجال الجسد العقلي بسهولة تعادل سهولة فعل العقل في الجسد الفيزيقي.

خامساً ـ الجسد العلّي أو الجسد ـ البذرة

دُعي هذا الجسد بالجسد العلّي أو الجسد ـ البذرة لأن العلل كلها تكمن في هذا الجسد أولاً، ولأنه يحمل صفات الإنسان الموروثة من حيواته السابقة ثانياً. وفي هذا الجسد، تُختزن أعمال الإنسان السيئة أو الصالحة كلها إلى الأبدية، وتنمو من حياة إلى حياة في الوقت الذي يتقدم الفرد روحياً.

يحيط هذا الجسد بالجسد الفيزيقي تماماً كما تحيط به الأجساد الأخرى الرقيقة التي دعوناها أغلفة أو أردية. ومن الوجهة العملية، لا يشكل هذا الجسد موضوعاً لهذا الفصل. ولا نتحدث عنه إلا أنه الجسد ـ البذرة. إنه البذرة الصغيرة التي تتشكل في قمة الجسد العقلي شاقولياً فوق قمة الرأس. ويتم هذا التشكل نتيجة لانضمام أو انصهار الأجساد لتتألف من أغلفة أربعة للجسد المادي ومن توضّعها عند قمة المحور المركزي.

هذا هو الجسد الذي يتوجب عليه أن يتحمل الولادة من جديد، عاجلاً أم آجلاً، بعد مكوثه في مستويات أخرى. فهو يتألف من مادة رقيقة ولطيفة، تتجلى في

فيلم يشكل المراحل التي مر بها الفرد أثناء عملية تطوره. والحق أن المزايا والخصائص الإنسانية الفطرية، كالفكر والنمو الروحي، تنتمي إلى الجسد العلي الذي يدوم إلى الأبدية، أي حتى نهاية دورات الولادة والموت، حتى تتحرر الروح بعد أن تكون قد أنجزت كمال العملية التطورية.

الفصل الحادي عشر

العــوالـــم

مقدمة

توجد آلاف آلاف العوالم التي تشتمل على أنظمتها الكونية. والنجوم، بمعظمها، شموس تمتلك أنظمة تمثل النجوم المتلألئة كواكبها. ويشتمل نظامنا الشمسي على تسعة كواكب أو عوالم فيزيقية.

يفصح كل نظام شمسي عن عوالم ثلاثة تشتمل على المادة الفيزيقية. والنورانية والعقلية. وبالفعل، توجد المادة في كل نظام شمسي، إنما تكون على مستويات سبعة. فتطور الإنسان العادي يتابع نموه في العوالم الثلاثة، بينما يتابع المتعمق في السرّانية نموه في المستويين الروحيين العلويين. وهكذا، يكون انفتاح الوعي حقلاً مؤلفاً من خمس «ثنيّات» تتتابع على المستويات الخمسة. ويحتفظ المستويان العلويان، وهما السادس والسابع، بوجودهما للفعالية الإلهية وحدها.

يُعد الكون تعبيراً أو كشفاً عن ظهور الألوهة، وذلك لأنه ينبثق إلى الوجود بكلمتها. وفي نظر الـ «ثيوصوفيا»، تكون العوالم أو المستويات سبعة. وتتصف هذه المستويات بالرقة واللّطافة باستثناء العالم الفيزيقي.

تصف الـ «ثيوصوفيا» الطريقة التي اعتمدتها الألوهة لظهور الكون على النحو التالي: يستخلص العقل الكوني المادة من الحيّز اللاّ نهائي، هادفاً إلى بناء نظام شمسي، بحيث تكون الأنماط السبعة للمادة، التي تصبح «ذراتنا»، حاضرة فيه مسبقاً. وتصف مدام بلافاتسكي كيف يتحقق إنشاء التقسيم السباعي إلى ذرات لها مراتب أدنى فأدنى. فتقول: «الذرة الكوزمية تصبح سبع ذرات على مستوى المادة. وتتحول كل واحدة منها إلى مركز طاقة. وتصبح الذرة ذاتها سبع أشعة على مستوى الروح».

توجد العناصر الثلاثة، وهي العطالة والحركة والإيقاع، في توازن مع بعضها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

خارج حدود الكون. وعندما تستهل الفعالية المبدعة انطلاقتها، يضطرب التوازن، وتصبح العناصر الثلاثة في حالة عدم الاستقرار. وفي حركة مستمرة في علاقتها مع بعضها. الأمر الذي ينشئ الحياة. وعن هذا الوضع، تقول مدام بلافاتسكي. «تُنشى الطاقة الإلهية الإخوة السبعة... إنها تكهرب المادة الأولية أو المادة البدئية الحامل إلى ذرات، وتقصيها. وتحولها إلى حياة».

تتشكل الذرة عبر مراحل ثلاث:

آ ـ المرحلة الأولى: هي الحد الذي ستهتز ضمنه الروح، أو الحياة المتروحنة، وتسمى «القياس الإلهي».

ب ـ المرحلة الثانية: يهب التقسيم الحاصل في المرحلة الأولى صفة مميزة لذرة كل مستوى، ويعين الخطوط التي تحدد شكل الذرة، الأمر الذي يؤدي إلى تشكيل محاور النمو التي تحدد الشكل كما هو الحال في البلورات.

ج ـ المرحلة الثالثة: في هذه المرحلة، يتحدد شكل وحجم سطح أوجدار الذرة بقياس الاهتزازات والعلاقة الزّاوية لمحاور النمو مع بعضها.

وبعد ئذٍ. تبدع خمسة أنواع مختلفة تؤلف المادة الأساسية للعوالم الخمسة التي سيتتابع التطور فيها. وهكذا، توجد ذرات أساسية لكل مستوى؛ وتهدف إلى تشكيل أو انحلال موضوعاتها وأشيائها.

يشير ما تقدم إلى أن الفعالية المبدعة تنسج حول ذاتها المادة الخاصة من الحيّز اللاّ نهائي. وتروحنها بحياتها على نحو تتشكل فيه هذه الحياة ضمن المادة اللطيفة التي هي ذرة المستوى الأول. وهكذا، تكون الحياة الكيان أو الوعي الفوقي في كل جزيء. وبهذا الصدد، تقول مدام بلافاتسكي: تحفر الطاقة الإلهية ثقوباً في الفراغ. أي في الحيز اللاّ نهائي. وتشكل الطاقة الدوّارة دوّامات لا حصر لها. وهكذا، تشكل الروح. وهي في قشرة المادة، ذرات المستوى الأول. وكما تشكل هذه الذرات جزيئاتها، كذلك تشكل اتحاداتها المعقدة مادة المستويات الستة المتبقية. وفي نطاق المستوى الثاني. تشكل الروح. بالإضافة إلى غلاف ذرة المستوى الأول الأساسية. روح المستوى الثاني. وتتخلل الغلاف الجديد. وتصبح هذه القشور المروحنة، وهي ذرات المستوى الثاني. مغلّفة باتحادات مستواها ـ التحتي الأدنى. فتصبح. في النتيجة، ذرات المستوى الثالث. وفي هذا المستوى، تتغلف الروح بغلافين داخل جدار مستواها

الثالث لتجمعات المستوى ـ التحتي الأدنى التي تعود للمستوى الثـاني. وهـذا يعـني أن جدار الذرة يعد المـادة ذاتهـا. وتتكـرر العمليـة، علـى نحـو يكـون لـلروح. علـى المستوى الفيزيقي، غـلاف سداسي الثنايـنا ضمن الجـدار الـذري. وبالتـالي. تعتـبر الروح، بالإضافة إلى غلافلاتها وباستثناء الغلاف الخارجي الأقصـى. روحـاً. ويعتـبر الغلاف الخارجي الأقصى الجسم على كل مستوى.

هكذا ؛ نرى كيف تكون الذرات النهائية للمستوى الفيزيقي معقدة. وفيما يتعلق بالذرات الكيميائية، تتجمع الذرات النهائية في مجموعات متتابعـة لتشـكل حـالات المادة، فتتكون الذرة الكيميائية في الحالة الخامسة غازاً، وفي الحالة السادسة سـائلاً. وفي الحالة السابعة صلابة. وعلى هذا الأساس، تتشـكل المسـتويات التحتيـة الثلاثـة على المستوى الفيزيقي. وفوق هـذه المستويات، توجـد أربـع حـالات أثيريـة للمـادة تشكل أربعة مستويات. وتكون هذه المستويات الأربعة ذريـة بكـل مـا في الكلمـة مـن معنى. وتتجمع الذرات في جزيئات، وتتماسـك مـع بعضهـا بالجاذبيـة المغنطيسـية. وتنتظم الجزيئات في كل مستوى فرعي، على نحو هندسي، عنـد محـاور النمـو. وفي سبيل تشكيل الجزيئات المعقدة، تتشكل المسـتويات الفرعيـة لكـل مستوى بواسـطة الفعالية المبدعة، بحيث أن المستويات الفرعية السبعة تكـون في كـل مـن المسـتويات الخمسة. ويقع المستوى الأول والثاني إلى ما بعد هذا التصنيف. والحق أننا لا نعـرف سوى القليل عن هذين المستويين اللذين تحدث فيهما الفعالية الإلهية. ومع ذلك. لا تنفصل المستويات السبعة عن بعضها بل تتداخـل مـع بعضهـا وتسـتغرق في بعضهـا. وبالطريقة ذاتها، لا تنفصل المستويات الفرعية السبعة التي تعود لمسـتوى معـين عـن بعضها. بل تتصل ببعضها. وهكذا، تتكون المستويات الفرعية التاليـة الموجـودة بـين المستويات، وذلك بفضل تداخلاتها واتصالاتها المتبادلة:

- المستويات التحتية الصلبة.
- المستويات التحتية السائلة.
- المستويات التحتية الغازية.
- المستويات التحتية فوق الأثيرية.
- المستويات التحتية الذرية.

تستطيع الحياة، نتيجة للعلاقة المتضمنة فيها، أن تجتاز من مستوى إلى آخـر عبر الفصل القصير العـائد للمسـتويات الفرعيـة الذريـة الواصلـة. هـذا. لأن جـداول

الحياة الصادرة من الموناد على المستوى الثاني تتبع في انحدارها هذا الطريق الذري. ففي ذرة فيزيقية، نشاهد دوّاراً من الحياة يدور بسرعة قصوى. وباتحاد الدوارات، تتألف الجزيئات، وتتشكل المستويات وفروعها. وعند السطح المحدّد للدوّار الدّائر، توجد تيارات لولبية لها زاوية مستقيمة، فتكون داخلية لواحدة وخارجية لواحدة أخرى. وتكون حياة الموناد سبب هذه التيارات. وتتطور هذه الدوّارات اللولبية مع العملية التطورية. وفي الوقت الحاضر. أي مع بدء الذرية الخامسة، تطورت أربعة دوّارات، وأصبحت تعمل بنشاطها الكامل. وما زالت ثلاثة أخرى في بداياتها. وثمة طرائق سرانية تسرّع تطور الذرات بتنشيط الدوّارات اللولبية بواسطة الموناد. وتفعل التيارات النابعة من الموناد في الدوّارات على نحو تماس، الأمر الذي يُثري الحياة بانفتاح الوعي. وهكذا، يرتدي وتر الحياة السباعي الثنايا صورة الجمال الأسنى، ويشع بملئه.

تتوقف استجابة المادة للوعي على «القياس الإلهي» أو القدرة الاهتزازية لكل ذرة عند كل مستوى. فكما أن الأذن تستطيع أن تسمع اهتزازات ضمن رتبة معينة فقط، والعين تستطيع أن ترى وهي تستجيب لاهتزازات ضمن رتبة معينة، كذلك يستجيب نموذج كل ذرة في المستويات المختلفة لاهتزازات ضمن رتبة معينة. وهذا هو القصد الذي، في سبيله، يستطيع الإنسان، باهتزازات جسده العديدة، أن يطور نفسه ليعمل على أي مستوى مع الجسد المماثل والمطابق. ففي كل ذرة على المستوى الفيزيقي، توجد كمونات، هي وجودات بالقوة، تستجيب للمعالم الثلاثة للوعي وهي الإرادة، والحكمة والفعالية في كل مستوى. وهكذا، تتشكل مستويات التطور الخمسة وذلك بختم قدرة مادة كل مستوى.

في ما يلي ندرس المستويات الخمسة التي تشكل الحقل التطوري.

أولاً ـ العالم الفيزيقي:

ذكرنا سابقاً أن آلاف آلاف الأكوان قد تشكلت بالكلمة Logos، فكانت ظهوراً لها وتجلياً لجوهر الحقيقة السامية. ووصفنا كيف تم تشكيل مادة المستوى الأقصى والذرة النهائية. ففي الروح ـ المادة، تتضمن جميع الكمونات، أي الوجودات بالقوة. وفي تغليف كيانها في المادة، عينت الحقيقة السامية ذاتها وشخصت وجودها: فهي محايثة في كل ذرة، ومنبثة في الكل، وحاضرة في كل شيء؛ وكل شيء يوجد فيها. وبظهورها، أي بكشف ذاتها، تشكل نسيج الكون، لتكون الحياة والشكل قطبي الطبيعة... إنها القدرة الداخلية التي تقود دفة الحياة، وتضبطها وتديرها.

رأينا كيف تشكلت الذرات النهائية التي تتألف منها المادة الفيزيقية. فقد تماثلت الأشكال السبعة والمستويات الفرعية التحتية في الجوامد، والسوائل، والغازات، وفي أشكال الأثير الأربعة التي تتنوع بالكثافة. وفي هذا النطاق، حدث تنوع كبير للمواد في الممالك المعدنية والنباتية والحيوانية. وفي الشكل الرابع للأثير، وهو الأكثر ندرة، يتقلص كل عنصر مشكِّل للمادة إلى مادة فيزيقية نهائية. ومع ذلك، تظل بنية هذا الشكل هي ذاتها بالنسبة لكل عنصر. والحق أن تنوّع أكثر من مئة عنصر ينتج من تنوّع الطرق التي تتحد فيها الذرات النهائية. لذا، يتألف القسم الفرعي السابع للمادة الفيزيقية من ذرات متجانسة، في الوقت الذي تكون الأقسام الفرعية الأخرى اتحادات فرعية أو معقدة على نحو عناصر أو مركّبات. وليس المستوى غير نطاق توجد فيه الروح ـ المادة على نحو جملة خاصة من الذرات. ولما كنّا قد وصفنا الأغطية أو الأغلفة في ذرة كل مستوى، فقد علمنا أن المستوى هو نظام التقسيم في الطبيعة، وهو، بالإضافة إلى ذلك، مثال متافيزيائي يشير إلى حقيقة العقل. وعلى الرغم من وجود ثبات للشكل في الملكة المعدنية، لكنه يظل غير مستقر على نحو تدريجي. ويكون التوازن في مكونات الجسد الإنساني أقل استقراراً.

يتألف الجسد الإنساني الفيزيقي من قسمين: قسم كثيف مؤلف من جوامد وسوائل وغازات، وقسم أثيري رقيق ولطيف له لون بنفسجي أو أزرق يتألف، بدوره، من أثير له أربع رتب يتخلل الجسد الكثيف. أما الجسد الأثيري فإنه يستخلص الطاقة من الشمس، ويوزعها بين أعضاء الجسد الفيزيقي الكثيف. ولهذا الجسد الأثيري خطوط إشعاع تبهت إذا ما وهنت الصحة. ويتمكن الإنسان من تلطيف المواد المشكلة لتصبح لطيفة، وذلك بإعادة ترتيب الذرات المركبة بعمليات تنقية. وهكذا، يُحدث الجسد تبديلاً أو تعديلاً في نسبة اهتزازه إما باستبعاد، أو بإعادة ترتيب الجزيئات التي لا تستطيع أن تنتظم ضمن الإيقاع والانسجام الجديدين. ولما كانت الطبيعة تشتمل على المواد المتنوعة، فإن كل جسم ينتقي متطلباته ومكوناته من هذه المواد الخشنة أو الدقيقة. وفي المراحل الأولى للوجود، مارست الموناد عملية الانتقاء. وفي الوقت الحاضر، يقوم عقل الإنسان بهذه العملية بوعي ذاتي. فهو ينشئ إيقاعات تحدث، بدورها، تبدلات في جسده. والحق أن تناول الطعام النقي يؤدي إلى تعديل الحركات وتوافقها. هذا، لأن الطعام النقي، والعقل النقي ووعي الحقيقة أمور تُحدث التحوّل الذي ينتج عن تعديل كامل للمكونات. وهكذا، تنبض الحياة من الداخل وتستجيب الاهتزازات من الخارج.

ثانياً ـ العالم النوراني

إلى جانب العالم الفيزيقي، يوجد العالم النوراني. وفي هذا العالم، تكون روح — مادة هذا المستوى أكثر رقة ولطافة لسبب هو أن أجزاءها الأكثر خشونة تشكل الأثير الأكثر ندرة والذرات الفيزيقية النهائية والقصوى. وفي وعينا، نستطيع أن نتصور هذا العالم على نحو يتخلّل ويغلّف نطاق العالم الفيزيقي تماماً كما يتخلّل الأثير كل شيء وهكذا، يكون العالم النوراني حاضراً في كل مكان، وبعد أن يغادر الإنسان الجسد الفيزيقي، يدخل هذا العالم النوراني. وعلى نحو عادي؛ لا يسمح لنا احتباس الروح في الجسد الفيزيقي أن نلمح هذا العالم أو نعاينه.

يتميز هذا المستوى النوراني بسبعة أقسام تحتية أو مستويات فرعية. وفي هذا المستوى، يشع كل شيء ويتصف بالشفافية، الأمر الذي يدعونا إلى تسميته بالنوراني أو بالنجمي. وتتألف موضوعات هذا المستوى من مادة نورانية وذرات ذات «قياس إلهي». وبقدرة اهتزاز محددة. وإذا شئنا أن نُطل، عبر خيالنا على المشهد الذي يتراءى لنا به هذا العالم، تصورناه شبيهاً بعالمنا الفيزيقي. هذا، لأن موضوعاته وأشياءه تُعد تكراراً لموضوعاتنا وأشيائنا. وبسبب شفافيته، يكون كل شيء فيه مرئياً من الداخل والخارج معاً. فالأشكال تبدل أطرها بسرعة لأنها مطاوعة ومرنة، وتتصف بقدرة فكرية كامنة تؤثر في عملية التشكل والتبدل.

يتعلّم الذين يتبنون الطريق الروحي، بالممارسة السرانية وتأثير القوى النفسية ـ الفيزيقية ـ أن يوسّعوا أو يمدوا وعيهم بتمامه إلى الجسم النوراني حين يغادرون سجن الجسد الفيزيقي. وقبل القيام بهذا العمل، يصبحون رائين ومرهفي السمع... وبعض أولئك يتصفون بنموهم النفسي منذ صغرهم، ويمدون وعيهم إلى العالم النوراني. وثمة آخرون يستطيعون أن يستغرقوا في أجسادهم النورانية أثناء نومهم، ويحيون في المستوى النوراني. وهنالك من يتجسّد من جديد حتى ولو كان قد أكمل وجوده الأرضي. وبالإضافة إلى هذه الأجساد النورانية كلها، توجد الأجساد النورانية لحيوانات عديدة بعد ذبحها أو موتها. وإن ما يجدر ذكره هو أن الحيوانات المذبوحة تحمل العداء للإنسانية.

في الإنسان العادي، يكون الجسد النوراني سيء التشكيل وغير منتظم. وتكون ألوانه باهتة لأنها لا تقوم بدور فعال، الأمر الذي يجعل جسده معتماً. ويتسارع نشاطه من الخارج وليس من الداخل، وذلك لأن صدمات العالم الخارجي هي التي تثير النشاط فيه. لذا، يمكن أن تتغير المواد التي تشكل الجسد النوراني للخير أو

للشر. وعلى سبيل المثال، يبدأ الإنسان في تطوير نفسه وهو يتقدم باتجاه الوعي النوراني عندما يبدأ في تنشيط نفسه بإرادته وليس برغبته. وعلى غير ذلك، يحوم الجسد النوراني العائد للإنسان العادي قرب الجسد الفيزيقي أثناء النوم أو في حالة فقدان الوعي، وتضبطه القوى أو المؤثرات الجاذبة.

في الإنسان العقلاني، يزداد حجم الجسد النوراني، وتتبدل العناصر لإحداث توازن في النوع والكيف، تماماً كما تزداد المادة إشعاعاً وإنارة فتؤدي ألوانها دورها التام نتيجة لتناقص كثافتها. وعندئذٍ، تصبح أكثر تحديداً مثل الجسد الفيزيقي، وتتخلص من اضطرابها وسوء تنظيمها، وتصبح قادرة على العمل بمعزل عن الجسد الفيزيقي. وبالإضافة إلى ذلك، تصبح حساسة جداً لتأثيرات الفكر النقي الذي يمنحها نقاءه. وفي هذه الحالة، يتميز هذا الجسد بإشعاع باهر وهالة جميلة، بحيث أنه يصبح أداة وعيه؛ وهذا يعني أن الإنسان يصبح واعياً كل الوعي. ويتأثر بالعواطف العليا السامية، ويتجاوز الرغبات والشهوات بإرادته. وينقل اهتزازات العالم النوراني إلى الدماغ. وهكذا، يصبح الإنسان كلي الحضور نتيجة لتوطيد العلاقة بين الجسدين الفيزيقي والنوراني.

تتوافق المستويات الأربعة الفرعية الدنيا للعالم النوراني مع ما ندعوه جهنماً. وتُعد جهنم مسكن الأموات الذين يرتدون طبيعتهم الحيوانية. وجهنم هذه ليست مكاناً للعذاب. إنها حالة تتمثل بعذاب العقل. وبعد الموت، يظل الإنسان في جسده الأثيري ستاً وثلاثين ساعة تقريباً لينسحب بعدها من جسده الذي يتداعى بعد أن يحوم حول القبر. وعندئذٍ، يعاني الجسد النوراني من التغيير الذي حصل، فيعيد تنظيم ذاته. ويكون هذا التنظيم على شاكلة أغلفة تتركز أكثر فأكثر، وتتدرج بالكثافة حتى تبلغ اللطافة في المركز. وفي حالة الإنسان الروحاني، تُستخلص مكونات الأغلفة من الرتبة الأكثر لطافة، الأمر الذي يسمح له بالاجتياز إلى العالم النوراني. وهكذا، تتنوع الإقامة في هذا العالم؛ ويحتمل أن تدوم قروناً في حال الإنسان العادي الذي تسيطر عليه انفعالاته الدونية. وفي المستوى النوراني الفرعي الأدنى، توجد أرواح أكثر الناس انحطاطاً ودناءة كالقتلة، واللاأخلاقيين، والمجرميين، والسكارى، والمستغلين، والطامعين، والمتكبرين والمتعصبين وأمثالهم... إنهم أغرقوا أنفسهم برغبات وشهوات لا تشبع، وملأوا عقولهم بالكراهية، والتعصب من أي نوع كان وضيق الأفق. لذا، يتوجب عليهم أن يتعلموا قانون الطبيعة الذي لم يسعوا إلى تعلمه وهم يعيشون حياتهم الأرضية. أما المستوى الفرعي الثاني، فإنه أكثر التصاقاً بالعالم

الفيزيقي. وتكون الأرواح الموجودة فيه حبيسة مصالحها الأرضية.

يتساوى المستوى الفرعي السادس. المدعو سماء. مع المستوى النوراني الخامس. وفي هذا المستوى، تتحقق تطلعات الإنسان نتيجة للقدرة الإبداعية والتصويرية التي تتميز بها المادة النورانية. وبالإضافة إلى ذلك. تتشكل في هذا المستوى اجتماعات تتميز بقيمها الروحية والدينية الراقية... والحق، أن هذا المستوى الفرعي السادس لا يختلف عن المستوى الخامس إلا بمادة أكثر صفاء. وتسكن هذا المستوى الأرواح التي تبدع طاقاتها العقلية على المستوى الأرضي. وفي هذا المستوى، تصنعُ أفكار ساكنيه كل ما تريده، وتصوغ إرادتها كما تشاء. وهكذا، يتابع عقلانيو وحكماء هذا المستوى بحوثهم، ودراساتهم التي أجروها قبل وفاتهم.

تنفك قيود العالم النوراني عاجلاً أم آجلاً، وذلك لأن الروح لا تظل خاضعة لواقعها الأرضي، بل تصبح واعية في المستوى الثاني الأعلى. وعندئذٍ. ينحل الغلاف النوراني تماماً كما ينحل الجسد الفيزيقي. وتمتزج المواد المتحررة بالمادة النورانية العائدة لهذا العالم. وتُحدث صلوات الأعزاء الباقين على الأرض اهتزازات، شبيهة بالتأثيرات الفكرية، تؤثر في المادة النورانية. وعندما توجَّه هذه الاهتزازات إلى الروح المفارقة، تنفذ إلى الجسد النوراني، وتسرع في انحلاله من أجل انعتاقه وتحرره. هذا، لأن الأفكار الهادئة، المطمئنة والمُحبة تساعد الأرواح المفارقة على التحرر من قيودها.

ثالثاً ـ العالم العقلي

يتمثل هذا العالم بعالم الفكر. ومع ذلك، يختلف عن فعل العقل المحقق في العالم المادي... هذا هو العالم الحقيقي الذي يحياه الإنسان المفكر. فالأفكار، في هذا العالم، تكون صوراً لا كلمات. والوعي الفكري يعمل ككيان للذات المغلَّفة في المادة العقلية، ويكون أكثر لطافة من المادة النورانية. لذا، تفعل قوى الحياة بشدة أعظم ونشاط أكبر عندما تكون المادة العقلية لطيفة جداً.

تتصف المادة العقلية بمرونة أكبر، وتتأثر بكل اهتزاز عاطفي. هذا، لأنها تحيا في حركة دائمة ومستمرة. وتدعى هذه المادة «العقل ـ المادة»، وذلك لأن العقل مادة نادرة. ويتفرع العالم العقلي إلى مستويات سبعة فرعية، تتبدل مادتها إذ تتدرج بكثافة تقارن بالجوامد، والسوائل، والغازات، والأثيرات الأربعة. فالمستوى الفرعي الأعلى يتألف من ذرات عقلية مطلقة، سبق ووصفنا مكوناتها. والأقسام الأولية الدنيا

تتميز بشكل؛ أما الثلاثة العليا الأخرى فإنها تخلو من الشكل. وفي الأقسام الدنيا، تُحدث اهتزازات الوعي الشكل بحيث أنها تكون كل صورة حية. وعلى غير ذلك، تكون الاهتزازات في الأقسام العليا جداول تسيل فيها طاقة حية. والحق أن هذه الأخيرة لا تخضع لوصف كلامي، ذلك أن جمالها وإشعاعها يتجاوزان التعبير باللغة. وليس ممكناً أن نُمثل جمالها بالألوان الأرضية. وتبنى الصور الفكرية في هذا العالم من عنصر جوهر رقيق يتميز به هذا المستوى. ويعد هذا المستوى العقلي مسكن العقول الكبرى. وتتشكل الأجساد العقلية من جوهر عنصر رقيق، مشع ومضيء، تكون ألوانه كألوان قوس قزح. ويكون الاتصال بين الأرواح التي تقطن هذا المستوى لحظية، وفورية وكاملة، بحيث يكون بإمكان كل روح أن تلمس الأخرى إذا شاءت. ويحضر هذا العالم، مثل العالم النوراني، في عالمنا، ويتداخل معه ويتخلله وذلك رغم أن هذا العالم الأول يتضمن في دائرة. ولا يمتد وعينا إلى هذا العالم أو إلى العوالم السامية واللطيفة إلا بتحويل أجسادنا ونحن نتمثل القوى الإلهية المقدسة. ولما كانت هذه القوى كامنة فينا، فيتوجب علينا أن نوقظها لتفعل بنشاط. لذا، نرى أن المعلمين الكبار قد تميزوا بسلطة كبرى ليوجهوا الإنسان إلى الخير. ويلهموه العمل المفيد لتطبيق الأفكار النبيلة والسامية.

في الإنسان العادي، لا يكون الجسم العقلي نامياً، إذ يتألف من مادة أدنى المستويات الفرعية. ويظل العقل ساكناً في هذا الإنسان. ولا يتميز بالإدراك مالم تحركه الاهتزازات النورانية. ومن خلال عدة ولادات وميتات، يضاعف الإنسان المفكر مخزون مواهبه، ويصوغ جسده العقلي.

في الإنسان المتوسط، يكون الجسد العقلي أكثر انتظاماً. وتتقبل مواده إعادة التوجيه والتنظيم. فهو يتأثر باهتزازات القوى العليا. وعندما يقاوم الإنسان تأثيرات الأفكار الدنيا، فإنه يطرد من الجسد العقلي المواد الخشنة الكثيفة التي يمكن تحويلها إلى اهتزاز المودة والمحبة.

في الإنسان الروحي، تتضاءل الجزيئات الأكثر خشونة وكثافة، فلا تجد الحواس المادة التي يمكن أن تستجيب لاهتزازات دنيا. وهكذا، يتم الانتصار على ملذات الحواس. ويتألف هذا الجسد من المادة اللطيفة فقط.

يعبّر الإنسان الروحي عن نفسه على نحو أكثر كمالاً في النطاق العقلي الأدنى وفي العالمين: الفيزيقي والنوراني. وفي هذا الإطار، ينمو هذا الجسد ليصير أداة كاملة للنشاطات والفعاليات في العالم العقلي الأدنى.

نتساءل: ما هو المستوى الذي ندعوه السماء؟

بعد تحقيق كمال الحياة في القسم الأعلى من الحياة النورانية. تجتاز الروح إلى العالم العقلي لتحيا في حياة سماوية تتصف بمرحلتين:

الأولى: في الأقسام الأربعة الفرعية الدنيا من العالم العقلي. يرتدي المفكر الجسد العقلي الذي يتصف بالتعيّن والشكل. ويتمثل المواد المتراكمة والمتجمعة عبر الحياة الأرضية.

الثانية: في الأقسام الثلاثة الفرعية العليا التي تعود للعالم اللاّ متعين واللاّ شكلي، يتم الخلاص من الجسد العقلي، ويحيا المفكر حياته الخاصة في حرية مطلقة تزدهي بمعرفة ووعي ذاتيين وكليين.

تتوقف فترة الإقامة في هذا المستوى على مدى التحقيق أثناء الحياة الأرضية. هذا، لأن الأفكار الطيبة، والنوايا والعواطف الصالحة تستحق التقدير. فإذا اتجهت أفكار الإنسان أثناء حياته الأرضية إلى العالم العقلي أي إلى السماء. فإن البقاء فيها يستمر آلاف السنين. أما إذا اتجهت الأفكار إلى الملذات الدنيوية وتركزت عليها، فإن فترة التوقف في العالم العقلي تتقلص إلى حدّها الأدنى. وفي هذه السماء، يتحول ما يفكّر به الإنسان إلى شكل. ذلك أن المادة اللطيفة، في هذا العالم هي المادة العقلية. وفي هذا العالم، يحصد الإنسان ما كان قد زرعه في العالم الأرضي. لذا، تكون علاقة الروح بالروح أكثر عمقاً وقوة وذلك لانعدام الحواجز والحدود والعوائق.

على المدى الطويل، يُطرح الجسد العقلي، كأمثاله من الأجساد، وينحل. وتعود مادته إلى مادة المستوى العقلي. وفي النهاية، لا يبقى سوى الجسد العلّي، الذي يدعى الجسد ـ البذرة وذلك لأنه الجسد الدائم.

أما المستوى الفرعي السابع فلا يبلغه إلا الذين ولجوا محراب السرّانية. ويعد هذا المستوى موطن المعلمين الكبار. ومن هذا المستوى، تتدفق جداول طاقة عظمى. وفيه، توجد جذور الحياة العقلية والفكرية. لذا، يشتمل العالم العقلي على «سموات سبع». وليس الموت، في أساسه، غير ولادة إلى حياة أوسع وأعظم. وانطلاقاً إلى الوطن الحقيقي. وفي هذا المنظور، يعد الموت مجرد تبدل في الحالات الناتجة عن خلع الغلاف المادي. الأمر الذي يجعل الحياة أبدية.

في حالتها العادية، تدور عملية الحياة بين العوالم العقلية والنورانية والفيزيقية. هذا، لأن دراما الحياة مسرحية مستمرة يلعب فيها الممثل. وهو الإنسان

الحقيقي، دوراً مختلفاً كشخصية مستقلة وخاصة في غضون كل ولادة.

رابعاً ـ مستويا الغبطة والألوهة:

كُوِّن الإنسان وفق الصورة الإلهية. فهو يجسد الألوهة المنطوية والمغلقة. ولهذا، يعد الإنسان عالماً أصغر برز إلى الوجود، وتم إنشاؤه لإظهار وتجلي العالم الثلاثة. وتمثيل الكون الأكبر على المستوى الفيزيقي. ففي هذين الكونين المتماثلين، والمتطابقين والمتصلين، بتحقق القول التالي: «كما في الأعلى (الأكبر)، كذلك في الأدنى (الأصغر)».

تتمثل معالم الحياة الإلهية المتجلية في الكون الأكبر في: الكيان، الغبطة والذكاء. وتوجد هذه المعالم الثلاثة في الإنسان على نحو نظام معكوس. فإذا كان الذكاء أو الفكر ينمو في المستويات أو العوالم التي بحثناها سابقاً فإن مظهر الغبطة، الذي يأتي في الدرجة الثانية، ـ وظل غافلاً أو كامناً ـ يبدأ بإرسال اهتزازاته. وفي عالم الغبطة، توجد الثنائية. ولما كان العقل يعمل في هذا المستوى، فإن الفردية تنتهي دون تحقيق انفصال تام. أما الوحدة التامة التي تتوّجها المحبة والأخوة فليست سوى صدى باهت لهذا المستوى. أما المحبة النقية التي تخلو من الأنانية فإنها تساعد على تشكيل الجسد ـ الغبطة.

يتمثل المستوى الإلهي في الوضع الإنساني السامي للألوهة الموجودة في داخلنا. وتمثل الألوهة تاج الحالة الثالثة للكينونة وللقوى المتجلية بتمامها. ويكون هذا المستوى من نصيب أولئك الذين أكملوا التطور الإنساني وحققوا الوعي اللا نهائي ـ أولئك الذين ندعوهم معلمين. إنهم عقول خالدة، يكتملون بالمحبة والغبطة والقدرة. لذا، يصعب وصف الحياة في العوالم الروحية. ويشعر مواطنو هذا العالم بوحدة الكل، وبالمحبة الحقيقية. فهم، على الدوام، مهيأون لمنح قدرتهم لكل من يطلب العون العقلي، والنوراني والفيزيقي. وهم يرون الكل على نحو جزء لا ينفصل عن كيانهم. هذا، لأنهم حققوا الكيان الواحد الكامن والقاطن في كل شخص. وبهذا التحقيق، يحققون وحدة الحياة في تنوعها. وبالإضافة إلى ذلك، يمثلون في الكون، الذي هو تعبير عن القوى الروحية، الطاقات التي ترشد، وتوجِّه، وتصوغ، وتحيا في انبثاق وصدور دائمين. والحق، أن العالم الخامس يمثل عالم الألوهة، أي المسكن الحقيقي لروح الإنسان.

خامساً ـ مستويا الفعالية الإلهية:

يمثل هذان المستويان نطاق الفعالية الإلهية: فهما عالماها، ومنهما تصدر النطاقات والمستويات كلها. والحق أن سُبل معرفتهما ضئيلة جداً لأنهما يقعان إلى ما بعد الفكر الإنساني. وفيهما يوجد الوعي الإلهي الذي يعمل كثالوث إلهي، مبدع، حافظ وهادم ـ إنه يطور الوجودات والكينونات، ويعيدها إلى ما كانت عليه؛ ويعد الأب، الروح النقية، أول هذا الثالوث؛ ويعد الابن، وهو جزؤه أو موطن الموناد التي يتوجب عليها أن ترتدي غلافاتها وأجسادها أثناء هبوطها من مستوى إلى مستوى وذلك بواسطة التطور الهابط إلى الانغلاق أو الانطواء، ثاني هذا الثالوث. ويتوجب على الابن أن يستعيد مكانته عبر التطور الصاعد في العوالم الخمسة. ويتابع القيام بدوره في دراما الوجود. وتعد الحياة التي هي التداخل والتفاعل بين الروح والمادة، ثالث هذا الثالوث.

يشير كتاب الـ «غرانت المقدس»، وهو كتاب ديانة السيخ، إلى أن إبداع العالم يتجلى في خمسة عوالم هي:

1ـ العالم المادي.

2ـ العالمان الماديان ـ الروحيان.

3ـ العالمان الروحيان.

مراجع البحث

1- Spiritual Science.

2- The Tibetan Book of the Dead.

الفصل الثاني عشر

اليوغا ـ حقيقتها وغايتها

تشتق كلمة اليوغا، التي تعني الاتحاد، من اللغة السنسكريتية. وبقدر ما يشير مضمونها إلى انسحاب العقل وتجرده من كل الأشياء، وتركيزه على الألوهة ليتسنّم ذروة حقيقته في الاتصال والاتحاد معها، كذلك يشير أيضاً إلى تحقيق وحدة الكيان الإنساني. هذا، لأن الإنسان المنقسم على ذاته يعجز عن تحقيق هذا الاتحاد.

اليوغا علم منهجي، عملت على تنميته الحكمة القديمة في الهند وفي بلدان شرقية أخرى، وذلك بالبحث الدؤوب في نطاق العقل، والكشف عن الوعي. ويعود فضل تجميع المعلومات المتعلقة بهذا المنهج إلى باتنجالي، الحكيم الهندي، واضع كتاب يوغاشاسترا الذي يعتبر واحداً من أهم المؤلفات الهندوسية القديمة.

تتمثل اليوغا في مفاهيمها الخمسة الرئيسة التالية:

1ـ هاثا يوغا ـ ترتبط مباشرة بالجسد الفيزيقي، بضبطه، بتنظيمه، بصحته والمحافظة عليه... إلخ، وتشتمل هذه اليوغا، بالدرجة الأولى، على الممارسات الجسدية.

2ـ راجا يوغا ـ ترتبط بعملية السيطرة على العقل، وتنمية مواهبه، والإفصاح أو الكشف عن الوعي.

3ـ كارما يوغا ـ ترتبط بالعمل أو الفعل المجرد من نتائجه، وبالقيام بالواجب. وتعد الصلاة التأملية السبيل المؤدي إلى نقاء القلب وصفاء العقل.

4ـ باكتي يوغا ـ ترتبط بمحبة الحقيقة السامية والإنسان. هذا، لأن المحبة تتسامى على كل الحواجز والعوائق. وتدعو هذه اليوغا إلى تحقيق اليقظة الروحية المتكاملة في التوحيد.

5ـ جنانا يوغا أو يوغا الحكمة ـ ترتبط بالفهم العلمي والعقلي لمعضلة الحياة في

الكون.

على الرغم من أن اليوغا المتكاملة بمفاهيمها أو بفروعها الرئيسة تشكل الطريق الحقيقي. لكن الناس يتبعون فروعها المختلفة التي تتلاءم مع اختلافاتهم ذاتها.

يعتبر كل فرع من فروع اليوغا طريقاً يؤدي إلى غاية واحدة ومصير واحد. وتوجد طرق أربعة رئيسة تنضوي تحت العناوين التالية:

أولاً ـ كارما يوغا:

يشتق مصطلح كارما يوغا من الجذر السنسكريتي KRI الذي يعني «الفعل». لذا، يشير هذا المصطلح إلى «الفعل» أو «معلول الفعل».. ولما كان الفعل حصيلة الفكر. فإن معلول الأفعال يتوافق مع الأفكار. وعلى هذا الأساس. يستند الفعل إلى العلة والمعلول. ويمثل قضية الحياة: هنالك الأناني الذي يزهو بعمله، وهنالك النقي الذي يتألم. ويعد هذا الزهو أو الألم معلول أفعالهما الماضية. وبالطبع، ليس ثمة ما يقال عن العقاب. فنحن نحصد ما كنا قد زرعناه. لذا، تؤدي التعلقات والرغبات إلى الإحساس بالألم السلبي والمعاناة. وتتلخص وسيلة النجاة الوحيدة في العمل من أجل العمل وحده دون أن يتوقع الإنسان مكافأة. ففي آلية الحياة، يشكل كل إنسان جزءاً من الكل. وبالتالي يتوجب عليه أن يعمل حتى تظل الآلية منتظمة. هذا، لأن مصلحة كل إنسان أو منفعته مرتبطة بمصلحة كل إنسان ومنفعته. وهذا يعني ارتباطه بالجنس البشري كله. وهكذا، لا توجد كارما فردية بل توجد كارما جماعية: كارما القرية، كارما المدينة، كارما الدولة، كارما العالم. وهكذا، يشعر أبناء العالم بعضهم مع بعض. ويعمل بعضهم مع بعض. إذن، فعظمة العمل لا تكمن في الاهتمام بالنتائج بل بوضع الواجبات موضع التنفيذ. والسعادة تنبثق من الداخل وليس من الخارج، وتكون نتيجة للعمل المُنجز. لذا، يعد التجرد أو عدم التعلق مفتاح الولوج إلى محراب السعادة والغبطة. وبالفعل، يتوجب على الإنسان أن يحقق كارماه، أي فعله وواجبه، قبل أن يحقق الألوهة.

في مايلي، نقرأ «الأنشودة السماوية» التي تحدثنا عن قيمة العمل وأهميته:

لا ينجو إنسان من العمل

بمجرد تجنبه والامتناع عنه

ولا يحقق الناس الكمال

بمجرد الرفض

ولا يوجد من كان، في وقت من الأوقات،

بدون عمل؛ فقانون طبيعته

يلزمه على العمل حتى ولو أعرض عنه

لما كان الفكر هو العمل في مجال التصوّر، فإن من يقبع في زاوية أناه، وهو يستغل وظائف جسده كلها، ويظل متعلقاً بها، يقوم بدور التافه الأناني:

الإنسان الشريف والنبيل هو

من كان بجسده القوي، الذي يخدم العقل،

يُخضع قدراته الآنية للفعل القيّم والدؤوب،

ويُسقط الكسب من حسابه.

قم بواجبك الذي عُين لك أو عينته لنفسك.

هذا، لأن العمل أعظم من البطالة والخمول.

وحياة الإنسان لا تستمر إن كان العمل ينقصها.

عليك أن تمارس واجب القداسة في كماله.

والحق، أن كمال العمل الدنيوي يحرر الإنسان من الرغبة،

ويساعده على تحقيق الغاية المرجوة في السماء.

ثانياً ـ باكتي يوغا

يحقق كل من طور طبيعته الروحية الاتحاد مع الحقيقة السامية بالمحبة، هذا ـ لأن المحبة قانون كوني يمهّد الطريق لمعرفة الحقيقة السامية. فهي تتضمن في كل تصور ممكن عن الألوهة، اللاّ مشخصة واللاّ موصوفة بشكل. ففعل المحبة يفتح قلب الإنسان ويرشده إلى المحبة الإلهية. ومع أن الحقيقة السامية ليست شكلاً، لكن المحبة الإلهية تحل في قلب الإنسان وشعوره وتصوره، إن كان أباً أو أماً، أو طفلاً ـ أو صديقاً، أو أخاً أو حبيباً.

بقدر ما تتعزز محبة الإنسان للحقيقة السامية، يتعزز تصوره لتمثل المطلق والاتحاد به. والحق أن محبة الإنسان أو محبة الحقيقة السامية لا تتحقق بالكلام بل بالخدمة والتضحية.

ثالثاً ـ جنانا يوغا:

يشتق هـذا المصطلح مـن الجـذر السنسـكريتي GNA الـذي يعـني «المعرفـة». ويتناسـب هـذا النهـج المعـرفي مـع المفكريـن لسـبب هـو أن المعرفـة تتصـل بالفلسـفة والمتافيزياء اتصالاً وثيقاً. وتتمثل قضاياها الرئيسية في التساؤلات التالية: ما الغاية من الحياة؟ من أين أتينا؟ ما مصيرنا؟ لذا، يلتزم الإنسان بالبحث عـن الحقيقـة في عـالم الداخل وليس في عالم الخارج... ومع ذلك، يصعب علـى الإنسـان أن يفهـم سـرانية الحياة مالم يكن ماثلاً في وسط نور الحياة. فلكي يفهم الحـق، يتوجـب علـى العقـل الإنساني أن يلتزم بالحياة في نوره الداخلي، ويتجنب التعاليم المنهجية الـتي تنـادي بها الديانات المغلقة التي تعتمد الشريعة، وتحتجز العقل وتقيـده. ولاشـك، أن هـذه التعاليم المنهجية تؤدي إلى رفض المبادئ البشرية المنفتحـة ومحاربتهـا. لـذا، يتمثـل التعليم الرئيسي الذي تبشر به جنانا يوغا في أن كـل مـا نـراه ليس إلا صـدوراً عـن الحقيقة السامية وتجلياً لها، وأن الحقيقة السامية تتجاوز التصور البشـري. ويتمثـل التصور الرئيسي في هـذه اليوغـا في أن الحقيقـة السـامية موجـودة في الكـل. وهكـذا، تنطلق جنانا يوغا من الفرضية التي تشير إلى أن «المطلق يكون»؛ وبالتالي، لا يستطيع أحد من الناس الإجابة عن «لـماذا» المطلـق، وذلـك لأن المطلـق ذاتـه، ولا أحـد آخـر يجيب عن هذا السؤال. وإن ما يستطيع الإنسان فعله، في هذه الحالة، هو معرفة أن كل شيء قد وُجد في سبيل غبطة الوجود. وبالفعل، تتسامى الحقيقيـة السـامية، أي المطلق على النسبية القائمة في الوجود. ولهذا السبب، توجد الحقيقة السامية مجـردة من العلة، وتكون، في ذاتها، «العلـة الـتي لا علـة لهـا». ويتمثـل التصـور الثـاني في جنانا يوغا في أن المطلق، أو الحقيقة السامية، تحيا في ثلاثية كيانها ووجودها: هـي 1ـ قدرة كلية. 2ـ معرفة كلية. 3ـ حضور كلي. إنها كلية القدرة، كلية المعرفة وكليـة الحضور، ووجودها يملأ كل مكان. وتكشف الحقيقة السامية أي المطلقة، عن ذاتها، بل تتجلى، في أشكال ثلاثة: المادة، الطاقة والعقل.

يمكننا أن نقول: إن صفة الحضور الكلي تتمثل في المادة، وصفة القـدرة الكليـة تتمثل في الطاقة وصفة المعرفـة الكليـة تتمثـل في العقـل. ومـع ذلـك، لا يمكـن لهـذه الظهورات أو التجليات أن تشترك بهوية واحدة، أو تتماثل، مع المطلق أي الحقيقـة السامية. وإن ما نستطيع أن نفعله، ينحصر في نطـاق التفكـير بهـا مـن خـلال أحـد أقانيمها الثلاثة. وإذ تتطور روح الإنسان، تبـدأ بالمشـاركة في ثلاثيـة الكيـان بنسـبة متزايدة. وعندئذٍ، يتماثل الإنسان، وهو صدور أو تجلٍ للمطلق، مع كل وجود آخـر،

حيٍّ أو غير حيّ. هذا، لأن كل شيء ينبض بالحياة، والطاقة، والعقل؛ وكل شيء يوجد كمعلول شعاعه ونوره. ويعي الإنسان الحياة في كل شيء متى بدأ الضابط الداخلي بالفعل في الإنسان الذي يبغي الاتحاد مع الحقيقة.

ولن تبقى هذه الحياة في نظره مجرد نظرية. وإذ يرى في ذاته كل شيء، ويرى كل شيء في ذاته، يسمو إلى وعي الاتحاد مع المطلق الذي يتجاوز الزمان والمكان. ولقد كان رادنهاوزن على حق عندما قال: إلى ما بعد حدود العقل البشري، لا يوجد زمان ومكان: فهما تصوّران اصطلاحيان واتفاقيان أحدثهما الإنسان. وتوصل إليهما بمقارنة وترتيب الانطباعات المختلفة والمتنوعة التي تلقّاها من العالم الخارجي.

هذا، لأن تصور المكان ينشأ من تتابع واستمرارية الأشكال المتنوعة التي تملأ المكان؛ ومن خلالها، يظهر العالم الخارجي للإنسان الفرد. وبالمثل، ينشأ تصوّر الزمان من تتابع واستمرارية الأشكال العديدة التي تتبدل في المكان وتتحرك فيه. ومن خلالها، يؤثر العالم الخارجي في الإنسان الفرد. وإذا شئنا الوضوح، نقول: لا يوجد تمييز بين امتلاء المكان وتحوّل أو تبدل المكان، وذلك لأن كلاً منهما يستغرق ذاته في استحالة مستمرة. فما يكون، يملأ ويتبدل في آن واحد ـ إذ لا شيء يبقى ساكناً.

هكذا، تكون كينونة الكائن الأسمى ــ المطلق، أي الحقيقة السامية ــ المبدأ الأساسي في اليوغا. وتتجلّى فعالية هذا المطلق في مظهرين: أ ـ الخالق المبدع؛ ب ــ الأم، أي المادة الأولية اللاّ متعيّنة التي تدعم كل ظهور أو كشف أو تجلٍ.

تتميز قوى المادة الأولية بالصفات الثلاث التي تشكلها أو تكوّنها. ومتى تعادلت هذه القوى، يحدث كشف الكون وتجلّيه. وقد عبّرت الحكمة الهندوسية عن هذه الصفات بالاصطلاحات التالية:

أ ـ تاماس. ويعني العطالة والظلمة. إنها حجاب يُخفي الوعي.

ب ـ راجاس، ويعني الفعالية والنشاط ووفرة الرغبة.

ج ــ ساتفا، ويعني النقاء، السكينة، العقل المتزن، الإيقاع والانسجام والتوازن. وتمثل هذه الصفة الأخيرة الصعود الذي يشير إلى يقظة الوعي. وفي هذا المنظور، يمكننا أن نقول: ليس ثمة ما يؤدي إلى الطريق الحقيقي غير اليوغا المتكاملة التي تشير إلى وحدة الطرق الأربعة، أو الفروع الأربعة؛ فهي تتداخل، وتعتمد الواحدة منها على الأخرى.

رابعاً ـ راجا يوغا:

تشتمل هذه اليوغا على المراحل الثمانية التي تشدد على تركيز العقـل وضبطـه بالممارسات التالية:

أولاً ـ توازن النفس:

يشتمل ضبط النفس على عشر نقاط يحقق تطبيقها السلوك المتزن:

أ ـ عدم إيقاع الأذى بالآخرين.

ب ـ قول الحق.

ج ـ عدم الاشتهاء.

د ـ العفة.

هـ ـ التحمّل.

و ـ الصبر.

ز ـ الرقة.

ح ـ التواضع.

ط ـ الامتناع عن تناول الأطعمة المثيرة.

ي ـ النظافة.

ثانياً ـ الضبط والتنظيم:

يشتمل التنظيم والضبط على عشر نقاط تصلح لحياة إنسانية سامية:

آ ـ ضبط الانفعالات.

ب ـ القناعة.

ج ـ الإيمان الناتج عن المعرفة.

د ـ مساعدة الآخرين.

ه ـ الصلاة الفكرية والتأملية.

و ـ قراءة كتب الحكمة، والإصغاء المركز إلى توجيه الحكماء وإرشادهم.

ز ـ التراجع عن الأخطاء، وفعل الندامة.

ح ـ الثبات في فعل الأعمال الصالحة.

ط ـ التعمق في تأمل مضمون الكتب المقدسة وحكمتها.

ي ـ التضحية.

ثالثاً ـ أوضاع الجلوس:

يؤكد الحكماء على أن أوضاع الجلوس تطوّر وتنّمي العمليات النفسية ـ الجسدية، التي تؤدي إلى جذب القوة الإلهية أو الحصول عليها من فوق، وإلى سيلان القوة الإلهية من الأسفل عبر القناة غير المرئية، الموجودة في العمود الفقري.

رابعاً ـ ضبط التنفّس:

تشير الغاية من هذه العملية إلى تحقيق إيقاع في التنفّس يؤدي إلى سيلان إيقاعي للبرانا الذي يؤدي، بدوره، إلى ضبط العقل. وتؤكد الدراسة السّرانية وجود أربعة وثمانين نسمة في الجسد. وتنقسم هذه النسمات إلى خمس رتب رئيسية:

آ ـ البرانا ـ تشمل عملية استنشاق الهواء الداخل إلى الرئتين، في المنطقة الواقعة بين الأنف والحجاب الحاجز.

ب ـ أبانا ـ تشمل الهواء، أي عملية التنفس الخارج من منطقة البطن. ويتحرك هذا الهواء باتجاه الأسفل في الأوردة، ويخرج من فتحة الشرج.

ج ـ سامانا ـ تشمل الهواء الذي يعمل على تشغيل أعضاء الجهاز الهضمي في منطقة السرة.

د ـ أودانا ـ تشمل الهواء الذي يصعد داخل الحنجرة، في المنطقة التي تقع فوق الأنف.

هـ ـ فايانا ـ تشمل الهواء المنبث في الجسد كله، ودفعه في الأوعية الدموية.

يستطيع الإنسان، بعد القيام بممارسات مناسبة، أن يشعر بالهواء الحيوي الذي يرتفع من القدمين ويصعد إلى قمة الرأس. ويعد ضبط التنفس ضرورياً للمحافظة على هذه النسمات الخمس ـ الهواءات ـ في توازن منسجم. وتقوم برانا وأبانا بالقسط الأكبر من العملية. وعندما يتأسس الانسجام بين برانا وأبانا، ينتج الكمال الذي هو حصيلة تحركات إيقاعية في البرانا، أي الحياة ـ القوة (قوة الحياة).

يعترف معلمو الحكمة بوجود اثنين وسبعين ألف من الأعصاب الدقيقة في الجسد. ويتحدثون عن وجود جذرها الرئيسي في منطقة السرّة. وتوجد خمسة أعصاب هامة تقع في الجانب الأيمن من الجسد وخمسة أعصاب هامة أخرى تقع في

جانبه الأيسر. وتتميز ثلاثة من هذه الأعصاب بالأهمية. ولما كانت الأعصاب الخمسة تقع في جانبي العمود الفقري. وتقع الثلاثة المميزة في العمود الفقري ذاته، فإن الغاية من ضبط التنفس تتحقق بفتح القناة المغلقة في العمود الفقري وذلك لكي تسيل البرانا عبر هذه القناة التي ستفتح، بدورها: القناة التي تؤدي إلى الغبطة. (راجع فصل شجرة الحياة).

خامساً ـ براناياهار

يعني هذا المصطلح انسحاب أعضاء الحواس من موضوعاتها. ويكون هذا الانسحاب شبيهاً بالسلحفاة التي تسحب أرجلها إلى داخل صدفتها.

سادساً ـ دهارما

يعني هذا المصطلح إيقاف البرانا في مركز معين لبعض الوقت، وذلك بالتركيز على منطقة. ويؤدي هذا التركيز إلى تحقيق الكمال.

سابعاً ـ ديان

تعني هذه الكلمة التركيز التام والتأمل في الألوهة. ويتحقق الاستغراق الكامل بعد توقف التيارات الفكرية.

ثامناً ـ سامادهي

هي الاستغراق الروحي الكامل الذي، من خلاله، تتحد الروح الفردية مع الروح الكلية. وفي هذا الاستغراق، يصبح كل من المتأمِّل والمتأمَّل به واحداً. ويتميز هذا الاستغراق بشعور يبلغ أقصاه في غبطة عليا. ويتحقق هذا الاستغراق ـــ الغبطة على صعيدين:

أولهما: تظل بذرة العقل فاعلة. ثانيهما: تنعدم هذه البذرة، وتنتهي فعالية العقل. وهكذا، تعترف اليوغا بوجود نوعين من الاستغراق العميق المؤدي إلى النشوة الروحية المعبّر عنها بالغبطة.

يساعد التركيز في قمة الجسد الأثيري، وهو المكان الذي يشكل عتبة المستوى النوراني، المتأمل على الإصغاء إلى الصدى الآتي من فوق. وبالممارسة، يدخل المتأمل العالم المادي ـ الروحي، ويسمع الموسيقى العذبة التي تتدرج ضمن عشرة أنواع، ويستلهم المعارف والمعلومات الهامة.

مراكز الطاقة

تتابع دراما الحياة تطورها نتيجة للشعاع الإلهي الذي يفعل من خلال مراكز سبعة للطاقة في الجسد الفيزيقي. وتدعى هذه المراكز شاكرا أو عجلات، وذلك لأن الحركة الدائرية تنتج عن الطاقة التي تتأصل في الحياة. وكما ذكرنا في فصل «الإنسان وأجساده»، تمتص الشاكرا الحياة ـ الطاقة (طاقة الحياة) في الجسد الأثيري الذي يغذي مراكز الطاقة في الجسد المادي. لذا، يدعى الجسد الأثيري الجسد الحيوي. وذلك لأن خيط الحياة يمتد بطول الجسد الأثيري المرتبط بالجسد المادي، ويجهزه بالحياة والقوة. وبالإضافة إلى هذا، تعتبر مراكز الطاقة السبعة، التي سنأتي على ذكرها، مراكز الوعي. وذلك لأن ظهورها أو تجلّيها يحدث بفعل القوى وفعاليتها في هذه المراكز.

أ ـ مركز أو ضفيرة الحوض:

توجد قاعدة هذه الضفيرة في أسفل الجسد بين فتحة الشرج والعضو التناسلي. وتشبّه هذه الضفيرة بزهرة اللوتس ذات التويجات الأربع. ويتميز النور الذي يُشاهَد في هذه الضفيرة بالحمرة. وتمثل هذه الضفيرة عنصر الأرض أو التراب. وتُختزن القوة الكونية الكامنة تماماً فوق هذه الضفيرة. ومتى تم تنشيط هذه الضفيرة تنشيطاً كاملاً، يتغلب الإنسان على عنصر الأرض ـ التراب، ويسمو إلى مستوى أعلى. بمعنى أنه يتجاوز مؤثرات الأمور المادية. وهكذا، تنشط فيه إرادة القوة، وتزداد فعاليتها.

ولما كانت عملية تطوير وتنمية الوعي والكشف عنه قابلة للحدوث، فإن امتصاص الطاقة الإلهية الهابطة بكاملها يتم في هذه الضفيرة. وهكذا، تعد هذه الضفيرة خزان القدرة الإلهية.

ب ـ الضفيرة الخشلية:

توجد هذه الضفيرة، أو المركز، بين السرّة والعانة. وتقع عند قاعدة هذه المنطقة. أي خشلة البطن؛ وتُعرف بأنها مركز طاقة الانشراح. وتتمثل بزهرة اللوتس ذات التويجات الست. وتُعرف أيضاً بأنها مركز المبدأ الخالق. وتمثل هذه الضفيرة القدرة الخالقة والمبدعة. ويتصف نورها بالصفرة. وتعد قاعدة عنصر الماء.

ج ـ الضفيرة الشمسية:

تُعرف بأنها منطقة السرّة. وتشكل هذه الضفيرة الأصل الفاعل في غالبية القوى. والحق أن غالبية الشرايين تحمل الطاقة المغذية من هذا المركز إلى أنحاء الجسد العديدة. لذا، تمثل هذه الضفيرة القدرة المغذية والدّاعمة، والموضع الإلهي الذي يدعم العالم. وتتمثل بزهرة اللوتس ذات التويجات الثمانية. ويميل لون هذه الضفيرة إلى الزرقة. وتكون مركز عنصر النار.

د ـ الضفيرة القلبية:

تعتبر هذه الضفيرة المركز اللطيف، الواقع في منطقة القلب. وتتمثل بزهرة اللوتس ذات التويجات الاثني عشر التي تمثل القدرة الهادمة. ويضبط هذا المركز الطاقة التي يُستفاد منها في عملية التنفس على نحو خاص، والبرانا على نحو عام. ويميل لونها إلى البياض. وتعد قاعدة عنصر الهواء.

هـ ـ الضفيرة البلعومية:

تقع في منطقة الحنجرة، وتعتبر قاعدة عنصر الأثير، والموضع الذي تستغرق فيه الطبيعة. وتدعم المراكز الثلاثة الأدنى هذا المركز.

و ـ الضفيرة العقلية:

تقع بين الحاجبين عند بدء الأنف. وتتمثل بزهرة لوتس ذات تويجين. وتعد مركز العقل.

ز ـ الدماغ:

يعد الدماغ ضفيرة الأعصاب المؤلفة من ألف فرع؛ ويمثل الوضع الذي تقوم فيه آلاف القوى بدورها. وبالإضافة إلى ذلك، يعتبر قاعدة الألوهة. وفي هذه الضفيرة، يتحد الإله مع الإلهة لتبلغ اليوغا ذروتها عندما تصل القدرة المنبثقة من ضفيرة الحوض إلى هذا المكان.

لا يتحقق احتمال الكشف عن الوعي الذي يدرك العالم الفيزيقي إلا بإحياء مراكز الطاقة السبعة. ولا شك، أن هذه المراكز تعتمد التقسيم الذي ذكرته الدراسات الروحية الشرقية. وعلى الرغم من أن مركز الطاقة السادس، الذي يقع عند أسفل الدماغ هام جداً، لكن الغدة الصنوبرية التي تقع فوقه، وتمثل العين الثالثة وهي في حالة كمون، هامة بالقدر ذاته. لذا، يتوجب على الإنسان أن يحرر الروح من هذا

المركز لكي تنعتق وذلك لأن هذه الغدة تمثل الغدة الأكثر خشونة، وتستوجب التحرير والانعتاق لكي تخرج البرانا من الفتحة القائمة في الدماغ، وتصعد إلى مستويات لطيفة ورقيقة. أما التلاموس فهو المركز الذي يقع خلف مركز الجبهة. ويتطلب هذا المركز الإحياء والتنشيط للوصول إلى الوعي النوراني. وتقع الغدة النخامية الهامة للجسم الفيزيقي قليلاً إلى ما بعد التلاموس على المستوى ذاته.

من الأهمية بمكان أن نذكر أن مراكز الطاقة اللطيفة، التي لا يمكن اكتشافها من الوجهة الفيزيقية، ترتبط، نوعاً ما، بالغدد الصم التي تعتبر على غاية كبرى من الأهمية من الوجهة العلمية. فالغدة الصنبورية، التي تقع في الأعلى، ترتبط بمركز الطاقة الأعلى، أي ضفيرة الأعصاب؛ وترتبط الغدة النخامية والتلاموس بمركز الطاقة الذي هو المركز الأعلى، أي المركز الذي يقع بين الحاجبين. وترتبط الغدة الدرقية بالضفيرة البلعومية؛ ويرتبط البانكرياس بالضفيرة القلبية. وترتبط غدة ما فوق الكلية بضفيرة السرّة..إلخ. ولما كان الوعي يمتد إلى مراكز الطاقة الأربعة الأدنى، ويصعد إلى القلب، فإن علم الطب قد تقدم إلى درجة جعلته ينقّب عن خفايا الغدد وإفرازاتها وصولاً إلى المركز القلبي فقط. لذا، لا يعرف علم الطب سوى القليل عن الغدد التي ترتبط بمراكز الطاقة الثلاثة العليا، الأمر الذي دعا علم الطب الحديث إلى إجراء بحوث في مجال العلم الفيزيقي ليكشف النقاب عن أسرارها. أما حكماء الماضي فقد اكتشفوا بعض الممارسات التي تسرع عملية فتح مراكز الطاقة لتحرير الطاقة الكامنة فيها.

ذكر أولئك الحكماء أن العناصر السبعة مركزة في مراكز الطاقة السبعة مع وجود الأرض الصلبة الكثيفة في الأسفل. وفي رأيهم، أن «الكلمة ـ اللوغوس» قد مثّلت الخليقة كلها مكوّنة بالميكروكوزم والماكروكوزم. لذا، تكون «الكلمة ـ اللوغوس» القوى السبع الممتدة من الأكثر كثافة إلى الأكثر لطافة. وعلى هذا الأساس، كانت عناصر «الكلمة ـ اللوغوس» تمثل الأشكال الأربعة للأثير. وبالمثل، تمثل مراكز الطاقة مراحل التحقيق السبع. وفي سبيل تحقيق عنصر الأرض ـ التراب، يستعين الممارس بالأنف، هادفاً إلى ضبط التنفس. وفي سبيل تحقيق عنصر الماء، يلجأ إلى اللسان لتحقيق هذا الأمر، ووضع العقل في موضع التأمل في الحقيقة السامية. وفي سبيل تحقيق عنصر الهواء، يلجأ إلى العينين لتركيزهما على مركز الجبين.

وفي سبيل تحقيق ضفيرة القلب، يتوجب على المرء زيادة حساسية الجلد. وفي سبيل تحقيق الضفيرة البلعومية، يتوجب الاستفادة من الأذنين. وفي سبيل تحقيق

الضفيرة العقلية. يتم الاعتماد على التنفس في حالتي الشهيق والزفير. أما المرحلة الأخيرة لتحقيق البنية الروحية والاتحاد مع الحقيقة السامية، فإنها تكتمل بالتركيز الدائم على الضفيرة العقلية، أي على وسط الجمجمة.

ح ـ الطاقة الكونية

يعد الصعود من مراكز الطاقة الأدنى إلى مراكز الطاقة الأعلى هاماً وضرورياً لتحقيق الألوهة. والحق أن هذا الصعود لا يكتمل إلا بإيقاظ القدرة الكامنة في الأسفل. والواقعة فوق ضفيرة الحوض. فكما أنه توجد قدرة هائلة تدعى القدرة الذرية، تكون صغيرة جداً ولا تشاهد لدرجة أن ألف ذرة تغطي رأس إبرة، وكما تنعتق الطاقة نتيجة لانشطار الذرة، كذلك توجد، في كل فرد، طاقة تعادل الطاقة الكونية بكاملها. وتكون في حالة كمون عند قاعدة العمود الفقري. وتدعى هذه الطاقة «كونداليني». وتكمن هذه الطاقة ملتفة على ذاتها وهي تسدّ فوّهة سوشومنا، أي القناة الفارغة في العمود الفقري. وعندما يفك الإنسان عقدة هذه الطاقة الملتفة ويوقظها، تتحرك إلى الأعلى على نحو لولبي على طول العمود الفقري.

يمكننا أن نقول: تتمثل غاية اليوغا في إيقاظ هذه القدرة أو الطاقة الواعية واللطيفة، وتحويلها من حالة الكمون إلى الفعالية الديناميكية. وفي بادئ الأمر. تكون هذه القدرة ضئيلة الأهمية وتتحرك ببطء شديد وهي تشق طريقها إلى الأعلى.

وفي بعض الأحيان تسبب ألماً كبيراً أثناء صعودها... ويُحدث هذا الصعود حرارة عالية. فيتصبب الإنسان عرقاً. وبعد القيام ببعض الممارسات، تتحرك القدرة صعوداً في الحال، لتعود مِن جديد، إلى ضفيرة الحوض. وقد دعيت حركتها هذه بقدرة الحية. ولما كانت هذه القدرة الواعية تقع عند أسفل قاعدة العمود الفقري، فإن حكماء السرانية يعترفون بأن الأرض ـ التراب ترتاح على ذنب الحية. وعلى هذا الأساس، تتم عملية إيقاظ، وتنشيط فعالية مركز الطاقة نتيجة لإحياء هذه القدرة الهادفة إلى تنمية مراكز الطاقة وتطويرها. وهكذا، تمتد مراكز الطاقة، التي هي مجرد نقاط في المحور المركزي ـ العمود الفقري ـ للجسد، إلى كامل الجسد الفيزيقي. وعندئذٍ، تتحرك القدرة الواعية اللطيفة صعوداً وهبوطاً على طول خطوط القوى العديدة في الجسد. ومتى اكتملت النعمة، تبدأ القدرة الواعية في العبور إلى الأجساد اللطيفة مؤسسة علاقاتها واتصالاتها مع الجسد الفيزيقي. ومتى تمت هذه العملية، تتصل الأجساد كلها وتتداخل على طول مراكز الطاقة، وتنصهر مع بعضها. وفي هذه الحالة، تتخلّل الألوهة الجسد في اللحظة التي تمتصها المراكز وتستغرق فيها.

فهرس

المبدأ الكلي

فهرس

المادة والروح ـ تأليف جديد



وردت بعض الاخطاء اثناء الطباعة فعذراً من القارىء الكريم

الصفحة	الخطأ	الصواب
٣	المدأ الكلي	المبدأ الكلي
٧	لقاء الكمة	لقاء الحكمة



في الدراسات المتضمنة في الجزء الأول من هذا المجلد، يتحدث ندره اليازجي عن التحول الطارئ الذي هو حصيلة تطور الفيزياء الحديثة. وفي هذه الدراسات ذاتها، يوفق المؤلف بين التصورات العلمية المتطورة والحكمة القديمة. ويخلص إلى نتيجة هامة هي أن العلم الحديث يتجه في محاولة فهم العالم إلى اعتناق مبدأ الكلية والشمول، وإحلال الديناميكية محل المكانيكية، والتكامل محل التجزئة، وإقامة الدليل على وجود الوحدة في التنوع.

تتمثل الغاية التي هدف المؤلف إلى توضيحها في الجزء الثاني من هذا المجلد في تحقيق أو إحداث توفيق وتأليف بين الثنائية الظاهرية للروح والمادة. ويسعى المؤلف إلى إقامة البرهان على أن المادة والروح وجهان لحقيقة واحدة تتآلفان على مستوى كوكب الأرض، وأن التوحيد يكمن في تحقيق وحدتهما الجوهرية. وقد تحدث المؤلف عن مبدأ التكاملية أو الوحدة الضمنية التي تفعل في باطن الكائنات والأشياء. وفي هذا المنظور، أدرك أن الحياة هي العلاقة المتداخلة والمتبادلة بين الروح والمادة.

الناشر

المجلد الأول

رسائل في حضارة البؤس

رسائل في مبادئ الحياة

المجلد الثاني

تأملات في الحياة النفسية

دراسات في المثالية الإنسانية

المجلد الثالث

المبدأ الكلي

المادة والروح ـ تأليف جديد

مقالة في العقل والنفس والروح

المجلد الرابع

بحوث فلسفية

وحدة الفكر الإنساني

فلسفة الإنسان الثائر

المجلد الخامس

الاشتراكية ومفهوم العدالة

النقد الفلسفي للماركسية

المجلد السادس

رد على التوراة

رد على اليهودية واليهودية ـ المسيحية

دار الغربال